

مكتبة الدراسات الأدبية

٨

الدكتور يوسف خليف

الشعر الصعاليك

في العصر الجاهلي



دارالمعارف

الشَّعْرَاءُ الضَّعَالِيكُ
فِي الْعَصْرِ الْجَاهِلِي

مكتبة الدراسات الأدبية

٨

الشعر الصعاليك في العصر الجاهلي

تأليف

الدكتور يوسف خليف

الأستاذ المساعد في كلية الآداب بجامعة القاهرة

الطبعة الثالثة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة (ج.م.ع)

إلى ذكرى والديّ ، رحمهما الله ،
الذين تعهداني بالتنشئة والتوجيه
حتى وصلت إلى ما كنت أصبو إليه ،
أتقدم بهذه الثمرة الأولى من غرسهما .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

لا تكاد هذه الطبعة الجديدة تختلف عن الطبعة السابقة في شيء أساسي ، فلم أدخل عليها إلا تعديلات يسيرة لبعض العبارات ، وإضافات قليلة لبعض الشروح . وعلى الرغم من أن صلتى بموضوع « الصعاليك » لم تنقطع طوآل هذه السنين التي مضت على ظهور الكتاب ، فإن النتائج التي كنت قد انتهيت إليها في هذا البحث لم تتغير ، بل لقد زادتني هذه السنين إيماناً واقتناعاً بها . حتى المصادر التي أُتيحت لي الاطلاع عليها في هذه السنين ، ولم تكن الفرص قد أتاحت لي الاطلاع عليها من قبل ، لم تُقدِّم لي جديداً يفيد البحث أو يُغيِّر من نتائجه .

وقد كنت تمنيتُ - وأنا أُعيد هذا البحث - لو أُتيحت لي فرصة الاطلاع على ديوان تأبط شراً الذي جمعه ابنُ جنِّي ، والذي يذكر بروكلمان أنه مخطوط في الإسكوريال . ثم أُتيحت لي في الأيام الأخيرة فرصة الاطلاع على هذا المخطوط ، فلم أجده ديواناً لتأبط شراً ولا شبهة ديوان ، وإنما هو مختارات قليلة اختارها ابنُ جنِّي من ديوان تأبط شراً الذي كان موجوداً عنده كما يذكر صاحب الخزائن ، وهي مختارات لم أجده فيها جديداً أضيفه إلى البحث .

على أنني أريد هنا أن أؤكد - بصفة خاصة - فكرة « كشر الجدل حولها » في هذه السنين ، وهي فكرة « اشتراكية الصعاليك » التي أدّرت حولها بحثي ، وفُسِّرت في ضوءها هذه الثورة الاجتماعية والاقتصادية التي شهدتها المجتمع الجاهلي ، وخاصة عند عروة بن الورد الذي تراءى لي داعية من دعاة

الاشتراكية في هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الإنسانية . فقد ذهب بعض الباحثين إلى أنني تعسّفتُ في تفسير الشعر الجاهلي هذا التفسير الاقتصادي ، وأني حَمَلْتُ النصوص والأخبار القديمة ما تشوّءُ به من مصطلحات حديثة ترتبط في أذهان الناس بمفاهيم خاصة لم يعرفها العصر الجاهلي ، ولم تندُرْ في حِلْمَد هؤلاء الشعراء القدماء .

وأنا لم أزعمُ أن ثورة الصعاليك في العصر الجاهلي كانت ثورة اشتراكية قائمة على أساس المذهب الاشتراكي كما تعرفه مجتمعاتنا المعاصرة ، فمثّلُ هذا التفسير يُعَدُّ — بدون شك — تعسّفاً لا يتفق مع المنهجية الجامعية ، فما من شك في أن هناك فروقاً جوهرية بين الاتجاهين سواء في الفلسفة النظرية أو في التطبيق العملي . وإنما الذي ذهبتُ إليه هو أن في شعر الصعاليك وأخبارهم ، وخاصة عُرْوَة بن الورد ، أفكاراً تتصل بمشكلة الفقر والغنى في المجتمع الجاهلي ، وتنادي بثورة المُسْتَضْعَفِينَ من فقراء هذا المجتمع والمضطهَدين فيه على طبقة المَالَةِ من الأغنياء المتخمين وخاصةً البخلاء منهم ، وأن هذه الثورة كانت تستهدف تحقيق صورة من صور العدالة الاجتماعية والتوازن الاقتصادي في هذا المجتمع . وإذا كانت هذه الأفكار لم تأخذ شكلَ نظرية علمية دقيقة ، أو شكل فلسفة اقتصادية متكاملة ، وإذا كان التطبيقُ العمليُّ لهذه الأفكار سلكاً أسلوباً فردياً أقرب إلى الفوضوية منه إلى أساليب التنفيذ العملي المنظم في الاشتراكية الحديثة ، فإن هذا كله لا يمنع من القول بأن هذه الأفكار كانت تنطوي على إحساس عميق بمشكلات المجتمع الاقتصادية ، ومحاولة جادة لحلها ، وأن هذا — بدون شك — كان يمثل صراعاً بين طبقة الفقراء ممثلة في هؤلاء الصعاليك العاملين ، وطبقة المَالَةِ ممثلة في هؤلاء الأغنياء البخلاء ، وهو صراع كان يضمُّ في أعماقه برّاعيم لم تتفتح تماماً من النظرية الاشتراكية الحديثة .

وما من شك في أن الصعلكة عند عروة بالذات كانت — كما قلتُ في

هذا البحث - « نزعة إنسانية ذيلة ، وضريبة يدفعها القوي للضعيف ، والغنى للفقير ، وفكرة اشتراكية تُشركُ الفقراء في مال الأغنياء ، وتجعلُ لهم فيه نصيباً ، بل حقاً يغتصبونه إن لم يؤدّ لهم » .

وبعد ، فكل ما أطمعُ فيه أن أكون قد نجحتُ في إنصاف هؤلاء الصعاليك ، ووضعهم في مكانهم الطبيعي في تاريخنا العربي الخالد ، وأن أكون قد لفتُ أنظار الباحثين إلى أن في تراثنا القديم جوانبَ تحتاج إلى إعادة النظر فيها في أضواء جديدة .

والله نسأل أن يجنبنا الخطأ ، ويعصمنا من الزلل .

يوسف خليف

القاهرة في مايو ١٩٦٦

مقدمة الطبعة الأولى

١

ليست دراسة العصر الجاهلي بالمسألة اليسيرة القريبة المنال ، وإنما هي مسألة غامضة ومتشعبة وصعبة .

أما غموضها فيرجع إلى طبيعة العصر نفسه ، فهو عصر يمتد القهقري من ظهور الإسلام إلى حيث لا ندرى ، أو هو تلك الفترة الغامضة من فترات التاريخ العربى التى يصح أن نطلق عليها « عصر ما قبل التاريخ العربى » ، على أساس أن التاريخ العربى فى صورته الدقيقة الثابتة إنما يبدأ منذ ظهور الإسلام الذى جعل من العرب أمة واحدة ذات كيان متميز متماسك ، تسلك سبيلها فى التاريخ ، سبيلاً واضحة المعالم . فهو عصر أكثر فتراته ضائعة مجهولة ، وأقلها مشكوك فيها ، وحسبنا أن نقول إننا لا نكاد نعرف عنه شيئاً منذ بدايته إلى ما قبل ظهور الإسلام بحوالى قرن ونصف قرن ، وإنما هى طائفة من الأساطير والأقاصيص ، إن تكن ذات قيمة لطائفة من العلماء فإنها عديمة القيمة تقريباً للباحثين فى الأدب العربى . وحين تبدأ معلومات هذا العصر تصل إلينا يقف دون وضوحها أو الاطمئنان إليها أمران : فهى — من ناحية — تتحدث عن مجتمع بدوى بَعْدَ العهد به ، وهى — من ناحية أخرى — معلومات لم تدوّن إلا فى عصور متأخرة ، وظلت شفاه الرواة تتناقلها حتى دوت ، بعد أن دخلها — بطبيعة الحال — شىء قليل أو كثير من التحريف والضياع والانتحال . ومن هنا نشأت فكرة الشك فيما وصل إلينا من أخبار ونصوص عن هذا العصر . ومن هنا أيضاً وُجدت فكرة الغموض : غموض العصر الذى لا نستطيع تمثله التمثيل الدقيق الواضح ، وغموض المعلومات التى لا نستطيع الاطمئنان إليها اطمئناناً تاماً .

وهي مسألة متشعبة، لأنها تتصل بمجتمع رَعَوِي - في مجموعه - لم يعرف الاستقرار . ومن هنا لم تتعرف ظواهره الاجتماعية الاستقرار الذي يسر على الباحث دراستها دراسة دقيقة كاملة . ثم هو - إلى جانب هذا - مجتمع يدين بالحرية الفردية إلى أبعد حد ، لم يعرف - إلا في بعض أجزائه - النظام السياسي الذي يهيئ للباحث تحديد جوانب دراسته : لأنه يقف أمام طائفة من الظواهر الفردية تتعدد بتعدد الأفراد أو الجماعات التي هي في حكم الأفراد ، فلم تكن الجماعات التي عرفها المجتمع الجاهلي سوى مجموعات من الأفراد تدين بالحرية الفردية ، وإن تكن حرية حاول أصحابها - تحقيقاً لصورة ما من صور الجماعة - أن يلونوها بلون جماعى .

ثم هي مسألة - بعد هذا وذاك - صعبة ، لأنها غامضة ومتشعبة . ولكنى مع ذلك - ولا أدري لماذا ؟ - مفتون بهذا العصر الجاهلي فتنة ترجع إلى عهد بعيد ، وكل ما أتمناه أن تتحول هذه الفتنة إلى إيجابية فعالة تُحطِّم من هذه الصخرة العاتية ، صخرة هذا العصر .

٢

من هذه الزاوية من زوايا النظر لم أحاول - حين فكرت في دراسة العصر الجاهلي - أن أقف منه موقفاً عاماً شاملاً ، أو أن أنظر إليه من عكس نظرة مُشْرِفة واسعة الأفق ، وإنما حاولت أن أتخير - خطوة أولى لدراسته - جانباً من جوانبه أقف عنده وقفة عميقة ، وأنظر إليه نظرة معمّنة فاحصة ، حتى لا تضل دراستى بين شعاب الصحراء الفسيحة المترامية الممتدة إلى ما وراء مطارح البصر .

وشغلتنى مهمة الاختيار هذه فترة من الزمن ، كنت في أثنائها أستعرض الجوانب المتعددة لهذا العصر ، وكلها يستحق الدرس والبحث . ثم قفز إلى ذهني موضوع « الصعاليك » ، وأخذت أسهمه في الصعود .

قفز هذا الموضوع إلى ذهني لأنه موضوع لم يُعَنَّ به الباحثون من قبل ، ولم يقفوا عنده ، ولم يشغلوا أنفسهم به ، وأخذت أسهمه في الصعود لما كنت أشعر به من أهميته ، وطرافته ، وتحديدته ، وتمثيله ظاهرة متميزة من ظواهر العصر الجاهلي .

ويقف موضوع الصعاليك في تاريخ الأدب العربي كذلك المراقب الشَّمَّ الشاعخة التي أطال في الحديث عنها شعراؤهم ، والتي لم يكن أحد غيرهم يستطيع أو حتى يجرؤ على الصعود إليها ، يحوم حوله الباحثون ثم يتجنبون المغامرة باقتحامه ، أو ينظرون إليه نظرة خاطفة دون إقدام على الاقتراب منه ، مع اعترافهم بأنه موضوع في حاجة إلى البحث والدرس ، كأنه منطقة خطيرة من تلك المناطق التي كان الصعاليك يمارسون فيها نشاطهم الدامي الرهيب ، وكأنما كُتب على هؤلاء الصعاليك الذين لم يلقوا من مجتمعهم عناية أو اهتماماً في حياتهم أن تظل اللعنة تلاحقهم طوال تلك القرون المتعاقبة بعدهم ، وكأنما كتب على هؤلاء المشردين في آفاق الأرض أن يظلوا مشردين في أعماق الكتب والأسفار .

وفي أذهان الناس عن الصعاليك صورة غامضة غير مشرقة ، تكسوها ظلال قائمة تحجب كثيراً من معالمها وخطوطها ، وتغشّيها سحب دُكُن تخفي وراءها كثيراً من النور والضياء ، وينقصها كثيرٌ من الأضواء الكاشفة تعجلو عنها ظلالها القائمة ، وتبعد عنها سحبها الدكن ، حتى يبين ما يحتجب خلفها من معالم وخطوط وأضواء .

ومهمتي في هذا البحث أن أحاول تجلية هذه الظلال ، وإزاحة هذه السحب ، حتى يستبين ما وراءها ، وتبدو الصورة على حقيقتها واضحة مشرقة .

وقد كان أساس المنهج لبحث هذا الموضوع أن أبدأ غير متأثر برأى أحد من الباحثين ، فآثرت في أول الأمر أن لا أقرأ شيئاً عنه لأحد من الباحثين ، ومضيت إلى أخبار الصعاليك وأشعارهم في مصادرها الأصلية الأولى في محاولة جاهلة لتكوين رأى لي ، وانقضت سنوات وأنا سعيد بصحبة هؤلاء « الفتيان » — كما كان يحلو لهم أن يسموا أنفسهم — أقرأ وأدون ، وأتأمل وأفكر ، وأحدد خطوط الصورة ، وأنقب عن معالمها ، حتى إذا ما كونت لنفسى رأياً في الموضوع ، وأخذت خطوط الصورة ومعالمها تتضح لي ، مضيت أبحث عن دراسات الباحثين فيه ، فراعني أني لم أجده أحداً قبلي قد عني بدراسته دراسة شاملة متخصصة ، وإنما كل ما عثرت عليه طائفة من المقالات تترجم لجماعة من الشعراء الصعاليك ، أو بعض الأبحاث السريعة في هذا الموضوع ترسم الخطوط العامة له ، حتى إن « دائرة المعارف الإسلامية » — على ضخامتها وسعتها ، وكثرة موادها ، وتعدد القائمين بها — لم تعرض لهذا الموضوع على الإطلاق ، وإنما كل ما فعلته أنها ترجمت لطائفة قليلة من شعرائه ، هم عروة والشنفرى وتأبط شراً .

ونظرت فإذا على أن أدرس جانبين : حياة هؤلاء الصعاليك كما تتمثل في أخبارهم وأشعارهم لأستخلص منها الجوانب المختلفة لظاهرة الصعلكة ، ثم شعرهم من حيث هو نتاجهم الفني المعبر عن آرائهم وأفكارهم لأستخلص منه هذه الآراء والأفكار ، ولأسجل في ضوءه الظواهر الفنية التي تميز فهم . وهكذا انقسم البحث إلى قسمين أساسيين : دراسة للظاهرة ، ودراسة للشعر .

ثم نظرت فإذا القسم الأول مغمض في الغموض ، فما معنى الصعلكة ؟ وما تعريف الصعلوك ؟ وهل يتفق المفهوم اللغوي لها مع ما عرفه المجتمع الجاهلي عنها ؟ فرأيت أن أفرد فصلاً للتعريف بهذه الظاهرة ، عرضت فيه للتعريف

اللغوى للمادة ، ثم عرضت هذا التعريف على النصوص الأدبية التي وردت فيها ، حتى أدرك إلى أى مدى ينطبق عليها ، وأدركت أن هذا التعريف اللغوى لا يكفى لفهم هذه الظاهرة ، فكان لابد من المضى إلى المجتمع الجاهلى أتلتمس فى أخبار صعايلكه وأشعارهم جوانبها المختلفة ، ومعالمها المميزة لها .

ثم وقفت أمام هذه الظاهرة وتساءلت : ما السر فى نشأتها ؟ وما العوامل التى أدت إلى ظهورها ؟ ورأيت أن أمضى إلى علم النفس الاجتماعى أسأله تفسيراً لها ، فدرست المجتمع ، والتوافق الاجتماعى ، و « اللاتوافق » ، وعُقدَ النقص ، ودرست الفقر ، والمشكلات الاقتصادية ، والمذاهب المختلفة التى حاولت أن تجد لهذه المشكلات حلاً ، وانتفعت بكل هذه الدراسات فى تكوين فكرة عن هذه الظاهرة ، ، وانتهيت إلى أن هناك ثلاثة عوامل عملت فى نشأتها وتطورها : عامل جغرافى ، وعامل اجتماعى ، وعامل اقتصادى . فضيت إلى المجتمع الجاهلى أدرس فيه هذه الجوانب الثلاثة على هذا الأساس ، ورأيت أن أفرد فصلاً لكل منها ، ولم أفرد للتفسير النفسى فصلاً خاصاً لأنه عامل مشترك بين كل هذه العوامل . وهكذا كان الباب الأول فى أربعة فصول .

ثم مضيت إلى مجموعة شعر الصعايلك التى بذلت جهداً كبيراً فى جمعها من مصادر متعددة ، ورأيت لزماً على أن أعرض - قبل كل شئ - لتلك المصادر المتعددة التى اعتمدت عليها فى جمع ما يصح أن نسميه « ديوان الصعايلك » ، وتلك المصادر الأخرى التى لم تصل إلينا إلا أسماؤها ، إما لأنها فقدت ، وإما لأنها ليست بين أيدينا . كما رأيت من الضرورى أن أعرض لمدى صحة ما ترويه المجموعة الأولى من المصادر من شعر الصعايلك ، حتى أنتهى إلى رأى فيما يشور حوله من شك فى بعض نصوصه ، وأفردت لهذه المقدمات الفنية الفصل الأول من الباب الثانى .

ثم نظرت فى مجموعة شعر الصعايلك ، ورأيت أن أفرد فصلاً لموضوعاته ، سواء ما كان منها « داخل دائرة الصعلكة » ، وما كان منها « خارج هذه

الدائرة » ، فكان الفصل الثانى من هذا الباب .

ثم مضيت إلى هذا الشعر أدرس ظواهره الفنية من حيث طبيعة العمل الفنى وخصائصه ، ومن حيث لغته وأوزانه ، وأفردت لهذه الدراسة الفصل الثالث من هذا الباب .

ثم رأيت أن أقدم - أخيراً - دراسة مستقلة لشاعر من الصعاليك يكون نموذجاً لهم ، أطبق عليه ما وصلت إليه فى أثناء البحث من نتائج ، ولكنى رأيت أن أسمى شخصيتين متميزتين اجتماعياً وفنياً : شخصية الصعلوك الزعيم التى يمثلها عروة بن الورد ، وشخصية الصعلوك العامل التى اخترت الشنفرى مثلاً لها ، وقد اخترت الشنفرى بالذات لأن له ديواناً بين أيدينا مما يجعل التوازن قائماً بينه وبين عروة ، وله هو أيضاً ديوان بين أيدينا . وأفردت للدراسة هذين الشاعرين فصلاً مستقلاً هو الفصل الأخير من هذا البحث .

ومهما يكن من شأن هذه الدراسة فإنى حريص على أن أسجل أن كل ما وصلت إليه فيها من نتائج لا يمكن أن يكون الكلمة الأخيرة فى الموضوع ، فالكلمة الأخيرة فى العلم مستحيلة ، ولا يمكن أن أدعى أنى وصلت بها إلى درجة الكمال ، فالكمال لله وحده ، وإنما كل ما أستطيع أن أقوله هو أن نتائج هذه الدراسة ليست سوى نتائج لما وصل إلى - أو وصلت إليه - من مادة لا أشك فى أن وراءها مادة أخرى لم تصل إلى ، ومن الممكن أن تغير قليلاً أو كثيراً من هذه النتائج .

٤

أما الفترة التى اخترتها لدراسة هذا الموضوع ، والتى حددتها بالعصر الجاهلى ، فإنى لا أقصد بها تلك الفترة المحددة التى سبقت ظهور الإسلام فحسب ، وإنما يمتد العصر الجاهلى عندى - وأعنى به العصر الجاهلى الأدبى - حتى يشمل فترة المخضمين ، فإن هؤلاء المخضمين لا يمثلون عناصر جديدة فى

الحياة الأدبية الإسلامية ، وإنما هم امتداد للحياة الأدبية الجاهلية التي اكتملت ملكاتهم الفنية في ظلها . أما العصر الأدبي الإسلامي فإنما يبدأ بأولئك الشعراء الذين لم يدركوا العصر الجاهلي ، وبدأ تَكُونُ ملكاتهم الفنية في ظل الإسلام . ومن هنا كنت أرى أن العصر الجاهلي الأدبي ليس محددًا بفترة زمنية ينتهي بانتهائها ليبدأ بعدها العصر الأدبي الإسلامي ، ولكنه محدد بحياة أولئك نفر من الشعراء المخضرمين ينتهي بالنسبة لكل منهم بانتهاء حياته . وليس معنى هذا أنني أنفي أن هؤلاء المخضرمين قد تأثرت حياتهم الأدبية بالإسلام ، فمن المؤكد أنها تأثرت به ، ولكن من المؤكد أيضاً أن هذا التأثير يمثل مرحلة من مراحل تطورهم الأدبي ، ولكنه لا يمثل مرحلة من مراحل تكوينهم الأدبي .

* * *

وبعد، فهذا هو الموضوع الذي أقدمت على دراسته ، وأنا أعرف أنها مغامرة كتلك المغامرات التي كان يقدم عليها فتيان الصعاليك ، ولكني أنشد مع الشنفرى « ومن يَغْزُ يَغْزُ مرة وَيُشَمَّتِ » ، فإن تكن الأولى فما توفيقى إلا بالله ، وإلا فحسبى إعداراً لنفسي أنها مغامرة أقدمت عليها ، ولأنشد مع أبي الصعاليك عروة بن الورد « ومُبْلَغُ نفسٍ عُذْرَها مثل مُنْجِحِ » . والله يهدينا سواء السبيل .

البَابُ الْأَوَّلُ

الصَّعَالِيكُ

الفصل الأول

التعريف بالصعلكة

١

في اللغة :

في لسان العرب ^(١) : « الصُّعلوك : الفقير الذي لا مال له ، زاد الأزهري ولا اعتماد . وقد تصعلك الرجل إذا كان كذلك . قال حاتم الطائي :
غَنِينَا زَمَانًا بِالتَّصْعَلِكِ وَالْغِنَى فَكَلَّا سَقَانَاهُ بِكَأْسِيهِمَا الدَّهْرُ
أَي عَشْنَا زَمَانًا .

وتَصَعَّلَكَ الْإِبِلُ : خرجت أوبارها ، وانجردت ، وطرحتها .

ورجل مصعلك الرأس : ملوره .

ورجل مصعلك الرأس : صغيره ، وأنشد :

يَخِيلُ فِي الْمَرْعى لَهْنٌ بِشَخْصِهِ مُصْعَلِكُ أَعْلَى قُلَّةِ الرَّأْسِ نِقْنَقُ
وقال شمر : المصعلك من الأسنمة : الذي كأنما حَذَرَجَتْ أَعْلَاهُ حِدْرَجَةً ،
كأنما صعلكت أسفله بيدك ، ثم مطلته صُعْدًا أي رفعته على تلك الدملكة ،
وتلك الاستدارة ^(٢) .

وقال الأصمعي في قول أبي دؤاد يصف خيلا :

قَدْ تَصَعَّلَكُنْ فِي الرَّبِيعِ وَقَدَرَهُ رَعَّ جِلْدُ الْفَرَائِضِ الْأَقْدَامُ
قال : تصعلكن : دققن ، وطار عفاؤها عنها ، والفريضة : موضع قدم الفارس .
وقال شمر : تصعلكت الإبل إذا دقت قوائمها من السمن ، وصعلكها
البقل .

(١) مادة (صعلك) .

(٢) حدرج : قتل وأحكم . والدملكة : الاستدارة والملاسة والقتل .

وصعلك الثريدة : جعل لها رأساً ، وقيل : رفع رأسها .

والتصعلك : الفقر .

وصعاليك العرب : ذؤبانها . وكان عروة بن الورد يسمى عروة الصعاليك ، لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنم .

من هذا النص اللغوي الذي سجله ابن منظور في لسان العرب ، والذي سجل مثله غيره من علماء اللغة في معاجمهم ، نستطيع أن نتبين أصلاً عاماً للمادة تشترك فيه معانيها المختلفة ، وتدور حوله ، وهو - عندى - الضمور والانجراد^(١) . ونستطيع في سهولة ويسر أن نرد كل معاني المادة إلى هذا الأصل العام :

فالإبل تتصعلك إذا انجردت أوبارها وطرحها .

والخيل تتصعلك إذا دقت وطار عفاؤها عنها .

والبقل يصعلك الإبل أى يسمنها ، وهذا السَّمَن يجعلها تطرح أوبارها وتتجرد منها .

والمصعلك من الأسنة الذى يبدو كأنما فلتت أعلاه وأضممرته .

وهو يصعلك الثريدة أى يجعل لها رأساً ، أو يرفع رأسها ، كأنما أضممر أعلاها .

وهو مُصَعِّلُك الرأس أى صغيره وضامره .

وهو يتصعلك أى يفتقر كأنما تجرد من ماله ، وبدا ضامراً بين الناس .

فالصعلكة إذن - فى مفهومها اللغوى - الفقر الذى يجرد الإنسان من

(١) نحن فى هذا نخالف ابن دريد فيما يذهب إليه من أن « أصل الصعلكة الفقر » (انظر جمهرة اللغة : باب ما جاء على « فعلول » ٣/٣٨٣ - وانظر أيضاً الاشتقاق / ١٧٠) ، ورى أن الفقر ليس أصلاً للمادة ، ولكنه الطور المعنوى فى معناها الذى يأتى بعد الطور الحسى . ويؤيدنا فيما ذهب إليه ما يراه ابن فارس من أن « الصداد والعين واللام أصيل يدل على صغر وانجراد » (انظر مقاييس اللغة ٢/٢٨٦) ، وهذه الحروف الثلاثة هى أصل مادة « صعلك » ، وبين المادتين تشابه فى معانيهما ، فالصعل : الصغير الرأس من الرجال والنعام ، وجمار صعل أى ذاهب الورى .

ماله ، ويظهره ضامراً هزيراً بين أولئك الأغنياء المترفين الذين أتخمهم المال وسمنهم .

ولكن يبدو أن هذا المعنى لا يعبر عن المفهوم اللغوي للكلمة تعبيراً دقيقاً كاملاً ، ولهذا نريد أن نقف وقفة أخرى عند تلك الزيادة التي أضافها الأزهري إلى هذا المعنى اللغوي ، وهي قوله « ولا اعتماد » ، لنرى ماذا يستفيد المعنى منها ؟ وإلى أي مدى تحدد هذا المعنى وتكمله ؟ والمعنى اللغوي لهذه العبارة واضح ، فاعتمد على الشيء : توكأ أو اتكأ عليه ، واعتمد عليه في كذا : اتكل عليه ^(١) . وعلى هذا نستطيع أن نقول إن الصعلوك في اللغة هو الفقير الذي لا مال له يستعين به على أعباء الحياة ، ولا اعتماد له على شيء أو أحد يتكىء عليه أو يتكل عليه ليشق طريقه فيها ، ويعينه عليها ، حتى يسلك سبيله كما يسلكه سائر البشر الذين يتعاونون على الحياة ، ويواجهون مشكلاتها يداً واحدة . أو هو — بعبارة أخرى — الفقير الذي يواجه الحياة وحيداً ، وقد جردته من وسائل العيش فيها ، وسلبته كل ما يستطيع أن يعتمد عليه في مواجهة مشكلاتها . فالمسألة إذن ليست فقراً فحسب ، ولكنها فقر يغلق أبواب الحياة في وجه صاحبه ، ويسد مسالكها أمامه .

هذا هو التعريف اللغوي للكلمة كما نراه في ضوء هذه المحاولة اللغوية لفهم المادة . ونريد — بعد هذا — أن نتبع هذه المادة في الاستعمال الأدبي القديم في العصر الذي ندرسه لنرى كيف دارت فيه ؟ وإلى أي مدى يطابق هذا الاستعمال معناها اللغوي كما سجله علماء اللغة أو يختلف عنه ؟

في الاستعمال الأدبي :

تتردد هذه المادة في أخبار العصر الجاهلي وشعره بصورة واسعة ، وتقابلنا كثيراً على ألسنة شعرائه ورواة أخباره ، فتراها أحياناً تدور في هذه الدائرة اللغوية التي تحدثنا عنها ، على نحو ما نرى في بيت حاتم الطائي الذي يتخذ منه اللغويون موضوعاً للاستشهاد على المعنى اللغوي للكلمة ، فالمقابلة في هذا البيت بين التصعلك والغنى تدل في وضوح لا لبس فيه على أنه يستعمل التصعلك في معنى الفقر ، وهو استعمال يؤيده ذكر الفقر في البيت التالي مرادفاً للتصعلك :

فما زادنا بغياً على ذي قرابة غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر
ونراها أحياناً أخرى ترد في بعض المواضع ، ولكن مفهومها الذي يتفق مع السياق لا يتفق تماماً مع مفهومها اللغوي .
فهذا عمرو بن برّاقة الهمداني يغير على إبله ونخيله رجل من مراد ، فيذهب بها ، فيأتي عمرو فيغير على المرادى فيستاق كل شيء له ، ويقول :

تقولُ سليمي : لا تعرّض لتلفّة وليك عن ليل الصعاليك نائم
وكيف ينامُ الليل منْ جُلُّ ماله حسامٌ كلون الملح أبيضُ صارمٌ
ألمْ تعلمي أن الصعاليك نومهم قليلٌ إذا نام الخلى المسالم^(١)
فمن الواضح أن جو القصة وسياق الأبيات لا يدلان على أن الصعاليك هنا هم الفقراء ، وإلا فما معنى هذه النصيحة التي توجهها إلى الشاعر صاحبه بألا يعرض نفسه للتلف مع هؤلاء الصعاليك الذين ينام ليله عن ليلهم ؟ وما سر المقابلة بين قلة نومهم ونوم « الخلى المسالم » ؟ وما دخل المسألة التي يتحدث عنها الشاعر في حديث عن الفقر والغنى ؟ من الواضح أن الصعاليك

(١) القال : الأماك ١٢١/٢ - ١٢٣ ، والأغاني ١٧٥/٢١ .

هنا ليسوا هم أولئك الفقراء المعدمين الذين يقنعون بفقرهم ، أو يستجلدون الناس ما يسدون به رمقهم ، وإنما هم أولئك المشاغبون المغيرون أبناء الليل الذين يسهرون لياليهم في النهب والسلب والإغارة بينما ينعم الحليون المترفون المسلمون بالنوم والراحة والهدوء . فالكلمة إذن قد خرجت من الدائرة اللغوية ، دائرة الفقر ، إلى دائرة أخرى أوسع منها هي دائرة الغزو والإغارة للنهب والسلب .

وفي أخبار امرئ القيس أنه غزا بني أسد ثائراً بأبيه ، « وقد جمع جمعاً من حِمَير وغيرهم من ذؤبان العرب وصعاليكها »^(١) . ونهم أنفسهم بالسذاجة لو تصورنا امرأ القيس وقد خرج لثأر أبيه الملك يجمع جمعاً من فقراء العرب المعدمين ، فما أهمية الفقر في معركة من معارك الثأر ؟ وما الذي يحمل امرأ القيس على أن يجمع حوله جمعاً من الفقراء ليغزو بهم بني أسد ؟ من الواضح أن هؤلاء الفقراء الذين استعان بهم امرؤ القيس في إدراك ثأره لابد أن تكون حياتهم الاجتماعية قد تطورت تطوراً خاصاً جعلهم يصلحون للقيام بتلك المهمة الضخمة التي طلبهم إليها ، وهو تطور نحس شيئاً من سماته ومظاهره في هذا الربط بينهم وبين الذؤبان ، فلا بد أن هؤلاء الفقراء كان بينهم وبين الذئاب تشابه في أسلوب الحياة أو أسلوب العيش أو طبيعة الشخصية .

ويشبه هذا ما ورد في أخبار عدي بن زيد من أن النعمان بن المنذر حبسه حتى مات ، فأراد ابنه زيد أن يثأر له من النعمان ، فدبر مكيدة يوغر بها صدر كسرى عليه حتى يقتله ، وتراعى خبر المكيدة إلى سمع النعمان ، ففر من كسرى ولبأ إلى قبائل العرب ، ولكن أحداً لم يجرؤ على إجارته ، فقال له سيد من بني شيبان في حديث طويل معه : « فامض إلى صاحبك ، فإمّا أن صفح عنك فعدت ملكاً عزيزاً ، وإمّا أن أصابك فالموت خير لك من أن يتلعب بك صعاليك العرب ، ويتخطفك ذئابها ، وتأكل مالك »^(٢) . فمن الواضح أن الصعاليك هنا ليسوا هم الفقراء ، ولكنهم طوائف من قطاع

(١) البغدادى : خزنة الأدب ٥٣٢/٣ .

(٢) الأغاني ١٢٦/٢ ، والبغدادى : خزنة الأدب ١٨٥/١ - ١٨٦ .

الطرق كانوا منتشرين في أرجاء الجزيرة العربية ، ينهبون من يلقونه في صحرائها الموحشة الرهيبة ، ويتلاعبون به ، ويتخطفونه ، ويأكلون ماله ، على حد ألفاظ ذلك السيد العربي الذي كان - ولا شك - يعرف جيداً طبيعة الدور الذي يقوم به هؤلاء الصعاليك على مسرح البادية العربية ، وهو دور تعبر عنه تعبيراً دقيقاً هذه الألفاظ .

ولمى جانب هذا نلاحظ أن بعض المصادر العربية تذكر طائفة من الأسماء على أنهم « صعاليك العرب »^(١) ، أو تقص أخباراً عن صعاليك بعض القبائل^(٢) ، أو تصف بعض الشعراء بأنهم من « صعاليك العرب »^(٣) ، بل نلاحظ أن صاحب الأغاني يقول في تقديمه للسُّلَيْك بن السُّلَيْمَة : « وهو أحد صعاليك العرب . . . وأخبارهم تذكر على توأليها هاهنا ، إن شاء الله تعالى ، في أشعار لم يُغنى فيها ، لتصل أحاديثهم »^(٤) ، مما يشعر بأن هؤلاء الصعاليك كانوا يكونون طبقة متميزة من طبقات المجتمع الجاهلي جعلت أبا الفرج يحرص على أن يذكر أخبارهم على توأليها حتى تصل أحاديثهم ، على حد تعبيره .

وأظن أننا نستطيع بعد هذه الجولة أن نقف لنسجل أن مادة « صعلك » تدور في دائرتين : إحداهما « الدائرة اللغوية » التي تدل فيها على معنى الفقر ، وما يتصل به من حرمان في الحياة ، وضيق في أسباب العيش ، والأخرى نستطيع أن نطلق عليها « الدائرة الاجتماعية » ، وفيها نرى المادة تتطور لتدل على صفات خاصة تتصل بالوضع الاجتماعي للفرد في مجتمعه ، وبالأسلوب

(١) انظر على سبيل المثال : رسائل الخوارزمي / ١٤١ ، ١٤٢ ، والدبلي : الفلاكة والمفلوكين / ١١٩ .

(٢) انظر على سبيل المثال : الأغاني ٢١٥/١٨ ، ٢٠/٢٠ ، والبغدادى : خزانة الأدب ٤٠٥/٢ .

(٣) انظر على سبيل المثال : الأغاني ٧٣/٢ ، ٤٩/١٢ (يولاق) ، ٣٣/١٨ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٤ .

(٤) الأغاني ١٣٣/١٨ .

الذى يسلكه في الحياة لتغيير هذا الوضع . وهذه الصفات هي بعض ما نحاول تبينه في هذا البحث .

وتسأل بعد هذا : ألم يلتفت اللغويون إلى هذا المعنى الاجتماعي ؟ ونعود مرة أخرى إلى النصوص اللغوية نستفتيها ، وتلفت نظرنا تلك العبارة الغامضة التي يذكرها بعض اللغويين في ختام تعريفاتهم ، وهي قولهم « وصعاليك العرب ذؤبانها » . وتسأل مرة أخرى : ماذا يعني اللغويون بذؤبان العرب ؟ ونمضي إلى مادة « ذاب » نسأل اللغويين عن معنى « ذؤبان العرب » ، فإذا هم يحيلوننا مرة أخرى على « صعاليك العرب » . ففي الصحاح « وذؤبان العرب أيضاً صعاليكها الذين يتلصصون » ، وفي القاموس المحيط « وذؤبان العرب لصوصهم وصعاليكهم » ، وفي أساس البلاغة « وهم من ذؤبان العرب : من صعاليكهم وشطّارهم » ، وفي النهاية لابن الأثير « يقال لصعاليك العرب ولصوصها ذؤبان لأنهم كالذئاب » .

وهكذا كادت المسألة أن تكون دوراً - كما يقول المنطقة - لولا هذه الزيادات القليلة التي أضافها هؤلاء اللغويون إلى تعريفاتهم . ومن هذه الزيادات عرفنا أن هؤلاء الصعاليك كانوا « يتلصصون »^(١) ، وأنهم كانوا « شطاراً »^(٢) ، كما عرفنا أنهم سموا هكذا لأنهم كانوا كالذئاب . ومع ذلك فما زلنا نشعر بأن هذه الزيادات لم تتقدم بنا كثيراً في داخل هذه « الدائرة الاجتماعية » ، وأن علماء اللغة يحومون حول هذه الدائرة دون أن ينفذوا إلى داخلها ، مع إحساسهم أن هناك شيئاً آخر غير الفقر في مفهوم المادة ، وهو هذا الذي حاولوا أن

(١) في تاج العروس (مادة لص) « وهو يتلصص - كما في الصحاح وفي الأساس - إذا تكررت سرقته » .

(٢) في لسان العرب (مادة شطر) « وشطر عن أهله . . . زح عنهم ، وتركهم مراغماً أو مخافاً ، وأعيامهم خبثاً ، والشاطر مأخوذ منه » . وفي أساس البلاغة (المادة نفسها) « وفلان شاطر : خليع » . ومن الأشياء التي تلفت النظر أن الخليع من أسماء الذئب أيضاً (انظر لسان العرب : مادة خلع) ، وأن الذئب يشبه في الشعر الجاهل أحياناً بالخليع ، وفي معلقة امرئ القيس « به الذئب يعوى كالخليع المعيل » ، وهو من شعر تأبط شراً بدون شك عندي .

يفسروه بذلك الربط بين الصعاليك والذؤبان .

ولكننا لا نريد أن ننهي من هذا البحث اللغوي دون أن نشير إلى أن أبا زيد القرشي ، صاحب جمهرة أشعار العرب ، قد تنبه إلى أن هناك جانبين لهذه المادة ، واستطاع أن يميز بينهما تمييزاً دقيقاً واضحاً حيث يقول ^(١) : « الصعلوك الفقير ، وهو أيضاً المتجرد للغارات » ، وهذا التعبير عن مفهوم المادة الاجتماعية بالتجرد للغارات يجعلنا نسجل لهذا العالم المتقدم على أصحاب المعاجم التي بين أيدينا أنه كان أدق من عرف معنى الصعلوك .

وهنا نقف لتساءل : ماذا فهمنا عن صعاليك العرب ؟

أغلب الظن أننا لم نصل إلى أشياء كثيرة ، وأتينا ما زلنا في بداية الطريق الطويل نتحسس خطواتنا في الظلام تحت أضواء النجوم الخافتة ، وأن شوطاً بعيداً ما يزال ينتظرنا حتى مطلع الفجر . ويبدو أنه لا بد لنا من أن نخصي إلى مصادر الأدب العربي نساءها : ما أخبار هؤلاء الصعاليك ؟ وأين شعر شعرائهم الذي صوروا فيه حياتهم ؟ لعلنا نجد فيها وفيه ما نستطيع به أن نرسم صورة أشد وضوحاً لهذه الطبقة من طبقات المجتمع الجاهلي .

٣

في المجتمع الجاهلي :

حين نرجع إلى أخبار هؤلاء الصعاليك نجدها حافلة بالحديث عن فقرهم ، فكل الصعاليك فقراء ، لا نستثنى منهم أحداً ، حتى عروة بن الورد سيد الصعاليك الذي كانوا يلجئون إليه كلما قست عليهم الحياة ، ليجدوا عنده مأوى لهم حتى يستغنوا ، فالرواة يذكرون أنه « كان صعلوكاً فقيراً مثلهم » ^(٢) ، وأخوه وابن عمه يقولان له — حين عرض عليه أهل امرأته التي أصابها في بعض

(١) جمهرة أشعار العرب / ١١٥ .

(٢) التبريزي : شرح حماسة أبي تمام ٩/٢ .

غزواته أن يفتلوهما - « والله لئن قبلت ما أعطوك لا تفنقر أبداً »^(١) ، بل أكثر من هذا يذكر الرواة أنه جاء بامرأته إلى بني النضير « ولا شيء معه إلا هي ، فرهنها ، ولم يزل يشرب حتى غلقت »^(٢) . وتكثر في شعره أحاديث فقره ، وما يعانيه من حرمان ، وما يتكبد في سبيل الغنى من جهد ومشقة ، وما يشعر به من ثقل التبعة التي يتحملها إزاء أهله ، وإزاء أصحابه الصعاليك أيضاً :

ذريني للغنى أسعى ، فإنى رأيت الناس شرهم الفقير^(٣)
 فسر في بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتعذراً^(٤)
 ومن يك مثلى ذا عيال ومقتراً من المال بطرح نفسه كل مطرح^(٥)
 وهذا الفقر الذى استبد بحياة الصعاليك حمل لهم في ركابه الجوع ، نتيجة طبيعية له ، ولعل الجوع أقسى ما يحمله الفقر إلى جسد الفقير ، وقد سئل أعرابي : ما أشد الأشياء ؟ فقال : كبد جائعة تؤدي إلى أمعاء ضيقة^(٦) . وليس من شك في أن هذه العبارة الساذجة التي صور فيها هذا الأعرابي إحساسه إنما تشير إلى قصة الحياة الأساسية ، قصة الصراع بين الحياة والموت . وذلك لأن المسألة تتصل بحاجات الجسم الحيوية الأولى ، فالجوع - كما يقرر علماء الاجتماع - أول الدوافع المسيطرة على حياة الإنسان^(٧) . وقد كان من العرب من يغير من أجل الحصول على الطعام^(٨) ، بل إن كثيراً من الصراع الداخلي

(١) الأغاني ٧٧/٣ .

(٢) المصدر نفسه / ٣٨ - وغلقت الرهن في يد المرتين : استحلته ، وذلك إذا لم يقدر الراهن على اقتكاكه في الوقت المشروط .

(٣) ديوانه / ١٩٨ .

(٤) ديوانه / ١٩١ .

(٥) ديوانه / ٩٩ .

(٦) البيهقي : المحاسن والمساوى . ٣٠١ .

(٧) Groves; Personality and Social Adjustment, p. 27.

(٨) ابن دريد : الاشتقاق / ٢٤٦ .

بين القبائل الجاهلية إنما يرجع - من بعض جوانبه - إلى الفقر والجوع^(١) ، وما أكل ضباب الصحراء ويراييها وأورالها سوى مظهر من مظاهر هذا الجوع القاتل الذي كان يعانيه عرب البادية حين يجذبون وتتابع عليهم السنين ، وما كان قتل بعض العرب أولادهم خشية إملاق سوى مظهر آخر من مظاهر هذا الجوع القاتل^(٢) .

ويكثر الحديث عن الجوع في أخبار الصعاليك وشعرهم ، ففي أخبار عروة أن ناساً من بني عيس أجذبوا « في سنة أصابتهم ، فأهلكت أموالهم ، وأصابهم جوع شديد وبؤس » ، فأثوا عروة يستنجدون به ، فخرج « ليغزو بهم ويصيب معاشاً »^(٣) . وتنتشر في شعره وأخباره مناقشات بينه وبين صعاليكه حول الجوع الذي كان يجهدهم في غزواتهم^(٤) . ويذكر الرواة أن أبا خيرا ش الهنلي أقفر من الزاد أياماً^(٥) . ويحدثنا السليك بن السلكة في بعض شعره كيف كان يغمى عليه من الجوع في شهور الصيف حتى يشرف على الموت والهلاك :

وما نلتها حتى تصعلكت حقية وكدت لأسباب المنية أعرف
وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرتني إذا قمت تغشاني ظلال فأسديف^(٦)
ويتحدث الأعمى الهنلي عن أولاده الشعث الصغار الذين ينظرون إلى من يأتيهم من أقاربهم بشيء يأكلونه :

وذكرت أهلي بالعرا وحاجة الشعث التوالب

(١) انظر حديث الأصبغى في الأغاني ١٤ / ٣٩ .

(٢) في القرآن الكريم : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » (سورة الإسراء - آية ٣١) - وانظر أيضاً سورة الأنعام - آية ١٥١ .

(٣) الأغاني ٨١/٣ ، ٨٢ .

(٤) انظر على سبيل المثال شرح ديوانه لابن السكيت / ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٥) الأغاني ٦٠/٢١ .

(٦) الأغاني ١٣٥/١٨ - وأسدف الرجل : أظلمت عيناه من الجوع .

المُضْرِمِينَ من التَّلَا د اللامحين إلى الأقارب^(١)
 بل إن الجوع ليشند بعروة فيهتف بأصحابه الصعاليك هتفة من لا يطيق
 عليه صبراً أن هلموا إلى الغزو ، فللموت خير من حياة الجوع والهزال :
 أقيموا بني لبتى صُدُورَ ركابكم فإن منايا القوم خيرٌ من الهزل^(٢)
 وفي لامية العرب التي تُعد صورة دقيقة كاملة لحياة الصعاليك في العصر
 الجاهلي حتى على فرض انتحالها وعدم صحة نسبتها إلى الشنفرى ، يرسم الشاعر
 صورة رائعة لذلك الجوع النبيل الذي يشعر به الصعلوك ، ولكن نفسه الآبية
 تأتي عليه أن يهينها من أجله ، فلا يجد أمامه سوى الصبر والقناعة :

أديمُ مطالَ الجوع حتى أميته وأضربُ عنه الذكرَ صفحاً فاذْهَلْ
 وأستفُ تُرَبَّ الأرض كي لا يرى له على من الطولُ امرؤٌ متطولُ
 ولولا اجتنابُ الدّام لم يبقَ مشربُ يعاش به إلا لَدَيَّ ومأكَلُ
 ولكنَّ نفساً حرة لا تُقيمُ بي على الضيمِ إلا ريثما أتحوّلُ
 وأطوى على الخمصِ الحوايا كما انطوت خيوطه ماري تُغارُ ونفتلُ
 وأغدو على القوت الزهيد كما غدا أزلُ تهاداهُ التناثفُ أطحلُ^(٣)
 وإذا كان الجوع أفسى ما يصبه الفقر من سياط على جسد الفقير فإن
 هناك سياطاً أخرى لا تقل قسوة عن سياط الجوع ، ولكنها سياط نفسية يصيبها
 الفقر على نفس الفقير .

والحديث عن هذه السياط النفسية حديث يطول ، لأنها تختلف باختلاف

(١) شرح أشعار الهذليين ٥٨/١ - والتوالب : الجعاش ، ويريد بهم أبناءه الصغار .
 والمصرم : الفقير .

(٢) ديوانه / ١٠٦ .

(٣) القتلى : النوادر / ٢٠٤ - والمطال : المأطلة . الطول : المن . الدّام : العيب .
 الخمص : ضمور البطن أو الجوع . الحوايا : الأمعاء . ماري : اسم رجل أو اسم للقاتل .
 تغار : تحكم . الأزل : خفيف الوركين ، صفة للذئب . التناثف : جمع تنوفة ، وهي المفازة .
 الأطحل : الذي لونه بين النبرة والبياض .

النفسيات ووقع الفقر عليها . وقد حاول صاحب « الفلاكة والمفلوكين »^(١) أن يحصرها ، فعقد في كتابه فصلا طويلا « في الآفات التي تنشأ من الفلاكة ، وتستلزمها الفلاكة وتقتضيها »^(٢) ، وعد منها الآلام العقلية ، وهو تعبير يرادف ما نعبّر عنه بالآثار النفسية ، وحصرها في ثلاثة أنواع ، وحاول أن يدلّل على هذا التقسيم الثلاثي تدليلا عقليا منطقيا تكثرفيه الحدود والأقسام والمقدمات والنتائج . ولكن هذه المحاولة — من وجهة النظر العلمية الحديثة — غير دقيقة ، فإن هذه الآثار النفسية ليس من اليسير حصرها ، فليست المسألة مسألة منطقية تقبل القسمة العقلية ، ولكنها مسألة نفسية تتصل بالنفس البشرية ، تلك النفس الغامضة الممعة في الغموض ذات السرايب العميقة ، والأسرار الدفينة المكبوتة . ويحاول علماء النفس المحدثون دراسة هذه المسألة وأشباهاها على أساس ما يسمونه « بالعقد النفسية » ، ومن بين هذه العقد عقدة يسمونها « عقدة الفقر » ، وهي تلك التي تتكون نتيجة للإحساس بالفقر ، وتدفع صاحبها في محاولة التعويض عن الشعور بالنقص إلى العمل على أن يصير غنيا^(٣) . فهذه العقدة هي المحور الذي تدور حوله تلك الآثار النفسية التي يخلفها الفقر في نفس الفقير .

والتأمل في أخبار الصعاليك وأشعارهم يلفت نظره شعور حاد بالفقر ، وإحساس مرير بوقعه على نفوسهم ، وشكوى صارخة من هوان منزلتهم الاجتماعية وعدم تقدير المجتمع لهم ، وعجزهم عن الأخذ بنصيبيهم من الحياة كما يأخذ سائر أفراد مجتمعهم ، أو الوقوف معهم على قدم المساواة في معترك الحياة ، لا لأنهم هم أنفسهم عاجزون ، وإنما لأن مجتمعهم ظلمهم ، وحرّمهم من تلك العدالة الاجتماعية التي يطمح إليها كل فرد في مجتمعه ، وجرّدهم من كل الوسائل

(١) شهاب الدين الدبلي ، وقد عقد الفصل الأول من كتابه في تحقيق معنى المفلوك ، وقال فيه : « هذه اللفظة تلفيظاها من أفاضل العجم ، ويريدون بها بشهادة مواقع الاستعمال الرجل الغير المخطوط المهمل في الناس لإملاقه وفقره » (ص ٢) ، فهي تقرب من كلمة « الصملوك » في دائرتها اللغوية .

(٢) انظر الفصل الرابع ، ص ١٤ وما بعدها .

(٣) Groves; Personality and Social Adjustment, p. 291. (٣)

المشروعة التي يواجهون بها الحياة كما يواجهها غيرهم من توافرت لهم هذه الوسائل .
فقيس بن الخدّ أدبىة^(١) يرى أنه لا يساوى عند قومه «عترأ جرباء جند ماء»^(٢)
وفي أخبار الشنفرى أن قومه قتلوا رجلا في خفرة بعض الفهميين ، «فرهنوهم
الشنفرى وأمه وأخاه ، وأسلموهم ، ولم يقدوهم»^(٣) ، وخبر تلك اللطمة التي
لطمها الفتاة السّلامية للشنفرى ، والتي كانت السبب المباشر في تصعلكه ،
لأنها أنكرت عليه أن يتسامى إلى مقامها الاجتماعي ، ويرفع الحواجز الاجتماعية
التي تفصل بين طبقتيهما ، ويناديهما بأخته ، خبر كبير الدلالة على ما كان
يعانيه هؤلاء الصعاليك من مجتمعهم^(٤) .

وينظر هؤلاء الفقراء الجياع ، المحقرّون من مجتمعهم ، المنبوذون من
إخوانهم في الإنسانية ، إلى الحياة ليشقوا لهم طريقاً في زحمتها ، وقد جُردوا
من كل وسائلها المشروعة ، فلا يجدون أمامهم إلا أمرين : إما أن يقبلوا
هذه الحياة الذليلة المهينة التي يحويها على هامش المجتمع ، في أطرافه البعيدة ،
خلف أديار البيوت ، يخدمون الأغنياء ، أو ينتظرون فضل ثرائهم ، أو
يستجدونهم في ذلة واستكانة ، وإما أن يشقوا طريقهم بالقوة نحو حياة كريمة
أبية ، يفرضون فيها أنفسهم على مجتمعهم ، وينتزعون لقمة العيش من أيدي
من حرمهم منها ، دون أن يبالوا في سبيل غايتهم أكانت وسائلهم مشروعة
أم غير مشروعة ، فالحق للقوة ، والغاية تبرر الوسيلة .

(١) اختلفوا في ضبط اسم أمه بين كسر الحاء وضمها : أما ابن دريد فهي عنده بالضم
(الاشتقاق / ٢٧٧) ، وكذلك ابن عبد ربه (العقد الفريد ٣/ ٣٨٢) ، ولكنها عند السمعاني
في الأنساب بالكسر ، أما المرزباني فإنه يذكر الضبطين فيقول «والخدّ أدبىة أمه ،
وهي من بني حداد من كنانة ، وقوم يحملونها من حداد محارب ، وحداد بالضم من كنانة ، وحداد
بالكسر من محارب» (معجم الشعراء / ٢٢٥) . وهكذا يتضح أن الاختلاف في ضبط الاسم
راجع إلى الاختلاف في القبيلة التي تنتسب إليها أم الشاعر ، وهي عند ابن حبيب وأبي الفرج
من محارب ، وعند ابن الأعرابي من كنانة (من نسب إلى أمه من الشعراء / ٦ ، والأغاني
٢/ ١٢ - بولاق) .

(٢) انظر الأغاني ٨/ ١٣ (بولاق) .

(٣) ابن الأنباري : شرح المفضليات / ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٤) انظر المصدر السابق / ١٩٥ ، ١٩٦ ، والأغاني ١٣٤/ ٢١ وما بعدها .

وقد سلك الصعاليك السيلين ، أو - بعبارة أدق - انقسموا مع هذين السيلين إلى طائفتين : طائفة قبلت ذلك الوضع الاجتماعي الذليل ، رضي به لم ضعف في النفس أو ضعف في الجسد أو ضعف في النفس والجسد جميعاً ، وطائفة رفضت ذلك الوضع ، وأبت أن تعيش تلك الحياة الساقطة التافهة المهينة ، ووجدت في القوة ، قوة النفس وقوة الجسد ، وسيلة تشق بها طريقها في الحياة .

وفي شعر عروة موازنة لطريقة بين هاتين الطائفتين ، يعقدها أبو الصعاليك في دقة وبراعة ، ويصور فيها اختلاف ما بينهما في الشخصية ، وأسلوب الحياة والغاية التي تنتهي إليها كل منهما^(١) .

وتتجلى قوة نفوس هذه الطائفة الثانية من الصعاليك في استهانتهم بالحياة في سبيل الوصول إلى الغاية التي يسعون إليها . إنهم يريدون أن يحققوا لهم مكانة في هذا المجتمع الذي يحقرهم ويستهن بهم عن طريق فرض أنفسهم بالقوة عليه ، وهم في سبيل هذا لا يبالون بشيء ، حتى بالحياة نفسها ، فهم جميعاً مؤمنون بفكرة الفناء في سبيل المبدأ ، وما قيمة الحياة إذا عاش الإنسان فقيراً محقرًا ، منبوذاً من مجتمعه ، مجفواً من أقاربه ؟ إن الموت في هذه الحالة خير من الحياة :
 إذا المرء لم يَبْعَثْ سَوَاماً ولم يَرْحُ عليه ، ولم تعطف عليه أقاربه
 فللموت خير للفتى من حياته فقيراً ، ومن مولى تدب عقاربه^(٢)
 فقلت له : ألا أخى وأنت حر مستشبع في حياتك أو تموت^(٣)
 فسر في بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا^(٤)

(١) انظر أبياته الرائية « لما الله صعلوكاً » في ديوانه / ٧٣ - ٨٢ . وجبهة أشعار العرب / ١١٥ . والأصعيات / ٢٩ ، ٣٠ . وانظر ص ٣٢٩ من هذا البحث .

(٢) عروة أيضاً (انظر ديوانه / ١٥٠ ، ١٥١) - والبيتان يروهما أبو تمام في حاسته لأبي التشناس ، وهو لص من تميم إسلامي ، مع اختلاف في الألفاظ (انظر الحامسة / ١٦٦ ، ١٦٧) .

(٣) عروة : ديوانه / ١٦٦ .

(٤) عروة أيضاً : ديوانه / ١٩١ .

وفيم الخشية من الموت ؟ إن كل حي ملاقيه ، سواء مَنَّ خاطر بنفسه ومن أحجم ، بل إن الموت قد يصيب المتخلف في أهله وينجو منه المغامر المخاطر :
أرى أم حسان الفسادة تلومني تخوفني الأعداء ، والنفس أخوفُ
لعسل الذي خوفتنا مِنُ أماننا يصادفـه في أهله المتخلف^(١)
ومهما يمد الله في عمر الإنسان فالموت في انتظاره مُشْرَعَةٌ أَسْتَه :

وإني ، وإن عُمُرت ، أعلم أنني سألقى منان الموت يبرق أضلعا^(٢)
فالموت نهاية كل حي ، لن ينجو منه أحد مهما يحط نفسه بأبواب قوية
وحراس أشداء :

لو كنتُ في رِيْمَانٍ تحرُّسُ بابـه أراجيلُ أخبوشٍ وأغضفُ آلفُ
إذن لأتني حيثُ كنتُ منيتي يخبُّ بها هاد بأمري قائفُ^(٣)
وهي ميتة واحدة يلقاها الإنسان ثم لا تتكرر :

دعيني ، وقولي بعدُ ما شئتَ ، إنني سيُغْدَى بنعشي مرةً فأغيبُ^(٤)
ثم ما الذي يغري الصعلوك على التمسك بالحياة والحرص عليها ؟ إن أحداً
لا يرغب في حياته ، وإن أحداً لن يبكي عليه بعد موته . إنه يعيش وحيداً ،
ويموت وحيداً :

إذا ما أتتني ميتتي لم أبالها ولم تُذِرْ خالاتي الدموعَ وعمتي^(٥)
وصعاليك هذه الطائفة جميعاً ذوو عزيمة قوية صادقة ، لا يشبههم شيء

(١) عروة أيضاً : ديوانه / ٩١ .

(٢) تأبط شراً : الأغاني ٢١٧/١٨ .

(٣) أبو الطمسان القتيبي : الأغاني ١٣٢/١١ (بولاق) - ريمان : حصن باليمن . وأراجيل : جمع راجل . وأخبوش : الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة . . والأغضف : الكلب المسترعى الأذن . والآلف : المستأنس بمن يحرسهم ، من الإلف .

(٤) الشنفرى : الأغاني ٢١٦/١٨ - وديوانه / ٣٢ .

(٥) الشنفرى أيضاً : الأغاني ١٣٩/٢١ - والمفضليات / ٢٠٦ .

عن هدفهم الذى يسعون إليه إلا الموت ، يقول تأبط شرّاً مصوراً صادق عزيمته وقوة نفسه :

وكنْتُ إذا ما هممتُ اعتزمتُ وأُخِر إذا قلتُ أنْ أفعلاً^(١)
وإذا كانت الحياة قد قست عليهم فإنهم لن يستكينوا لها ، وإذا كانت
تعمل على إخضاعهم وإذلالهم فإنهم سيقفون في وجهها ، ويتحدونها ، ويشنون
عليها حرباً لا هوادة فيها ، وإذا كانت قد أَلقت بهم في الرغام فإنهم سينهضون
برغم كل شيء . ولعل هذا البيت الذى قاله أبو خراش الهذلى الصعلوك في رثاء
أخ له يعبر تعبيراً دقيقاً عن تلك القوة النفسية التى كان يتمتع بها كل صعلوك
من صعاليك هذه الطائفة :

ولكنه قد نازعته مجاوعٌ على أنه ذو مرة صادق النهض^(٢)
هكذا كانت نفسية هؤلاء الصعاليك ، كل منهم « قد نازعته مجاوع » ،
ولكن كلاً منهم « ذو مرة صادق النهض » .

ومن عناصر قوتهم النفسية أنفهم من القيام بتلك الأعمال التى يصح
أن نطلق عليها « الأعمال الفرعية في المجتمع القبلى » ، وهى تلك التى كان
يقوم بها العبيد وأشباههم ، ويأنف السادة من القيام بها ، كخدمة الإبل
والقيام بأمرها^(٣) . ويصرح تأبط شرّاً بترفعه على هذه الأعمال الفرعية وبأنه
يأنف من القيام بها :

ولستُ بترعىً طويل عشاوة يؤنّفها مستأنف النبت مُبْهَل^(٤)

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ١٧٧ ، وحسانة ابن الشجرى / ٤٧ . ويذكر
De Goeje ناشر « الشعر والشعراء » في تعليقه على هذا البيت أن في بعض المخطوطات « فعلت »
مكان « اعتزمت » ، وهى عتلى أدق في تأدية المعنى .

(٢) حسانة أبى تمام ١٤٥/٢ ، وديوان الهذليين ١٥٨/٢ ، وفيه « مخاصم » مكان
« مجاوع » .

(٣) « العبد لا يحسن الكر ، وإنما يحسن الخلاب والصر » (عنبرة : الأغاني ٢٣٩/٨) ،
وفي شعر السليك إشارة إلى قيام العبيد والإماء برعى الإبل (الأغاني ١٨/١٣٤) .

(٤) لسان العرب : مادة (رعى) - الترعى : الذى يجيد رعية الإبل ، أو من صناعته
وصناعة آبائه الرعى . ويؤنّفها : أى يتتبع بها أنف المرعى أى التى لم ترع . وأبْهَل إبلة : تركها مهملة .

ويصرح مرة أخرى بأنه ينجل من الوقوف وسط قطعان الغنم ، وقد حمل في يده عصا طويلة حتى أشبه ذلك الطائر المائي الطويل المنقار وقد وقف في مستنقع من مستنقعات المياه الضحلة :

ولست براعى ثلثة قام وسطها طويل العصا غرنيق ضحل مُرسِل^(١) فهم لا يرتضون لأنفسهم إلا تلك الأعمال الأساسية التي يقوم عليها المجتمع البدوي كالغزو والإغارة . يقول تأبط شراً :

متى تبغنى ما دمتُ حياً مسلماً تجدنى مع المُسترعِل المُتعبِهل^(٢) فمكانهم الذي يطلبونه لأنفسهم ليس وراء الإبل أو بين قطعان الغنم ، ولكنه في الطليعة المتقدمة بين القادة والأبطال .

ثم هم - برغم فقرهم وما يلاقونه من مجتمعهم - كرماء ، حتى يضرب بهم المثل في الكرم^(٣) ، ويُقَرَّن عروة بحاتم الطائي الذي يعد في نظر العرب المثل الأعلى للجدود والسخاء ، وقد قال عبد الملك بن مروان : من زعم أن حاتمًا أَسَمَحَ الناس فقد ظلم عروة بن الورد^(٤) ، وأبدى تعجبه من أن الناس ينسبون الجود والسخاء إلى حاتم ويظلمون عروة^(٥) ، ووصفه الأصمعي بأنه « شاعر كريم »^(٦) . والواقع أننا لسنا في حاجة إلى هذه الشهادات وأمثالها ، لأن أخبار عروة نفسها تفيض بأحاديث كرمه ، بل إن الرغبة في الكرم التي كانت تملأ عليه نفسه كانت بعض الدوافع التي دفعته إلى تلك الثورة الاقتصادية التي أعلنها في المجتمع الجاهلي :

(١) لسان العرب : مادة (رسل) - الثلثة : جماعة الغنم . والغرنيق : طائر مائي . ورجل مرسل : كثير الرسل أي اللبن .

(٢) لسان العرب : مادة (رعِل) ، ومادة (عهل) - المسترعِل : الذي ينهض في الرعيل الأول ، أو الخارج في الرعيل ، أو هو قائد الفرسان . والمتعبِهل : المستنقع الذي لا يمنع .

(٣) « كل صعلوك جواد » (الميداني : مجمع الأمثال ٢/ ٩٠) .

(٤) الأغاني ٣/ ٧٤ .

(٥) انظر ابن السكيت : شرح ديوان عروة / ١٩٠ .

(٦) الأصمعي : فحولة الشعراء (مخطوطة) ورقة رقم ٣ - والمرزبانى : الموشح / ٨٠ .

يُريح على الليل أضيافَ ماجد كريم ، ومالي سارحاً مالٌ مُقْتَرٍ^(١)
 أهلك معتمٌ وزيدٌ ولم أقم على نَدَبِ يوماً ولي نفسٌ مُخْطِرٍ^(٢)
 وهي تلك الثورة التي كانت تدفعه إلى مهاجمة الأغنياء البخلاء ليوزع
 ما يغنمه منهم على الفقراء الذين كانوا يلغون حوله ، ويلوذون به ، في سنى
 الجذب والقطط والجفاف^(٣) . وهو - قبل هذا كله - صاحب هذه الأبيات
 الحميلة التي يصور فيها كرمه تصويراً رائعاً على حظ كبير من الإنسانية ،
 فبراه مشاركة الفقراء له في إنائه ، واكتفاه هو بالماء الخالص في أيام الشتاء
 الباردة ليوفر لهم طعامهم ، بل يراه تقسماً لجسمه في أجسامهم حتى أصبح
 هزيراً شاحباً :

إني امرؤٌ عافٍ إنائيَ شرَكَةٌ وأنتَ امرؤٌ عافٍ إنائك واحدٌ
 أنهزأ مني أن سممتَ وقد ترى بجسمي مسَّ الحق ، والحقُّ جاهدٌ
 أقسم جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراحَ الماء ، والماء باردٌ^(٤)
 وتنتشر أحاديث هذا الكرم في شعره انتشاراً واسعاً^(٥) ، حتى لتكاد كل
 صفحة من ديوانه تنطق بهذه الأحاديث التي كان يراها :

أحاديث تبتى ، والفتى غيرُ خالد إذا هو أمسى هامة فوق صَبِيرٍ^(٦)
 وهي أحاديث كان كل صعلوك يحرص على أن تبتى له بعد موته . وفي
 قافية تأبط شراً المفضلية المشهورة دفاع قوى عن كرمه وإسرافه اللذين جرا عليه
 كثيراً من اللوم والعذل والتأنيب :

-
- (١) ديوانه / ٨٥ - والأصمعيات / ٣٠ .
 (٢) ديوانه / ٨٣ - والأصمعيات / ٣٠ .
 (٣) انظر الأغاني ٧٨/٣ - ٧٩ .
 (٤) ديوانه / ١٣٨ - ١٤١ .
 (٥) انظر على سبيل المثال ديوانه / ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٨٥ ، ٩٥ ،
 ٩٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٥٥ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٨١ .
 (٦) ديوانه / ٦٤ - ولسان العرب : مادة (صير) - والصير : القبر .

بل من لعدالة خذالة أشب
 يقول أهلك ما لا لو قنعت به
 حرق باللوم جلدي أي تحرق
 من ثوب صدق ومن بز وأعلاق
 عاذلي إن بعض اللوم معذفة
 وهل متاع ، وإن أبقيته ، باق^(١)

أما مادة هذا الكرم فهي - بطبيعة الحال - ما يغنمونه من غزواتهم في أرجاء الجزيرة العربية ، وغاراتهم على القبائل أو على القوافل التجارية أو على طبقة الأغنياء البخلاء . فقد كانت هذه الغنائم تتيح لهم فرصة - مهما تكن قصيرة - لكي يتشبهوا بالسلالة الأغنياء في البذل والعطاء واكتساب المحامد . وهكذا « كان الصعلوك ، فرع البرية ، يتقلب في أعقاب غزواته الناجحة سيداً كريماً نبيلاً ، يصف على المواعد الإبل التي نهبا ليطعم منها البتامي والأرامل »^(٢) . فالغزو والغارة والسلب والنهب ليست عندهم وسائل للغنى وجمع المال فحسب ، ولكنها أيضاً وسائل للبذل والعطاء ، واكتساب المحامد ، والتشبه بالسلالة الأغنياء في الكرم والجود . وإذا كانت هاتان الغايتان تتنازعان نفوس الصعاليك ، وتتجاذبانها كل إليهما ، على نحو ما نرى عند تأبط شرأ الذي يصرح في قافيته المفضلية بأن المال وسيلة للكرم ، ووسيلة « لتسديد الخلال » أيضاً^(٣) ، فإن الغاية الأخيرة وحدها كانت هي الغاية الأساسية عند عروة الذي خلصت نفسه تماماً من هذا التنازع وهذه المجاذبة :

دعيني أطوف في البلاد لعني
 أفيد غني فيه لدى الحق مَحْمِلُ
 أليس عظيماً أن تلم ملمة
 وليس علينا في الحقوق معول
 فإن نحن لم نملك دفاعاً بحادث
 تلم به الأيام فالموت أجمل^(٤)

(١) المفضليات / ١٨ - عدالة وخذالة للبالغة . والأشب : المخلط عليه المعترض . والأعلاق : الأشياء النفيسة .

(٢) Lammen; Le Berceau de l'Islam, vol. I, p. 190.

(٣) انظر المفضليات / ١٩ - الخلال : خصائص الفقر ، جمع غله .

(٤) ديوانه / ٢٠٦ .

فطلب الغنى عند عروة ليس هدفاً في ذاته ، ولكنه وسيلة للكرم وقضاء الحقوق والتشبه بالسادة .

وإلى جانب هذه القوة النفسية التي كان هؤلاء الصعاليك يمتازون بها كانوا يتمتعون أيضاً بحظ وافر من الشجاعة والجرأة وقوة الجسد .

وتفيض أخبارهم وأشعارهم بأحاديث هذه القوة ، كما تتردد هذه الأحاديث في أخبار معاصريهم وفي شعرهم أيضاً . يقول تأبط شراً مفتخراً بقوته : ^(١)

وما وَلَدَتْ أُمى من القوم عاجزاً ولا كان ريشى من ذُنَائى ولا لَغْبِ ^(٢)

ويصرح الشنفرى - فى اعتداد بنفسه - بأنه يقدم فى شجاعة وجرأة حيث يقف الجبان هلعاً جزوعاً :

إذا خشعت نفس الجبان وخِيَمَتْ ^(٣) فلى حيث يخشى أن يجاوز مِخْشَفُ ^(٤)

ويرسم عمرو بن معديكرب الفارس المشهور صورة للسليك بن السلكة يصفه فيها بأنه « كالليث يلحظ قائماً » ، وبأنه :

له هامة ما تَأْكُلُ البَيْضُ أُمَّهَا ^(٥) وأشباح عادى ^(٦) طويل الرواجب ^(٧)

ويرسم أبو كبير الهذلى فى أبيانه اللامية التى رواها أبو تمام فى حماسه ^(٨) صورة قوية لتأبط شراً ، يصور فيها قوته وصلابته وخفته ، وسرعة عدوه ، وجرأة قلبه ، وشدة مراسه ، ومضاء عزيمته ، وكيف أعدته الطبيعة منذ طفولته المبكرة ، بل من قبل طفولته ، ليكون قوياً يستطيع أن ينهض بالعبء الذى

(١) لسان العرب ، مادة (لغب) - الفذابي . ذنب الطائر أو منبت الذنب . والغلب : الريش الفاسد .

(٢) الأغاني ١٤١/٢١ ، وفى ديوانه / ٣٩ « وآب إذا أجرى الجبان وظنه » ولا معنى له - خيم : أقام حيث هو فلم يبرح ، أو جبن ونكص . والمخشف : الجرى على هول الليل ، وهو هنا صفة للقلب .

(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٦ ، ٢١٧ - أم كل شئ : أصله وعراده ، وأم الرأس : الدماغ أو الجلدة الرقيقة التى عليها . والبيضة : نخوة الحديد . وعادى : كأنه من قوم عاد . والرواجب : مفاصل الأصابع .

(٤) انظر ج ١ ص ٨٢ - ٨٩ .

مستلقيه الحياة على عاتقه فيما بعد ، ذلك العبء الثقيل الذي لا يستطيع أن ينهض به إلا من أعدته الطبيعة له إعداداً خاصاً ، وهي صورة متكاملة الجوانب ، دقيقة الخطوط ، واضحة الألوان ، يرسمها الشاعر لتأبط شراً ، ولكنها تصلح أيضاً لكل صعلوك من أولئك الصعاليك الأقوياء الذين روعوا الجزيرة العربية في عصرها الجاهلي ، وأثاروا في أرجائها الرعب والفرع .

وحقاً لقد كان هؤلاء الصعاليك فرعاً رهيباً في هذا المجتمع الجاهلي ، حتى لنسمع أن فارساً من فرسانه المعدودين ، وهو عمرو بن معد يكرب ، يصرح بأنه لا يخشى أحداً من فرسان العرب إلا أربعة ، أحدهم السليك ابن السلكة^(١) ، وأنه يستطيع وحده أن يحمي الظعينة ويحترق بها أعماق الصحراء ما لم يلقه واحد من هؤلاء الأربعة^(٢) . وحسب السليك أن يُقرن بعامر وعتيبة وعنزة ، وأن يخشى بأسه عمرو بن معد يكرب .

والواقع أن هذه الشجاعة الفائقة لم تكن مقصورة على صعلوك دون صعلوك ، وإنما كانت صفة يمتاز بها كل صعاليك هذه الطائفة ، حتى أصبح الصعلوك مثلاً يضرب في الشجاعة^(٣) . أما أولئك الصعاليك الذين عرفوا بالفرار فإنهم كانوا يبعدونه لوناً من ألوان قوتهم الجسدية ، لأنه المجال الذي يظهرون فيه شدة

(١) « ما أبالي من لقيت من فرسان العرب ما لم يلقني حراها وهجيناها » يعني بالحرين عامر بن الطفيل ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وبالعبدن عنزة ، والسليك بن السلكة . (الأغاني ٢٤٦/٨) .

(٢) « لو سرت بظعينة وحدي على مياه معد كلها ما خفت أن أغلب عليها ، ما لم يلقني حراها أو عبداها ، فأما الحران فعامر بن الطفيل ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وأما العبدان أسود بن عيسى (يعني عنزة) والسليك بن السلكة ، وكلهم قد لقيت ، فأما عامر بن الطفيل فسرير الطعن على الصوت ، وأما عتيبة فأول الخيل إذا أغارت وآخرها إذا آبت ، وأما عنزة فقليل الكبوة شديد الجلب ، وأما السليك فبعبدة الغارة كالليث الضاري » (الأغاني ٢٨/١٤) ، فشرح ابن الأنباري على المفضليات / ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، وانظر أيضاً أسامة بن منقذ : أعيان الأديب / ١٨١) .

(٣) « كان يقاتلهم بجنده مقاتلة الصعلوك » (من حديث لرسول المهلب يصف فيه للحجاج قتاله الخوارج - انظر المسعودي : مروج الذهب ١٤٨/٢) .

عدوهم ، كما كانوا يرون فيه وسيلة للنجاة حتى يستأنفوا القتال في ظروف أشد ملائمة لهم . يقول أبو خراش الهذلي الصعلوك :

فإن تزعمى أنى جينت فإتنى أفر وأرى مرة كل ذلك
أقاتل حتى لا أرى لي مقاتلاً وأنجو إذا ما خفت بعض المهالك^(١)

فهو يدافع عن فراره ، ويرى أنه ليس دليلاً على جبنه ، وإنما هو « خطة موضوعة » يضطر إليها حين يصبح القتال « مغامرة انتحارية » لا أمل فيها ، حتى ينجو من هلاك محقق ، فيستأنف القتال حين يصبح القتال أمراً مضمون العاقبة .

ومن أشد ما يلفت النظر من مظاهر هذه القوة الجسدية سرعة العدو الحارقة للعادة التي اشتهرت بها هذه الطائفة من الصعاليك ، حتى ليطلق عليهم أحياناً اسم « العدائين »^(٢) ، أو « الرجليين » أو « الرجلاء »^(٣) ، كأنما أصبحت سرعة العدو ظاهرة مميزة لهم ، وصفة ملازمة يعرفون بها . والمثل يضرب بجماعة منهم في سرعة العدو ، فيقال « أعدى من الشفري »^(٤) ، و « أعدى من السليك »^(٥) ، و « أمضى من سليك المقانب »^(٦) . وتصفهم مصادر الأدب

- (١) ديوان الهذليين ١٦٩/٢ - وحاسة الخالدين (مخطوطة) ورقة رقم ٢٩٧ .
(٢) انظر على سبيل المثال : الأغاني ١٣٣/١٨ ، ٢١٠ - والبغدادى : خزائن الأدب ١٧/٢ - والميداني : مجمع الأمثال ٤٣١/١ - والنيسابورى : لطائف المعارف (مصورة) لوحة رقم ٧٧ - وتاج العروس : مادة (شفر) ومادة (شفري) .
(٣) في تاج العروس (مادة رجل) « والرجلاء كغميصاء ، والرجليون محركة ، قوم كانوا يعدون » . وهما تسميتان ترددان كثيراً في مصادر الأدب العربى وفي كتب اللغة ، انظر على سبيل المثال ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٤ - والمرزبانى : معجم الشعراء / ٤٦٨ - والآملى : المؤتلف والمختلف / ٦٧ - والمبرد : نسب عدنان وقحطان / ٩ - وابن حبيب : المحرر / ٤٢٣ - وابن دريد : جمهرة اللغة ١٤٠/١ - وابن عبد ربه : العقد الفريد ٣٤٧/٣ .
(٤) الميداني : مجمع الأمثال ٤٣٠/١ - وتاج العروس : مادة (شفر) ومادة (شفري) .
(٥) المصدران السابقان : الميداني / ٤٣١ - والتاج : مادة (سلك) .
(٦) الميداني : مجمع الأمثال ٢٢٣/٢ - والأغاني ١٣٧/١٨ - وابن عبد ربه : العقد الفريد ٧٠/٣ - وابن دريد : جمهرة اللغة ٣٢٣/١ .

العربي بأنهم « أشد الناس عدوًّا »^(١) ، أو أنهم « لا يجارون عدوًّا »^(٢) ،
أو « لا يلتحقون »^(٣) ، أو يعدون عدوًّا يسبقون به الخيل^(٤) ، أو لا تعلق بهم
الخيل^(٥) ، أو لم تلحقهم الخيل^(٦) .

وتفيض هذه المصادر بأحاديث عدوهم وأخبار سرعتهم ، وتبالغ فيها مبالغة
تبدو أحياناً غير مقبولة ، فتأبط شراً « كان أعدى ذى رجلين وذى ساقين
وذى عينين ، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة ، فكان ينظر إلى الظباء ، فينتقى على
نظره أسنمها ، ثم يجرى خلفه ، فلا يفوته حتى يأخذه فيذبجه بسيفه ، ثم يشويه
فياكله »^(٧) . وفي أخبار حاجر الأزدي أن أباه قال له : « أخبرني يا بني بأشد
عدوك » ، قال : نعم ، أفرعتني خشم ، فزت نروات ، واستفرتني الخيل ،
واصطف لي ظبيان ، فجعلت أنهنهما بيدي عن الطريق لضيقه ، ومنعاني أن
أتجاوزهما في العدو لضيق الطريق ، حتى اتسع واتسعت بنا فسبقتهما »^(٨) . وفي أخبار
السليك أن بني كنانة قالوا له حين كبر : « إن رأيت أن تربنا بعض ما بقي من
إحضارك » ، فقال : اجمعوا لي أربعين شاباً ، وابغوني درعاً ثقيلة . فأخذها
فلبسها ، وخرج الشباب ، حتى إذا كان على رأس ميل أقبل يُحضر ، فلاث
العدو لوثاً ، واهتبصوا في جنبتيه فلم يصحبوه إلا قليلاً ، فجاء يحضر متبذراً حيث
لا يرونه ، وجاءت الدرع تخفق في عنقه كأنها خرقة »^(٩) . وفي أخبار
أبي خراش أنه دخل مكة « وللوليد بن المغيرة المخزومي فرسان يريد أن يرسلهما
في الحلببة » ، فقال للolid : ماتجعل لي إن سبقتهما ؟ قال : إن فعلت فهما لك ،

(١) الأغاني ١٨/١٣٤ - والنيسابوري : لطائف المعارف ، لوحة ٧٧ .

(٢) المرزبانى : معجم الشعراء / ٤٦٨ .

(٣) الأغاني ١٨/١٣٣ ، ٢٠/٢٠ .

(٤) الأغاني ١٢/٤٩ (بولاق) .

(٥) الأغاني ١٨/١٣٣ ، ١٣٤ - وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٤ .

(٦) البغدادى : خزانة الأدب ٢/١٦ .

(٧) الأغاني ١٨/٢١٠ .

(٨) الأغاني ١٢/٤٩ ، ٥٠ (بولاق) .

(٩) ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٤ - احتبسوا : أسرعوا أو بالغوا في العدو .

فأرسلا وعدا بينهما فسبقهما ، فأخذهما^(١) . ويذكر الرواة أن خطو الشنفرى
ذُرْع ليلة قُتِل ، « فوجد أول نزوة نزاها إحدى وعشرين خطوة ، والثانية
سبع عشرة خطوة ، والثالثة خمس عشرة خطوة »^(٢) . ومن الطريف أن يصف
تأبط شراً رفيقه في الصعلكة الشنفرى حين يعدو بأنه « قد طار »^(٣) ، أو يصف
عدو عمرو بن برّاقة بأنه « مثل الريح »^(٤) ، أو نسمعه يقسم بقوله « والذي
أعدو بطيره »^(٥) ، وهو قسم يستمد طرافته من ذكر الطير فيه ، وعقد صلة
بينها وبين عدوه ، كأنما أصبح الصعلوك يعدو بأجنحتها .

وفي كل مناسبة يردد هؤلاء الصعاليك في شعرهم أحاديث عدوهم وسرعتهم .
وهم يتحدثون عنهما دائماً في اعتداد وفخر كبيرين ، إذ يرون فيهما ميزة تفردوا
بها من بين سائر البشر ، ووسيلة تعينهم على الحياة ، وتيسر لهم سبل النجاة .
يقول تأبط شراً مفتخراً بسرعته التي أنجته من أعدائه وما أرسلوه خلفه من
خيل سريعة :

ليلة صاحوا وأغروا بي سرّاعهم	بالعيكتين لدى معدى ابن براق
كأنما حثحثوا حصاً قوادمه	أو أم خشف بنى شت وطباق
لا شيء أسرع منى ، ليس ذا عذر	وذا جناح بجانب الرّيد خفاق
حتى نجوت ولما ينزعوا سلبى	بواله من قبض الشد غيداق ^(٦)

(١) الأغاني ٥٧/٢١ .

(٢) البغدادى : خزائن الأدب ١٨/٢ .

(٣) ابن الأنبارى : شرح المفضليات / ٦ .

(٤) الأغاني ٢١٠/١٨ .

(٥) المصدر السابق / ٢١١ .

(٦) المفضليات / ٧ - ١١ . العيكتان : اسم موضع . حثحثوا : حركوا ، من الحث .
القوادم : ما يلى الرأس من ريش الجناحين ، والحص : التى تنأثر ريشها وتكسر ، وهذه دلالة
على السرعة والخفة ، وقوله « حصا قوادمه » يعنى الظلم . الخشف : ولد الظبية . الشت والطباق :
نبتان من نبت السراة . العذر : ما أقبل من شعر الناصية على الوجه ، ويعنى بنى عذر فرسا .
الرّيد : حرف الجبل الذى يشرف على الهواء . الواله : الذهاب العقل فليس يستبق من جهده
في عدوه شيئاً . القبيض : السريع . الشد : العدو . الغيداق : الكثير الواسع .

إنه سريع كالظلم أو الظبية ، بل إنه أسرع من كل شيء حتى الخيل
الحياة والطير الجارحة فوق قمم الجبال . ويصرح أبو خراش بأن سرعة عدوه هي
التي أنجته من موت محقق ، فلولاها لآمت امرأته ويتم ابنه :

تقول ابنتي لما رأتني عشيّة : سَلِمْتَ وما إن كدت بالأمس تسلم
ولولا دِرَاكُ الشد قاضت حيلتي تخيّر من خطاياها وهي أيم
فتقعد أو ترضى مكاني خليفةً وكاد خراش يومَ ذلك يَيْتَمُ^(١)
وفي لامية العرب صورة قوية لهذه السرعة نرى فيها الصعلوك يسبق القطا
الظامئة وهي تسرع إلى الماء :

وتشربُ أسارى القطا الكُدُرُ بعدما سَرَتْ قَرَباً أحشاؤها تتصلصلُ
هممتُ وهمتُ ، وابتدرنا ، وأسدلتُ وشمرُ مني فارطُ . متمهلُ
فوليتُ عنها وهي تكبو لعقره يباشره منها ذُقُونُ وحوصلُ^(٢)
إنها مباراة طريفة يقدمها لنا الشاعر بينه وبين القطا في الوصول إلى الماء ،
تنهى بفوزه عليها ، وإدراكه الماء قبلها ، بل لقد شرب وارتوى قبل أن تصل
هي ، فلما وصلت لم تجد إلا سؤراً تشربه من بعده .

ولعل أقوى صورة رسمها صعلوك هذه السرعة هي تلك الصورة التي رسمها
تأبط شراً ، والتي نرى فيها الصعلوك يسبق الريح بسرعه الفائقة :

وَيَسْبِقُ وَفَدَ الرِّيحَ مِنْ حَيْثُ يُنْتَحَى بِمُنْخَرِقٍ مِنْ شِدَّةِ الْمُتَدَارِكِ^(٣)
بل إن الأمر ليصل بحاجز الأزدي إلى أن يفدّي رجله بأمه وخالته ،
وماذا أفاد من أمه وخالته سوى تلك الحياة القاسية المحترقة التي جرتاها عليه
بلونهما الأسود ؟ أما رجلاه فهما كل شيء في حياته ، ولولاها لفقد الحياة

(١) ديوان الهذليين ١٤٨/٢ . والأغاني ٥٦/٢١ ، ٥٧ . وحياة الخالدين
(مخطوطة) ورقة رقم ٢٥ - قاضت : أقامت .

(٢) القالي : النوادر / ٢٠٥ - القرب : طلب الماء ليلاً . الأحناء : الجوانب .
تصلصل : تصوت . الفارط : المتقدم . المقر : مقام الساق من الحوض .

(٣) حياة أبي تمام ٤٨/١ - المنخرق : السريع . المتدارك : المتلاحق .

نفسها ، وإذا كانت أمه وخالته سبب ما يلاقيه في حياته فإن رجليه سبب إنقاذه مما يلاقيه فيها :

فَدَى لَكُمَا رَجُلِيَّ أُمِّي وَخَالَتِي بِسَعْيِكُمَا بَيْنَ الصَّغَا وَالْأَثَائِبِ^(١)
وعلى ما في أحاديث هذا العدو في أخبار الصعاليك وشعرهم من مبالغات يقف المرء عندها متسائلاً : أيمكن أن يكون هذا صحيحاً ؟ فإنها - على كل حال - تصور ظاهرة لاشك في حقيقتها المجردة ، وهي أن هؤلاء الصعاليك كانوا يمتازون بسرعة في العدو خارقة للعادة ، وهي سرعة لفتت أنظار الرواة فسجلوها بما فيها من مبالغات ، واستقرت في أذهان الناس فضربوا بها الأمثال ، ووجد فيها بعض الشعراء المتأخرين مادة يستغلونها في فهم ، ويستخدمونها في تشبيهاتهم وصورهم الفنية^(٢) .

وينظر هؤلاء الصعاليك الأقوياء إلى المجتمع الذي يعيشون فيه ، فإذا هو مجتمع ظالم ، وإذا توزيع الثروة فيه توزيع جائر مضطرب . إنه مجتمع لا يؤمن إلا بالمال ، ولكنه - مع ذلك - لا يحسن توزيع المال بين أفرادهِ ، فليس من العدل أن يكون لأحد أفرادهِ عدد ضخم من الإبل في حين لا يملك الآخر غير حبل يجره لا بعير فيه ، وما هذه الإبل التي يملكها هذا الفرد سوى إبل الله خلقها للناس جميعاً ، فهي ليست حقاً له وحده دون غيره من خلق الله في هذه الأرض^(٣) .

والعجيب من أمر هذا المجتمع أن بين من يعطيهم بغير حساب بخلاء

(١) الأغاني ٥٢/١٢ (بولاقي) - وحاجز من أغربة العرب سرى إليه السواد من أمه (تاج المروس ، مادة « غرب ») والأثائب : شجر ينبت في بطون الأودية .

(٢) انظر على سبيل المثال : وصف جران العمود للقوادة (ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٤٥٢/) ، ووصف البحترى للمفازة (ديوانه / ٧٣) ، ووصف ابن الرومي لشهر الصيام (ديوانه / ٧٧) .

(٣) وإني لأستحي لنفسي أن أرى أمر يجبل ليس فيه بعير وأن أسأل العبد القيم بعيره وبعران ربي في البسلاد كثير (الأحيمر السعدي في الشعر والشعراء / ٤٩٥) .

أشحاء لا ينتفع بهم أحد ، في حين يحرم فيمن يحرم كرماء لو أعطاهم لنفعوا بهم أفراد مجتمعهم الفقراء المحتاجين ، فهو يحرم هؤلاء الكرماء ما يكثره أولئك البخلاء ، ويحرمهم نتيجة لهذا فرصة التكافؤ الاجتماعي ومساواة إخوانهم في الإنسانية من الأغنياء الكرماء في شراء تلك الأحاديث الخالدة التي « تبقى والفني غير خالداً إذا هو أمسي هامة فوق صبير » كما كان يقول عروة .

ووقف هؤلاء الصعاليك أمام هذه المشكلة الخطيرة ، ولم يجدوا أمامهم - بسبب ظروف البيئة والمجتمع والمزاج الشخصي - من وسيلة يرضونها لأنفسهم إلا الاعتماد على القوة يغتصبون عن طريقها ما آمنوا بأنه حقهم المسلوب ، « والخلة تدعوا إلى السلة » - كما يقول المثل العربي^(١) ، فمضوا خلف أولئك الأغنياء المترفين ، وبخاصة البخلاء منهم ، وتربصوا بالقوافل التجارية التي تسيل بها شعاب الجزيرة العربية ، ينهبون ويسلبون ، ولا يتورعون عن قتل من يعترض طريقهم ، لأن المسألة أخذت في أذهانهم وضعاً ثنائياً لا ثالث له : إما حياة كريمة ، وإما ميتة كريمة ، أما أنصاف الحلول فشيء لا يؤمنون به . لقد آمن هؤلاء الصعاليك بأن « الحق للقوة » ، وأن الضعيف ضائع حقه في هذه الحياة ، ورأوا أمامهم أولئك الصعاليك الفقراء المستضعفين وما يلاقونه من ذل وضميم وهوان ، فرثوا لهم ، وآلوا على أنفسهم أن يثأروا لهم ممن استضعفهم ، وأن يفرضوا أنفسهم فرضاً على ذلك المجتمع الذي أذل إخوانهم الضعفاء .

هكذا رسم هؤلاء الصعاليك الأقوياء النفس والجسد خططهم من أجل الحياة أولاً ، ثم من أجل فرض أنفسهم على مجتمعهم الذي لا يعترف بهم ، وتحقيق صورة من صور العدالة الاجتماعية بين طبقات هذا المجتمع بعد ذلك ، وهي خطة تقوم على أساس « الغزو والإغارة للسلب والنهب » .

وأحاديث « الغزو والإغارة للسلب والنهب » تنتشر في أخبار هؤلاء الصعاليك وشعرهم انتشاراً واسعاً ، بل لعلها أكثر ما ينتشر في أخبارهم وشعرهم

(١) انظر القاموس المحيط ، مادة (خلل) .

من أحاديث ، حتى لتوشك أن تكون هي اللون البارز في لوحة حياتهم الاجتماعية والفنية .

ففي أخبار السليك أنه « أملق حتى لم يبق له شيء » ، فخرج على رجله رجاء أن يصيب غرة من بعض من يمر به فيذهب بإبله ، حتى أمسى في ليلة من ليالي الشتاء باردة مقمرة . فاشتمل الصّماء ، ثم نام . . . فبينما هو نائم إذ جثم رجل فقعد على جنبه فقال : استأسر ، وسأله السليك من يكون ، فقال له : « أنا رجل افتقرت ، فقلت لأخرجنّ فلا أرجع إلى أهلي حتى أستغنى ، فاتّيهم وأنا غني » ، فقال له السليك : انطلق معي ، فانطلقا معاً ، فوجدوا رجلاً قصته مثل قصتهما ، فاصطحبوا جميعاً ، حتى أتوا الجوف ، جوف مراد ، فلما أشرفوا عليه إذا فيه نَعَمٌ قد ملأ كل شيء من كثرته ، فهابوا أن يغيروا ، ولكن السليك دبر لهم حيلة « فأطردوا الإبل ، فذهبوا بها ، ولم يبلغ الصّريحُ الحى حتى فاتوهم بالإبل » (١) .

إنها قصة تصور لنا تلك الهوة الواسعة بين الطبقات في المجتمع الجاهلي : بين أولئك الذين « أملقوا حتى لم يبق لهم شيء » ، وأولئك الذين أترفوا حتى « ملأ نَعَمهم كل شيء من كثرته » ، وهي هوة كانت تدفع هؤلاء الصعاليك المعدمين للخروج إلى الصحراء من أجل اغتصاب رزقهم من أيدي أولئك المترفين ، وانتراع لقمة العيش من بين أنيابهم ، أو — بعبارة أخرى — كانت تدفعهم إلى « الغزو والإغارة للسلب والنهب » .

وفي أخبار تأبط شرّاً أنه خرج في « عدة من فهم » يريدون الغارة على أحد أحياء بجيلة . وتمت الغارة بقتل نفر من بجيلة ، ونهب إبل لهم . وساق الصعاليك الإبل حتى إذا كانوا « على يوم وليلة من بلادهم » تصدت لهم خشم طامعة فيما معهم ، ودار قتال بين الفريقين : صعاليك فهم العائدين بغنيمتهم ، ورجال خشم الطامعين فيها . وثبت الصعاليك — على قلتهم وكثرة خشم — وانتهى

(١) الأغاني ١٨/١٣٤ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٤ - ٢١٥ مع اختلاف يسير في ألفاظ القصة .

الصراع بأنهم خشم وتفرقها ، وانطلاق الصعاليك بغنيمتهم^(١) .
 في هذه القصة نرى صورة من حياة الصعاليك في المجتمع الجاهلي ،
 تلك الحياة التي كانت تقوم على « الغزو والإغارة للسلب والنهب » ، ومثلاً
 قوياً لذلك الصراع الدامي الذي كان الصعاليك يخوضون غماره في سبيل
 الحياة ، وهو صراع كانوا يخوضون غماره في شجاعة وقوة لأنهم كانوا يتمثلونه
 صراعاً بين الحياة والموت .

وفي أخبار عروة أنه كان - إذا أصابت الناس سنة شديدة - يجمع المرضى
 والضعفاء والمسنين من عشيرته ، « ثم يحفر لهم الأسراب ، ويكنف عليهم الكُنف ،
 ويكسبهم ، ومن قوى منهم إما مريض يبرأ من مرضه ، أو ضعيف تثوب
 قوته ، خرج به معه فأغار ، وجعل لأصحابه الباقيين في ذلك نصيباً . حتى إذا
 أنخصب الناس وألبنوا وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهله ، وقسم له نصيبه من
 غنيمة إن كانوا غنموها ، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى »^(٢) .

وفي أخباره أيضاً أنه « بلغه عن رجل من بني كنانة بن خزيمة أنه أبخل
 الناس وأكثرهم مالا ، فبعث عليه عيوناً فأتوه بخبره ، فشد على إبله فاستاقها ،
 ثم قسمها في قومه »^(٣) .

على هذا النحو كانت الصعلكة عند عروة نزعة إنسانية نبيلة ، وضريبة
 يدفعها القوى للضعيف ، والغنى للفقير ، وفكرة اشتراكية تشرك الفقراء في مال
 الأغنياء ، وتجعل لهم فيه نصيباً ، بل حقاً يختصونه إن لم يؤدّ لهم ، وتهدف إلى
 تحقيق لون من ألوان العدالة الاجتماعية ، والتوازن الاقتصادي بين طبقتي المجتمع
 المتباعتين : طبقة الأغنياء ، وطبقة الفقراء ، « فالغزو والإغارة للسلب والنهب »
 لم يعد عنده وسيلة وغاية ، وإنما أصبح وسيلة غايتها تحقيق نزعة الإنسانية
 وفكرته الاشتراكية .

(١) الأغاني ٢١٥/١٨ - ٢١٦ .

(٢) الأغاني ٧٨/٣ - ٧٩ ، والتبريزي : شرح حماسة أبي تمام ٩/٢ .

(٣) ابن السكيت : شرح ديوان عروة / ١٨١ .

وقد يحدث أن تتطور هذه الأهداف الاجتماعية والاقتصادية عند بعض الصعاليك إلى لون من التمرد الخالص الذي لا يميز بين الأهداف ، فإذا هم يتعرضون لكل من يسوقه حظه السيئ إلى مناطق تربصهم . يقول تأبط شراً معبراً عن هذا التمرد الخالص الذي أصبح عنده الوسيلة والغاية معاً :

ولست أبیتُ الدهرَ إلا على فتى أسلبيه أو أذعرُ السربَ أجمعاً^(١)
أو يناصرون قبائل معينة العداء ، يصبون عليها شرورهم ، ويوجهون إليها غاراتهم وغزواتهم ، كما كان يفعل تأبط شراً مع تلك المجموعة من القبائل التي يعددها في بعض أبياته^(٢) ، وكما كان بين صعاليك هذيل وصعاليك قههم من عداوة مستحكمة لا يهدأ أوارها ، ظهرت آثارها في شعر الفريقين وأخبارهما^(٣) .

وفي شعر الصعاليك صور كثيرة متعددة الألوان والأوضاع لهذه الغارات ، وأحاديث عنها لا تكاد تنهى حتى تبدأ ، وفي أكثر قصائد هذا الشعر ومقطوعاته يردد الصعاليك أقاصيص هذه الغارات في فخر وإعجاب ، واعتداد بأنفسهم وبطولتهم . وفي تائية الشنفرى المفضلية صورة رائعة قوية لغارة قام بها هو وأصحابه الصعاليك ، يصف فيها كيف أعدّ عصابته للغزو ، ويصف الطريق الذي سلكوه ، ويتحدث عن اللواقع التي دفعته إلى هذه الغارة ، ثم يتحدث عن الأهداف التي حققها ، والغايات التي وصلت إليها . يقول :

وباضعةٍ حمر القسي بعثتها ومن يغزُ يغنم مرة ويُسَمَّت
خرجنا من الوادي الذي بين مشعل وبين الجبا . هيهات أنشأت سُربتي
أمشي على الأرض التي لن تضرنني لأنكى قوماً أو الاتى حُمتي
أمشي على أين الغزاة ويُعدها يقربني منها رَواحي وغُدوتي
ثم يقول :

قتلنا قتيلاً مُهْدياً بمليد جمار مني وسط الحجيج المصوت

(١) الأغاني ٢١٧/١٨ .

(٢) المصدر السابق / ٢١٨ .

(٣) انظر على سبيل المثال شرح أشعار المهذلين ١/٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ .

جزينا سلامان بن مفرج قرضها بمسا قدمت أيديهم وأزلت
 وهني بني قوم وما إن هنأهم وأصبحت في قوم وليسوا بمنيتي
 شفيينا بعبد الله بعض غليلنا وعوف لدى المعدي أوان استهلته^(١)
 وفي لامية العرب قصة غارة مفاجئة خاطفة قام بها الصعلوك في ليلة باردة
 ذات ظلام ومطر ، وقد استبد به الجوع والبرد والخوف ، ثم عاد إلى « قواعده »
 سالماً ، بعد أن حقق أهدافه ، خلفاً وراءه القوم يتساءلون : ما هذا الذي طرق
 حبيهم ليلاً ؟ وقد ذهبت آراؤهم فيه مذاهب شتى :

وليلة نحس يضطلي القوس ربها وأقطعته اللاتي بها يتنبّل
 دعست على غطش وبغش ، وصحبتى سعار وإرزيز ووجر وأفكل
 فأيمت نسواناً ، وأيتمت إلدّة وعدت كما أبدأت ، والليل أليل
 وأصبح غنى بالغيصاء جالساً فريقان : مسؤل وآخر يسأل
 فقالوا : لقد هرت بليل كلابنا فقلنا أذنب عس أم عس فرعل
 فلم تك إلا نبأة ثم هومت فقلنا قطاة ريع أم ريع أجدل
 فإن يك من جن لأبرح طارقاً وإن يك إنسا ما كها الإنس تفعل^(٢)

(١) المفضليات / ٢٠٢ - ٢٠٣ ، ٢٠٥ - ٢٠٦ ، وانظر أيضاً الأغاني ١ / ١٢٩٢ -
 ١٤٠ . الباضعة : القاطعة ، ويريد بها أصحابه الصعاليك . بعثتها : أى غزوت بهم . حمر
 القسي : أى أنهم غزوا مرة بعد مرة فاحمرت قسيهم للشمس والمطر . والقسي تحمر على القدم .
 السربة : الجماعة ، وقوله « أنشأت سربى » أى أظهرتهم من مكان بعيد ، يصف بعد مذهبه
 في الأرض طلباً للفنيمة . وقوله « لن تضرفى » أى لن أخاف بها أحداً . وقوله « لأنكى قوماً »
 من التكاية . الحمة : المنية . وقوله « على أين الغزاة » أى على ما يصيبني من تعبها ، وأذا مع
 ذلك أمشي . الملبد : المحرم الذي يأخذ صنفاً فيلبد به شعره لتلا يشمت في مدة الإحرام . وقوله
 « جمار منى » أى عند الجمار . سلامان بن مفرج من قومه وهم الذين قتلوا أباه . وقوله « وهني »
 بني قوم وما إن هنأهم « أى هنيء بني قوم وما انتفعوا بي . عبد الله وعوف من بني سلامان . وقوله
 « استهلته » أى الحرب إذا ارتفعت الأصوات فيها .

(٢) أعجب العجب / ٥٩ - ٦٤ . والقال : النوادر ٢٠٦ .

ليلة النعس : المراد بها هنا الليلة الباردة . والأقطع : جمع قطع وهو السهم . ويتنبّل أى -

وكان الصعاليك يخرجون لهذه الغارات الرهيبة فرادى أحياناً ، وفي عصابات أحياناً أخرى . وكان أكثرهم يغير على رجليه ، وبعضهم يغير على الخيل .

في أخبار الشنفرى أنه كان « يغير على الأزدي على رجليه فيمن معه من فهم ، وكان يغير عليهم وحده أكثر ذلك »^(١) ، ومن أخباره أيضاً أنه خرج « في ثلاثين رجلاً ومعه تأبط شرّاً يريدون الغارة على بني سَلَامَانَ »^(٢) . وفي أخبار السليك أنه خرج « على رجليه رجاء أن يصيب غرة من بعض من يمر به فيذهب بإبله » ، وأنه التقى برجلين قصتهما مثل قصته « فاصطحبوا جميعاً »^(٣) . وفي أخبار تأبط شرّاً أنه خرج « في عدة من فهم »^(٤) . وفي شعره حديث عن غزواته هو وصعاليكه على الخيل أحياناً ، وعلى الأرجل أحياناً أخرى :

فيوماً بغزاءٍ ، ويوماً بسُرْبَةٍ ويوماً بنخشخاش من الرّجُلِ هَيَّضَلٍ^(٥)
وفي شعر عروة أحاديث كثيرة عن هذين الأسلوبين من أساليب الغزو . يقول متحدثاً عن امرأته التي تلومه على مخاطرتها بنفسه في غاراته المتكررة تارة بأولئك الرّجُلِيِّين الذين يعتمدون في غزوهم على أرجلهم ، وتارة بأولئك الفرسان الذين يغيرون على الخيل :

تقول : لك الويلات ، هل أنت تاركٌ ضُبُوءًا برّجُلٍ تارةً وبمنسِرٍ^(٦)

= يرى بها . والدعس : شدة الوطء . والنطش : الظلمة . والبش : المطر الخفيف . والسعار : شدة الجوع . والإرزي : البرد . والوجر : الخوف . والإفكل : الرعدة . والإلدة : الأولاد . والغيصاء : اسم موضع بنجد . والعس : الطواف بالليل . والفرعل : ولد الضبع . والنبأة : الصوت . وهومت : نامت . والأجدل : الصقر . وأبرج : من البرج وهو الشدة .

(١) الأغاني ١٣٥/٢١ .

(٢) ابن الأنباري : شرح المفضليات / ١٩٥ .

(٣) الأغاني ١٢٤/١٨ .

(٤) المصدر السابق / ٢١٥ .

(٥) لسان العرب : مادة (غزا) - السربة : جماعة الخيل ما بين العشرين إلى الثلاثين .

والنخشاش : الجماعة في سلاح ودروع . والهيضل : الجماعة المتسلحة . والرجل : الرجالة .

(٦) ديوانه / ٦٨ ، والأصمعيات ٢٩/١ ، وشرح التبريزي على حماسة أبي تمام

٦١/١ - ضباً : اختبأ واستتر ليقتل . والمنسر كجلس ومنبر : جماعة الخيل .

ويقول متحدثاً عن اعتمادهِ على كلا الأسلوبين في بعض غاراته :

لعل انطلاقي في البلاد ، ورحلتي وشدي حيازيم المطية بالرُّخْل
سيدفعني يوماً إلى رَبِّ هَجْمَةٍ يدافعُ عنها بالعقوق وبالبيخل
قليلٌ تواليها وطالب وترها إذا صحتُ فيها بالفوارس والرُّجْل^(١)
وقد وفر الصعاليك لهذه الغارات كل ما يحقق لها النجاح ، وبلوغ الغاية ،
وإدراك الهدف . فإلى جانب ما وفروه لها من قوة الجسد ، وشجاعة القلب ،
وصدق العزيمة ، وسرعة العدو ، وفروا لها سعة الخيلة ، وعمق الدهاء ، والقدرة
على الخلاص من المآزق الضيقة ، والمواقف الحرجة . ففي أخبار الشنفرى أنه كان
إذا سار في الليل نزع نعلا ولبس نعلا ، وضرب برجله ، حتى يموه على الناس ،
فيظنوه الضبع^(٢) . وفي أخباره أيضاً أنه أقبل في ليلة على ماء لبني سلامان ،
فلما دنا من الماء قال : إني أراكم ، وليس يرى أحداً ، إنما يريد بذلك أن
يخرج رَصداً إن كان ثمة من يترصد له^(٣) . وفي أخبار السليك أنه احتال على
رجل في سوق عكاظ حتى عرف منه منازل قومه ، تمهيداً للإغارة عليها^(٤) .
وخبر الخيلة التي لحا إليها تأبط شراً ، حين حاصرته لحيان وهو يشتر العسل من
غار في بلادهم ، خبر ذائع مشهور^(٥) . وقصة احتياله هو والشنفرى وابن بركة
على بجيلة حين أسرته ، حتى نجا ونجا معه صاحباها ، وهي القصة التي أشار
إليها في قافيته المفضلية ، قصة مشهورة أيضاً^(٦) .

وإلى جانب هذا كله كان طبيعياً أن يوفر الصعاليك لغاراتهم السلاح الذي

(١) ديوانه / ١٠٨ - ١١١ . وشرح التبريزي على حماسة أبي تمام ٩/٢ .

(٢) ابن الأنباري : شرح المفضليات / ١٩٧ ، والأغاني ١٣٧/٢١ ، وابن حبيب :
كتاب المختارين (مصورة) لوحة رقم ٩٣ .

(٣) الأغاني ١٤٣/٢١ .

(٤) الأغاني ١٣٥/١٨ - ١٣٦ .

(٥) انظر التبريزي : شرح ديوان الحماسة ٣٨/١ وما بعدها ، والأغاني ٢١٥/١٨ ،
والبغدادى : خزائن الأدب ٣٥٧/٣ ، وابن حبيب : المحبر / ١٩٦ - ١٩٨ .

(٦) انظر ابن الأنباري : شرح المفضليات / ٦ - ٧ ، والأغاني ٤١١/١٨ - ٢١٢ .

يعتمدون عليه في هجومهم ودفاعهم ، لأن الشجاعة أو القوة أو غيرها من الصفات التي كانوا يمتازون بها لا تكفي وحدها « في تلك البادية الفوضوية التي لا يستطيع إنسان أن يعيش فيها ما لم يكن مزوداً بسيف أو قوس »^(١) . والواقع أن الصعاليك أعدوا لغاراتهم كل ما كانت تعرفه الجزيرة العربية من سلاح ، سواء منه ما كان للهجوم وما كان للدفاع ، ووصفوا في شعرهم كل ما كانوا يستخدمونه منه ، وتحدثوا عن قيمته لم في غزواتهم ، بل في حياتهم كلها ، فقد كانوا يرون فيه أهم شيء في حياتهم ، وأعلى ما يملكون فيها ، وما يخلفونه بعدها ، فعمرو بن برة يذكر أن سيفه هو « جُلُّ ماله »^(٢) ، وعروة يذكر أنه لن يخلف بعد موته سوى سيف ورمح ودرع ومغفر وجواد :
 وذى أمل يرجو ترائي ، وإن ما يصيرُ له منه غداً لقليلُ
 ومالٍ مالٌ غير درع ، ومغفر^(٣) وأبيض من ماء الحديد صقيلُ
 وأسمرُ خطيُ القنساء مثقف وأجرُدُ عريانُ السراة طويل^(٤)
 هذا كل ما يملكه أبو الصعاليك ، وكل ما سيخلفه من بعده لوارثيه ، وهذا كل ما يسجله في « وصيته » من « ثروته » . وقد بلغ من شدة حرص صخر الغنى الصعلوك على سلاحه أنه كان يراه ثياباً له لا يخلعها عن جسده^(٥) ، ويذكر الرواة أن تأبط شراً « كان لا يفارقه السيف »^(٦) .

وقد استتبع هذه الحياة الواقفة في وجه المجتمع ، المتمردة عليه ، الخارجية على نظمه ، أن فقد المجتمع اطمئنانه إلى أصحابها ، كما فقد أصحابها طمأنينتهم فيه ، فانقطعت الصلة بينهما ، وانفصمت تلك الرابطة الاجتماعية التي تربط بين الفرد ومجتمعه ، وانحل ذلك العقد الاجتماعي الذي يجعل من الفرد عضواً

(١) Dermenghem; The Life of Mahomet, p. 173.

(٢) انظر أبياته الميمية في الأغاني ١٧٥/٢١ .

(٣) معطوف على محل « درع » ، لأن المعنى « ليس لي إلا درع ومغفر » .

(٤) ديوانه / ٢٠٧ .

(٥) انظر قصيدته الدالية في السكري : شرح أشعار الهذليين ١٣/١ .

(٦) الجوهري : صحاح اللغة ، مادة (أبط) .

عاملاً لمجتمعهم ، متوافقاً معه ، دائراً في فلكه ، ورأى المجتمع في هؤلاء الصعاليك « شذاً اذاً » خارجين عليه ، غير متوافقين معه ، ، فتتكر لهم ، وتغلى عنهم ، وتركهم يواجهون الحياة دون أية حماية منه أو ضمان اجتماعي ، ورأوا هم في مجتمعهم مجتمعاً مختلفاً ، يسيطر عليه ظلم اجتماعي ، وتسوده أنانية اقتصادية جائرة ، وتنقصه عدالة اجتماعية تسوى بين جميع أفرادهم ، وتكافؤ في فرص العيش بيني لكل فرد فيه أن يأخذ بنصيبه من الحياة كما يأخذ سائر الأفراد .

وكانت النتيجة الطبيعية لهذا كله أن فرّ هؤلاء الصعاليك من مجتمعهم النظامي ليقيموا لأنفسهم بأنفسهم « مجتمعاً » فوضوياً ، شريعته « القوة » ، ووسيلته « الغزو والإغارة » ، وهدفه « السلب والنهب » ، ووجدوا في الصحراء الفسيحة الواسعة التي لا تقيد بها قيود ، ولا تحد من حريتها حدود ، ولا يستطيع قانون أن يخترق نطاقها ليفرض سلطانه عليها ، مجالا لا حدود له يمارسون فيه نشاطهم الإرهابي ، و يقيمون « دولتهم » الفوضوية ، « دولة الصعاليك » ، حيث يحيون حياة حرة متمردة ، تسودها العدالة الاجتماعية ، وتتكاثر فيها فرص العيش أمام الجميع .

وأخبار هؤلاء الصعاليك وأشعارهم تحفل بأحاديث هذا التشرد في أنحاء الصحراء الموحشة ، ووديانها الرهيبة ، حيث يحيا الوحش بعيداً عن البشر ، وحيث يكمن الموت في كل رجء من أرجائها .

ولعل أقوى ما صور به هذا التشرد في شعر الصعاليك هاتان الصورتان المتشابهتان اللتان نجد إحداهما عند تأبط شرّاً ، والأخرى في لامية العرب ، فكلا الصعلوكين مفارق مجتمعهم النظامي حيث يعيش البشر ، إلى أعماق الصحراء البعيدة حيث يعيش الوحش ، أما تأبط شرّاً فقد ألفت الوحش لطول ما عاش بينها مسلماً لها ، حتى أنست به ، واطمأنت إليه ، وأما صعلوك اللامية فقد وجد في ضواري الصحراء أهلاً له ، يستعيض بها عن أهله من البشر ، ويجد بينها الأمن والطمأنينة . يقول تأبط شرّاً متحدثاً عن نفسه :

يبيت بمغنى الوحش حتى ألفته ويصبح لا يخفى لها الدهر مرتعا

رأين فتى لا صيد وحش يهيمه فلو صافحت إنساً لصافحته معا^(١)
ويقول صاحب اللامية مخاطباً أهله :

ولى دونكم أهلون : سيدٌ عملَسَ وأرْقَطُ زهلولٌ ، وعرفاءُ جِيئَالُ
همُ الأهلُ ، لا مستودعُ السرِّ ذائعٌ لديهم ، ولا الجاني بما جرَّ يُخْذَلُ^(٢)
ومن الطبيعي أن هذا التشرد جعل الصعاليك على صلة قريبة بحيوان
الصحراء ، استطاعوا عن طريقها أن يعرفوا طباعه وعاداته ، وأن يتحدثوا عنه
وعنها حديث الخبير المطلع . وفي شعرهم صور كثيرة لحيوان الصحراء ووحشها
وطيرها وحشراتهما وما ينخيل للشارى فيها من أشباح ، كذلك الوصف الدقيق
للضباع وحياتها وطباعها في شعر الأعلام الهذلي^(٣) ، وكذلك الصورة الرائعة
للذئب الجائعة في لامية العرب^(٤) ، وكذلك الصور المتعددة للغيلان وما يجرى
للإنسان معها في شعر تأبط شرا^(٥) .

وكان من نتيجة هذا التشرد البعيد في أعماق الصحراء أن أصبح الصعاليك
على علم واسع بأسرارها ، ومعرفة دقيقة بشعابها ودروبها ومسالكها ومياهها ،
ومقدرة فائقة على الاهتداء في مجاهلها ، واختراق متاهاتها المضلة دون دليل .
ورواة الأدب العربي يصفون السليك « البعيد الغارة » بأنه « كان أدل من
قطاة »^(٦) ، بل إنهم يصفون الصعاليك جميعاً بأنهم « أهدى من القطا »^(٧) .

(١) الأغاني ٢١٧/١٨ - وقوله « ويصبح لا يحى لها الدهر مرتعاً » معناه أنه لا يمنعها
من الرعى فهي لا تخاف منه .

(٢) أعجب العجب / ١٧ ، ١٨ - السيد : الذئب . والعملَس : القوى على السير
السريع . والأرْقَط المراد به النمر . والزهلول : الأملس . والعرفاء : الضبع الطويلة العرف .
وجيئَال : اسم للضبع ، معرفة بدون الألف واللام ، وهي في الأصل صفة ثم غلبت فخرجت مخرج
الأسماء ، وهي لهذا متنوعة من الصرف العلمية والتأنيث .

(٣) انظر ديوان الهذليين ٧٩/٢ ، ٨٠ ، ٨٦ ، ٨٧ .

(٤) انظر أعجب العجب / ٣٧ - ٥٠ .

(٥) انظر الأغاني ٢٠٩/١٨ ، ٢١٠ - وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ١٧٦ ، ١٧٧ .

(٦) الأغاني ١٣٤/١٨ .

(٧) المرزبانى : معجم الشعراء / ١٦٨ .

وفي شعر الصعاليك أحاديث كثيرة عن الصحراء ، وفخر عريض بمعرفة أسرارها ، والاهتداء في مجاهلها ، كما نرى في تلك الأبيات الرائية التي يرويها الأصمعي لتأبط شرا ، والتي يتحدث فيها عن اهتدائه إلى شعب في أعماق الصحراء المجهولة بصعاليكه دون أن يهديه إليه دليل أو يصفه له خبير (١) ، وكما نرى في هذه الأبيات القوية من لامية العرب :

وخرق كظهر الترُس قفر قطعته بعاملتين ، ظهره ليس يُعملُ
والحقّت أولاه بأخراه موفيا على قنة أقعى مراراً وأمّثلُ
ترودُ الأراوى الصَّحْمُ حولي كأنها عذارى عليهن الملاء المذيلُ
ويركدنُ بالآصال حولي كأنني من العصم أدنى ينتحي الكبيح أعقلُ (٢)
فالشاعر في هذه الأبيات يصف الصعلوك بأنه يخرق الصحراء النائية الخالية التي لا يطرقها أحد ، معتمداً في اختراقها على رجله القويتين السريعتين : حتى يصل إلى منازل الوعول البعيدة التي لم تعد تنكره ، لكثرة ما خالطها ، حتى كأنه واحد منها .

والناظر في أخبار هؤلاء الصعاليك ، المتبع لظروف نشأتهم وحياتهم ، يستطيع أن يلاحظ في وضوح ثلاث طوائف مختلفة تتألف منها عصاباتهم : طائفة « الخلاء والشَّدَّاذ » الذين أنكرتهم قبائلهم ، وتبرأت منهم ، وطردتهم من حماها ، وقطعت ما بينها وبينهم من صلة ، وتحالت بهذا من العقد الاجتماعي الذي يربط بينها وبينهم ، والذي يصوره المثل العربي القديم « في الحرية تشرك العشيرة » (٣) ، فأصبحت لا نحتمل لهم جريرة ، ولا تطالب

(١) انظر الأصمعيات ٣٥/١ .

(٢) أعجب العجب / ٦٧ - ٦٩ - الخرق : الأرض الواسعة تنخرق فيها الرياح . والعاملتان : رجلاه . وظهره ليس يعمل أي ليس مما تعمل فيه الركاب . وموفياً أي مشرقاً . والقنة : أعلى الجبل . وأمّثل : أقف وأقوم . والأراوى : إناث الوعول . والصحم : السود التي يضرب لونها إلى صفرة . ويركدن أي يثبن . والعصم : الوعول التي في أيديها بياض . والأدنى من الوعول : الذي طال قرنه طولا شديداً . والكبيح : عرض الجبل . والأعقل : المشتع في الجبل العالي .

(٣) الميداني : مجمع الأمثال ١٧/٢ .

بحريّة يجرها أحد عليهم ، مثل حاجز الأزدي^(١) ، وقيس بن الخدادية^(٢) ، وأبي الطّمحان القيني^(٣) .

وطائفة « الأعرية » السود الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم الإماء ، فلم يعترف بهم آباؤهم العرب ، ولم ينسبوا إليهم ، لأن دماءهم ليست عربية خالصة ، وإنما خالطتها دماء أجنبية سوداء لا تصل من درجة نقائها إلى درجة الدم العربي ، مثل تأبط شرا^(٤) ، والشنفرى^(٥) ، والسليك بن السليكة^(٦) .

ثم طائفة الفقراء المتمردين الذين تصعلكوا نتيجة لتلك الظروف الاقتصادية المختلفة التي كانت تسود المجتمع الجاهلي ، ويمثلهم عروة بن الورد ومن كان يلتف حوله من فقراء العرب ، وكذلك تلك المجموعة الكبيرة من صعاليك هذيل .

من هذه الطوائف الثلاث تألفت عصابات الصعاليك ، وهي عصابات قطعت ما بينها وبين قبائلها من صلات ، وانطلقت إلى الصحراء ، كما تنطلق الذئاب الجائعة ، لتشق لنفسها طريقاً في الحياة ، وقد جمع بينها - على اختلاف قبائلها - الفقر ، والتشرد ، والتمرد ، والكفر بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي يؤمن بها المجتمع الذي خرجت عليه ، والإيمان بأن الحق للقوة ، وأن الضعيف ضائع حقه في هذا المجتمع .

والظاهرة الواضحة في حياة هؤلاء الصعاليك - على اختلاف النواحي التي دفعهم إلى حياة التصعلك - هي أنهم جميعاً فقلوا توافقهم الاجتماعي . وظاهرة « التوافق الاجتماعي »^(٧) هي الظاهرة التي يقرر علماء الاجتماع أنها الأساس

(١) انظر الأغاني ٤٩/١٢ (بولاقي) .

(٢) انظر الأغاني ٢/١٣ (بولاقي) .

(٣) انظر الأغاني ١٣٠/١١ (بولاقي) .

(٤) انظر السيوطي : المزهري ٢/٢٦٩ .

(٥) انظر المصدر السابق / الصفحة نفسها .

(٦) انظر المصدر نفسه / الصفحة نفسها ، وانظر أيضاً ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٤ .

(٧) Social Adjustment

الذى تقوم عليه الصلة بين الفرد والمجتمع ، بحيث يكون عمل الفرد من أجل صالح المجموع ، كما يكون عمل المجموع لصالح الفرد . وفقدان هذا « التوافق الاجتماعى » ينتهى بالفرد عادة إلى أن تكون صلته بمجتمعه قائمة على أساس « السلوك الصراعى »^(١) ، وذلك لأن فى كل مجتمع تيارين متضادين : أحدهما يتصل بالفرد ، والآخر يتصل بالمجتمع ، ووجود هذين التيارين يستدعى وجود نوعين من الصلة بين الفرد والمجتمع ، فإما أن يكون بينهما « وفاق » ، وإما أن يكون بينهما « صراع » ، وهذان النوعان من الصلة بين الفرد والمجتمع هما ما اصطلح علماء الاجتماع على تسميتهما « بالسلوك التعاونى »^(٢) ، « والسلوك الصراعى »^(٣) .

ومن الطبيعى أن تكون الأسباب التى جعلت هذه الطوائف المختلفة من الصعاليك تفقد توافقها الاجتماعى أسباباً مختلفة ، وذلك لاختلاف « المشكلة النفسية » التى تواجهها طائفة منها عن المشكلة التى تواجهها طائفة أخرى . ولكن هذه المشكلات - على اختلافها - كانت تنهى بطوائف الصعاليك جميعاً إلى هذا « اللاتوافق الاجتماعى » الذى كان يدفعها إلى أن يكون سلوكها الاجتماعى « سلوكاً صراعياً » .

• • •

والآن ، بعد هذه الجولة الواسعة خلف أخبار « صعاليك العرب » وأشعارهم ، فى كتب اللغة ، وفى مصادر الأدب العربى ، نقف لنسجل النتيجة التالية :

تدور كلمة « الصعلكة » فى دائرتين : دائرة لغوية ، ودائرة اجتماعية . وتبدأ الدائرتان من نقطة واحدة هى الفقر ، فأما الدائرة اللغوية فتنتهى حيث بدأت ، يبدأ الصعلوك فيها فقيراً ، ويظل فى نطاقها فقيراً ، يخدم الأغنياء

(١) Conflict

(٢) Co-operation

(٣) انظر فى تفصيل هذا :

أو يستجديهم فضل ما لهم ، ثم يموت فقيراً ، وأما الدائرة الاجتماعية فتتسع وتبعد عن نقطة البدء لتنتهى ، أو لتحاول أن تنتهى ، بعيداً عنها ، يبدأ الصعلوك فيها فقيراً ، ثم يحاول أن يتغلب على الفقر الذى فرضته عليه أوضاع اجتماعية أو ظروف اقتصادية ، وأن يخرج من نطاقه ليتساوى مع سائر أفراد مجتمعه ، ولكنه - من أجل هذه الغاية - لا يسلك السبيل التعاونى ، وإنما يدفعه « لا توافقه الاجتماعى » إلى سلوك السبيل الصراعى ، فيتخذ من « الغزو والإغارة للسلب والنهب » وسيلة يشق بها طريقه فى الحياة ، فيصطدم بمجتمعه الذى يرى فى هذه التوضوية الفردية مظهراً من مظاهر التمرد . وتنقطع الصلة بين المجتمع والصعلوك ، فيتخلى المجتمع عنه ، ويحرمه حمايته ، ويعيش الصعلوك خليعاً مشرداً ، أو طريداً متمرداً ، حتى يلقى مصرعه ، فأما أعداؤه فقد استراحوا من هذا الفرع الذى كانوا يترقبونه فى كل حين ، كما يترقب غائباً مُتَنَظِّراً أهلته - على حد تعبير عروة - وأما أصدقاؤه فقد سقط أحدهم فى سبيل فكرته بعد أن أدى رسالته فى هذه الحياة .

وإذا كنا قد وصلنا إلى هذه النتيجة عن طريق استعراض هذه الظاهرة فى مصدرها الأول ، وهو المجتمع الجاهلى ، فإن فى صنيع اللغويين ما يؤيدنا فيما وصلنا إليه ، حيث أشاروا إلى جانب خاص من المادة اللغوية عبروا عنه بصعاليك العرب ، ولنا إذن أن نقول : إن ما عبر عنه اللغويون « بصعاليك العرب » هو ما نعبر عنه « بصعاليك الدائرة الاجتماعية » .

وإذ نلاحظ أن المتصلين بمشكلة الفقر والغنى وتوزيع الثروة فى المجتمع الجاهلى قد أشاروا على ألسنة شعرائهم إلى طائفتين من الصعاليك ، فمدحوا إحداهما « لله هى » ، وذموا الأخرى « لحاها الله »^(١) ، نستطيع أن نقول فى ضوء هذه النتيجة التى وصلنا إليها إن هناك نوعين من الصعاليك : الصعلوك العامل وهو الذى يمثل صعاليك الدائرة الاجتماعية . والصعلوك الحامل وهو الذى يمثل صعاليك الدائرة اللغوية .

(١) انظر رائية عروة فى ديوانه / ٧٣ - ٨٢ ، وميمية حاتم الطائي فى ديوانه / ٢٥ .

فالمسألة إذن ليست مسألة لغوية فحسب ، يُرجع فيها إلى كتب اللغة ، وإنما هي - إلى جانب هذا - ظاهرة اجتماعية يرجع فيها إلى المجتمع الجاهلي ، وما كان ينطوي عليه من عوامل عملت على ظهورها ، والاتجاه بها إلى تلك الاتجاهات التي اتجهت إليها .

ولكن ما هذه العوامل ؟ وما هذه الاتجاهات ؟
هذا ما سنحاول دراسته في الفصول التالية من هذا الباب .

* * *

الفصل الثاني

التفسير الجغرافي لظاهرة الصعلكة

١

أهمية العامل الجغرافي :

حين نقف عند الجانب الجغرافي من ظاهرة الصعلكة ، فإنما نقف عند أول عامل من العوامل التي عملت في نشأتها وتوجيهها وطبعها بطابع خاص . ففي كل مشكلة من مشكلات التاريخ يعمل عاملان أساسيان : الإنسان ، والبيئة الجغرافية ، وترجع أهمية العامل الجغرافي إلى أنه يعمل في قوة وإلحاح ، فهو قوة ثابتة لا تكف عن العمل^(١) ، والإنسان - على حد تعبير بعض الباحثين - غلة من غلات سطح الأرض^(٢) .

والظاهرة التي نحن بصدد دراستها وتفسيرها اتخذت من البادية العربية مسرحاً لها ، وكان ارتباطها بهذا « المسرح الجغرافي » وثيقاً ، تأثرت به في نشأتها ، وتكيفت معه في اتجاهاتها ، ولعل في دراسة هذا « المسرح الجغرافي » أولاً ما يعيننا على فهم الدور الذي قام به أبطال قصتنا « الصعاليك » .

٢

جزيرة العرب :

يميز الدارسون لتاريخ غربي آسيا بين حملة الحضارة سكان السهول والتلال المنخفضة ، وبين الشعوب المتأخرة سكان الجبال والصحارى^(٣) ، ويلاحظون أن

(١) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 2.

(٢) Ibid., p. 1.

(٣) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 3.

المدينة في هذا الجزء من العالم هي تلك التي تعرف باسم «حضارة وديان الأنهار» ، القائمة على الزراعة ، التي تصطنع وسائل صناعية للرى ، تغذيها أنهار ذات فيضان موسمي ، وهذه الحضارة تقف عند المستوى الذي يمكن رفع الماء إليه ، ومن هنا يصبح هذا المستوى الحد الفاصل بين الأقاليم المستقرة ومناطق القبائل الرعوية^(١) .

وتمثل البادية العربية « تلك الرقعة من الجنوب الغربي لآسيا التي لم تدخل في نطاق حضارة وديان الأنهار ، والتي أبطأ سكانها — نتيجة لذلك — في مدارج التقدم الحضارى »^(٢) ، شأنهم في ذلك شأن سكان الصحارى « أطفال العالم الخالدين »^(٣) ، أولئك الذين لا تتغير حياتهم مع تغير الزمن .

والمنظر العام لهذا « المسرح الجغرافي » الذي دارت عليه قصة صعاليك العرب منظر « نجد تحيط به صحراء ، رملية في الجنوب والغرب والشرق ، وحجرية في الشمال ، وتطوق هذا النطاق الخارجى سلسلة من جبال ، أكثرها منخفض قاسح ، ولكنها في اليمن وعمان ذات ارتفاع كبير واتساع وخصب ، ومن وراء هذه الجبال حافة ساحلية ضيقة يحدها البحر »^(٤) . وينحدر هذا المسرح الجغرافي « من الغرب إلى الشرق ، إذ أن معظم الجبال في الغرب ، وإن تكن طائفة من المرتفعات في الجنوب الشرقى ، في عُمان ، تعد شذوذاً لهذه القاعدة »^(٥) .

ومن أظهر ما عرفت به بلاد العرب منذ القدم الجذب والحر ، إذ « تقع الجزيرة العربية كلها تقريباً داخل نطاق الحرارة القصوى الذي يطوق العالم في شهر يولييه »^(٦) . ويرد الجغرافيون هذا إلى أن قسماً كبيراً منها يقع في منطقة

Ibid., pp. 3-4. (١)

Ibid., p. 5. (٢)

Seiple; Influences of Geographic Environment, p. 509. (٣)

Zwemer; Arabia, the Cradle of Islam, p. 19. (٤)

O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 6. (٥)

Zwemer; Arabia, the Cradle of Islam, p. 20. (٦)

الرهو المدارية ذات الضغط العالى والمطر القليل ، والقسم الآخر يقع فى حيز الرياح التجارية الشمالية الشرقية الجافة ، التى تزداد حرارتها كلما تقدمت إلى الجنوب . « ويزداد هذا الحر قسوة فوق المنطقة الساحلية بسبب الرطوبة التى تنشأ عن كمية البخار المائلة المتصاعدة من مستنقعات المياه المغلقة »^(١) أما فوق المرتفعات فإن درجة الحرارة تنخفض حتى ليجد الجليل أحياناً فى ليالى الصيف فوق الجبال جنوبى مكة^(٢) .

ومن عوامل الجذب قلة المطر ، وذلك لأن الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التى تتعرض لها الجزيرة العربية صيفاً تصل إليها بعد أن تكون قد أسقطت أمطارها الغزيرة على الحبشة ، ولهذا فإن أمطارها فى بلاد العرب لا تكاد تذكر بجانب ما يسقط منها فى الحبشة .

وإلى جانب هذه القلة فى كمية المطر نلاحظ أنه يسقط فى فترات متباعدة جداً ، وغير منتظمة ، حتى إن بعض أجزاء الجزيرة العربية لا يسقط المطر فيها إلا كل ثلاث سنوات أو أربع .

وترتبط حياة أهل الصحراء بالمطر ارتباطاً وثيقاً حتى لقد سموه غيثاً وحياً ، ويصفه الله تعالى بأنه « رحمته »^(٣) ، ومن صلوات الإسلام « صلاة الاستسقاء » التى يقيمها البدو حين تُخْلِفُ النجوم ، وتجمد الرياح ، ويحتبس المطر ، وتتوقف حياة البادية على تلك القطرات من الغيث ترسلها السماء إلى الأرض ، فتحيا بها بعد موتها . وليس من شك فى أن فرحة البادية بالمطر عظيمة ، حتى ليصف الله تعالى تأثيره فى نفوس أهلها بأنه « إذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون »^(٤) ، وحتى ليقف الشعراء من السحاب والبرق والمطر تلك الوقفات الطويلة الحميلة التى سجلوها فى شعرهم ، فيخلع امرؤ القيس

(١) Ibid., p. 20.

(٢) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 8.

(٣) النمل / ٦٣ ، والروم / ٤٦ - ٥٠ .

(٤) الروم / ٤٨ .

فرحته بالمطر على ما حوله من مظاهر الطبيعة فيجعل سكناً كيباً الجواء غيباً المطر في نشوة غامرة كأنما «سقين سُلَافاً من رحيق مفلقل» ، ويدعو الباكون لموتاهم بأن يسقى الغيث قبورهم ، ويسأل المحبون لديار أحبابهم أن يسقيها «صوب الربيع وديمة تهمل» .

ومن أشد ما تقاسيه البادية العربية احتباس المطر ، فتي احتبس أصبحت غير صالحة للسكنى ، فقد حل الجفاف «وما يتبعه من نفوق القطعان ، وهلاك الرعاء»^(١) ، وأجذب البدو وضائق أمامهم سبل الحياة ، ولم يعد أمامهم إلا أن يرحلوا عن مواطنهم ينتجعون مواطن الكلاً والماء ، حتى لقد يدفعهم الجذب إلى مغادرة البادية العربية كلها إلى تلال اليمن والشام أو إلى سهول النيل والفراتين^(٢) . وفي الأخبار القديمة أن بطوناً من خزاعة «خرجوا جالين إلى مصر والشام لأنهم أجذبوا»^(٣) ، وأن بني شيان أصابهم «سنة» ذهبت بالأموال ، فخرج رجل منهم بعياله حتى أنزلهم الحيرة ، فقال لهم : كونوا قريباً من الملك يصبكن من خيره حتى أرجع إليكن ، وإلى أليّة لا يرجع حتى يكسبن خيراً أو يموت»^(٤) ، وقد يرفض بعض هؤلاء المهاجرين العودة إلى ديارهم بعد سقوط المطر وعودة الحياة إلى البادية ، ضيقاً بهذه البيئة المتقلبة ، ورغبة في الاستقرار والحياة المطمئنة ، ففي أخبار تلك البطون من خزاعة أنهم مضوا في هجرتهم ، «حتى إذا كانوا ببعض الطريق رأوا البوارق خلفهم ، وأدركهم من ذكر لهم كثرة الغيث والمطر وغزارته» ، فرجع فريق منهم إلى أوطانهم واستمرت قلة في هجرتها»^(٥) . وفي رأى بعض الباحثين أن السبب الأول في هجرة القبائل اليمنية إلى الشمال يرجع إلى تغير مناخى^(٦) ، وأن

(١) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 105.

(٢) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 489.

(٣) الأغاني ١٣ / ٦ (بولاقي) .

(٤) الأغاني ١٦ / ٥٠ .

(٥) انظر القصة في الأغاني ١٣ / ٥ - ٧ (بولاقي) .

(٦) سليمان حزين في مقالته الفرنسية المنشورة بمجلة كلية الآداب (المجلد الثالث =

تدهور الحضارات القديمة ، وتشتت القبائل ، وانبعث الهجرات من تلك الجهات ، في العهد السابق للإسلام مباشرة ، مرتبط على ما يظهر ارتباطاً وثيقاً بتغيرات المناخ ، وذبذباته ، وعودته إلى الجفاف النسبي بعد الحالة الممطرة^(١) .

ويلاحظ الدارسون أن هذه القدرة على هجرة الجماعات الرعوية ، إنسانها وحيوانها ، إلى مراعي جديدة ميزة هامة تمتاز بها هذه الجماعات ، ويلاحظون أن هذا يتم في سهولة ويسر ، ما لم تكن في الأرض الجديدة جماعة أكبر عدداً ، وأشد بأساً من الجماعة المهاجرة^(٢) . ويرد بعضهم هذه السهولة وهذا اليسر إلى أن كمية المطر القليلة التي تسقط في الصحراء لا تساعد على نمو الغابات التي تقوم حاجزاً في طريق الهجرات^(٣) .

وما يزيد من قسوة الحياة في أيام الجفاف اقترانها في الغالب بريح السموم ، تلك الريح المهلكة^(٤) التي تشوى مها الصحراء كما يقول الشاعر القديم^(٥) .

ويرجع السبب الأساسي في هذه الحالة القاسية التي تعانيها الصحراء إلى قلة الماء « فليس في البادية العربية أنهار دائمة الجريان ، وإنما هي أودية تمتلئ بالماء في مواسم المطر ، ويغضب ماؤها بعد ذلك »^(٦) ، وموسم المطر في البادية

= الجزء الأول ، مايو ١٩٣٥) تحت عنوان :

Changement historique du climat et du paysage de l'Arabie du Sud", p. 23.

(١) الباحث نفسه في تقريره عن بعثة الجامعة المصرية إلى اليمن وحضرموت ١٩٣٦

المنشور بالعربية بمجلة كلية الآداب (المجلد الرابع ، الجزء الثاني ، ديسمبر ١٩٣٦) ص ١٩٧ .

(٢) ميرز في مقالته عن « المناخ والجغرافيا وأثرهما في التاريخ » المنشورة في مجموعة

« تاريخ العالم » لسير جون هامرطن ، الفصل التاسع / ٣٥٧ .

(٣) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 483.

(٤) انظر القصة الواردة في الأغاني ٤٢/١١ (دار الكتب) .

(٥) البعيث الحنفى في حماسة أبي تمام بشرح التبريزي ١٥٠/٤ . . « وهاجرة يشوى

مهاها سمومها » .

(٦) O'Leary; Arabia before Muhamamad, p. 6.

العربية قصير^(١) ، ومن هنا كان جفاف هذه الأودية طويلاً « فهي في العادة تظل جافة تسعة أشهر أو عشرة في العام »^(٢) .

ولكن الحال في اليمن تختلف ، وذلك لأن « الغدران الساحلية تكثر فيها في أثناء فصل الأمطار ، وقد تمتلئ في بعض الأحيان فجأة إلى درجة الفيضان ، فتندفع جارية أمامها كل شيء » ، وتسمى في هذه الحالة سيولاً^(٣) ، ويحدثنا امرؤ القيس في معلقته عن سيل من هذه السيول اقتلع الأشجار الضخمة ، وأنزل العصم من رؤوس الجبال ، وجرف النخل والأجم ، وأغرق السباع حتى بدت فيه كأنها « أنابيش عنُصُل » ، بل إنه أحاط ببعض الجبال حتى بدت قممها كأنها « من السيل والغشاء فلكة مغزل » وفي أغلب الظن أن هذا الوصف ليست فيه مبالغة كبيرة ، وأنه ليس خيال شاعر ، فأحد هذه السيول هو الذي جرف أمامه سد مأرب المشهور ، كما يحدثنا القرآن الكريم^(٤) ، ولم يكن هذا السد بالبناء الهين الشأن ، وإنما كان سداً أصم طوله من الشرق إلى الغرب نحو ثمانمائة ذراع ، وارتفاعه بضعة عشر ذراعاً ، وعرضه مائة وخمسون ذراعاً^(٥) .

وقد وقف سكان الجزيرة العربية من هذه المياه التي تتدفق بها الصحراء في مواسم المطر موقفين ، هما موقفنا الحضارة والبدواة : أما أهل اليمن فقد استطاعوا استغلال هذه المياه المتدفقة ، فأقاموا السدود في عرض الأودية لحجز السيول ، والانتفاع بمياهها في إحياء موات الأرض ، ويصف القرآن الكريم مسكن سبأ بأنه « جتان عن يمين وشمال »^(٦) ، وقد استغل اليمنيون هذه الظاهرة الطبيعية استغلالاً واسعاً « فلم يدعوا وادياً يمكن استثمار جانبيه بالماء إلا حجزوا سيله بسد » ،

(١) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 158.

(٢) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 22.

(٣) Ibid., p. 21.

(٤) سبأ / ١٦ .

(٥) جرجي زيدان : العرب قبل الإسلام ١ / ١٥٦ .

(٦) سبأ / ١٥ .

فتكاثرت الأسداد بتكاثر الأودية حتى تجاوزت المئات^(١) ، ويذكر الهمداني أن في أحد مخاليف اليمن ثمانين سداً أشار إليها بعض شعرائهم^(٢) .

أما أهل البادية في الحجاز ونجد فقد تركوا السماء تمطر فتحي لهم ما تحيي من الأرض ، فإذا زادت مياهها عن الحاجة ذهبت بها رمال الصحراء ، حتى إذا ما انقضى فصل المطر عادت الطبيعة لجلبها ، وعادت الحياة لحفافها ، وعاد القوم لظمئهم وقحطهم . ويبدو أن السبب في هذا يرجع إلى طبيعة الظاهرة الجغرافية نفسها ، فإن تلك السيول التي عرفتها أودية اليمن لم تعرفها البادية العربية في الحجاز ونجد - بحكم ظروفها الجغرافية - إلا نادراً ، هذا إلى جانب أن أكثر أهل الحجاز ونجد كانوا بدوياً لم يصلوا من الحضارة إلى درجة التحكم في هذه السيول والانتفاع بها .

ومع ذلك فليست الجزيرة العربية كلها جدياً ، وإنما هناك مناطق خصبة ، وقد رأينا خصب اليمن التي يسميها الهمداني « اليمن الخضراء » لكثرة أشجارها وثمارها وزروعها^(٣) .

ويذكر الجغرافيون من هذه المناطق الخصبة هضبة نجد العالية^(٤) ، التي ترتفع عن سطح البحر زهاء أربعة آلاف قدم ، والتي تكسو أغلبها مراعي خصبة ، وتنتشر فيها الأشجار ، ومن هنا اشتهرت بتنتاج غنمها وإبلها وخيولها^(٥) ، ويرجع السبب في هذا الخصب إلى وفرة المياه التي « توجد في كل مكان ، في آبار لا يتجاوز عمقها خمسة عشر قدماً وقد يقل عنها »^(٦) ، كما أن قسمها التي يتجاوز ارتفاعها خمسة آلاف قدم تساعد على تجميع المياه^(٧) .

(١) جرجي زيدان : العرب قبل الإسلام ١/١٤١ .

(٢) صفة جزيرة العرب ١/١٠١ .

(٣) المصدر السابق / ٥١ .

(٤) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 501. (٤)

Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, pp. 147-148. (٥)

Ibid., p. 147. (٦)

Semple; Influences of Geographic Environment, p. 501. (٧)

ولا تخلو سلسلة جبال السّراة التي تمتد على طول الساحل الشرقي للبحر الأحمر « ما بين أقصى اليمن والشام »^(١) من مناطق خصبة ، هي بعض تلك الأودية التي تقطع السراة إلى تهامة حتى تنتهي إلى البحر^(٢) ، حتى لنجد أن اسم واحد منها « وادي الجحّات » وهو — كما يدل عليه اسمه — واد شديد الخصب^(٣) ، وهناك من هذه الأودية الشديدة الخصب وادي نخلة^(٤) ، ووادي نحيان^(٥) ، ويصف الهمداني سراة الحِجْر بالخصب الشديد^(٦) .
ووفقاً لقانون جغرافي تعرفه البادية يجعل من مناطق الخصب والماء مناطق استقرار للقبائل ، نزلت القبائل في هذه الأودية الخصبة ، وأقاموا القرى ، ففي وادي باحان « القرى والزرع »^(٧) ، وبالقرب من وادي الجحّات قرية النُبَيْرَة وهي « كثيرة الأعناب والفواكه والغبول الحاملة »^(٨) .

حتى الحجاز — ذلك الإقليم الجبلي الرمل — يشتمل على بقاع خصبة ، هي تلك الكثبان والربى الخصبة التي تتخلله ، والتي تخرج سفوحها حباً ، وشيئاً من الفاكهة ، وكلاً للقطعان ، وينابيع من ماء دائم^(٩) ، ووفقاً لقانون البادية الجغرافي السابق اتخذت القبائل من هذه الكثبان والربى الخصبة منازل لها ، ومن حولها قامت القرى^(١٠) ، وحسبنا أن نذكر من هذه القرى الطائف « جنة مكة »^(١١) « ومصيف المكيين المترفين »^(١٢) حينما يشتد بهم صيف مكة الذي

(١) الهمداني : صفة جزيرة العرب ١/ ٦٧ .

(٢) انظر هذه الأودية في المصدر السابق / ٧١ - ٨٤ .

(٣) المصدر نفسه / ٧٦ .

(٤) المصدر نفسه / ٧٥ .

(٥) المصدر نفسه / ١٢٢ .

(٦) المصدر نفسه / ١٢٣ .

(٧) المصدر نفسه / ١٢١ .

(٨) المصدر نفسه / ٧٧ .

(٩) Sédillot; Histoire Générale des Arabes, Tome I, p. 12. (٩)

Ibid., p. 12. (١٠)

Ibid., p. 12. (١١)

Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368. (١٢)

لا يطاق ، وذلك لأنها لا تبعد عنها أكثر من سبعين ميلاً^(١) ، ولم تكن الطائف مصيف أهل مكة وحدهم ، وإنما كانت مصيفاً لغيرهم من القبائل ، حتى البعيدة عنها ، فقد كانت بعض القبائل تقبل إليها من نجد ، كما كان يفعل بنو عامر بن صعصعة الذين كانوا يتصيفونها « لطيبها وثمارها ، ويتشتون بلادهم من أرض نجد »^(٢) ، وتقوم الطائف قريباً من ربوة من تلك الربى الحصبة^(٣) فوق تلال غزوان^(٤) ، وتلتف بها الجحانات والكروم^(٥) ، وشهرة كروم الطائف وأعناقها شهرة قديمة عرفت بها^(٦) . ومن مصادر خصب الطائف الأساسية وفرة المياه فيها « فالأمطار الموسمية تدوم بها من أربعة أسابيع إلى ستة ، وعندما تنقطع تكثر الآبار التي تصلح لسقي حدائقها »^(٧) ، هذا إلى طبيعة جوها الذي يساعد على نمو كل الفاكهة التي يعرفها جنوبي أوروبا^(٨) ، فالحرارة في أوقات الظهيرة ليست ثقيلة ، والليالي ذوات جو منعش^(٩) .

ومن مناطق الخصب في الجزيرة العربية أيضاً يثرب والوديان التي حولها ، فقد اشتهرت الوديان الواقعة في هذه المنطقة البركانية ، منطقة الحرّات ، بخصبها الشديد بالنسبة إلى ما حولها^(١٠) . ومرد خصب هذه المنطقة إلى أمرين : طبيعة الأرض ، فإن تفكك الصخور البركانية فيها يحفظ على الأرض خصبها ، ثم وفرة المياه ، فهناك وادي إضم ، والآبار ، والصخور البركانية التي تجمع

(١) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 45.

(٢) البكري : معجم ما استعجم ٧٧/١ .

(٣) Sédillot; Hist. Générale des Arabes, Tome I., p. 12.

(٤) Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368.

(٥) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 45.

(٦) Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368, & Lammens; Le Berceau de l'Islam,

vol. I, p. 90.

(٧) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 45.

(٨) Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368.

(٩) Doughty; Travels in Arabia Deserta, Vol. II, p. 525.

(١٠) Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368.

المياه ، وهي كلها مصادر غنية بمياهها^(١) .
وتشتهر هذه المنطقة بصفة خاصة منذ أقدم العصور بزراعة النخل^(٢) ،
ويطلق عليها عروة بن الورد في شعره « منبت النخل »^(٣) ، وفي شعر حسان
ابن ثابت وصف جميل لهذه البيئة الحصبة^(٤) .
وفي شمال يثرب تقع حرة خيبر ، أكبر الحرات في الجزيرة العربية^(٥) ،
التي تدين بوجودها إلى غزارة مياهها ، وإلى تحلل صخورها البركانية ، والتي
تشتهر بخصبها وكثرة مزارعها ونخلها^(٦) .
وفي جنوبي يثرب وادي العقيق ذو العيون والنخيل^(٧) بمصايفه ومترهاته
المحجبة في خضرته^(٨) .

٣

التضاد الجغرافي وأثره في نشأة حركة الصعاليك :

هذه هي الصورة العامة « للمسرح الجغرافي » الذي دارت عليه قصة
صعاليك العرب ، كما نراها من الزوايا التي تفسر لنا مشاهدتها ، وهي صورة
خلاصة ما يقال فيها أنها تجمع لونا من « التضاد الجغرافي » يلفت النظر ،
ويجدر بنا أن نقف عنده لأن فيه مفتاحاً من مفاتيح هذه القصة ، ولأنه
يكشف لنا جانباً من الستار عنها .

والخطوط الأساسية لهذه الصورة هي أنها منطقة صحراوية جبلية ، عرفت

(١) Dermenghem; The life of Mahomet, pp. 11, 12.

(٢) Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368.

(٣) ديوانه / ١٠٦ .

(٤) انظر ديوانه / ٢٨٢ ، ٢٨٤ .

(٥) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 23.

(٦) ياقوت : معجم البلدان ٣/ ٤٩٥ .

(٧) المصدر السابق ٦/ ١٩٩ .

(٨) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 98.

الأغوار المنخفضة ذات الحرارة الشديدة ، والجبال العالية ذات القمم الثلجية ، وعرفت بينهما مناطق رملية مترامية الأطراف كثيرة المجهل والمخاوف . ثم هي منطقة عرفت الجذب الذي تتعذر معه الحياة ، حتى يضطر أهلها إلى الهجرة ، والخصب الذي يغري الناس على الاستقرار وإقامة القرى ، وعرفت المطر يجتنب حتى تصبح البادية غير صالحة للسكن ، والسيول تتدفق حتى تجرف أمامها كل شيء ، وعرفت البرد الذي يعقد ذنب الكلب ، والحر الذي يذيب دماغ الضب ، ويطبخ الإبل ويشويها .

وكان لهذا « التضاد الجغرافي » أثره في نفوس سكان الجزيرة العربية ، فقد أوجد في شخصياتهم لوناً من « التضاد النفسي » اضطبغت عناصره بما في البيئة الجغرافية من لوني المبالغة وعدم الاستقرار . وظهر هذان اللونان الصارخان في نفوس البدو في كلا الجانبين الأخلاقيين : جانب الخير وجانب الشر ، فالبدوي لا يعرف القصد لا في الخير ولا في الشر ، مبالغ في عداوته ، مبالغ في محبته ، لا يتورع عن الغدر ، ولكنه إذا عاهد على الوفاء بذل حياته في سبيل عهده ، يغزو وينهب حتى يكاد يفقد حياته ، ثم يوزع ما يغنمه على سواه .

والبدوي — إلى جانب هذا — يأنف من حياة الاستقرار ، ويرى الدارسون أن « كل جانب من جوانب الحياة البشرية في الصحارى يحمل طابع الحركة »^(١) ، وأن « القاعدة التي تقوم عليها حياة البدو قاعدة متقلقة »^(٢) . ومن هنا احتقر البدو الزراعة^(٣) ، ويذكر ابن خلدون أنها « من معاش المتضعين وأهل العافية من البدو »^(٤) ، واحتقروا الصناعة^(٥) ، وعند ابن خلدون أن « العرب أبعد

(١) Semple; Influences of Geographic Environment, pp. 487, 488.

(٢) Ibid., p. 490.

(٣) Ency. of Islam; art. Arabia, p. 375; & Semple; Influences of Geographic

Environment, p. 500.

(٤) انظر الفصل الثامن من الباب الخامس من الكتاب الأول من المقدمة / ٣٩٤ .

(٥) The Ency. of Islam; art. Arabia, p. 375.

الناس عن الصنائع»^(١). وآمنوا بأن الرعى والتجارة والصيد والنهب هي وحدها الأعمال التي تليق بالرجال^(٢)، وهي كلها أعمال بعيدة عن الاستقرار. ونستطيع بعد هذه النظرة العامة أن نركز الضوء على أبطال قصتنا، صعايلك العرب، حيث يتحركون على هذا المسرح الجغرافي الذي رسمنا خطوطه الأساسية، لتبين كيف تأثرت حركتهم به، وكيف تكيفت معه. وأول ما نلاحظه أن هذه البيئة الجغرافية كانت عاملاً أساسياً في وجود الفقر من ناحية، وفي الإحساس به من ناحية أخرى. فهذه البيئة الصحراوية ذات المناخ الحاد، والموارد الطبيعية المحدودة، التي تعتمد على المطر تجود به السماء في فترات متباعدة غير منتظمة، والتي يسيطر عليها الجفاف والجذب أكثر شهور السنة، والتي تقع تحت وطأة الطبيعة مباشرة، فلا يجد أهلها إذا ما اشتدت عليهم إلا الهجرة، عامل فعال في وجود الفقر.

ويلاحظ الدارسون أن «البدوي والعوز صاحبان ألف كل منهما صاحبه»^(٣)، وأن «الفقر مكان الشظف والسَّخْب». وأن «نكد العيش وشظف الأحوال وسوء المواطن» التي اختص بها أهل البادية أمور «حملتهم عليها الضرورة التي عينت لهم تلك القسمة»^(٤)، وأن الظروف الاجتماعية التي تسود البيئة الصحراوية توصل أبواب الرزق في وجوه أبنائها، وتجعل من العمل في سبيله مهمة شاقة غير مثمرة، فهي حياة تعرف الكدح الكثير، ولكنها تضيع ثمرته^(٥). «فهذه السهول القاحلة تحول دون نمو الثروة الإنتاجية، فيما عدا قطعان الغنم والماشية، بل إنها تحد من نمو هذه القطعان نفسها، نظراً لقلة ما تقدمه لها مراعيها الهزيلة المتفرقة من غذاء، وهو غذاء لا يتجاوز تلك

(١) انظر الفصل الحادي والعشرين من الباب الخامس من الكتاب الأول من المقدمة / ٤٠٤.

(٢) The Ency. of Islam; art. Arabia, p. 375

(٣) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 490

(٤) ابن خلدون: المقدمة، الفصل التاسع من الباب الثاني من الكتاب الأول / ١٢٩.

(٥) Semple; Influences of Geographic Environment, p. I.

الحشائش والأعشاب وما يشبهها من أنواع النبات التي نحتمل جفاف صيف طويل ، والتي تحتاج إلى وقت قصير لنموها»^(١) . وهكذا انحصرت حياة البدو دون تدخل منهم في الرعى ، ما دامت الموارد الطبيعية التي لديهم قد حصرت ثروتهم في هذه القطعان . ومع ذلك فإن هذه الثروة النسبية التي يملكها البدوي ليست بالثروة المضمونة البقاء فإن « وباء ينتشر بين قطعانه ، أو جذباً في المرعى ، أو جفافاً في الآبار ، يضعه وجهاً لوجه أمام المجاعة ، ويدفعه دفعاً إلى السرقة والنهب»^(٢) .

وكما كانت هذه البيئة الطبيعية عاملاً في وجود الفقر كانت عاملاً في إحساس الفقراء إحساساً قوياً به ، حين أوجدت في جوار المناطق المجذبة مناطق خصبة ، مما أشعر أبناء المناطق المجذبة بأن الحياة لم تحرم الناس جميعاً كما حرمتهم ، وإنما أغلقت على طائفة من الناس ماءً لا ينضب ، وكلاً لا يجف ، وثروة لا تهددها الطبيعة في كل لحظة بالفناء ، بقدر ما سلطت عليهم من سياط الحرمان جفافاً وجذباً وفقراً . والنتيجة النفسية لهذا - كما يقرر علماء النفس - نشأة « عقدة الفقر » في نفوسهم . ولو أن الطبيعة سوت بين أهل البادية جميعاً في الفقر لما أحس أحد هذه الفوارق الطبقيّة التي تثير في نفوس الطبقة الفقيرة الثورة والتمرد ، وهذا معنى قولنا إن ظاهرة « التضاد الجغرافي » تحمل مفتاحاً من مفاتيح قصة صعاليك العرب .

ثم إن هذه البيئة الجغرافية خلقت من أبنائها رجالاً أقوياء . فالصحراء - كما يقرر الدارسون - تربي في نفوس أبنائها « صفات الشجاعة والجرأة ، والكبرياء العنيدة ، كبرياء الرجال الأحرار»^(٣) ، «وحياة الصحراء بما فيها من مخاطرة ، واعتماد على النفس ، تجعل من العربي أشجع الجنس البشري»^(٤) ،

(١) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 489.

(٢) Ibid., p. 490.

(٣) Ibid., p. 510.

(٤) Ibid., p. 493.

« وأهل البدو » - كما يذكر ابن خلدون^(١) - « أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر ... قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة مسجية » ، ومرد هذا عنده إلى حياتهم التي يحيونها في البيداء ، والإنسان « ابن عوائده ومألوفه » .

وقد رأينا أن هؤلاء الرجال الأقوياء من أبناء الصحراء يرفضون الاعتماد في حياتهم على الزراعة أو الصناعة ، ولا يجلدون سبيلاً للعيش إلا في الرعي أو التجارة أو الصيد أو النهب ، ورأينا في الفصل السابق كيف كان صعاليك العرب يرفضون الرعي ، لأنهم يرون فيه عملاً من أعمال العبيد الأذلاء ، أما التجارة فلم يكن للصعاليك مجال فيها ، إذ هي تعتمد قبل كل شيء على رأس مال يستغل فيها ، وأننى هؤلاء الفقراء رأس المال الذي يصلح للاستغلال التجاري ؟ وإذن لم يبق أمامهم سوى الصيد والنهب ، وقد اعتمدوا عليهما جميعاً ، وهما - كما نرى - سبيلان للعيش متشابهان ، أو هما فرعان لأصل واحد هو الاغتصاب . هكذا خلقت الصحراء هؤلاء الرجال الأقوياء ، ووضعتهم في بيئتها الفقيرة ، وضيق عليهم موارد العيش ، وأوجدت في جوارهم بيئات خصبة تفيض بالمال والثراء ، فلم يكن هناك مفر من النتيجة التي تنتج من تفاعل هذه العوامل معاً ، وهي « الغزو والإغارة للسلب والنهب » .

وانتشر صعاليك العرب في البادية يقطعون طرقها ، وينهبون ويسلبون ، ويشيرون في أرجائها الرعب والفرع ، ويغيرون على المناطق الحصنة ، ويهددون أهلها في ثروتهم وحياتهم ، ويعترضون القوافل التجارية ، حتى لتضطر إلى أن تخرج مسلحة في حرس شديد ، أو تحتاج إلى من يجيزها على المناطق الخطرة^(٢) ، وحتى لتتكب القبائل العربية في اختيار منازلها مقاب العرب في سراياهم^(٣) ، ويحذر بعضهم بعضاً من أن يتلعب به صعاليك العرب ، وتتخطفه ذئابها ، وتأكل ماله^(٤) .

(١) المقدمة الفصل الخامس من الباب الثاني من الكتاب الأول / ١٢٥ .

(٢) انظر قصة البراض الكثناني وعروة الرجال مع لطيمة النعمان في الأغاني ٧٥/١٩ ،

وانظر في قصص الخفارة المخبر لابن حبيب / ٢٦٣-٢٦٧ .

(٣) البكري : معجم ما استعجم ٥٣/١ .

(٤) الأغاني ١٢٦/٢ ، والبغدادى : خزانة الأدب ١٨٥/١ - ١٨٦ .

التضاد الجغرافى وأثره فى توجيه حركات الصعاليك :

وتتدخل ظاهرة « التضاد الجغرافى » مرة أخرى لترسم لهؤلاء الصعاليك المغامرين طريقهم ، وتحدد لهم مناطق نشاطهم ، فتكون هى تلك المناطق الحصبة التى تعرفها الجزيرة العربية .

ويلاحظ الدارسون أن هذا الصراع هو الصلة الجغرافية الطبيعية بين الصحارى المقفرة والوديان الحصبة ، بين أرض الفقر وأرض الثراء^(١) ، فنجد أقدم العصور ، وهذا النطاق الصحراوى الذى يطوق الدنيا القديمة ، يرسل على الوديان الحصبة المجاورة موجات متلاحقة من القبائل المغيرة الباحثة عن الخصب فى تلك الأرض الطيبة ، عندما تقل لديها موارد الرزق ، ويمرّق جفاف الصيف المراعى ، ويحفظ موارد المياه^(٢) . وليس من الممكن أن يعيش بدو الصحارى وحضر السهول الزراعية فى أى مكان متجاورين فى سلام وإنما هى الغارات والاعتداءات والثارات^(٣) ، حتى ليعد هذا النطاق الصحراوى منطقة تقدّم لكل أعداء النظام الحماية والأرض الصالحة للتجنيد^(٤) .

هكذا اتخذ صعاليك العرب من مناطق الخصب فى الجزيرة العربية أهدافاً لهم يتجهون إليها ، ومناطق نشاط يعملون فيها ، حتى إننا لو رسمنا مصوراً جغرافياً لحركات الصعاليك فى الجزيرة العربية ، ووضعنا عليه السهام التى تبين الاتجاهات - كما يفعل أصحاب الخطط الحربية - لوجدنا هذه السهام تخرج من مناطق الجذب ، وتتجه رعوها إلى مناطق الخصب . ويذكر تأبط شراً أن أهدافه هى تلك المزارع الحصبة حيث الماء والزرع والماشية :

(١) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 487.

(٢) Ibid., p. 7.

(٣) Ibid., p. 492.

(٤) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 3.

فيوماً على أهل المواشي ، وتارة لأهل رَكِيب ذى ثَمِيل وسَنِيل^(١)
ويصرح أبو خراش بمثل هذه الأهداف :

لستُ لمرةٍ إنْ لم أوفِ مَرْقَبَةً يبدولى الحرفُ منها والمقاضيِبُ^(٢)
وفي أخبار السليك أنه خرج في بعض غزواته يتبع الأرياف^(٣) .

وقد لاحظنا أن أهم مناطق الحصب في الجزيرة العربية هي اليمن ، ونجد ،
وبعض مناطق السراة ، ويثرب والوديان المحيطة بها . ونستطيع أن نقول — ونحن
مطمئنون — إن كل هذه المناطق ، بدون استثناء ، تعرضت لغزوات الصعاليك .

وقد توزع نشاط الصعاليك بين هذه المناطق ، حتى ليوشك أن تكون
لكل جماعة من جماعاتهم مناطق اختصاص يتركز فيها نشاطهم :

أما عروة بن الورد وصعاليكه ، أو « فتياه » كما كانوا يسمون أحياناً^(٤) ،
فقد تركز نشاطهم الأساسي في منطقة يثرب وما يجاورها من شمالي الجزيرة
العربية . وفي شعره وأخباره أحاديث كثيرة عن غزواته لهذه المنطقة . فهو يعلن
صعاليكه مرةً بأنهم لن يحققوا كل آماله ، ولن يبلغوا أقصى همته ، حتى
يصلوا إلى يثرب منبت النخل فيغيروا عليها :

فإنكم لن تبلغوا كل همتي ولا أربي حتى تروا منبت النخل^(٥)
وفي أبيات أخرى يتوعد الأوس ، ويعلنهم بأنه سيقصد لهم بأحد الأودية
حول يثرب :

(١) لسان العرب : مادة (ركب) ، ومادة (ثمل) — الركب : المزرعة . والتميل : الحب .
(٢) ديوان الهذليين ١٥٩/٢ . ويرى في لسان العرب : مادة (قضب) لعروة بن الورد
(انظر أيضاً ديوانه / ١٩٣) . والواضح أنه لأبي خراش فإن مرة هو أبوه — أوفى : أشرف .
والحرف من الجبل : أعلاه المحدد ، ولعلها هنا تحريف صوابه « الحرث » بمعنى النبات ، بدليل
« المقاضيِب » بـمـدها ، وهي الأرض تنبت النبات الرطب ، جمع مقضبة أو مقضاب .
(٣) ابن حبيب : كتاب المغتالين (مصورة) لوحة رقم ٩٠ . وانظر أيضاً شرح التبريزي
على حماسة أبي تمام ١٩٢/٢ .

(٤) انظر شرح التبريزي على حماسة أبي تمام ٨/٢ .

(٥) المصدر السابق ٨/٢ ٩٠ .

فإلّا أنلّ أوساً فإني حسبها بمنبطح الأدغال من ذى السلائل^(١)
 وفي أخباره أنه أغار على مزينة^(٢) ، ومنازل مزينة « جبال رَضْوَى
 وقُدُس وآرة وما والاها وصاقبها من أرض الحجاز »^(٣) « بين حرة بنى سُلَيْم وبين
 المدينة »^(٤) ، بل إننا لسنا في حاجة إلى هذا التحديد ، فإن قصة الغارة صريحة
 في أن مزينة كانوا يخالطون بنى النضير^(٥) ، وعروة نفسه يذكر في شعره أنهم
 كانوا ينزلون « فويق بنى النضير »^(٦) ، وبنو النضير كانوا يتواشى يثرب^(٧) .
 وهذه المنطقة التي أغار عليها منطقة خصبة « فيها العيون والنخل والزيتون والبان
 والباسمين والعسل وضروب من الأشجار والنبات »^(٨) . وفي أخباره أيضاً أنه
 كان ينزل بصعاليكه في ماوان ، ويجعل منها « نقطة ارتكاز » لغزواته في
 تلك المنطقة^(٩) ، وماوان واد فيه ماء بين النقيرة والربذة في منطقة يثرب^(١٠) ،
 وهو يتحدث في بعض شعره عما كان يحدث له مع صعاليكه في هذه المنطقة^(١١) ،
 وفي أخباره أيضاً أنه خرج بصعاليكه « متيامناً عن المدينة يريد أرض قضاة ،
 وقصد بَلْقَيْن »^(١٢) ، وأنه في مرة أخرى خرج بهم غازياً « ومضى حتى انتهى

-
- (١) الأغاني ٧٥/٣ . وذو السلائل : واد بين الفرع والمدينة (ياقوت : معجم البلدان
 ١٠٥/٥) ، والفرع قرية غناء كبيرة بها نخل ومياه كثيرة (المصدر السابق ٣٦٣/٦) .
 (٢) الأغاني ٧٥/٣ .
 (٣) البكري : معجم ما استعجم ٨٨/١ .
 (٤) المصدر السابق / ٩١ .
 (٥) الأغاني ٧٦/٣ .
 (٦) ديوانه / ٤٥ .
 (٧) تاريخ ابن خلدون ٨٢/٢ .
 (٨) البكري : معجم ما استعجم ٣٧/١ .
 (٩) الأغاني ٧٩/٣ ، ٨٥ ، وديوانه / ٩٧ ، وشرح التبريزي على حماسة أبي تمام
 ٩/٢ - سطر ١٨ .
 (١٠) ياقوت : معجم البلدان ٣٧٠/٧ .
 (١١) شرح ابن السكيت على ديوانه / ٩٧ وما بعدها . وشرح التبريزي على حماسة
 أبي تمام ٧/٢ ، ٩ .
 (١٢) شرح التبريزي على حماسة أبي تمام ٨/٢ سطر ١٢ ، ١٣ . وانظر أيضاً شرح
 ابن السكيت على ديوانه / ٩٦ .

إلى بلاد بني القين فأغار عليها^(١) ، ومنازل بني القين في أرض التيه^(٢) في الشمال الغربي من جزيرة العرب^(٣) ، وهو يعلن صعاليكه بأنه لن يستقر بهم حتى يروا « منبت الأثل »^(٤) ، ومنبت الأثل بلاد بني القين^(٥) .

ومع ذلك فقد كان عروة يغير أحياناً على مناطق أخرى غير مناطق اختصاصه، وهو يصرح في شعره بأنه يغير أحياناً على نجد، وأحياناً على تهامة :
 فيوماً على نجد وغارات أهلها ويوماً بأرض ذات شث وعزعر^(٦)
 وفي أخباره أنه أغار مرة على منازل هذيل^(٧) ، ومنازل هذيل في جبال السراة^(٨) جنوبي مكة^(٩) ، ولكن يبدو أن هذا كان نادراً ، ولعله لم يكن يحدث إلا في حالات خاصة ، فقصة غارته هذه لم تكن إلا لوناً من التسلية أراد به أن يظهر براعته وسعة حيلته ، وأن يبين للهذلي الذي أغار عليه مقدار غفلته ، حتى ليرد عليه ما غنمه منه ، لولا أن يأتي الهذلي ذلك إعجاباً به^(١٠) .

أما منطقة جبال السراة فيما بين مكة والطائف ، وأول الطريق الصاعد إلى اليمن ، فلعلها المنطقة التي شهدت أكبر عدد من صعاليك العرب ، ويذكر الأصمعي أن بالحجاز والسراة من هؤلاء العدائين الذين يعدون على أرجلهم ويختلسون أكثر من ثلاثين^(١١) ، وأن بهذيل وحدها منهم أربعين^(١٢) ، ومرد

(١) الأغاني ٨٢/٣ .

(٢) شرح التبريزي على حماسة أبي تمام ٨/٢ مطر ١٨ ، ١٩ .

(٣) Ency. of Islam; art. 'Urwa b. Al-Ward. (٣)

(٤) شرح ابن السكيت على ديوانه / ١٠٦ .

(٥) شرح التبريزي على حماسة أبي تمام ٩/٢ - السطر الأول .

(٦) ديوانه / ٨٤ .

(٧) الأغاني ٨٣/٣ .

(٨) البكري : معجم ما استعجم ٨٨/١ .

(٩) Ency. of Islam; art. Arabia, p. 368. (٩)

(١٠) انظر القصة في الأغاني ٨٣/٣ - ٨٥ .

(١١) الأصمعي : فحولة الشعراء (مخطوطة) ورقة رقم ١٥ .

(١٢) المصدر السابق ، ورقة رقم ٢٢ .

ذلك عندى إلى أربعة عوامل :

فهذه المنطقة ، أولاً ، منطقة يظهر فيها « التضاد الجغرافى » ظهوراً شديداً ، حتى ليعدها الجغرافيون من المناطق التى يختلط فيها الرعى بالزراعة^(١) . ففيها من المناطق ما يصفه القرآن الكريم بأنه واد غير ذى زرع^(٢) ، ويذكر بعض الدارسين أن ليس فيما يحيط بمكة من أرض ما يكفى لحياة سكانها^(٣) ، وليس فى جميع جبال مكة — كما يذكر الجغرافيون — نبات إلا شىء يسير من الضهياء يكون فى الجبل الشامخ ، وليس فى شىء منها ماء^(٤) ، ولكن فى هذه المنطقة إلى جانب هذا مناطق شديدة الخصب ، وقد رأينا منها الطائف ، وتعد منطقة السراة جنوبى مكة أشد مناطق الحجاز خصباً^(٥) ، تنمو بها أشجار الصمغ والصنوبر والسرو^(٦) ، وقد قلنا إن ظاهرة التضاد الجغرافى تثير فى نفوس الفقراء إحساساً قوياً بالفقر يدفعهم إلى التمرد .

وهذه المنطقة ، ثانياً ، منطقة جبلية . وسكان المناطق الجبلية — فى العادة — أشداء مغامرون متكبرون ، أخذوا من الصخر شدته ، ومن التواء الدروب حب المغامرة ، ومن شموخ الجبال الكبرياء العنيدة التى ترفض الخضوع . ويقرر الدارسون للبيئات الجغرافية « أن سكان الجبال الذين لم

(١) انظر المصور الجغرافى فى كتاب :

Semple; Influences of Geographic Environment, p. 487.

(٢) إبراهيم / ٣٧ .

(٣) Sédillot, Histoire Générale des Arabes, Tome I, p. 12.

(٤) ياقوت : معجم البلدان ٢٤٠/٣ — والضهياء : شجر كثير الشوك .

(٥) Ency. of Islam, art. Arabia, p. 368.

(٦) Lammens, Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 92.

وليس صحيحاً ما ذكره لامانس من أن جبالها تنبت الجوز بكثرة ، امتداداً إلى أنها تسمى جبال الجوز ، كما أنه ليس صحيحاً ما ذكره من أن كل منطقة الحجاز تنبت الجوز امتداداً إلى السبب نفسه . . . (Ibid., pp. 92, 93)

فالجوز هنا ليس المراد به تلك الثمرة المعروفة ، وإنما معناه الوسط ، فهى جبال الجوز لأنها تتوسط بين نجد وتهامة ، وكذلك القول فى الحجاز ، وليس هناك أى دليل على أن هذه المنطقة تنبت الجوز (انظر تاج العروس ، مادة جوز) .

يأخذوا بقسط وافر من الحضارة ، والذين لم تهيئهم أمزجتهم أو ظروفهم الاقتصادية الضيقة للهجرة ، يحلون مشكلة نقص موارد الطعام بالإغارة على حقول جيرانهم الأغنياء ومخازنهم ، حتى تملأ غارات النهب تاريخ سكان الجبال الفطريين ^(١) ، ويذكرون أن سكان الجبال القدماء في الألب وشمال أسبانيا والبلقان وإيطاليا والمرتفعات المحيطة بالفراطين ، كلهم قطاع طرق ، يعيشون على النهب والسلب ، نظراً لجذب بيئتهم الطبيعية وما تسببه لهم من قلة موارد العيش وما يتبع ذلك من فقر وجوع ^(٢) .

وهكذا لم تكن القبائل العربية التي نزلت في المناطق الجبلية من سلسلة جبال السراة بدعاً في تاريخ العالم .

ثم إن هذه المنطقة ، ثالثاً ، بحكم طبيعتها الجبلية تيسر وسائل الهرب والاختفاء والنجاة لهؤلاء الصعاليك ، فما أيسر ما يجدون في دروبها الملتوية ، وشعابها المتعرجة ، وطرقها الصاعدة الهابطة ، فرصاً طيبة تساعد على الهرب ، وما أكثر ما يجدون في كهوفها المتعددة ، وثناياها الغامضة المحجبة ، وصخورها العالية المتناثرة ، أماكن صالحة للاختفاء .

ففي أخبار تأبط شراً أنه أغار ومعه ابن براقه على بجيلة ، فلما خرجت في آثارها « مضيا هاربين في جبال السراة ، وركبا الخزن » ^(٣) ، وفي أخبار مرة بن خليف ^(٤) أنه غزا الأزدي ، « فأسند في جبل لهم منكر ، ليجد فرصة فيغير » ^(٥) .

ثم إن هذه المنطقة ، رابعاً ، تعرضت لظروف اقتصادية خاصة ، سنعرض لها عند تفسيرنا الاقتصادي لظاهرة الصعلكة .

وأشهر الصعاليك الذين انتشروا في هذه المنطقة الجبلية صعاليك فهم وصعاليك هذيل ، ومن انضم إلى أولئك وهؤلاء من خلعاء القبائل وشذاذها .

(١) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 586.

(٢) انظر تفصيل هذا في المصدر السابق : الموضع نفسه .

(٣) الأغاني ٢١١/١٨ .

(٤) ينص الأغاني على أنه من صعاليك فهم (٢١٥/١٨) .

(٥) ابن حبيب : المحبر / ١٩٨ .

وقد قدمنا أن قبيلة هذيل كانت تنزل من تلك المنطقة الجبال جنوبى مكة ، وكان لهم صدور أوديتها وشعابها الغربية^(١) التى تلى الرملة من تهامة^(٢) ، وكانت تجاورهم فى جبالهم فههم^(٣) ، وكانت سراة فهم تجاور سراة ثقيف^(٤) التى تقع إلى جانب الطائف^(٥) .

وقد اتجهت أكثر غزوات صعاليك هذه المنطقة إلى ديار بجيلة ، وهى إحدى القبائل التى عرفت بالضعف^(٦) . ويبدو أن من أسباب هذا نزول بجيلة « فى حضرة الطائف »^(٧) هذا الإقليم الشديد الخصب ، ومجاورتها سراة فهم نتيجة لذلك . ولهذا نلاحظ أن تأبط شرا الفهمى ، ورفاقه من صعاليك فهم ، ومن شذاذ القبائل الذين كانوا يصحبونه ، كانوا مفتونين بالإغارة على هذه المنطقة ، فى أخباره أنه خرج فى عدة من فهم « حتى بيتوا العوص ، وهم سحى من بجيلة ، فقتلوا منهم نفراً ، وأخذوا لهم إبلًا »^(٨) ، وأنه أغار « ومعه ابن براق الفهمى على بجيلة فأطردا لهم نعماً »^(٩) ، وأنه خرج ومعه صاحبان له « يريدون الغارة على بجيلة »^(١٠) ، و « أنه خرج غازياً يريد بجيلة هو ورجل معه » ، أو « هو وصاحبان له حتى أغاروا على العوص من بجيلة فأخذوا نعماً لهم »^(١١) ، وفى أخبار صعاليك هذيل أنهم كانوا يغزون بجيلة أيضاً^(١٢) .

وقد اتجهت غزوات صعاليك هذيل إلى منطقة مكة أيضاً ، بحكم قربهم

(١) البكرى : معجم ما استعجم ٨٨/١ .

(٢) السيوطى : المزهر ٣٠٠/٢ .

(٣) البكرى : معجم ما استعجم ٨٨/١ .

(٤) المصدر السابق ١٥/١ .

(٥) المصدر نفسه ٦٧/١ .

(٦) W. Robertson Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 170. (F.N.)

(٧) البكرى : معجم ما استعجم ٩٠/١ .

(٨) الأغاني ٢١٥/١٨ .

(٩) المصدر السابق ٢١١/١ .

(١٠) المصدر نفسه ٢١٧/١ .

(١١) المصدر نفسه ٢١٢/١ .

(١٢) السكرى : شرح أشعار الهذليين ٢٣٢/١ ، ٢٣٤ .

منها ، ففي أخبار الأعلام الهذلي أنه خرج « هو وأخواه صخر وصُخَيْر حتى أصبحوا تحت جبل يقال له السُّطَاع »^(١) ، وهو جبل بين مكة ومرحلة ونصف من جهة اليمن^(٢) ، وفي أخبار بعض الصعاليك الهذليين أنهم كانوا يغيرون على خزاعة^(٣) ، وكانت خزاعة تقيم بمكة^(٤) ، ولكن يبدو أن للمسألة جانباً آخر اقتصادياً سنحاول استجلاءه في تفسيرنا الاقتصادي لظاهرة الصعلكة. وقد كانت بين هذيل وفهم ثارات^(٥) ، فكان صعاليك كل من القيلتين يغيرون على الأخرى ، فيربص بهم صعاليكها ، وهكذا . ويبدو أن سر المسألة يرجع إلى الصراع بين الطائفتين على أهداف واحدة ، وقد رأينا أن صعاليك هذيل كانوا يغيرون على بجيلة ، هدف صعاليك فهم الأول ، ويبدو أن كلا من الطائفتين كانت تريد أن تكون لها وحدها السيطرة المطلقة على هذه المنطقة الحصية .

أما منطقة اليمن فقد عرفت أجزاءها القريبة من الحجاز ، وبخاصة ديار خثعم ، صعاليك من فهم وصعاليك من الأزد ، ففي أخبار تأبط شرّاً أنه « أغار على خثعم »^(٦) ، وفي أخبار حاجر الأزدي أنه جمع « ناساً من فهم وعدّوان ، فلحم على خثعم ، فأصابوهم غرة وغنموا ما شاءوا »^(٧) ، وكانت خثعم تنزل تربة ويثشة وظهر تبالة على محجة اليمن من مكة إليها^(٨) ، وهي منطقة خصبة « بها من النخل والفسيل شيء كثير »^(٩) ، وبعض أوديتها ،

(١) الأغاني ٢٠/٢٠ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ٨١/٥ .

(٣) السكري : شرح أشعار الهذليين ١٦١/١ ، وديوان الهذليين ١٤٢/٢ .

(٤) تاريخ ابن خلدون ٧١/٢ .

(٥) انظر أمثلة على هذه العداوات في السكري : شرح أشعار الهذليين ٢٢٣/١ ، ٢٤٣ ،

٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ .

(٦) الأغاني ٢١٦/١٨ ، ٢١٧ .

(٧) الأغاني ٥١/١٢ (بولاقي) .

(٨) البكري : معجم ما استعجم ٩٠/١ وأيضاً / ٦٣ .

(٩) ياقوت : معجم البلدان ٣٣٤/٢ .

وبخاصة وادي بيشة ، ينتمى إلى أطيب مناطق بلاد العرب ، وأكثرها خصباً^(١) ، ويصف ياقوت بيشة بأنها « قرية غناء في واد كثير الأهل من بلاد اليمن »^(٢) . وكذلك تعرضت سراة الأزد لبعض الغزوات ، فقد كان الشنفرى يغير من ديار فهم على الأزد فيمن معه من فهم أحياناً ، ووحده أكثر الأحيان^(٣) ، وفي أخبار مرة بن خليف « أنه غزا الأزد »^(٤) . ويبدو أن من أسباب ذلك أن سراة الأزد كانت تجاور سراة فهم ، فسراة الأزد تتلو سراة فهم من ناحية اليمن^(٥) ، وإن تكن بينهما طائفة من السروات تنزلها قبائل أخرى^(٦) ، ولكن الأزد كانوا ينزلون منطقة خصبة ، فقد كانت منازلهم « أودية مستقبلة مطلع الشمس بثليث وقرية وبيشة »^(٧) وهي المنطقة التي كانت تنزل فيها خشم ، فقد كانت خشم تنزل أوساط هذه الأودية^(٨) .

أما مناطق اليمن البعيدة فقد تخصص في الإغارة عليها السليك ، وقد مر بنا أن عمرو بن معد يكرب وصفه بأنه بعيد الغارة ، وفي أخباره أنه كان « يتجاوز بلاد خشم إلى من وراءهم من أهل اليمن فيغير عليهم »^(٩) ، وفيها أنه كان « يغير على اليمن »^(١٠) ، وفيها أنه انطلق مع رجلين ليغيروا « فأتوا جوف مراد »^(١١) ، وجوف مراد في أرض مباء^(١٢) .

ومع ذلك فقد كان تأبط شرا يتعدى على اختصاص السليك فيغير على

(١) Ency. of Islam; Art. 'Asir, p. 487.

(٢) ياقوت : معجم البلدان ٢/٢٣٤ .

(٣) الأغاني ٢١/١٣٥ .

(٤) ابن حبيب : المحبر ١٩٨ .

(٥) الهمداني : صفة جزيرة العرب ١/١٢١ .

(٦) المصدر السابق ١١٩ .

(٧) البكري : معجم ما استعجم ١/٩٠ .

(٨) المصدر السابق ٩٠ .

(٩) الأغاني ١٨/١٣٧ ، ١٢٨ .

(١٠) المصدر السابق ١٣٤ .

(١١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٢١٥ .

(١٢) ياقوت : معجم البلدان ٣/١٧٥ .

هذه المنطقة أحياناً ، ففي أخباره أنه خرج يوماً « يريد الغارة فلقى سرُحاً لمراد فأطرده ، ونظرت به مراد ، فخرجوا في طلبه فسبقهم إلى قومه »^(١) .

وكان السليك يعد العدة لتلك الغارات البعيدة التي يضطر معها إلى اختراق المقازة المهلكة التي توصل إلى اليمن ، فكان ، أولاً ، لا يغير إلا في الصيف حينما تنقطع إغارة الخيل^(٢) ، فيضمن بهذا عدم تعرضه لمطاردات الخيل البعيدة المدى ، وهو لا يملك إلا قدميه يعدو بهما ، ثم كان ، ثانياً ، يدبر « موارد تمويته » في طريق غزواته الجلب ، فكان « في الربيع يعتمد إلى بيض النعام ، فيملؤه من الماء ، ويدفنه في طريق اليمن في المقاوز ، فإذا غزا في الصيف مر به فاستأثره »^(٣) ، وكان يعتمد في هذا على خبرته الواسعة بمجاهل الصحراء ، فقد كان — كما يصفه الرواة — « أدل من قطاة ، يجيء حتى يقف على البيضة »^(٤) .

والشيء الذي يلفت النظر في صعاليك هاتين المنطقتين الأخيرتين : منطقة السراة الممتدة من مكة حتى أول الطريق الصاعد إلى اليمن ، ومنطقة السراة الممتدة بعد ذلك حتى اليمن ، هو أن أكثرهم — إن لم يكونوا جميعاً — من العدائين الرّجّليين الذين يعدون على أرجلهم ، فيسبقون الخيل ، وقد رأينا أن المثل في سرعة العدو يضرب باثنين منهم هما السليك والشنفري ، وأن الأصمعي يذكر أن في هذيل وحدها أربعين من هؤلاء العدائين ، ويذكر السكري « أن هذيلاً ليسوا بأصحاب دواب ، وإنما هم رَجَّالَة »^(٥) ، وديوان الهذليين ناطق بكثرة عدد هؤلاء العدائين الذين كانوا يعتمدون على العدو في غاراتهم وفي فرارهم ، وتشهد بهذا أيضاً حماسة البحري^(٦) .

(١) الأغاني ٢١٦/١٨ .

(٢) المصدر السابق ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٣) المصدر السابق ١٣٥ .

(٤) المصدر السابق ١٣٤ .

(٥) ديوان الهذليين ٧٦/٢ .

(٦) انظر الباب الخامس والعشرين « فيما قيل في الفرار على الأرجل » ٦٣ - ٦٩ .

ومرد ذلك ، عندى ، إلى أمرين :

أولهما : طبيعة المنطقة الجغرافية ، فهي منطقة جبلية تمتد على طول الساحل الشرقى للبحر الأحمر ، « مقبلة من قُعرَة اليمن حتى تبلغ أطراف بواى الشام »^(١) « فى عرض أربعة أيام فى جميع طول السراة ، يزيد كسرَ يوم فى بعض هذه المواضع ، وقد ينقص مثله فى بعضها »^(٢) ، وترتفع بعض ذراها إلى خمسمائة وألفين من الأمتار^(٣) . وفى الجبال تشتد عضلات الأرجل إلى درجة غير عادية نتيجة لطبيعة الأرض ، وما تستلزمه من صعود وهبوط دائمين ، ويقرر الدارسون « أن الطبيعة تمنح سكان الجبال عضلات فى سيقانهم من حديد ليتسلقوا بها المرتفعات »^(٤) .

والآخر : أن هذه المنطقة الجبلية المحدبة ليست بالمنطقة الصالحة لتربية الخيل ، لأن الخيل لا تُربى إلا فى البقاع الخصبة^(٥) ، ومن هنا اعتمد هؤلاء الصعاليك على أقدامهم فى كل تحركاتهم .

ولهذا السبب أيضاً نلاحظ أن عروة وصعاليكه ممن كانوا يغيرون على منطقة نجد وشمالى الجزيرة العربية لم يذكر عنهم أنهم كانوا من العدائين أو الرحليين ، وإنما كانوا يستخدمون الخيل أحياناً^(٦) ، وذلك لأن هذه المناطق مناطق خصبة تصلح لتربية الخيل ، وهم يذكرون أن « فى نجد وحدها أعز الخيول العربية وأرشقها »^(٧) .

والواقع أن هذه الظاهرة ، ظاهرة شدة العلو الحارقة للعادة ليست بالأمر المستحيل الذى يأباه واقع الحياة ، فإننا نجد فى حياتنا الواقعية التى تحيط بنا

(١) الهمداني : صفة جزيرة العرب ٤٨/١ .

(٢) المصدر السابق ٦٧/١ .

(٣) جوستاف لوبون : حضارة العرب ٥١/ .

(٤) Semple; Influences of Geographic Environment, p. ١. (٤)

(٥) جوستاف لوبون : حضارة العرب ٥٥/ .

(٦) انظر ديوان عروة ٦٨/ ، ٦٩ ، ١١١ .

(٧) جوستاف لوبون : حضارة العرب ٥٥/ .

ما يؤيد ما حملته إلينا مصادر الأدب العربي القديم من أخبار تلك السرعة التي عرف بها صعاليك السراة .
ومرد المسألة في جميع هذه الحالات إلى تكثف الإنسان عضوياً مع البيئة الطبيعية التي يعيش فيها ، والحياة التي يحياها بينها .

الفصل الثالث

التفسير الاجتماعي لظاهرة الصعلكة

١

القبيلة :

حين ننظر إلى المجتمع الجاهلي في صورته العامة نرى أنه مجتمع قبلي ، انقسم فيه العرب إلى وحدات اجتماعية متعددة ، عرفت كل منها باسم القبيلة . وقد نزلت كل وحدة من هذه الوحدات الاجتماعية في بقعة من الجزيرة العربية يتوافر فيها الماء والكأ ، واتخذت منها موطناً لها ، فإذا ما ساءت ظروفها الجغرافية ، فأحالت موطنها إلى بقعة جرداء غير صالحة للحياة ، انتقلت منها إلى بقعة أخرى . أما إذا كان الموطن الأول أرضاً ذات خصب دائم — نظراً لظروف جغرافية مواتية — فإن القبيلة تستقر فيه استقراراً دائماً ، وتنشئ فيه قرية . وقد نزلت بعض القبائل العربية في المدن القليلة المبعثرة في أرجاء الجزيرة ، واتخذت منها مواطن لها ، ولكن يجب أن نلاحظ أن هذه القبائل لم تفقد صورتها القبلية ، فقد ظلت لكل منها « منازلها الخاصة » ومعاقلها الصغيرة ، وساداتها ، وشئونها الخاصة ^(١) . ومرد ذلك إلى أن « رابطة القبيلة كانت أقوى من رابطة المدينة ، حتى لقد تؤدي الثارات بين قبيلة وقبيلة إلى انقسام المدينة على نفسها » ^(٢) . ولكن هذه القبائل — مع ذلك — كانت أكثر استقراراً من قبائل البادية ، لأن وسائل العيش في المدن لا تقع تحت رحمة

(١) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 2.

(٢) Ibid., p. 2.

(٣) ولعل من خير الأمثلة على هذا ما كان بين الأوس والخزرج في يثرب ، وما كان بين عبد شمس وهاشم في مكة .

الظروف الجغرافية مباشرة ، وإنما هي وسائل صناعية تخضع إلى حد بعيد لسيطرة الإنسان .

وهكذا نستطيع أن نقول إن القبيلة كانت الوحدة الاجتماعية التي عرفها المجتمع الجاهلي في باديته ومدنه .

وأساس تكوين القبيلة الأسرة ، ذلك أن المثل الأعلى للعربي أن ينجب أكبر عدد من الأبناء الأشداء حتى تصبح أسرته بين أقاربه ذات شأن يجعلهم يعدونه شيخهم الأكبر ، ويدعون أنفسهم أبناءه^(١) ، ومن هنا يصح أن يقال إن القبيلة ليست سوى أسرة أكبر حجماً^(٢) . « ويمضي الزمن تنقسم القبيلة إلى قبيلتين أو أكثر ، تضم كل منها سلالة أحد أبناء الجد الأكبر متسمية باسمه ، ثم تنقسم هذه القبائل مرة أخرى على أساس القاعدة نفسها ، وهكذا يستمر الانقسام »^(٣) .

وقد أثار بعض الباحثين المحدثين جدلاً حول تسلسل القبيلة عن طريق الأب ، أو ما يصح أن نطلق عليه « الانقسام الذكوري في القبيلة العربية » ، وحاولوا أن يتلمسوا آثار الأمومة في أنساب القبائل العربية ، ليثبتوا أن تسلسل القبيلة كان يحدث أحياناً عن طريق الأم^(٤) ، ولكن الشيء الثابت عند النسابين العرب هو أن كل القبائل العربية « قبائل أبوية تكونت بانقسام جماعة أصلية انقساماً يعتمد على القرابة من ناحية الأصول الذكورية »^(٥) ، والذي يعنينا هنا هو أن أفراد كل قبيلة كانوا يؤمنون بأنهم أبناء لأب واحد ، فهم يؤلفون أسرة واحدة قائمة بذاتها لا اختلاط فيها ، متجانسة لا تباين بين أفرادها ،

(١) Ency. of Islam,; art. Arabia, p. 373.

(٢) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 3.

(٣) Ibid.; p. 4.

(٤) انظر في هذا المصدر السابق ، وانظر أيضاً كتاب « الأمومة عند العرب » لمشرق الهولندي G.A. Wilken الذي ترجمه عن الفرنسية الأستاذ بندي صليبا الجوزي . وانظر في مناقشة هذه الآراء البحث الذي نشره الأستاذ عبد الوهاب حمودة في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد ١٤ ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٢ تحت عنوان « نظرية الأنساب في الميزان » .

(٥) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 3.

متآلفة لا شذوذ بين أعضائها ، يعمل الجميع في سبيل هدف واحد وهو المحافظة عليها .

وقد نشأ عن هذا الإيمان « بالأسرية » إيمان بوحدة اجتماعية تغفل في نفوس أبناء القبيلة ، نشأ عنه أن كان إحساسهم بالشذوذ في هذه الوحدة إحساساً قوياً أصيلاً . ومن هنا كان حرصهم على أن تظل هذه الوحدة قائمة كما هي ، نقية كما آمنوا بها ، يخرجون منها ما يرونه شوائب فيها ، ولا يُبقون إلا ما هو صالح للمحافظة عليها ، ولا يسمحون لغريب بأن يدخل في مجموعها إلا بشروط خاصة ، ووفقاً لتقاليد معينة ، وداخل نطاق محدد ، وسنرى أن هذه المسألة تحمل أول المفاتيح الاجتماعية لظاهرة الصعلكة .

٢

إيمان القبيلة بوحدةها :

عرفت القبيلة هذا الإيمان بالوحدة أمراً مقدساً ، وترتبت عليه طائفة من التقاليد الاجتماعية كانت بمثابة « دستور » ينظم سياستها ، ويحدد ما على أفرادها من واجبات وما لهم من حقوق .

والأساس الذي تقوم عليه نصوص هذا الدستور « العvisية » ، والمقصود بها « النعرة على ذوى القربى وأهل الأرحام أن يناهم ضيم أو تصيبهم هلكة »^(١) ، أو هي إحساس الفرد برابطته القبيلة ، وواجب تأييد مصالحها ، والعمل لها بكل ما يملك من قوة^(٢) .

وينص هذا الدستور فيما يتصل « بالسياسة الداخلية للقبيلة » على أن أفراد القبيلة جميعاً متضامنون فيما يجنيه أحدهم ، أو — كما يقول المثل العربى القديم — « فى الحرية تشترك العشيرة »^(٣) ، وعلى أن هذا « العقد الاجتماعى » بين الفرد

(١) مقدمة ابن خلدون / ١٢٨ .

(٢) Ency. of Islam, Art. Arabia, p. 376.

(٣) الميدانى : مجمع الأمثال ١٧/٢ .

وقيلته قائم على أساس عاطفي بحث ، ولا مجال للتفكير فيه ^(١) ، وإنما هي النجدة التي تجيب دون أن تسأل ^(٢) ، وهي نجدة عملية سريعة لا تحتل انتظاراً ، إجابتها تنفيذها ^(٣) ، وتنص « مواد » هذا اللامستور على أن نجدة أبناء القبيلة لأنحيم واجبة سواء أكان جارماً أم مجروماً عليه ، فبدوهم الذي يسرون عليه « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » ^(٤) ، فجناية كل فرد منهم جناية المجموع ، يعصبونها برأس سيد العشيرة ^(٥) ، ولم عليه أن يتحمل تبعاتها ، وله عليهم أن يطيعوه فيما يأمرهم به .

وفي مقابل هذا الحق الذي كان للفرد على القبيلة ، كان عليه واجب لها ، عليه أن يحترم رأيها الجماعي ، فلا يخرج عليه ، ولا يتصرف تصرفاً بدون رضاها ، ولا يكون سبباً في تمزيق وحدتها ، أو الإساءة إلى سمعتها بين القبائل ، أو تحميلها ما لا تطيق ^(٦) ، ومن هنا « فرضت وحدة القبيلة » وتحمل المجموع لتبعات الفرد ، على سادتها أن يمارسوا نوعاً من الإدارة البوليسية ، فإذا ارتكب فرد جرماً رفضت القبيلة أن تتحمل نتائجه ، وإذا أخطأ في حق قبيلته نفسها ، فإنه يطرد منها ^(٧) . ويسمى هذا الطرد خلعاً ، ويسمى

(١) لا يسألون أخاهم حين يندبهم في الذنابات على ما قال برهانا

(قريط بن أنيف في حاسة أبي تمام ٩/١) .

(٢) إذا استجدوا لم يسألوا من دعاهم لأية حرب أم بأى مكان

(ودالك بن ثميل المازني في حاسة أبي تمام ٦٤/١) .

(٣) ونجيب داعية الصباح بثائب عجل الركوب لدعوة المستنجد

(مفريس بن ربيع في المصدر السابق ١٠٢/٣) .

(٤) الميداني : مجمع الأمثال ٢٤٢/٢ . ولم يعرف العرب في الجاهلية التأويل الإسلامي لهذا المثل من رد الظالم عن ظلمه وكفه عنه .

(٥) « والعرب تقول : سيد معمم يريدون أن كل جناية يجنيها أحد من عشيرته معصوبة برأيه » (ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢٢٦/١) .

(٦) يقول أبو سفيان « لست أخالف قريشا ، أنا رجل منها ما فعلت فعلت » (الواقدي : كتاب المغازي / ٢٠٠) .

(٧) Ency. of Islam; art. Arabia, pp. 375, 376. (٧)

الطريد « خليعاً »^(١) .

ويحدث الخلع لأسباب متعددة ، تدور كلها حول هذا الأساس ، فقد يحدث أن يقتل أحد أفراد القبيلة فرداً منها ، وهنا تجد القبيلة نفسها في موقف حرج ، فالقاتل والمقتول كلاهما من أبنائها ، ولكل منهما حق الحماية والنصرة . وهنا يضطر سادة القبيلة إلى أن يقوموا بدور الوسيط بين الفريقين ، حتى لا يؤدي الأمر إلى انقسام القبيلة على نفسها ، « فتجتمع جماعة من الرؤساء إلى أولياء المقتول بدية مكتملة ، ويسألونهم العفو وقبول الدية ، فإن كان أولياؤه ذوى قوى أبوا ذلك ، وإلا قالوا لهم : بيننا وبين خالقنا علامة للأمر والنهي ، فيقول الآخرون : ما علامتكم ؟ فيقولون : أن نأخذ سهماً فترى به نحو السماء ، فإن رجع إلينا مضرجاً بالدم فقد نهينا عن أخذ الدية ، وإن رجع كما صعد فقد أمرنا بأخذها » ، ونتيجة هذا « الإجراء التمثيلي » معروفة طبعاً ، فما رجع ذلك السهم قط إلا نقيماً ، وهنا يسمح القوم لحامهم علامة للصالح ، ويصالحون على الدية^(٢) ، وهكذا تحل المشكلة هذا الحل السلمي الذي يحفظ على القبيلة وحدتها . ولكن المشكلة تظل قائمة إذا رفض أولياء الدم الدية ، وأصرروا على الثأر ، وهنا تحل المشكلة على أحد وجهين : إما أن يقتل القاتل بأيدي قومه ، وإما أن تخلعه قبيلته^(٣) ، حتى تترك لأولياء الدم حرية التصرف

(١) في لسان العرب : مادة (خلع) . والخليع : الرجل يجنى الجنايات يؤخذ بها أولياؤه ، فيثبرون منه ومن جنائته ، ويقولون إذا خلعتنا فلاناً فلا تأخذ أحد بجناية تبغى عليه ، ولا تؤاخذ بجناياته التي يجنبها . « وفي النهاية لابن الأثير (المادة نفسها) » كانت العرب يتماهدون ويتماقدون على النصر والإعانة ، وأن يؤخذ كل منهم بالآخر ، فإذا أرادوا أن يتبهروا من إنسان قد حالفوه أظهروا ذلك إلى الناس ، وسموا ذلك الفعل خلعتاً ، والمتبرأ منه خليعاً أي مخلوعاً ، فلا يؤخذون بجنايته ، ولا يؤخذ بجنايتهم ، فكأنهم قد خلعوا الميّن التي كانوا قد لبسوها معه ، وسموه خلعتاً وخليعاً مجازاً واتساعاً . « وفي أساس البلاغة (المادة نفسها) » وكان الرجل في الجاهلية إذا غلبه ابنه ، أو من هو منه بسبيل ، جاء به إلى الموسم ، ثم نادى : يا أيها الناس هذا ابني فلان ، وقد خلعت ، فإن جر لم أحسن ، وإن جر عليه لم أطلب ، يريد قد تبرأت منه .

(٢) البغدادى : خزانة الأدب ١٣٧/٢ . ويسمى هذا المهم سهم الاعتذار ، كما يسمى أيضاً العقبة .

(٣) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 25. (٢)

بلون أن تتعرض وحدتها للتداعي ، أو يتخلع هو نفسه ، فيفر من قبيلته نجاةً بحياته . وعلى كلا الوجهين تكون القبيلة قد تصرفت في حدود « دستورها » الذي ينص على أنه « يجب على أهل القاتل ألا يحموه إذا قتل أحداً من دمه » (١) ، وذلك لأن رابطة القبيلة أقوى من رابطة الأسرة (٢) .

وقد يحدث أن تتعدد جرائم أحداً أفراد القبيلة حتى تجد نفسها عاجزة عن نصرته ، لأن في هذا تكليفاً لها لا تطيقه ، وعبئاً ثقيلاً عليها تنوء به ، وتهديداً دائماً لسلامتها ، وإراقة لدماء أبنائها بلون مبرر ، فتضطر إلى التخلص من هذا الفرد ، مفضلة أن تضحي بفرد واحد على أن تضحي بجماعة من أفرادها ، ملقبة عليه تبعات جرائمه ، يتحملها هو وحده ، فتخلعه (٣) .

وقد يحدث أن يسوء سلوك أحد أفراد القبيلة من الناحية الخلقية ، حتى يصبح وجوده بينها وصمة في جبينها ، وسبة في مجدها وشرفها ، وخطأ من قدرها بين القبائل ، فترى أنها أمام عضو فاسد لا يرجى إصلاحه ، ضرره أكثر من نفعه ، فتتبرأ من نسبته إليها ، حرصاً على سمعتها ، وإبقاء على كرامة المجموع من أن يسيء إليها فرد ، فتخلعه (٤) .

هذه أهم الجرائم التي كانت القبيلة تحكم على من يرتكبها من أفرادها بالتخلع ، وهي كلها تدور حول محور واحد ، هو خروج الفرد على وحدة

(١) Ibid., p. 43.

(٢) Ibid., p. 4.

(٣) في أخبار امرئ القيس أنه لما خرج مطالباً بدم أبيه نزل بعامر بن جوين « وعامر يومئذ أحد الخلفاء الفتاك قد تبرأ قومه من جرائمه » (الأغاني ٩/٩٥ ، والبغدادى : خزائن الأدب ١/٢٤) . وفي أخبار عبد الله بن جندب أن كان « شريفاً فاتكاً ، لا يزال ينجى الجنايات ، فيعقل عنه أبوه ، حتى أبغضته عشيرته ، ونفاه أبوه ، وحلف ألا يؤويه أبداً ، لما أثقله به من القرم ، وحمله من الديات » (السهيل : الروض الأنف ١/٩٢) .

(٤) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 49.

وفي أخبار البراء بن قيس الكداني أنه « كان مكبراً فاسقاً ، خلعه قومه ، وتبرءوا منه » (الأغاني ١٩/٧٥) . وفي معلقة طرفة حديث عن نهالكه على الخمر والذات واستهتاره بكل شيء حتى تحامت العشيرة كلها ، وأفرد أفراد البعير المعبد .

القبيلة، وتصرفه تصرفاً فردياً بلون رضاها أو الرجوع إليها ، فتجد القبيلة نفسها أمام فرد « شاذ » خرج على إجماعها ، ورفض السير في ركابها ، وترى أنه بتصرفه هذا قد ترك لها حرية التصرف ، وأنها أصبحت في حل من ذلك العقد الاجتماعي الذي يربطها به ، فلم تعد مسئولة عما يفعل ، فتتبرأ منه ، وتطرده من حماها ، وتسحب منه « الجنسية القبلية » ، وتعلن أنها قد خلعت ، وأن صلته بها قد انقطعت ، وحمايتها له قد انتهت ، وتضامنها معه قد انحلت عقده .

وكان هذا الخلع يتخذ صورة إعلان رسمي يذاع على الناس في المواسم والأسواق ، ليكون في ذلك إشهاد لم عليه ^(١) ، وقد يبعثون منادياً بذلك ^(٢) ، وقد يكتبون به كتاباً ^(٣) ، وبهذا تسقط حقوق الفرد على قبيلته « فلا تحتمل جريرة له ، ولا تطالب بجريرة يجرها أحد عليه » ^(٤) .

وهنا يجد الخلع نفسه أمام مشكلة خطيرة ، هي مشكلة الحياة أو الموت . لقد سحبت منه « الجنسية القبلية » ، ورفعت القبيلة عنه حمايتها ، وطردته من حماها ، ولم يعد أمامه إلا أحد أمرين : إما أن يفر إلى الصحراء ليلاقي مصيره في البادية القاسية فقيراً مفرداً ، لا اعتماد له على أحد ، ولا على شيء ، وإما أن يلجأ إلى من يحميه ويعيش في جواره ، ومن هنا كانت نشأة قانون آخر من قوانين المجتمع الجاهلي ، وهو « قانون الجوار » ^(٥) .

وقد قدس المجتمع الجاهلي هذا القانون تقديساً كبيراً ، وكان مما يفخر به

(١) انظر الزنجشري : أساس البلاغة ، مادة (خلع) . وقد خلعت خزاعة قيس بن الحداية « بسوق عكاظ ، وأشهدت على أنفسها بخلعها إياه » (الأغاني ١٣/٢ بولاق) .

(٢) خلع بنو سهم في الجاهلية عمرو بن العاص ، كما خلع بنو مخزوم عمارة بن الوليد ، إذ هما في الحبشة ، خشية أن يعتدي أحدهما على الآخر فتؤخذ عشيرته به ، « وتبرأ كل قوم من صاحبهم وما جر عليهم ، فبعثوا متادياً يتادى بمكة بذلك » (الأغاني ٩/٥٧) .

(٣) انظر جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ١٩/٤ ، وانظر أيضاً :

Lammens; La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 146 = 242.

(٤) الأغاني ١٣/٢ (بولاق) . وانظر أيضاً ابن حبيب : المحبر ١٩٥/ .

(٥) في القاموس المحيط (مادة الجور) : الجوار أن تعطي الرجل ذمة فيكون بها جارك فتجيره ، والجار أيضاً الحليف .

العربي أن يكون ملاذاً لكل خائف ، وملجأ لكل طريد ، لأن في ذلك اعترافاً بقوته ومروءته وكرمه ، وهي فضائل يعتر كل عربي بأن تُنسب إليه ، حتى لقد اشتهر بعض أشراف العرب بإجارة الخلعاء وحمايتهم^(١) .

وكانت الصلة بين الجار والمجير تختلف - بطبيعة الحال - وفقاً للظروف ، فكانت أحياناً مؤقتة ، وكانت أحياناً أخرى دائمة ، بل وراثية ، وفي بعض الحالات كان المجير يتعهد بأن ينصر جاره على علو معين فقط ، وفي حالات أخرى كان يتعهد بإجارته من كل الأعداء ، بل من الموت نفسه ، وكان هذا يعني أن يدفع المجير إذا مات جاره ، وهو في جواره ، دية لأسرته^(٢) ، « وأقوى هذه الحالات على الإطلاق هي تلك التي يتعهد المجير لجاره بأن يثأر له حتى من أخيه الصميم »^(٣) .

ومن هنا كان العرب يسمون جارهم هَدْيَتَهُمْ أو هَدْيَتَهُمْ « يحرم عليهم منه ما يحرم من الهدى »^(٤) ، وهي تسمية تشعرنا بتلك القداسة التي كانت للجوار في نفوس العرب ، فهو عندهم شيء مقدس ، كأنه قربان يتقدبون به إلى الآلهة. وما يلتقي ضوءاً على هذه الفكرة أن بعض المكين كانوا يُقسِمون على حمايتهم لجارهم في الكعبة ، وكان هذا القسم يتخذ صورة إعلان عام ،

(١) كان الزبير بن عبد المطلب في مكة « ينزل عليه الخلعاء » (ابن قتيبة: الشعر والشعراء/ ٢٢٩) وقد لجأ مطرود بن كعب الخزاعي « إلى عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بلحاية كانت منه ، فعماه وأحسن إليه » (المزرياتي: معجم الشعراء/ ٣٧٥) ، ونزل البراء بن الكنانة بعد خلعته « على حرب بن أمية فحالفه ، فأحسن حرب جواره » (الأغاني/ ١٩/ ٧٥) ، وكان حابس الأزدي حليفاً لبني مخزوم (الأغاني/ ١٢/ ٤٩ بولاق) .

(٢) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 50.

وانظر في الإجارة من الموت قصة الأعشى مع عامر بن الطفيل في الأغاني/ ٩/ ١٢٠ ، ١٢١ .

(٣) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 51.

وفي أخبار أوفى بن مطر المازني أن رجلاً جاوره « ومعه امرأة له ، فأعجبت قيساً أخاه ، فحصل لا يصل إليها مع زوجها ، فقتل زوجها غيلة ، فبلغ ذلك أوفى ، فقتل قيساً أخاه بجواره » (ابن حبيب: المحبر/ ٣٤٨) .

(٤) لسان العرب: مادة (هدى) : والهدى : القربان .

ولا يستطيعون التحلل منه إلا في الكعبة أيضاً^(١) .

وفي مقابل هذه الحقوق التي كانت للجار ، كانت عليه واجبات لمن أجاروه . وتتلخص هذه الواجبات في أن يحترم الجوار ، ولا يسيء إلى من أجاروه ، لا في أشخاصهم ولا في سمعتهم ، لا في حياتهم المادية ولا في حياتهم المعنوية . فإذا ما رأت القبيلة ما يسيئها من جارها كان لها الحق في أن تخلعه ، وتتحلل من التزاماتها له . ومن هنا كانت تتعدد استجارة الخليع بالقبائل في بعض الأحيان^(٢) .

ومع ذلك فلم تكن حياة هؤلاء الخلعاء في جوار من استجاروا بهم طيبة دائماً ، فقد كان يحدث أحياناً أن يسيء المجير معاملة جاره ، ويستغل تلك الظروف المخرجة التي يمر بها فيغدر به^(٣) ، وكان يحدث أحياناً أخرى أن يعجز المجير عن رد العدوان عن جاره ، إما لضعفه وإما لعدم اهتمامه به^(٤) . وعلى كل حال فحسب هؤلاء المستجيرين هواناً لنفوسهم أن ديّهم كانت نصف دية ابن القبيلة الصريح^(٥) .

وحين نقف لتأمل حياة هؤلاء المستجيرين نجد أننا أمام طائفتين : طائفة استقر بها المقام في القبيلة التي أجارتها ، فاندججت في مجتمعتها ، وطابت لها

(١) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 51.

(٢) في أخبار البراض أنه بعد أن خلعه قومه لجأ إلى بني الدليل ، فشرب فيهم « فخلموه » ، فأتى مكة وأتى قريشاً فنزل على حرب بن أمية فعالقه ، فاحسن حرب جواره ، وشرب بمكة حتى هم حرب أن يخلعه « (الأغاني ٧٥/١٩) » .

(٣) كان أبو جندب الهذلي جارا لبني نفاثة « جاورهم حينئذ من الدهر » ، ثم إنهم ذكروا أن يندروا به « (السكري : شرح أشعار الهذليين ٩٣/١) » .

(٤) استجار أبو الطمحان القيني بعبد الله بن جدعان التيمي « ومعه مال له من الإبل » ، فعدا عليه قوم من بني سهم ، فانتحروا ثلاثة من إبله « ، ثم عاودوا عليها الكرة » ، « فاستاقوها كلها » ، فأتى عبد الله بن جدعان يستصرخ ، فلم يكن فيه ولا في قومه قوة ببني سهم ، فامسك عنهم ولم ينصره « (الأغاني ٦٩/١٦) » . واستجار محرز بن المكبر الضبي ببني عدى من تميم « فاغار بنو عمرو ابن كلاب على إبله فذهبوا بها » ، فطلب إليهم أن يسموا له « فوعده أن يفعلوا » ، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً ، مما اضطره إلى الالتجاء إلى بعض بني مازن « (شرح التبريزي على حاشية أبي تمام ١٥/٤) » .

(٥) الأغاني ١٩/٣ سطر ١٨ ، ص ٢٦ سطر ٤ ، ٥ .

الحياة الجديدة ، وشاركت في ضروب نشاطها ، وسلكت سبل العيش معها في هدوء واستقرار ، وطائفة أخرى لم تزل في نفوسها بقية من تمرد ، رفضت هذا الفناء الجديد في شخصية القبيلة التي أجارتها ، فكانت حياتها فيها امتداداً لحياتها القديمة في القبيلة التي خلعتها .

ويخرج هؤلاء « الشذاذ »^(١) على حياتهم الجديدة ، ليجلوا في الصحراء متسعين لنشاطهم المتمرد الذي لا يحتمله مجال القبيلة الضيق ، وليشقوا طريقهم في الحياة بأسلوبهم الذي اعتادوا عليه ، دون أن يعتمدوا على أحد سوى قوتهم ، وأغرامهم على هذا أنهم كانوا واثقين من أنهم « إذا أخفقوا فلن يعدموا أن يجلوا سيدياً أو حياً يستقبلهم ويضمن لهم ملجأ »^(٢) . ويبدو أن هؤلاء الشذاذ المتمردين كانوا ينظرون إلى القبائل التي يستجيرون بها على أنها « نقط ارتكاز » لنشاطهم ، وإلى حياتهم فيها على أنها فترات راحة في حياتهم العنيفة .

وحين نعود إلى أخبار صعاليك العرب لننظر فيها على ضوء هذا « المصباح الاجتماعي » نجد أن طائفة كبيرة منهم من الخلعاء والشذاذ .

فقد كان قيس بن الحداذية « صعلوكاً خليعاً »^(٣) خلعتة قبيلته خزاعة لأنه اشترك مع جماعة من أسرته في قتل أحد أفراد قبيلتهم ، وعجزوا عن دفع الدية ، فقروا هاربين ، « فترلوا في فراس بن غنم ، ثم لم يلبثوا أن أصابوا أيضاً منهم رجلاً ، فهربوا ، فترلوا في بجيلة على أسد بن كرز فأواهم ، وأحسن إلى قيس ، وتحمل عنهم ما أصابوا في خزاعة وفي فراس »^(٤) وفي خبر آخر أنه بعد خلعه « نزل عند بطن من خزاعة يقال لهم بنو عدي بن عمرو بن خالد ،

(١) في لسان العرب (مادة شذ) : « وقوم شذاذ إذا لم يكونوا في منازلهم ولا حيم . . . وشذاذ الناس الذين يكونون في القوم ليسوا في قبائلهم ولا منازلهم » .
وفي أساس البلاغة (المادة نفسها) « شذ عن الجماعة شذوا انفرادهم ، وهو من شذاذ القوم : من الذين هم فيهم وليسوا منهم » .

(٢) Lammen; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 194.

(٣) الأغاني ٢/١٣ (بولاق) .

(٤) المصدر السابق / ٤ : ٥ .

فأوروه وأحسنوا إليه»^(١) . والظاهر أن هذا كان قبل استجارته بيني فراس .
 وألف قيس بعد خلعه عصابة من صعاليك العرب جمع فيها «شذاذاً
 من العرب وفتاكاً من قومه»^(٢) ، ويغلب على الظن أن هؤلاء الفتاك هم أولئك
 الذين اشتركوا معه في حادثة القتل التي كانت سبباً في خلعه . وكان أول
 ما فعلته هذه العصابة أن حاولوا الانتقام لأنفسهم من أولئك الذين كانوا
 سبباً في خلعهم ، فأغاروا عليهم وقتلوا منهم رجلاً واستاقوا أموالهم^(٣) ، وهكذا
 أثبت لقومه الذين خلعوه أنه قادر على أن يقف في وجههم برغم أنه «خليع
 مطرد» ، على حد تعبيره في بعض أبياته^(٤) ، وأنه لا يتورع عن قتل أى
 فرد من قومه وقف في طريقه ، وأنه قادر على أن يسلبهم تلك الأموال التي كان
 حرمانه منها سبباً في عجزه عن دفع الدية ثم في خلعه نتيجة لذلك . ومع ذلك
 فقد كان قيس نبيلاً في موقفه من أولئك الذين لم يكن لهم ضلع في خلعه ، فقد
 لحقه بعد هذه الغارة «رجل من قومه كان سيداً» ، وكان ضلعه مع قيس فيما جرى
 عليه من الخلع يقال له ابن محرق ، فأقسم عليه أن يرد ما استاقه ، فقال :
 أما ما كان لي ولقومي فقد أبررت قسمك فيه ، وأما ما اعتشورته أيدي هذه
 الصعاليك فلا حيلة لي فيه ، فرد سهمه وسهم عشيرته»^(٥) . وهكذا كان قيس
 الصعلوك «سيداً» في موقفه ، فرق بين أولئك الذين كانوا سبباً في خلعه وبين
 سائر عشيرته ممن لم يكن لهم يد في هذا الخلع ، وقرر بين مركزه زعيماً لعصابة
 لأفرادها حق في الغنيمة لا يجوز حرمانهم منه ، وبين مركزه طالباً للانتقام من
 جماعة معينة .

وظل هذا الصعلوك المتمرد يجمع الخلعاء والشذاذ ويغير بهم ، حتى قتل

(١) المصدر السابق / ٥ .

(٢) المصدر نفسه / ٢ .

(٣) المصدر نفسه / ٢ .

(٤) المصدر نفسه / ٥ .

(٥) المصدر نفسه / ٢ - والضلح - بفتح الضاد - الميل . واعتوروا الشيء : تداولوه .

وهو خليع قتيلة^(١) كان فيها شجاعاً حتى النهاية^(٢) ، وقبل أن يوشك سراج حياته على الانطفاء تذكر تلك الحادثة التي كانت سبباً في تلك الحياة القاسية التي عاشها طريداً مشرداً ، حادثة خلعه ، فأخذ ينشد وهو يقاتل نشيداً فيه حسرة ، وفيه شجاعة واعتداد بالنفس^(٣) ، حسرة على حياته التي ذهبت مع الريح ، بعد أيام شباب جميلة قضائها في حِمَى القبيلة ، في اللهو تارة ، وفي الجدل تارة أخرى^(٤) ، عضواً عاملاً في مجتمع القبيلة ، يدافع عنها ، ويشيد بمفاخرها ، ويهجو أعداءها^(٥) ، بل يقودها أحياناً في شجاعة إلى مواقع النصر^(٦) .

وكذلك كان أبو الطمّحان القيني من هذه الطائفة من الخلعاء الشذاذ ، ولم تحدثنا أخباره عن سبب خلعه ، ولكني أرجح أنه خلع لسوء أخلاقه . ويصفه ابن قتيبة بأنه « كان فاسقاً »^(٧) ، ويقدمه صاحب الأغاني بأنه « أدرك البهالية والإسلام فكان خبيث الدين فيهما »^(٨) ، ويصفه بعض رواة الأغاني بأنه « كان فاسقاً خارباً »^(٩) ، وقد سئل عن « أدنى ذنوبه » كأنه كان معروفاً بكبائره ، فاندفع يقص في استهتار قصة ليلة ارتكب فيها أربع موبقات^(١٠) ، فإذا كانت هذه أدنى ذنوبه فليس من شك في أنه كان مستهتراً استهتاراً فاضحاً .

وقد تقلبت الأيام بأبي الطمّحان قلباً عنيفاً ، فقضى حياة مضطربة ،

(١) الأغاني ٨/١٣ (بولاقي) .

(٢) المصدر السابق ٨/ ، وانظر أيضاً كتاب من نسب إلى أمه من الشعراء لابن حبيب

ص ٦ .

(٣) فيومئذ يوم في الحديد مريلاً ويوم مع البيض الأوانس لاهياً

(الأغاني ٨/١٣ بولاقي) .

(٤) انظر أخبار ذلك في المصدر السابق ٣/ ، ٤ ، ٥ .

(٥) انظر ذلك في المصدر نفسه ص ٣ .

(٦) الشعر والشعراء ٢٢٩/ .

(٧) الأغاني ١٣٠/١١ (بولاقي) .

(٨) المصدر السابق ١٣٢/ .

(٩) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٢٢٩/ ، والأغاني ١٣٢/١١ (بولاقي) .

لم تكد تعرف طعم الاستقرار إلا في فترات متقطعة ، متقللاً بين أحياء العرب ، مستجيراً بها ، لا يكاد يستقر في جوار حتى يحدث ما يعيده إلى حياة الاضطراب مرة أخرى . وهو يشكو في شعره مر الشكوى من غدر من يستجير بهم :

أَجَدُّ بَنِي الشَّرْقِيِّ أَوْلَعَ أُنْدَى مَنِي أَسْتَجِرُّ جَارًا وَإِنْ عَزَّ يَغْدِرُ
إِذَا قُلْتُ أُرْفَى أَدْرَكْتُهُ دَرُوكُهُ فَيَا مُوزِعَ الْجَبِرَانِ بِالْفِي أَقْصِرُ^(١)

ويبدو أن شاعرنا الصعلوك كان سيء الحظ مع جيرانه ، فقد كان مجاوراً في بطن من طيء يقال لهم بنو جديلة ، « فنطح تيس له غلاماً منهم فقتله » فتعلقوا أبا الطمحان وأسروه حتى يؤدي ديته مائة من الإبل ، فاستنجد بنزيه ، مصوراً في أبيات له ذل موقفه ، وحسرتة على بعده عن قومه^(٢)

ويشاء سوء حظه مرة أخرى أن تقتل طيء فيا بينها ، وتتحزب حزبين ، وينهزم حزب جديلة الذي كان مجاوراً فيهم ، ويؤسر أبو الطمحان في هذا القتال « أسره رجلان من طيء واشتركا فيه » ، فاشتراه منهما أحد أفراد القبيلة ، بعد ما بلغته أبيات له يمدح فيها قومه ، فمدحه أبو الطمحان بقصيدة ، فجز الطائي ناصيته وأعتقه^(٣) ، وهكذا أنقذه شعره من سوء حظه مرتين .

وحدث أنه استجار مرة بعبد الله بن جدعان التيمي ، فعدا عليه قوم من بني سهم ونهبوا إبله كلها ، فأقى عبد الله بن جدعان يستصرخه ، ولكنه لم يستطع أن ينصره ، لأنه لم يكن فيه ولا في قومه قوة بيني سهم ، فأنشد أبو الطمحان أياتاً يحن فيها إلى وطنه وأهله وأيامه بينهم ، ويندب سوء حظه ، ثم ارتحل عنهم^(٤) .

(١) الأغاني ١٥١/١١ (دار الكتب) ، ٦٩/١٦ . ورواية البيتين في هذا الموضع الأخير تختلف بعض الاختلاف اللفظي عن روايتهما في الموضع الأول ؛ ولكنه اختلاف لا يغير المعنى أي تغيير .

(٢) الأغاني ١٣٣/١١ (بلاق) .

(٣) المصدر السابق/١٣٢ و ١٣٣ ، وانظر بيتاً له في مدح بني لأم في الشعر والشعراء/ ٢٣٠

(٤) الأغاني ٦٩/١٦ .

ويبدو أن سوء حظه مع جيرانه قد فارقته بعد ذلك ، فقد نزل على الزبير
ابن عبد المطلب بن هاشم بمكة ، فطال مقامه لديه ، ولكنه كان كثير الشوق
إلى أهله ، شديد الحنين إليهم ، فاستأذن الزبير في الرجوع إليهم ، « وشك
إليه شوقاً لم فلم يأذن له ، وسأله المقام ، فأقام عنده مدة » ، ثم عاوده الحنين
مرة أخرى ، فأتاه وأنشده أبياتاً يصور فيها هذا الحنين الجارف ، فلما
أنشده إياها أذن له فأنصرف ^(١) .

ولكن يظهر أن تمرد أبي الطمحان لم يفارقه بعد ذلك ، فقد جنى جناية
وهرب من بلاده ، « وبلغنا إلى بني فزارة ، فنزل على رجل منهم يقال له مالك
ابن سعد أحد بني شمس ، فأواه وأجاره ، وضرب عليه بيتاً ، وخلطه بنفسه ،
فأقام مدة ، ثم تشوق يوماً إلى أهله وقد شرب شرباً ثمل منه ، فقال لمالك :
لولا أن يدي تقصر عن دية جنائتي لعدت إلى أهلي ، فقال له : هذه إيلي
فخذ منها دية جنائتك ، وازدد ما شئت ، فلما أصبح ندم على ما قاله ، وكره
مفارقة موضعه ، ولم يأمن على نفسه » ، فأتى مالكا وأنشده أبياتاً يمدحه فيها
مدحاً قوياً ، هو من غير شك صادر من أعماق نفسه ، يصور تقديره لذلك
السيد النبيل ، ويصرح له فيها بأنه قرر البقاء في جواره ، فقد أصبح كأنه
واحد منهم :

وقد عَرَفْتُ كلابكم ثيابي كَأَنِّي مِنْكُمْ ونَسِيتُ أَهْلِي

« فقال مالك : مرحباً فإنك حبيب ازداد محبباً ، إنما اشتقت إلى أهلك ،
وذكرت أنه يحبسك عنهم ما تطالب به من عقل أو دية ، فبذلت لك ما بذلت
وهو لك على كل حال ، فأقم في الرحب والسعة ، فلم يزل مقيماً عندهم حتى
هلك في دارهم ^(٢) » بعد أن امتدت به الحياة حتى بلغ أرذل العمر ^(٣) .

(١) الأغاني ١١/١٣٤ (بولاقي) ، والشعر والشعراء ٢٢٩ .

(٢) الأغاني ١١/١٣٢ (بولاقي) .

(٣) يذكر أبو حاتم السجستاني أنه عاش مائتي سنة (كتاب المعمرين ٦٢) .

وهكذا قضى هذا الصعلوك السيئ الحظ حياته الطويلة مشرداً حتى تداركته يد هذا السيد النبل في أخريات أيامه ، ولكن أمنيته الكبرى - مع ذلك - لم تتحقق ، فقد قُضِيَ عليه أن يموت بعيداً عن أهله الذين طالما استبد به الحنين إليهم .

هذه هي الصرة التي استطعت أن أكونها عن هذا الجانب من حياة أبي الطمحان من مجموعة أخباره القليلة المتناثرة التي لم تحاول مصادرها أن ترتبها ترتيباً يعطينا صورة كاملة متصلة لحياته الطويلة المضطربة ، وهي صورة شخص « بوهيمي » قلق ، مفرط الحساسية ، قوى العاطفة ، سيئ الحظ ، لولا أن تداركته العناية الإلهية في أخريات أيامه ، فأدرك الإسلام ، وأسلم ، وإن لم ير النبي صلى الله عليه وسلم^(١) ، ولكنه ظل خبيث الدين في إسلامه ، كما كان خبيث الدين في جاهليته .

٣

إيمان القبيلة بجنسها :

كما آمنت القبيلة بوحشتها هذا الإيمان العميق الذي ترتب عليه ظهور هذه الطائفة من التقاليد الاجتماعية التي تحدثنا عنها ، آمنت بجنسها ، وذلك لأن من الأسس التي قامت عليها القبيلة العربية لإيمان أبنائها « برابطة الدم » ، أي أنهم جميعاً من دم واحد .

وقد أثار بعض المستشرقين تشكيكاً في « رابطة الدم » هذه : أهى رابطة حقيقية أم رابطة مُدَّعَاة^(٢) ؟ وليس يعنينا هنا هذا التشكيك ، لأن

(١) يقول ابن حجر عنه إنه « أدرك الإسلام » (الإصابة في تمييز الصحابة ٦٦/٢) ، ويضعه في القسم الثالث من كتابه فيمن أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره (ص ٥٣ من الجزء نفسه ، وانظر مقدمة الكتاب ٤/١) .

(٢) انظر : Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, pp. 1, 62; &

Zwerner; Arabia, the Cradle of Islam, p. 159.

مناقشته والانتها إلى رأى فيه إنما تكون في مجال دراسة أصول القبائل العربية وأنسابها ، وليس هنا مجال هذه الدراسة ، وإنما الذى يعنينا هنا هو أن كل الأفراد الذين ينتمون إلى قبيلة واحدة كانوا يعدون أنفسهم من دم واحد^(١) ، وأنهم جنس واحد ، متشابه العناصر والمقومات ، لا يختلف أفرادها إلا بمقدار ما يختلف أبناء الأسرة الواحدة ، بل إن بعض الباحثين المحدثين يرى أن أفراد الحى الواحد من القبيلة كانوا لا يعدون أنفسهم من « دم واحد » فحسب ، ولكن من « لحم واحد » أيضاً ، ومن ملاحظاته التى يؤيد بها رأيه ما تستعمله اللغة العربية من لفظة « اللّحمة » فى التعبير عن معنى القرابة^(٢) ، ولعل فيما عبر به العرب عن بعض أشكال جماعاتهم بالبطن والفخذ ما يصور ذلك الإحساس الذى كان يحسه العرب بتلك الصلة « الجسدية » التى تربطه بجماعته .

وقد نشأ عن هذا الإيمان بوحدة الجنس فى نفوس أبناء القبيلة إيمان بامتيازهم ، فقد آمنوا بأنهم جنس ممتاز لا تفضّلهم قبيلة أخرى^(٣) ، وهم يفضّلون كل القبائل^(٤) ، آباؤهم أشرف آباء^(٥) ، وأمهاتهم أكرم أمهات^(٦) ، وهم أجدر الناس بأن يكونوا خير الناس^(٧) ، ولعل فى هذا الإيمان بامتياز الجنس ما يفسر

(١) Smith; Kinship & Marriage in Early Arabia, p. 25.

(٢) Ibid.; p. 175.

(٣) حديثا الناس كلهم جميعا مقارعة بينهم عن بنيينا (عمر بن كلثوم فى معلقته) . ويقول التبريزي : « قالوا معنى حديثا الناس كما تقول واحد الناس ، وقيل معناه نحن أشرف الناس » . (شرح القصائد العشر / ٢٣٢) .

(٤) إني لمن قوم بنى الله مجدهم على كل باد فى الأقام وحاضر (المرزبانى : معجم الشعراء / ٢٢٧) .

(٥) إنا بنى نهل لا نلعي لأب عنه ولا هو بالأبناء يشرينا (حماسة أبى تمام ٥١/١) .

(٦) وأماقنا أكرم بين عجاثرنا ورثن العلا عن كابر بعد كابر (المرزبانى : معجم الشعراء / ٢٢٧) .

(٧) ونحن بنو مساء الساء فلا نرى لأنفسنا من دون مملكة قصرا (حماسة أبى تمام ١٣٠/١) .

تلك المنافرات التي امتلأت بها أخبار العصر الجاهلي ، وذلك الفخر الذي تلوَّى أصداؤه في قصائد شعرائه . وما شجع على هذا الإيمان بامتياز الجنس في نفوس أبناء القبيلة صلات العداوة بين القبائل المختلفة التي كانت تسيطر على الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي ، فقد « كانت كل قبيلة تؤلف وحدة مناوئة لكل القبائل الأخرى » (١) .

وقد نشأ عن هذا « الإيمان بوحدة الجنس وامتيازه » طائفة من التقاليد تنظم العلاقات بين الطبقات الاجتماعية في القبيلة .
والناظر في تكوين القبيلة الاجتماعية يستطيع أن يميز ثلاث طبقات اجتماعية :
الصرحاء ، والعبيد ، والموالي .

أما الصرحاء فهم في عرف القبيلة أبناؤها ذوو الدم النقي الذي لا تشوبه شائبة ، الذين يتمتعون جميعاً إلى أب واحد ، والذين تتمثل فيهم العصبية القبلية بأقوى معانيها . ومنهم تتكون الطبقة « الأرستقراطية » في القبيلة ، وفيهم رياستها ، وبيوتات الشرف فيها . وتعتمد هذه « الأرستقراطية » أول ما تعتمد على النسب (٢) ، ومن هنا كان حرص هذه الطبقة على أن يظل دمها نقياً ، وعلى أن تجمع الشرف من « كلا طرفيه » : الآباء والأمهات ، فلا يكون في أحد طرفي الشرف ما يشينه (٣) .

وأما طبقة العبيد فقد كانت تتألف من عنصرين : عنصر عربي ، وهم أولئك الأسرى الذين كانوا يقعون في أيدي القبيلة في حروبها مع القبائل الأخرى ، وعنصر غير عربي ، وهم أولئك الرقيق الذين كانوا يجلبون من البلاد المجاورة للجزيرة العربية .

(١) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 159.

(٢) انظر ابن خلدون : المقدمة ، الفصل الحادي عشر والثاني والثالث عشر من الباب الثاني من الكتاب الأول / ١٣١ - ١٣٥ .

(٣) الأغاني ٨٦/١١ (بولاق) . ويقول معقل بن خويلد :

بنو فالج قوى وهم ولدوا أبي وخالي ثمال الضيف من آل فاتك

(السكري : شرح أشعار الهذليين ١/ ١٢١) .

وقد قلنا إن الصلات بين القبائل العربية كانت صلات خصام ، ومن هنا كانت الحرب دائماً قائمة بينها ، وكان سبي الرجال والنساء على السواء أمراً أساسياً في كل غارة^(١) ، ومن الطبيعي أن يكون تعرض النساء للسبي أكثر من تعرض الرجال^(٢) ، فإن ضعف المرأة في هذه الحالة من الصراع المستمر في الجزيرة العربية يجعلها دائماً في مركز الضحية^(٣) . وبقدر ما كان العربي يأنف من قتل صبيته لما فيه من نزول بمروءته ، كان حرصه على سبي أكبر عدد ممكن من النساء لأن في هذا إهانة لأعدائه . وقد كان يحدث أحياناً أن يقابلاً كل نساء الحى ، وهم خلوف ، فيؤخذن سبايا^(٤) . ومن هنا كانت حماية النساء والأطفال خطة أساسية في فهم الحرب^(٥) ، ومن هنا أيضاً كانت المقدرة على حماية « الظعينة » عنصراً أساسياً من عناصر البطولة العربية جعلهم يطلقون على بعض أبطالهم لقب « حامى الظعينة » أو « فارس الظعينة »^(٦) .

وقد كان يحدث أحياناً أن تتبع القبيلة أساراها ، فقد اشتعلت حرب بين لحيان وحناعة فكان بعضهم لا يزال يغزو بعضاً ، فإذا أصابت بنو لحيان من حناعة أحداً باعوه^(٧) ، وكان زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم من قضاة « أصابه سباء في الجاهلية لأن أمه خرجت به ترور قومها

(١) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 89.

وقد وفد سميفع بن ناكور الكلاعي على عمر بن الخطاب « وله أربعة آلاف أهل بيت قن من العرب بمالك أسرم في الجاهلية » (نقائض جرير والفرزدق ١٦/١) .

(٢) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 295.

وأخبار سبي النساء في العصر الجاهل كثيرة . (انظر : الأغاني ٧٥/٣ - ٧٨ ، ١٧٢/١١ ، بولاق ، ١٥٨/١٩ ، ونقائض جرير والفرزدق ١٣/١ ، وديوان عروة / ١٦٩ ، ١٧٠) .

(٣) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 280.

(٤) انظر نقائض جرير والفرزدق ١٤٥/١ ، والأغاني ٦٣/٢١ ، ٦٤ .

(٥) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 295.

(٦) القالي : الأمل ٢٧١/٢ .

(٧) السكري : شرح أشعار الهذليين ١٠٠/١ .

بنى معن ، فأغار عليهم نخيل بنى القين بن جسر فأخذوا زيدا ، فقدموا به سوق عكاظ ، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد ، وقيل اشتراه من سوق حياشة^(١) ، وكانت أم عمرو بن العاص « من بنى عترة أصابتها رماح العرب فيبعت بعكاظ »^(٢) ، وفي أخبار خناعة أنهم أسروا سبيدا من سادة العرب « فباعوه بمكة »^(٣) .

ومن هذا نرى أن بيع القبائل العربية لأسارها كان منتشرا في أسواق مكة بالذات ، ويرينا ديوان الهذليين أنه كانت بمكة تجارة منتظمة في الرقيق تروجها الحروب التي كانت لاتنقطع بين القبائل المجاورة^(٤) . وكان يحدث أحيانا أن يرد إلى أسواق مكة رقيق من أسرى العرب من المناطق البعيدة عنها ، فقد كان أبو صهيب ، سنان بن مالك ، يتزل بأرض الموصل عاملا لكسرى على الأبله ، « فأغار الروم على تلك الناحية فسبوا صهيبا ، وهو غلام صغير ، فنشأ بالروم ، فابتاعته كلب منهم ، ثم قدمت به مكة فاشتراه عبد الله بن جدعان »^(٥) .

أما العنصر الآخر الذي شارك في تكوين طبقة العبيد في القبيلة العربية ، وهو العنصر غير العربي ، فقد كان مصدره البلاد المجاورة لجزيرة العرب كالخيشة وما حوالها من الأمم ، فكان تجار الرقيق يحملون العبيد والإماء من هذه البلاد إلى جزيرة العرب يبيعونهم في أسواقها بالمواسم^(٦) ، ولم يكن ينظر إلى المسألة من جانبها الإنساني ، وإنما هي تجارة كسائر التجارات تتخذ منها القبائل وسيلة للربح ، فقد « كانت قريش تتجر بالرقيق مثل اتجارها بسائر

(٧) ابن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة ٢/ ٢٢٤ .

(٢) المصدر السابق ٤/ ١١٦ .

(٣) السكري : شرح أشعار الهذليين ١/ ١١٦ .

(٤) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 89. (٤)

(٥) ابن قتيبة : المعارف ١١٤ .

(٦) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ٤/ ٢٠ .

السلع»^(١) وكانت هذه التجارة منتشرة بالذات في بني تيم^(٢) ، وكان عبد الله ابن جدعان التيمي رئيس قريش في حرب الفجار من أشهر تجار الرقيق في الجاهلية^(٣) .

وكان هؤلاء الأرقاء المجلوبون كثيرين في المجتمع الجاهلي ، وكان كل شريف من أشرف العرب يحرص على ألا يخلو منزله منهم ، فقد كان لعبد الله بن أبي ربيعة مثلاً عبيد من الحبشة يتصرفون في جميع المهن ، وكان عددهم كبيراً ، حتى لقد عرض على النبي صلى الله عليه وسلم أن يستعين بهم في غزوة حنين^(٤) .

وأما الطبقة الثالثة في المجتمع القبلي ، وهي طبقة الموالى ، فقد كانت تتألف من العتقاء ، ومن العرب الأحرار الذين لجأوا إلى القبيلة من قبائل أخرى ، وعاشوا في حمايتها ، أو حماية رئيسها أو بعض ذوى النفوذ فيها^(٥) . أى أن طبقة الموالى في القبيلة العربية كانت ترجع إلى أصليين : أحرار ، وعبيد ، أما الأحرار فهم أولئك اللاجئون إلى القبيلة ، أو إلى أحد أفرادها ، من خلعاء القبائل ، طالبين الحماية والنصرة ، وكانوا يسمون أحياناً « الحلفاء » ، وأما العبيد فهم أولئك الذين أعنتهم سادتهم من نير الرق فظلوا مرتبطين بهم برابطة الولاء^(٦) .

وهذه الطبقة كانت تؤلف طبقة مكانتها الاجتماعية بين الطبقتين السابقتين ،

(١) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ٢٠/٤ .

(٢) Lammens; La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 167 = 263.

(٣) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ٢١/٤ .

(٤) الأغاني ٦٥/١ . وقد اتخذ بعض الشعراء من عبيد آل أبي ربيعة مادة لفنهم (انظر البيت

الوارد في المصدر نفسه ٦٤/١ لأبي ذؤيب اللؤلؤ الذى يشبه فيه حمار الوحش بعبد منهم) .

(٥) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, pp. 47, 48.

(٦) في لسان العرب (مادة ولى) : « والمولى الخليف وهو من انضم إليك فمز بعزك وامتنع

بممتلكك . . . والمولى المعتق انتسب بنسبك » ، وهكذا يشير هذا المعنى القوي لذين النوعين الاجتماعيين من طبقة الموالى .

فالمولى عند العرب وسط بين العبد والحر^(١) «أحط منزلة من الحر وأرفع من العبد»^(٢) .

آمنت القبيلة العربية بهذه الطبقات الاجتماعية ، وعرفت لكل طبقة منزلتها ، وما لها من حقوق ، وما عليها من واجبات ، وتعارفت على الصلات التي تكون بين أفراد كل طبقة وأفراد الطبقتين الآخرين .

وما أظن أننا في حاجة إلى القول بأن طبقة العبيد كانت في حالة اجتماعية سيئة في هذا المجتمع الأرستقراطي^(٣) الذي يؤمن بوحده وبجنسه إيماناً عميقاً ، والذي يمثل العنجهية الجاهلية بكل ما فيها من معاني الطغيان والجبروت والاستبداد أقوى تمثيل ، حتى لنجد أن هذه الطبقة كانت من أسرع الطبقات استجابة إلى دعوة الإسلام الذي ضمن لهم حقوقهم ، ونظم علاقاتهم بساداتهم تنظيمياً إنسانياً عادلاً ، والذي أتاح لهم فرصاً كثيرة للعتق والتحرر . وليس من شك في أن حياة هذه الطبقة كانت سلسلة من الذل ، تبدأ منذ أن يشتري السيد عبده ، ويقوده إلى منزله ليتصرف فيه كيف شاء . ولم يكن يعهد للعبيد إلا بتلك الأعمال التي يأنف السادة من القيام بها ، وهي تلك التي سميناها «الأعمال الفرعية في المجتمع القبلي» ، فإذا مات السيد ورث ورثته عبده كما يرثون سائر متاعه إلا إذا كان قد أوصى لهم بحريتهم بعد موته^(٤) .

ومع ذلك ، ومع حرص العربي على الشرف في كلا طرفيه ، كان يحدث أحياناً أن يتزوج العربي من أمة ، ولكن المجتمع الجاهلي كان يرى في هذا الزواج زواجاً غير متكافئ ، ومن هنا أطلق على ثمرته اسماً خاصاً ، فسمى ابن العربي من الأمة «هجيناً»^(٥) ، ومن الطبيعي ألا ينظر إلى هذه الصلة

(١) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ٢١/٤ .

(٢) المصدر السابق ٢٤/ .

(٣) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 198, p. 277.

(٤) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ٢٠/٤ .

(٥) في القاموس المحيط (مادة هجن) . «والهجين : التميم ، وعربي ولد من أمة أو من أبوه غير من أمه» ، ويقول المبرد «والهجين عند العرب الذي أبوه شريف وأمّه وضيعة ، والأصل في ذلك أن تكون أمة» (الكامل ٣٠٢/) .

نظرة احترام ، فقد كانت كل أمة عندهم تدعى فرثتني أو ترثني ^(١) ، وكانت طبقة العاهرات تتألف عادة من الإماء أو ممن أعتق منهم ^(٢) ، ولم يكن العربي يعرف هؤلاء الإماء « مساواة في الحقوق ولا مساواة في المعاملة » ^(٣) . ويبدو أن المسألة لم تكن أكثر من نزوة جنسية ، فقد كان أبيض ما يفضيه العربي أن تلد أمته منه ^(٤) ، ومن هنا كانوا يستعملون أولاد إماءهم ^(٥) ، ويرفضون الاعتراف بهم إلا إذا أبدوا نجابة ممتازة ، فإنهم حينئذ يلحقونهم بنسبهم ^(٦) .

وكان أسوأ هؤلاء المهجناء حظاً ، وأوضعهم منزلة اجتماعية ، أولاد الإماء السود الذين سرى إليهم السود من أمهاتهم ، فقد كانوا مبة يعير بهم آبائهم ^(٧) . ومرد ذلك من غير شك إلى ظاهرة اللون ، فقد كان العرب يفضون اللون الأسود بقدر ما يحبون اللون الأبيض ، وقد وصفوا كل شيء مملوح عندهم مادياً كان أو معنوياً بالبياض ^(٨) ، وكان مما يمدح به الرجل أو يفتخر به أنه أبيض ^(٩) ،

(٢) نقائض جرير والفرزدق ٤١/١ و ٦٣ و ٦٤ ، وشرح السكري على أشعار الهذليين ٤٦/١ و ٢٣٥ . ومن معاني هاتين الكلمتين « البغي ، والمرأة الزانية » (انظر مادتي « تون » و « فرثن » في المعجمات اللغوية) .

(٢) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, pp. 168-169.

(٣) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 277.

(٤) « إنا قوم نبيض أن تلد فينا الإماء » (الأغاني ١٦٥/٢٠) .

(٥) انظر : الأغاني ٨/٢٣٧ ، ٢٣٩ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ١٣٠ ، والبغدادى : خزانة الأدب ٦٢/١ .

(٦) الأغاني ٨/٢٣٧ ، وانظر المثل على هذا في إلحاق عنزة بابيه في المصدر نفسه / ٢٣٧ ، ٢٣٩ وفي الشعر والشعراء / ١٣٠ ، ١٣١ .

(٧) كان لعمر بن شاس « امرأة من قومه وابن من أمة سوداء يقال له عرار فكانت تعيره إياه » (شرح التبريزي على حماسة أبي تمام ١٤٩/١) .

(٨) « إذا قالت المربطان أبيض ، وفلانة بيضاء ، فالمعنى نقاء العرض من الدنس والعيوب ، وإذا قالوا فلان أبيض الوجه ، وفلانة بيضاء الوجه ، أرادوا نقاء اللون من الكلف والسواد الشائن » (لسان العرب : مادة « بيض ») .

(٩) « بيض الوجوه على المدو يقال » (الفرزدق في نقائض جرير والفرزدق ٢٨٧/١) ، « من كل أبيض يستضاء وجهه » (جرير في نقائض جرير والفرزدق ٣٠١/١) ، « بيض الوجوه مصانع لسن » (قيس بن عاصم المنقري في شرح التبريزي على حماسة أبي تمام ٦٨/٤) .

ومن سمكات جمال المرأة أن تكون بيضاء^(١) ، وهو أيضاً دليل على شرفها ، فقد كان مما يُمَدح به الرجل أنه ابن بيضاء^(٢) ، بل إنهم كانوا يفخرون بأن سباياهم من النساء البيض^(٣) . ومن هنا أطلقوا على هؤلاء السود اسماً خاصاً تمييزاً لهم من سائر إخوانهم المهجناء ، فسموهم « الأغربة » تشبيهاً لهم بذلك الطائر البغيض المشوم في لونه الأسود^(٤) ، ونسبوهم في أكثر الحالات إلى أمهاتهم^(٥) . ويخرج هؤلاء « الأغربة » إلى الحياة ، وقد وسمتهم الطبيعة بذلك اللون الذي يبغضه مجتمعهم ، والذي لا يد لهم فيه ، ولا خروج لهم منه ، فإذا هو يحول منذ البدء دون أن يعترف بهم آبائهم ، ثم إذا هو بعد ذلك يقف صخرة تحطم عليها آمالهم في أن يشاركوا في الحياة الاجتماعية كما يشارك غيرهم ، ولا يبقى لهم إلا فرصة ضيقة للحياة على هامش المجتمع حياة ذليلة محقرة يخدمون فيها ساداتهم ، ويقومون لهم بتلك الأعمال الفرعية التي يأنفون هم من القيام بها ، أما الأعمال الأساسية فلا يقوم بها إلا أبناء الحرائر^(٦) ، فما يحسن هؤلاء الأغربة أولاد الإماء السود غير « الحلاب والصر » كما يقول أحدهم

(١) « مهففة بيضاء غير مفاضة » (امرؤ القيس في مملته) ، « ومن كل بيضاء رعبوبة » (لمبرد : الكامل / ٣٠٥) .

(٢) « هو ابن لبيضاء الجبين نجبية » (العجير السلوي في الأغاني ١١ / ١٥٤ بولاق) .

(٣) رحلتنا من الأجيال أجيال طوي نسوق النساء عودها وعشارها

نرى كل بيضاء العوارض طفلة تقري إذا شال السالك صدارها

(عروة بن الورد في ديوانه / ١٧١) .

(٤) في لسان العرب (مادة غرب) « وأغربة العرب سودانهم ، شبهوا بالأغربة في لونهم » ، وفي تاج المروس (المادة نفسها) « وكلهم سرى إليهم السود من أمهاتهم » ويقول أبو عبيدة : « ولما سمو أغربة لأن أمهاتهم كن سودا » (كتاب الشعراء ، مخطوط ، فصل من غلب اسم أمه على اسم أبيه ، ورقة رقم ٣١) .

(٥) انظر كتاب « من نسب إلى أمه من الشعراء » لابن حبيب ، وانظر فصل « من غلب اسم أمه على اسم أبيه » في كتاب الشعراء ، وانظر أيضاً ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ١٣١ ، والأغاني ٨ / ٢٤٠ .

(٦) لا يكشف النماء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها (حماسة أبي تمام ١ / ٢٥) ، ويقول التبريزي : « يعني أن أبناء الحرائر هم الصابرون على المكابرة في ابتناء المجد واكتساب الشرف » .

— عنزة بن زبية الأمة السوداء — في سخرية لاذعة من تلك الأوضاع الاجتماعية التي وضعها السادة البيض وآمنوا بها ^(١) .

ومع ذلك فقد يبدى أحد هؤلاء الأغربة امتيازاً في ناحية من النواحي ، فتشعر القبيلة أنها أمام فرد تستطيع أن تتفجع به ، فيمحو هذا الامتياز عنه معنوياً سواد لونه ، فيعترف به أبوه ، وتعمل القبيلة على تقريبه من مركز الدائرة ، ليقوم بدوره في أعمال القبيلة الأساسية ، كما حدث لعنزة الذي أصبح بعد اعتراف أبيه به ، لشجاعته الفائقة في دفاعه عن قبيلته ، عنزة بن شداد العبسي ^(٢) .

ولكن لم تكن الفرصة التي أتاحت لعنزة بالتى تتاح لكل أولئك الأغربة الذين كان يغص بهم المجتمع الجاهلي ^(٣) ، كما أن منهم من كان يرفض تلك الحياة « الهامشية » ، ويتمرد على ذلك الوضع الاجتماعي الدليل المحقر الذي فرض عليه ، لأن لديه من القوة النفسية ما يجعله يرفض قبوله ، ومن القوة الجسدية ما يمكنه من رفع راية العصيان في وجه هؤلاء السادة ^(٤) . وقد خرج هؤلاء الأغربة الأقوياء على أوضاع القبيلة ، ورفضوا الحياة الدليلة التي فرضتها عليهم ، وخرجوا من حماها ، ليشقوا طريقهم في الحياة بالأسلوب الذي يضمن لهم حياة كريمة حرة تعتمد على القوة في سبيل الحصول على الحق . ومن هؤلاء

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ١٣٠ ، والأغانى / ٨ / ٢٣٩ .

(٢) المصدران السابقان : الشعر والشعراء / ١٣٠ ، ١٣١ ، والأغانى / ٨ / ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

(٣) يحاول بعض رواة الأدب العربي أن يحددوا عدد أغربة العرب ، فبينما يحدد بعضهم بثلاثة (ابن قتيبة في الشعر والشعراء / ١٣١ ، وابن الكلبي في الأغانى / ٨ / ٢٤٠ ، وأبو عبيدة في كتاب الشعراء — مخطوطة — ورقة رقم ٣١) ، يحدد آخرون بأربعة (النيسابورى في لطائف المعارف — مخطوطة — ورقة ٨٧) ، ويحدد غيرهم بسبعة (ابن الأعرابي في المزهر / ٢ / ٢٦٩) ، ويحدد آخرون بأكثر من ذلك (ابن حبيب في الخبر / ٣٠٧ وما بعدها ، ولسان العرب ، وتاج العروس ، مادة غرب) ، ويعنى أن هذه الإحصائيات لا قيمة لها ، فإن هذا شيء أكثر من أن يحصى ، ويبدو أن المقصود بها هو تسجيل أسماء المشهورين منهم .

(٤) يصفهم النيسابورى بأنهم « سودان شجعان » (لطائف المعارف — مخطوطة — ورقة

الأغربة المتمردين تألفت جماعات من صعاليك العرب .

وحين نعود إلى شعرائنا الصعاليك لننظر إليهم في ضوء هذا « المصباح الاجتماعي » نجد أن طائفة منهم تألفت من هؤلاء الأغربة .

فالسليك بن السليكة ^(١) السعدى يصفه ابن قتيبة بأنه « أحد أغربة العرب وهجئاتهم وصعاليكهم » ^(٢) ، ويصفه المبرد بأنه « كان من غربان العرب » ^(٣) ، ويصفه النيسابورى بأنه كان أسود ^(٤) ، ويقدمه ابن قتيبة في أول ترجمته بأنه « منسوب إلى أمه » ^(٥) ، ويترجم له ابن حبيب في كتابه « من نسب إلى أمه من الشعراء » ^(٦) ، ويصفها ابن قتيبة بأنها « كانت سوداء » ^(٧) ، ويصفها المفضل بأنها « كانت أمة سوداء » ^(٨) ، وكذلك يصفها النيسابورى ^(٩) ، ويذكر عنها المبرد أنها « كانت سوداء حبشية » ^(١٠) ، ويضعه ابن حبيب بين « أبناء الحبشيات » ^(١١) .

وتأبط شراً من هذه الطائفة أيضاً يضعه صاحب لسان العرب نقلاً عن ابن سيده عن ابن الأعرابي بين أغربة العرب ، وكذلك يفعل صاحب تاج العروس نقلاً عن التهذيب والمحكم ولسان العرب ^(١٢) ، ويضعه ابن الأعرابي في

(١) هي أمه (تاج العروس مادة ملك ، والأغاني ١٨ / ١٣٣ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ١٣١ ، وابن حبيب : كتاب المقاتلين - مخطوطة - ورقة رقم ٨٦ ، والمخبر / ٣٠٨ ، والمبرد : الكامل / ٢٩٨ ، والآملى : المؤلف والمختلف / ١٣٧ ، والبغدادى : خزانة الأدب ٢ / ١٧ ، والنيسابورى : لطائف المعارف - مخطوطة - ورقة رقم ٧٦ ، والسيوطى : المزهر ٢ / ٢٦٩) .

(٢) الشعر والشعراء / ٢١٤ .

(٣) الكامل / ٢٩٨ .

(٤) لطائف المعارف (مخطوطة) ورقة رقم ٧٧ .

(٥) الشعر والشعراء / ٢١٣ .

(٦) ص ٦ .

(٧) الشعر والشعراء / ٢١٣ .

(٨) الميدانى : مجمع الأمثال ١ / ٣٩٩ .

(٩) لطائف المعارف (مخطوطة) ورقة رقم ٧٦ ورقم ٧٧ .

(١٠) الكامل / ٢٩٨ .

(١١) المخبر / ٣٠٧ و ٣٠٨ .

(١٢) مادة (غرب) . وخط ما ذكره من أنه من الإسلاميين ، فكل المصادر التى بين =

نواده بين أغربة الجاهلية^(١) ، ويذكر Fresnel أنه ابن أمة^(٢) ، ويذكر صاحب الأغاني أن اسمها أميمة^(٣) ، ولكنه يقول « يقال إنها من بني القين بطن من فهم »^(٤) ، ولعل في هذا التشكيك الذي يثيره صاحب الأغاني حول نسبتها إلى بني القين ما يقلل من أهمية هذا الخبر . ومن الحق أن المصادر التي تعرضت لتأبط شراً ، ما عدا تلك المصادر التي ذكرته بين أغربة العرب ، لم تذكر شيئاً صريحاً عن أصل أمه ، على كثرة ما تعرضت لها ، ولكن من الحق أيضاً أن هذه المصادر صورتها في صورة امرأة غير محترمة ، تؤخذ بول ابنها إذا غزا^(٥) ، وتسعى في قتله ليخلو لها الجو مع زوج تزوجها بعد أبيه^(٦) ، وتحدث هي نفسها بأنها حملت به في ليلة ظلماء وإن نطاقها لمشهود^(٧) ، وتحدثنا أخبارها بأن أولادها الخمسة كانوا يحملون ألقاباً عجيبة تعطينا فكرة عن هوان المترلة الاجتماعية لهذه الأسرة^(٨) .

ومن الطبيعي أن تكون صلة هؤلاء الأغربة بأمهاتهم أقوى من صلهم بأبائهم ، وقد رأينا أن أكثرهم قد نسبوا إليهن ، وهي ظاهرة يصح أن نطلق عليها « العصبية النسائية في حياة أغربة العرب » . ومرد هذا من غير شك إلى إنكار آبائهم لهم منذ أول حياتهم ، وإهمالهم شأنهم بعد ذلك ، فنشأوا في رعاية أمهاتهم ، أو في إهمالهن ، لا يرون لهم أحداً مواهن ، فتعصبوا لهن وتعصبن لهم ، ويصرح

= أدينا - ما عداهما - مجمعة على أنه جاهل ، وكل أخباره تؤيد هذا .

(١) السيوطي : المزهري ٢٦٩/٢ .

(٢) Lettres sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme (Première Lettre, p. 108).

(٣) الأغاني ٢٠٩/١٨ ، وأخطأ الأستاذ Brau في The Ency. of Islam حين ذكر أن اسمها أمينة ، ولم ينتبه لهذا الخطأ مترجمو الدائرة إلى اللغة العربية .

(٤) الأغاني ٢٠٩/١٨ .

(٥) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١٧٥/١٧٥ .

(٦) التبريزي : شرح حسانة أبي تمام ٤٥/١ .

(٧) المصدر السابق ٤٣/٤٣ .

(٨) الأغاني ٢٠٩/١٨ ، وانظر أيضاً المرزباني : معجم الشعراء ٢٢٦/٢٢٦ ، والسيوطي

المزهري ٢٧٥/٢ ، وانظر لسان العرب وتاج المروس مادة (لقب) .

السليك بأن رأسه قد شاب مما تقاسيه خالاته من ضيم وهوان ومذلة يعجز لفقره عن إنقاذهن منها^(١) ، وهو يذكر هذا في مجال دفاعه عن تصعلكه وفخره به ، مما يشعر بأن هذه « العصبية النسائية » كانت من الأسباب الفعالة في هذا التصعلك . وتتحدث أم تأبط شراً عن ابنها حديث المعجبة به ، فقد حكى عنها أنها قالت فيه : « إنه والله شيطان ، ما رأيته قط مُسْتَشْقِلاً ولا ضحكاً ، ولا همَّ بشيء مذ كان صبيّاً إلا فعله »^(٢) ، وتتحدث عنه مرة أخرى حديثاً تبين فيه كيف حملت به ، وكيف وضعت ، ومدى اهتمامها بتنشئته منذ طفولته الأولى تنشئة قوية^(٣) .

ومن هنا أيضاً كثر رثاء قريبات هؤلاء الأغربة لم ، وحديثهن عن حزنهن عليهم ، فقد رثت السلوكية ابنها السليك بأبيات رائعة تفيض حزناً وتَفَجُّعاً ، تصور فيها مصابها الشديد فيه ، وحسرتها البالغة عليه^(٤) ، ورثت أم تأبط شراً ابنها بقطعتين مسجعتين لعلهما تمثلان مرحلة من مراحل أولية الشعر العربي ، لم تنس فيهما أن تصور بطولته وشجاعته^(٥) ، وكذلك فعلت أخته ربيعة

(١) المبرد : الكامل / ٢٩٩ ، والبغدادى : خزانة الأدب ١٢٨/٣ ، ويقول المبرد « وإنما توجع لخالاته لأنهن كن إماء » (٢٩٩/٢) ، وانظر الأبيات كلها وشرحها في الكامل ٢٩٨/٢ وما بعدها .

(٢) التبريزى : شرح حسانة أبي تمام ٤٣/١ .

(٣) المبرد : الكامل / ٧٩ ، والملاحظ : الحيوان ٢٨٦/١ ، ولسان العرب ، وتاج العروس ، مادة (وضع) ، مع بعض الخلاف اللفظي ، وزيادات في العباوات في بعض المصادر ، لعلها من صنع الرواة ، رغبة منهم في إطالة هذه السجعات ، ولعل أصبح هذه الروايات رواية الكامل ورواية الحيوان .

(٤) التبريزى : شرح حسانة أبي تمام ١٩١/٢ ، ١٩٢ ، وأسامة بن منقذ : لباب الآداب / ١٨٣ ، ويقال إنها لأم تأبط شراً (المعرى : شرح حسانة أبي تمام - مخطوطة بدار الكتب - ورقة رقم ٥ ، وانظر أيضاً شرح التبريزى ١٨٦/٤ و ١٨٧) ، ولكن التبريزى يرجع أنها لأم السليك (ص ١٩٢) ، وتروى في العقد الفريد (٢٦١/٣ ، ٤٢٧) لأعرابي مجهول في قصة واحدة في الموضعين ، ولكن يلاحظ أن القصة لا تتفق مع الأبيات ، وبخاصة البيت الثالث (ص ٢٦١) فليس هناك محل لهذا التساؤل في البيت ما دامت القصة تذكر أن أفعى لدغت ابن هذا الأعرابي فمات . (٥) لسان العرب ، المواد (قرب - هوف - هيف) .

فقد رثته برجز تحدثت فيه عن مكارم أخلاقه^(١) ، وكذلك فعلت أخت حاجز الأزدى ، فقد رثته بيتين تصور فيهما حسرتها على فقدته ، وحيرتها لاختفائه^(٢) ، ورثت عمراً ذا الكلب^(٣) أخته جشوب بمجموعة من القصائد الممتازة^(٤) .

وقد انضمت هذه الطائفة من الصعاليك الأغربة إلى الطائفة السابقة من الصعاليك الخلعاء والشذاذ ، ليشاركوا جميعاً في العمل ضد هذا المجتمع الذي فقلوا توافقهم الاجتماعي معه ، إما لأنه تخلى عن رعايتهم كما في حالة الأغربة ، وإما لأنه تخلى عن حمايتهم كما في حالة الخلعاء والشذاذ .

٤

الصعاليك والمجتمع القبلي :

الظاهرة المهمة التي تلفت النظر في حياة صعاليك العرب الاجتماعية هي فقد الإحساس بالعصية القبلية التي كانت قوام المجتمع الجاهلي ، وتطورها في نفوسهم إلى « عصية مذهبية » . وهي ظاهرة من السهل تحليلها بعد ما فهمنا الظروف الاجتماعية التي وجد فيها هؤلاء الصعاليك ، فأما الخلعاء والشذاذ فقد تخلت قبائلهم عنهم ، وسحبت منهم « الجنسية القبلية » ، فكان من الطبيعي أن يفقدوا إيمانهم بكل معاني القبلية ، وأن يكفروا بتلك العصية القبلية التي

(١) ابن حبيب : كتاب المقتالين (مصورة بدار الكتب) لوحة رقم ٨٣ ورقم ٨٤ ، ولسان العرب مادة (رخم) ، وينسب هذا الرجز إلى أمه (ياقوت : معجم البلدان ٤ / ٢٤٢ مادة رخم) .
(٢) الأغاني ١٢ / ٥٢ (بولاق) .

(٣) ينص صاحب الفلاكة والمفلوكين نقلاً عن بعض مصادره على أنه من صعاليك العرب / ١١٩ .
(٤) السكري : شرح أشعار الهذليين ١ / ٢٤١ - ٢٤٦ ، وانظر أيضاً الأغاني ١٩ / ٢٣ ، وحياة ابن الشجرى / ٨٢ ، ٨٣ مع بعض الاختلاف في الألفاظ وترتيب الأبيات وعددها ، وتنسب بعض هذه الأبيات إلى أخت عمرو « ربيعة » (الأغاني ١٩ / ٢٣) وإلى أخته « عمرة » (شرح أشعار الهذليين ١ / ٢٤٤) . ولكن هذا الاختلاف في كل هذه المواضع لا يغير من الفكرة التي نقرها شيئاً .

لم يعلها قيمة في حياتهم ، بل قد ينقلبون انقلاباً تاماً فتصبح صلتهم بقبائلهم صلة
عداوة ، فيوجهون غزواتهم إليها ، كما فعل قيس بن الخدادي لما خلعت
قبيلته ، فجمع لهم « شذاذاً من العرب ، وفتاكاً من قومه ، وأغار عليهم
بهم »^(١) ، فنحن هنا أمام حالة شاذة في المجتمع الجاهلي ، يغير فيها بعض
القبيلة على بعضها . وأما الأعرابية فقد أدركوا أن قبائلهم لا تكاد تعرف بهم ،
بل تكاد تنكر صلتها بهم ، فلم يكن هناك إذن ما يوجب حرصهم على تلك
العصبية القبلية لأنها مرفوضة من جانب القبيلة .

وحين ننظر في أخبار صعاليك العرب نلاحظ هذه الظاهرة واضحة تماماً ،
وقد رأينا في غارة قيس بن الخدادي على قومه أنه ألف جماعته من شذاذ من
العرب وفتاك من قومه . وفي أخبار حاجر الأزدي أنه جمع « ناساً من فهم
وعلوان فلم على نخشم ، فأصابوهم غرة وغنموا ما شاعوا »^(٢) ، فهو أزدي
وهم من فهم وعلوان . وكان الشنفرى الأزدي يغير أحياناً على الأزدي فيمن معه
من فهم^(٣) ، فهو أزدي يترعم جماعة من فهم ، دون أن يجد الفهميون في
ذلك غضاضة ، وهو يترعمهم ليغير بهم على قبيلته ، دون أن يجد هو في ذلك
عاراً . وفي أخبار امرئ القيس أنه بعد أن طرده أبوه « كان يسير في أحياء
العرب ومعه أخلاط من شذاذ العرب من طيء وكلب وبكر »^(٤) ، فنحن هنا
أمام جماعة من الصعاليك تألفت من ثلاث قبائل مختلفة .

ولعل السليك هو الشنوذ الوحيد لهذا الشنوذ ، فقد « كان لا يغير على
مضر ، وإنما يغير على اليمن ، فإذا لم يمكنه ذلك أغار على ربيعة »^(٥) ، بل إن
المسألة عنده لم تقف عند هذا الجانب السلبي ، بل كانت أحياناً تتعداه إلى
جانب إيجابي يستخدم فيه مواهبه صعلوكاً في مسيل قبيلته ، ففي بعض أخباره

(١) الأغاني ٢/١٣ (بولاقي) .

(٢) الأغاني ٥١/١٢ (بولاقي) .

(٣) الأغاني ١٣٥/٢١ .

(٤) الأغاني ٨٧/٩ .

(٥) الأغاني ١٣٤/١٨ .

أنه رأى طلائع جيش لبكر بن وائل جاءوا ليغيروا على تميم ، فاستغل سرعة عدوه لينتذر قومه حتى لا يؤخذوا على غرة^(١) .

ولكن من المهم أن نلاحظ أن العصبية القبلية قد تطورت في نفس السليك من عصبية ضيقة الأفق إلى عصبية ذات أفق واسع ، ترتفع عن العصبية القريبة التي كان تؤمن بها القبيلة في حدودها الضيقة إلى عصبية واسعة تشمل الجنس كله الذي تنتمي إليه القبيلة ، فهي عصبية من نوع آخر غير العصبية القبلية التي كانت تؤمن بها كل قبيلة ، ويصح أن نطلق عليها « عصبية جنسية » .

ويجب ألا نفهم من هذا أن السليك كان مرتبطاً بقيلته كسائر أفرادها ، فقد كان يحيا حياته الخاصة ، حياة التصعلك ، خارج قبيلته ، دون أن يرتبط بها في شيء ، أو يعتمد عليها في شيء .

وقد نشأ عن كفر صعلاليك العرب بالعصبية القبلية ، وإيمانهم بعصبية مذهبية قوامها « الغزو والإغارة للسلب والنهب » أنهم كثيراً ما كانوا يقومون في المجتمع الجاهلي بدور يشبه دور « الجنود المرتزقة » عند الأمم الأخرى ، « فإدام هؤلاء الصعلاليك لا يعرفون العيش إلا في ظلال سيوفهم ، وما داموا لا ينتظرون في حياتهم أي سلام أو أمن ، فقد كانوا يقاتلون أحياناً كما يقاتل الأبطال الشجعان ، ومن هنا كان الأشراف الذين يرغبون في أن يوجهوا إلى خصومهم ضربة قاصمة يلجئون إلى بسالتهم مفضلين إياهم على رجال قبائلهم »^(٢) .

وتحدثنا الأخبار أن قوماً من شذاذ العرب كانوا يكونون مع الملوك ، وكانوا

(١) المصدر السابق / ١٢٦ ، والمبرد : الكامل / ٣٥٠ ، ٣٥١ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٥ ، ٢١٦ ، والبغدادى : خزانة الأدب ١٧ / ٢ ، والميدانى : مجمع الأمثال ١ / ٤٣١ . ومع أن المبرد يسوق القصة في باب يتحدث فيه تكاذيب الأعراب فإن التكذيب ينصب ، كما هو واضح من القصة ، على سرعة العدو والخارقة للعادة ، وهي مسألة لا صلة لها بما تقرره هنا ، وقد ناقشنا مسألة العدو في الفصل السابق .

(٢) Lammen; Le Berceau de l'Islam, Vol. I, p. 193.

يسمونهم « الصنائع »^(١) . وفي أخبار امرئ القيس أنه لما خرج ليثأر لأبيه « جمع جمعاً من بني بكر بن وائل وغيرهم من صعاليك العرب ، وخرج يريد بني أسد »^(٢) ، وفي مرة أخرى غزاهم « وقد جمع جمعاً من حمير وغيرهم من ذؤبان العرب وصعاليكها »^(٣) ، وأنه لما استنصر مرثد الخير الحميري أمدته بخمسمائة رجل من حمير خرج بهم ، وتبعه شذاذ من العرب^(٤) ، وفي أخبار زيد الخيل الطائي أنه « جمع طيئاً وأخلاقاً لهم ، وجمعوا من شذاذ العرب ، فغزا بهم بني عامر ومن جاورهم من قبائل العرب من قيس »^(٥) ، وفي أخبار زهير بن جناب أنه جمع بني كلب « ومن تجمع له من شذاذ العرب والقبائل » ، فغزا بهم بكراً وتغلب^(٦) ، وفي أخبار أبي جندب الهذلي أنه خرج ليثأر لأخيه « فقدم مكة فواعد كل خليع وفاتك في الحرم أن يأتوه يوم كذا وكذا فيصيب بهم قومه »^(٧) ، وفي أخباره أيضاً أن بني لحيان قتلوا جارين له ، فقدم مكة ولا قضى نسكه « خرج في الخلاء من بكر وخزاعة ، فاستجاشهم على بني لحيان ، فخرجوا معه ، حتى صَبَّحَ بهم بني لحيان »^(٨) ، وفي شعر خفاف بن ثدبة إشارة إلى اشتراك الصعاليك في بعض الغزوات^(٩) .

ولعل من أسباب هذا كثرة الصعاليك وانتشارهم في أرجاء الجزيرة العربية في العصر الجاهلي بصورة واسعة ، وقد مر بنا في الفصل الأول أن النعمان بن المنذر لما طلبه كسرى ، وهرب مستنجداً بقبائل العرب ، نصحه بعضهم بالعودة إلى كسرى ، فإن صفح عنه عاد ملكاً عزيزاً ، وإلا فالموت خير من أن

(١) الأغاني ٨١/٩ .

(٢) العباسي : معاهد التنصيص ٥/١ .

(٣) البغدادي : خزنة الأدب ٥٣٢/٣ .

(٤) الأغاني ٩٢/٩ .

(٥) الأغاني ٥٢/١٦ .

(٦) الأغاني ٩٦/٢١ .

(٧) المصدر السابق ٦٢/ .

(٨) السكري : شرح أشعار الهذليين ٨٣/١ ، ٨٤ ، والأغاني ٦٧/٢١ ، ٦٨ .

(٩) الأغاني ٣٢٩/٢ ، والبغدادي : خزنة الأدب ٤٧١/٢ .

يتلعب به صعاليك العرب ويتخطفه ذئابها فتأكل ما له ، وفي أخبار
معبد بن زرادة « أن قيساً أسرته يوم رَحَرَ حان فساروا به إلى الحجاز ، فأتى
لقبطاً (أنحوه) في بعض الأشهر الحرم ، ليفديه فطلبوا منه ألف بعير ، فقال
لقبط : إن أبانا أمرنا ألا نزيد على المائتين فتطمع فينا ذؤبان العرب »^(١) .

وهنا يجدر بنا أن نقف لنلاحظ أن هذا الأسلوب من أساليب العيش الذي
سلكه صعاليك العرب لم يكن إلا صورة من الحياة الاجتماعية التي كان يعرفها
المجتمع الجاهلي ، ذلك المجتمع الذي كان يؤمن بأن « الغزو أدرُّ للقاح ، وأحدُّ
للسلاح »^(٢) . وليس من شك في أن المجتمع الجاهلي كان يؤمن بالقوة إيماناً جعلها
من مقومات حياته ، وجعل الغزو أساساً من الأسس التي يقوم عليها بناؤه^(٣) ،
« فيقدر ما كان التناصر بين أفراد القبيلة ، كان التخاصم بين القبائل في سبيل
الشرف والرياسة أو المال والعيش ، لذلك كانت حياة القبائل الجاهلية حمراء
مصبوغة بالدم »^(٤) يتسابق أفرادها إلى الجهل ، بل يحرص كل منهم على أن
يجهل « فوق جهل الجاهليتنا »^(٥) ، مؤمنين بالظلم وبأن « من لا يظلم الناس
يظلم »^(٦) ، وبأن في الشر نجاة حين لا ينجيك إحسان^(٧) ، وبأن « الشهرة
بالشر خير من ألا أعرف بخير ولا شر »^(٨) .

ولعل عمل الصعاليك « كان استثناساً بعمل القبائل معاً ، إذ كانت
حياتها قائمة إلى حد ما على الغزو والسلب ، والفرق بين الصورتين أن عمل
القبائل جماعي منظم ، وعمل الصعاليك فردي لا نظام له »^(٩) .

(١) المبرد : الكامل / ٢٧٦ .

(٢) ابن قتيبة : عيون الأخبار / ١ / ٢٤٤ .

(٣) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. I. p. 247.

(٤) أحمد الشايب : تاريخ الشعر السياسي / ٢٧ .

(٥) عمرو بن كلثوم في معلقته (التبريزي : شرح القصائد العشر / ٢٤٩) .

(٦) زهير بن أبي سلمى في معلقته (المصدر السابق / ١٢٧) .

(٧) الفند الزماني (التبريزي : شرح حكمة أبي تمام / ١ / ١٤) .

(٨) الجاحظ : الحيوان / ٢ / ٩٠ .

(٩) أحمد الشايب : تاريخ الشعر السياسي / ٣٥ .

ونخلاصة القول أن إيمان القبيلة بوحدةها أوجد في المجتمع الجاهلي طائفة الخلعاء والشذاذ ، وأن إيمانها بجنسها أوجد فيه طائفة الأغربة ، وأن المتمردين من هاتين الطائفتين من شتى القبائل قد اجتمعوا في عصابات من صعاليك العرب ، كافرين بالعصية القبلية ، مؤمنين بعصية مذهبية قوامها « الغزو والإغارة للسلب والنهب » ، معتمدين على قوتهم في سبيل العيش ، شأنهم في ذلك شأن المجتمع الذي يعيشون فيه ، وإن يكن عملهم فردياً فلم يعترف به .

الفصل الرابع

التفسير الاقتصادي لظاهرة الصعلة

١

العرب والتجارة :

عرفت الجزيرة العربية منذ أقدم عصورها النشاط التجاري على صورة واسعة . وقدماً ذكر سترابو « أن كل عربي تاجر »^(١) ، وهي عبارة — على الرغم مما فيها من إطلاق وتعميم — تسجل الصدى الذي استقر في نفس ذلك الرحالة القديم عن بلاد العرب في أثناء زيارته لها . ويذكر شبرنجر في جغرافيته القديمة للجزيرة العربية أن تاريخ التجارة الأولى هو تاريخ البخور ، وأرض البخور هي بلاد العرب^(٢) . وأول تجار ورد ذكرهم في التوراة هم العرب^(٣) ، ويذكر الباحثون أن العرب كانوا « الواسطة بين قدماء الأوربيين والشرق الأقصى »^(٤) ، « وأن البيزنطيين كانوا يعتمدون في شئونهم التجارية على قوافل البدو التي كانت تحمل لهم الأحجار الكريمة والتوابل من بلاد الهند الغامضة ، والخلود والمعادن والمواد الغريبة والحرير من الصين ، لأجل ثياب أباطرتهم وحظاياهم وكهنتهم ، والعطور من بلاد الحبش ، والبخور من اليمن ، والصمغ من إفريقية ، لأجل كنائسهم وقصورهم »^(٥) . وقد كان لمخازن العرب من

Lammens; La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 27 = 123; & Dermenghem; (١)

The Life of Mahomet, p. 20 & p. 24.

Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 159. (٢)

Lammens; La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 28 = 124; & Dermenghem; (٣)

The Life of Mahomet, p. 24.

وفي سفر حزقيال (الإصحاح ٢٧) حديث عن تجارة العرب .

(٤) جوستاف لوبون : حضارة العرب / ١٠٦ .

Dermenghem; The Life of Mahomet, pp. 25, 26. (٥)

الأهمية ما كان لمخازن البندقية إبان عظمها^(١) ، ومنذ عصور سحيقة والقوافل التجارية النشطة تعمل بين مناطق الإنتاج في بلاد العرب السعيدة وبين مدن العراق والشام ومصر^(٢) .

ويبدو أن هذه الحركة التجارية النشطة التي سالت بقوافلها وديان الصحراء العربية ، حتى جعلت من العرب كما يقول بعض المؤرخين « حملة العالم بين الشرق والغرب »^(٣) ، ترجع إلى تلك الظروف التي كانت تسود العالم القديم في ذلك الوقت ، فقد كان الطريق البحري بين الشرق والغرب محفوفاً بالأخطار ، فإلى جانب « القراصنة » الذين كانوا يهددون أمنه ، ويقطعون طرقه ، وبأخفون كل سفينة غصباً ، كانت الملاحة نفسها متأخرة ، ولهذا « انحصرت التجارة — بدون استثناء تقريباً — في البر ، وكانت تلك القارة التي هي الآن أكبر عقبة في سبيل الحركة التجارية وسيلتها الأساسية الميسرة ، وكانت براري آسيا الوسطى وجزيرة العرب بحاراً القدماء ، وكانت قوافل الإبل سفنهم »^(٤) .

وكانت التجارة في أول الأمر في أيدي اليمنيين ، « فعلى أيديهم كانت تنقل غلات حضرموت وظفار ، وواردات الهند ، إلى الشام ومصر »^(٥) ، « وكانت كثرة التجارة مع بلاد العرب الجنوبية تنقل إلى الشام ومصر عن طريق الحجاز »^(٦) .

وليس من شك في أن هذه الحركة التجارية النشطة التي كان يسيطر عليها الجنوبيون ، والتي كانت تتخذ من بلاد الشماليين طريقاً لها ، أوجدت في نفوس الشماليين رغبة في الأخذ بهذا الأسلوب من أساليب العيش ، الذي يروونه يدرّ على أصحابه رزقاً وافراً وثراء عريضاً ، وغرست في نفوسهم النواة الأولى لحب

(١) جوتاف لوبون : حضارة العرب / ١٠٦ .

(٢) Semple; Influences of Geographic Environment, p. 506.

(٣) Muir; The Life of Mohammad, pp. IXXXIX, XC.

(٤) Ibid., p. XC.

(٥) أحمد أمين : فجر الإسلام / ١٥ .

(٦) O'Leary; Arabia before Muhammad, pp. 180, 181.

التجارة التي لم تلبث أن خرجت شجرتها إلى الوجود عندما ضعفت الدولة اليمنية وأخذت في الانحلال . فما كادت القوة الحميرية يدب فيها الوهن في أثناء القرن الخامس حتى منحت الفرصة لعرب الحجاز للقبض على زمام الحركة التجارية ، ويبدو أن هذه التطورات كانت شديدة التدرج ، ولكن الأمر الذي لا ريب فيه هو أنه من قبل أن يبدأ القرن السابع كان طريق الحجاز كله في أيدي العرب الذين يتزلون فيه ، والذين جعلوا من مكة مركزاً إدارياً لهم ، يستقبلون فيه البضائع من أيدي اليمنيين ، ثم يحملونها شمالاً على حسابهم الخاص إلى أسواق سورية ومصر ، وربما أيضاً إلى فارس ، وإن يكن من المعروف أن جزءاً من التجارة الفارسية كان في أيدي عرب الحيرة ^(١) .

٢

الطرق التجارية :

ولم يكن طريق الحجاز الطريق التجاري الوحيد للقوافل التجارية ، وإنما كانت هناك طرق أخرى . ويقرر الدارسون أن «طرق القوافل ليست مسألة اختيار مطلق» ^(٢) ، وإنما هي مسألة «تعتمد على طبيعة الصحارى والجبال وموارد المياه» ^(٣) ، ويلاحظون أن «طرق القوافل في الجزيرة العربية تتبع عادة مجرى الوديان» ^(٤) ، وهذا طبيعي لأنها تتجنب به مجاهل الصحراء ، ووعورة الجبال ، وتضمن طرقاً واضحة المعالم ، محددة المسالك ، تكثر فيها نسيباً فرص وجود الماء .

وقد عرفت الجزيرة العربية منذ أقدم عصورها طريقين أساسيين للقوافل

(١) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 181.

(٢) Muir; The Life of Mohamammad, p. XC.

(٣) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 103.

(٤) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 22.

التجارية بين طرفيها الشمالي والجنوبي^(١). ويبدأ الطريقان من ظَفَّار التي كانت المركز الأساسي لتجارة البخور التي يعتمد عليها الشطر الأكبر من التجارة العربية، ويجري الطريقان إلى الشرق والغرب منها، ليتجنبنا اختراق تلك الصحراء الرهيبة المعروفة الآن بالربع الخالي.

أما الطريق الشرقي فيمضي متاخماً لقوس عُمان الساحلي، متجهاً إلى القطيف على الخليج الفارسي، التي كانت مرفأً تُحْمَل إليه بضائع الهند، ومن القطيف عن طريق تدمر إلى فلسطين وصور بسورية. وليس من شك في أن هذا الطريق كان الطريق الأساسي الذي تنقل فيه بضائع الهند إلى صنعاء باليمن، ومنها إلى ثغور البحر الأحمر أو إلى الحجاز.

وأما الطريق الغربي فيبدأ من ظفار أيضاً، ثم يسلك وادي حضرموت إلى شبوة في أقصى طرفه الغربي، حيث يلتقي بطريق فرعي يتصل بعدن، ثم يستمر إلى مأرب، ومنها إلى صنعاء حيث يلتقي مرة أخرى بطريق فرعي يتصل بعدن أيضاً، ومن صنعاء يصعد شمالاً محاذياً البحر الأحمر، متجنباً في الشرق الصحراء المحرقة اللافتحة، وفي الغرب المرتفعات الساحلية الوعرة، حتى يدخل الحجاز بين سلسلي الجبال المتوازيين التي تقع مكة والطائف بينهما، ويمضي شمالاً عن طريق وادي القرى إلى العلا، الثغر الأمامي لديار الأنباط، حيث كان يجري تبادل البضائع بين العرب الجنوبيين والأنباط، ثم إلى تيماء حيث تتشعب الطرق، فبعضها يتجه شمالاً إلى بصرى وتدمر ودمشق في سورية، وبعضها إلى مصر عن طريق أيلة وغزة والعريش والطرف الشمالي لشبه جزيرة سيناء، وبعضها إلى بابل عن طريق حائل الذي ينحني انحناءة واسعة ليتجنب صحراء النفود القاسية.

وإلى جانب هذين الطريقين الأساسيين اللذين يدوران حول صحاري الجزيرة العربية، يوجد طريق ثالث يخترق قلب الجزيرة العربية من مكة في

(١) انظر في هذين الطريقين :

O'Leary; Arabia before Muhammad, pp. 103-105; & Muir; The Life of Mohammad, p. XC.

انحناءة حول الحُد الشمالي للربع الخالي عن طريق الرياض إلى القَطِيف على الخليج العربي^(١) .

ويبدو أنه كانت هناك طرق أخرى مهمة ، ففي الأخبار القديمة أن النعمان كان يبعث بلطيمة كل عام للتجارة إلى عكاظ^(٢) ، وأن عروّة الرّحّال من بني كلاب أجارها في بعض الأعوام ، حتى إذا وصل « إلى أهله دُوَيْنَ الحَرِيبِ بماء يقال له أواره » وثب عليه البراض فقتله ، ثم مضى هارباً حتى أتى خيبر^(٣) . وهنا نتساءل : أي الطرق كانت تسلكها لطائم النعمان في قلوبها من الحيرة إلى عكاظ ؟

يبدو أن الإجابة عن هذا السؤال تفسرها ظاهرة جغرافية ، فهناك وادٍ عظيم يمتد من حرة خيبر التي ترتفع ستة آلاف قدم ، مخترقاً غربيّ القصيم بين أبانيس حتى يقارب البصرة ، وهو وادي الرّمة الذي يرجحون أنه كان مجرى نهر في عصور ما قبل التاريخ^(٤) . وقد قلنا إن طرق القوافل في الجزيرة العربية تتبع مجرى الوديان ، ومن هنا نستطيع أن نرجح أن وادي الرمة هو الطريق الذي كانت تسلكه لطائم النعمان ، ويؤيد هذا أن المواضع التي ورد ذكرها في قصة عروّة الرّحّال والبراض تقع في هذا الوادي ، فالحريب وادٍ عظيم لبني كلاب يصب في الرمة من أرض نجد^(٥) ، ومنازل كلاب حيث قتل عروّة تقع في وسط الرمة أو في أعاليها^(٦) ، ونخير التي فر إليها البراض تقع كما رأينا عند بداية الرمة . وبهذا نستطيع أن نحدد ذلك الطريق التجليّ الذي كان يمتد شمالاً إلى الجزيرة العربية ، فهو يبدأ من منطقة الحيرة ثم يمضي مع وادي الرمة

(١) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 105.

(٢) انظر في قصة هذه اللطيمة : الأغاني ١٩/٧٥ ، وابن حبيب : المحبر ١٩٥/١٩٦ .

(٣) ابن حبيب : المحبر ١٩٦/١٩٦ .

(٤) The Ency. of Islam; Art. Arabia, p. 371.

وانظر أيضاً معجم البلدان لياقوت ، مادة (الرمة) ٢٩٠/٤ ، ٢٩١ .

(٥) ياقوت : معجم البلدان ، مادة (الحريب) ٩١/٣ .

(٦) المصدر السابق ، مادة (الرمة) ٢٩٠/٤ ، ٢٩١ .

حتى يصل إلى خير ، ومنها عن طريق وادي القري إلى يثرب ، ثم إلى مكة في الطريق الذي يصل بين شمالي الجزيرة العربية وجنوبها ، ومن مكة إلى عكاظ . وقد أشار زويمر نقلاً عن بعض مصادره إلى طريق كان « في أيدي العرب الإسماعيليين يخترق وادي الرمة وبلاد نجد إلى حاضرة الحميريين القديمة مأرب »^(١) ، ولكنه لم يذكر شيئاً عنه أكثر من هذه الإشارة الموجزة ، ولعله الطريق الذي حددناه .

٣

الأسواق :

ومن الطبيعي أن تقوم على طول هذه الطرق التجارية ، حيث يوجد الماء ، مجموعة من الأسواق تنزل فيها القوافل التجارية ، ويقبل إليها سكان هذه المناطق والمناطق التي تجاورها بسلعهم ، ويقوم بين الفريقين تبادل تجاري ، ترحل بعده القوافل ببعض ما تنتجه هذه المناطق ، ويعود سكان هذه المناطق ببعض ما كانت تحمله هذه القوافل مما يحتاجون إليه ولا تنتجه بلادهم . وقد ذكر اليعقوبي من هذه الأسواق عشرة^(٢) ، بدأ بها من أقصى الشمال حيث تقام سوق دومة الجندل ، ثم تتبعها على طول الخليج العربي حيث تقام سوق المشقر بهجر ، وسوق صُحار ، وسوق دَبِي^(٣) ، ثم على طول الساحل الجنوبي للجزيرة العربية حيث تقام سوق الشَّحْر بشحر مهرة ، وسوق عدن ، وسوق الراية بحضرموت ، وسوق صنعاء ، ثم مضى على طول الساحل الشرقي للبحر الأحمر حتى انتهى إلى سوق عكاظ وسوق ذي الحجاز بالقرب من مكة ، وقد ذكر ابن حبيب هذه الأسواق أيضاً^(٤) ، وأضاف إليها سوقين آخرين :

(١) Zwemer; Arabia, The Cradle of Islam, p. 260.

(٢) تاريخ اليعقوبي ١/ ٣١٣ ، ٣١٤ .

(٣) في المصدر السابق « ريا » ، وهو تحريف ، صوابه ما ذكرناه هنا . (انظر القاموس المحيط ، مادة « دَبِي » - ومعجم البلدان لياقوت ، مادة « دبا » - ص ٣٠ - والمجهر لابن حبيب / ٢٦٥) .

(٤) المجهر / ٢٦٣ - ٢٦٧ .

سوق حَجَرٍ التي كانت تقام بالجمامة ، وسوق نَطَاطة التي كانت تقام بنخير^(١) .
ومن الطبيعي أن هذه الأسواق ليست كل ما كانت تعرفه الجزيرة العربية
في جاهليتها ، وقد ذكر ابن حبيب أن هذه الأسواق هي « أسواق العرب
المشهورة في الجاهلية »^(٢) ، ومع ذلك فقد عرف العرب الجاهليون أسواقاً
أخرى مشهورة ، فقد عرفت منطقة مكة مع سوق عكاظ وذى الحجاز سوق
مجنة^(٣) ، وعرفت منطقة تهامة سوق حباشة التي أرسلت السيدة خديجة
رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها^(٤) ، وفي أخبار الشنفرى أن أعداءه تربصوا
له وهو عائد منها^(٥) ، وكذلك كانت بلر « موسماً من مواسم العرب تجتمع
لهم بها سوق كل عام »^(٦) ، وقد عرفت عُمان سوقاً أخرى مشهورة هي سوق
« دما » يذكر عنها ياقوت أنها « كانت من أسواق العرب المشهورة »^(٧) ،
وكذلك كان اليهود يقيمون أسواقاً حيث كانوا يتزلون ، فقد كان لبني قينقاع
سوق في يثرب ، « وكانت سوقاً عظيمة » ، وقد زارها النابغة الذبياني مرة ،
فلما أشرف عليها سمع بها ضجة حاصت به ناقته منها^(٨) ، ويذكر المؤرخون
أن أهل مكة كانوا يقصدون إلى نخير ليجلبوا منها حلى آل أبي الحقيق التي
كانت نساؤهم يتحلين بها^(٩) . ومن الطبيعي أن تقوم بنخير ويثرب أسواق ،
نظراً لتزول اليهود أصحاب الأموال والتجارة والصناعة فيهما ، وقد « كانت
التجارة بنوع خاص من أهم مرافق الحياة عند يهود الحجاز ، حتى صار

(١) المصدر السابق / ٢٦٨ .

(٢) المصدر نفسه / ٢٦٣ .

(٣) انظر معجم البلدان لياقوت مادة (مجنة) ٢٩٠/٧ ، ومادة (عكاظ) ٢٠٣/٦ .

(٤) انظر المصدر السابق مادة (حباشة) ٢٠٦/٢ .

(٥) الأغاني ١٣٧/٢١ .

(٦) تاريخ الطبري ٢٧٦/٢ والمغازي للواقدي ٣٧ .

(٧) معجم البلدان ٦٩/٤ (مادة دما) .

(٨) الأغاني ٩٢/٢١ .

(٩) الواقدي : المغازي / ٢٧٧ .

لبعضهم فيها شهرة عظيمة وصيت بعيد^(١) ، وكذلك من الطبيعي أن تقوم بمنطقة مكة تلك المجموعة من الأسواق التي ذكرناها نظراً لأنها كانت أكبر مراكز التجارة في الجزيرة العربية ، ونظراً لكثرة وفود العرب التي كانت تهوى إليها في مواسم الحج ، وقد كان النعمان يبعث كل عام إلى سوق عكاظ بلطيمة « تباع ، وتشترى له بشمها الأدم والحريير والوكاء والخداء والبرود من العصب والوشى والمُسْتَسِير والعَدَنِي »^(٢) .

ونستطيع أن نقرر ، ونحن مطمئنون ، أنه على طول الطرق التجارية كانت تقوم الأسواق ، وأن هذه الأسواق كانت تكثر حول مراكز التجارة الأساسية .

ونستطيع أن نقسم هذه الأسواق إلى مجموعتين : فهناك أسواق تقع في بلاد فيها هيئة حاكمة ذات قوة تنفيذية ، ترد الظالم عن ظلمه ، وتأخذ لصاحب الحق حقه من غاصبه ، أو — كما كان يسميها القدماء — « أرض مملكة وأمر محكم » ، وهذه لم يكن التجار فيها يحتاجون إلى خفارة ، لأن القوة التنفيذية فيها كانت تقوم بهذه المهمة ، نظير عشور يحصلونها من التجار ، كسوق عدن^(٣) ، وهناك أسواق تقع في مناطق بدوية لا حكم فيها إلا للقوة الفوضوية ، أو — كما كان يقول القدماء — « من عز فيها بَزَّ » ، وهذه كان التجار يحتاجون فيها إلى خفارة ، كسوق الرابية بحضرموت^(٤) . وكان سادة بعض هذه المناطق ينصبون أنفسهم حكاماً على أسوانها ، « ويسرون فيها بسيرة الملوك » ، فيأخذون من التجار فيها العشور ، كما كان يفعل بعض بني تميم في سوق المشقر بهجر ، وكما كان يفعل الجندى وآل الجندى في سوق صُحار وفي سوق دَنِي^(٥) .

(١) إسرائيل ولقنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب / ١٨ .

(٢) الأغاني ٧٥/١٩ .

(٣) ابن حبيب : المحبر / ٢٦٦ ، وتاريخ اليعقوبي ٣١٤/١ .

(٤) المصدران السابقان : ابن حبيب / ٢٦٧ ، واليعقوبي ٣١٤/١ .

(٥) المصدران السابقان : ابن حبيب / ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، واليعقوبي ٣١٤/١ .

ومع ذلك فقد كان التجار في هذه الأسواق عادة آمنين على دمائهم وأموالهم^(١) ، فبالرغم من أنه كان في العرب قوم يستحلون المظالم إذا حضروا هذه الأسواق ، وكانوا يسمون المحلّين ، كان فهم من ينكر ذلك وينصب نفسه لنصرة المظلوم ، والمنع من سفك الدماء وارتكاب المنكر ، وكانوا يسمون الذادة المحرمين^(٢) ، وكان هؤلاء الذادة المحرمون « يلبسون السلاح لدفعهم عن الناس ، وكان العرب جميعاً بين هؤلاء تضع أسلحتهم في الأشهر الحرم »^(٣) ، كما أن بعض هذه الأسواق كانت تقوم بحمايتها القبائل التي كانت تقام في أراضيها ، ويسمون بذلك جيرانها ، فقد كانت كلب وجديلة طيئ جيراناً لسوق دومة الجندل^(٤) ، وكانت عبد القيس وتميم جيراناً لسوق المشقر^(٥) ، وكان حلف الفضول يجير في أسواق مكة^(٦) ، وقد وصلت هذه الإجارة في بعض الأحيان إلى درجة كبيرة من القوة تستطيع بها أن ترد على المظلوم حقه ، بعد أن تنتزعه من غاصبه ، كما كان يفعل الفضول في مكة^(٧) .

والغاية التي نريد أن نصل إليها من هذا هي أن الفرصة التي كان من المنتظر أن تكون سانحة أمام صعاليك العرب في هذه الأسواق للغزو والإغارة للسلب والنهب قد أفلتت من أيديهم ، نظراً لتلك الحماية التي كان الذادة المحرمون يأخذون بها أنفسهم ، وهذه الإجارة التي كانت بعض القبائل أو الأحلاف تقوم بها ، ونظراً - من ناحية أخرى - إلى ازدحام هذه الأسواق بالناس من مختلف الطبقات ازدحاماً يفسد على الصعاليك « خططهم الحربية » التي تعتمد قبل كل شيء على التربص الخذر ، ثم المفاجأة الخاطفة ، فالفرار

(١) تاريخ اليعقوبي ١/ ٣١٣ .

(٢) المصدر السابق / ٣١٤ .

(٣) المصدر نفسه / ٣١٥ .

(٤) ابن حبيب : المجير / ٢٦٣ .

(٥) المصدر السابق / ٢٦٥ .

(٦) السهيلي : الروض الأنف ١/ ٩٠ ، ٩١ .

(٧) المصدر السابق ، الموضع نفسه .

السريع من أجل النجاة والسلامة .

ولكنهم - مع ذلك - لم يدعوا هذه الفرصة تفلت من أيديهم إفلاتاً تاماً ،
فما لا يُدرك كله لا يترك كله ، فقد رأوا أن هذه الأسواق مواسم يلتقى فيها
ضروب من الناس من شتى القبائل ، مما يتيح لهم فرصة طيبة للاتصال بهم ،
وانتقاء ضحاياهم من بينهم ، ليضعوا على أماس ذلك خططهم المقبلة التي
يعتزمون تنفيذها بعد ذلك ، ففي أخبار السليك أنه خرج في الشهر الحرام حتى
أتى عكاظ ، فلما اجتمع الناس ألقى ثيابه ثم خرج متفضلاً مترجلاً ، فجعل
يطوف بين الناس ويقول : من يصف لي منازل قومه وأصف له منازل
قومي ؟ فلقبه قيس بن مكشوح المرادي ، فقال : أنا أصف لك منازل قومي ،
وصف لي منازل قومك ، فتوافقا وتعاهدا ألا يتكاذبا ، ووصف كل منهما
للآخر منازل قومه ، فانطلق قيس إلى قومه فأخبرهم الخبر ، فقال أبوه المكشوح :
ثكلتك أمك ! هل تدري من لقيت ؟ قال : لقيت رجلاً فضلاً كأنما خرج
من أهله ، فقال : هو والله سليك بن سعد ، ثم لم يلبث السليك أن وضع
خطته موضع التنفيذ ، فأغار في أصحاب له على مراد وخثعم ، وأسر قيس بن
المكشوح ، وأصاب من نعمهم ، وسبي سبية من خثعم ، ثم انصرف مسرعاً^(١) ،
ويبدو من معرفة المكشوح للسليك بمجرد حديث قيس عنه أن هذا اللون من
الاحتيال من « السوابق » التي عرفتها « صحيفة » السليك ، والتي يعرفها عنه
أصحاب الخبرة ، كما يعرف رجال الشرطة في العصر الحديث أرباب السوابق
من المحتالين بمجرد ذكر حوادث احتيالهم .

وإذا كانت الفرصة قد أفلتت من صعاليك العرب في داخل هذه الأسواق ،
— ما عدا أمثال هذا الاحتيال — فإن في الطرق الموصلة إليها ، وفي المناطق
المحيطة بها ، متسعاً لحركاتهم ، فوقفوا يترصدون التجار في مقدمهم إليها ،
وفي منصرفهم عنها ، يقطعون عليهم الطرق ، وينهبون ما تصل إليه أيديهم
من تجارتهم .

وهنا نقف لنذكر أننا قلنا عند تعليلنا لانتشار حركات الصعاليك في منطقة السراة المحيطة بمكة وفي قبيلة هذيل أن للمسألة جانباً اقتصادياً ، وأظن أننا نستطيع الآن أن نقول إن من أسباب انتشار الصعاليك في هذه المنطقة وقوعها على الطريق التجاري الذي يصل بين اليمن والشام مما جعلها ممراً للقوافل التجارية ، هذا إلى أن قربها من مكة حيث تقام ثلاث أسواق مشهورة : عكاظ ومجنة وذو الحجاز^(١) جعل منها ميداناً نشطاً لحركات التجار في غدوهم ورواحهم ، مما أتاح للمتمردين من صعاليك هذه المنطقة الفرصة المواتية للغارة والغزو للسلب والنهب . ولهذا السبب اضطرت التجار في مناطق هذه الأسواق إلى أن يتخفروا بالقبائل القوية التي تنزلها^(٢) .

وكان لهذه الأسواق — من ناحية أخرى — أثر في حياة صعاليك العرب ، ففيها ، أو في بعضها على الأقل ، كانت تجرى تجارة رائجة ، هي تجارة الرقيق الذي كان يجلب من إفريقية ، وقد رأينا في الفصل السابق صورة من تلك التجارة في أسواق مكة ، وفي سوق حباشة كانت تجرى هذه التجارة أيضاً^(٣) ، وقد رأينا في الفصل السابق أن هذه التجارة كانت سبباً في نشأة طبقة الأغربة في المجتمع الجاهلي ، وأن هذه الطبقة قد أمدت حركة الصعلكة بمجموعة كبيرة من صعاليك العرب . وإلى جانب هذا اللون من التجارة ، عرفت هذه الأسواق — أو بتعبير أدق — الأسواق الأساسية لوناً من النشاط الاجتماعي كان له أثر في حركة الصعلكة ، وهي ظاهرة الخلع ، وقد قلنا في الفصل السابق إن هذا الخلع كان يتخذ صورة إعلان رسمي يذاع على الناس في المواسم والأسواق ، ورأينا أن هؤلاء الخلعاء كانوا يملكون حركة الصعلكة أيضاً بمجموعة كبيرة من صعاليك العرب .

(١) انظر معجم البلدان لياقوت ، عكاظ ٦/٢٠٣ ، ومجنة ٧/٣٩٠ ، والحجاز ٧/٣٨٥ .

(٢) انظر الحبر ٢٦٤/ وما بعدها ، وتاريخ اليعقوبي ١/٣١٤ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، مادة (حباشة) ٣/٢٠٦ . وابن الأثير : أسد الغابة

ومعنى هذا أن هذه الأسواق شهدت السطور الأولى من قصة هاتين الطائفتين من صعاليك العرب : طائفة الأغربة ، وطائفة الخلعاء .

٤

الصراع الاقتصادي في المدن التجارية :

من الطبيعي أن يشارك في هذه الحركة التجارية النشطة التي عرفتها الجزيرة العربية سكانها ، كلٌ بحسب طاقته المالية، وحسب ظروفه الاجتماعية ، وحسب قربه أو بعده عن مراكز النشاط التجاري ، ومن الطبيعي أيضاً أن يختلف موقف العرب من هذه الحركة التجارية عن موقف البدو .

أما أولئك العرب الذين تقع مدنهم على الطرق التجارية فقد فرض عليهم موقعهم أن يشاركوا في هذه الحياة التجارية بكل ما تحتمله رعوس أموالهم .

وقد نشطت الحركة التجارية في مكة بالذات نشاطاً واسع النطاق ، جعل منها كما يحلو للامانس أن يقول عنها « جمهورية تجارية »^(١) ، أو كما يسميها درمنجم « جمهورية بلوتقراطية »^(٢) ، تعتمد في سيادتها على طبقة الأثرياء ، أو كما يقول بندلي جوزي « مدينة تجارية محضة لا يفكر أهلها إلا في التجارة ، ولا يهمهم إلا جمع المال واستثماره بجميع الوسائل المحللة والغير المحللة »^(٣) .

ويؤرخون أهمية مكة الحقيقية في هذا النشاط التجاري بذلك الوقت الذي أصبح فيه عرب الحجاز أصحاب التجارة ، وجعلوا من مكة « مركزاً إدارياً » لأعمالهم ، أما قبل ذلك ، حينما كانت التجارة في أيدي اليمنيين ، فإن مكة لم تعد أن تكون محطة على طريق القوافل ، كما يذكر سترابو^(٤) . فقد كانت

(١) انظر كتابه : *La Mecque à la veille de l'Hégire* ،

وانظر أيضاً مقالته عن Mecca في : *The Ency. of Islam*, p. 438.

(٢) *The Life of Mahomet*, p. 26.

(٣) من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام / ١٤ ، ١٥ .

(٤) *O'Leary; Arabia before Muhammad*, p. 182.

مكة قبل القرن الخامس الميلادي « محطة للقوافل التي كانت تمر بها وهي راجعة من جنوب الجزيرة تحمل بضائع الهند واليمن إلى سوريا وفلسطين ومصر ، فأصبحت في أواخر الجيل السادس مدينة تجارية غنية تمتد بما كان يأتيها من البضائع المحلية والأجنبية أكثر مكان الحجاز وأسواقه »^(١) .

وقد سيطر على أهل مكة رُوحٌ تجارى نشط « فاشتعلت في نفس كل منهم حمى تدفعه للعمل والمال والمضاربات التجارية ، من التاجر ذى الأريكة الخشبية في الهواء الطلق ، إلى صاحب الدكان الصغير ، إلى رجل الأعمال الكبير صاحب الكتبة الكثيرين ، الذى تزدان دفاتر حساباته التجارية بالأختام والكتابات الحاذقة »^(٢) ، وبلغ من سيطرة هذا الروح التجارى أن كان من ألقاب الشرف في مكة لقب « تاجر » ، ذلك اللقب الذى كان يخول لصاحبه أن يشارك في السلطان السياسى^(٣) .

وقد أحدث هذا النشاط التجارى نوعاً من الاختلال في التوازن الاقتصادى ، نشأت عنه طبقة من الصعاليك المعوزين ممن تخلفوا عن القافلة ، ونحاهم التبار التجارى الجارف جانباً ، حيث يركد الماء ، ويتراكم الغناء . ويرى بعض الباحثين أن عدد أفراد هذه الطبقة في مكة كان كبيراً جداً بالنسبة إلى عدد أصحاب الثروة فيها ، وأنهم كانوا في حالة سيئة « لا يملكون شيئاً حتى أنفسهم ، لأن حق التشريع كان محصوراً في أيدي الطبقة العليا ، فكان أصحابها يسنون من الشرائع ما كان يوافق مصلحتهم ، ولما لم يكن لأصحاب هذه الطبقة زاجر من أنفسهم ، ولا رادع من ضمائرهم يردعهم عن استثمار أتعاب الصعاليك وامتهانهم ، ويوقفهم عند حد معلوم من القساوة ، كانت حياة الصعاليك بينهم عرضة دائمة للأخطار ، وسلسلة يأس وعذاب ، فلا قانون يحميهم ، ولا شريعة ترق لحالمهم ، وتحاول أن تنتشلهم من هاوية الموت الاجتماعى والرق

(١) بندل جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام / ١٣ ، ١٤ .

(٢) Dermenghem; The Life of Mahomet, p. 29.

(٣) Lammen; La Mecque à la Veille de l'Hégire, p. 165 = 261.

الأبدى ، فكانوا يعيشون في شعاب البلدة وأطرافها البعيدة ، وفي بيوت حقيرة قلرة ، وعيشة ضنك ، وجوع مستمر ، بينما كان الذين أثروا من أتعابهم يقيمون في وسط المدينة ، في قصورهم الفخمة ، بالقرب من الكعبة والنادى ، أو دار الندوة ، مصدرى ثروتهم وسلطتهم»^(١) .

وكانت العلاقات بين هاتين الطبقتين : طبقة المالة وطبقة الصعاليك من السوء إلى حد بعيد ، فقد كانت الطبقة الأولى مهيمنة على كل مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية . وقد رأينا أن حق التشريع كان في أيديهم . وإلى جانب هذا كانوا هم المسيطرين على الحياة الاقتصادية ، فكانوا يعملون أحياناً إلى التلاعب بالأسواق ، أو المضاربة بالدرهم والدنانير والتبر والنقود الأجنبية ، « فكانوا تارة يزيدون في وزنها أو قيمتها ، وطوراً يخفضون ، تبعاً لمصالحهم الشخصية وجرياً وراء جشعهم المعهود»^(٢) ، مما كان يؤدي إلى اختلال التوازن الاقتصادي اختلالاً كبيراً ، يكون من نتائجه أن تصبح طبقة الصعاليك تحت رحمتهم ، فيضطر أفرادها إلى الاستدانة إبقاء على حياتهم . وهنا يعتمد المتمولون إلى استغلال هذه الفرصة ، فيقرضونهم ما يطلبون نظير فائدة فاحشة كانت تتراوح بين أربعين في المائة ومائة في المائة^(٣) . ويبدو أن عدد المرابين في مكة والمدينة كان كبيراً جداً ، ومعروف أن القرآن الكريم في سورة المكية والمدنية حمل حملات شعواء على الربا والمرابين^(٤) . وإلى جانب هذا الربا الذى كانوا يأكلونه «أضعافاً مضاعفة» كما يقول القرآن الكريم^(٥) «كانوا يتلاعبون بالدينون بأن يذخروا آجالها ، أو يقدّموها .

(١) بنملى جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام / ٢٠ ، ٢١ .

(٢) المصدر السابق / ١٩ .

(٣) المصدر السابق / ١٨ ، وفي خزانة الأدب للبغدادى (١ / ٣٤٥ مطر ١١) « اقترض ثمانية آلاف درهم بائني عشر ألف » ، وفي كتاب المغازى للواقلى (ص ٢١) « مال مع قوم قراض على النصف » .

(٤) البقرة / ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ وهي مدنية ، وآل عمران / ١٣٠ وهي مدنية أيضاً ، والنساء / ١٦١ وهي مدنية أيضاً ، والروم / ٣٩ وهي مكية .

(٥) آل عمران / ١٣٠ .

أو يضيفوا إليها ، إلى غير ذلك من الأعمال التي كانت تؤدي دائماً إلى خراب المستدين واستعباده»^(١) . وفي القرآن الكريم إشارة إلى ذلك إذ وقف من هذا التلاعب بالديون موقفاً راثعاً صريحاً نظم فيه الصلة بين الدائن والمدين تنظيمياً واضحاً دقيقاً ، ووضع الشروط التي تضمن لكلا الطرفين حقه ، في آيتين طويلتين من سورة البقرة^(٢) ، وكانت هذه الديون تزداد يوماً بعد يوم بما كان يضاف إليها من الربا الفاحش ، مما كان يجعل محاولة سدادها أمراً ميثوساً منه ، « ولهذا لم يكن وقتئذ أمل في التخلص من أولئك الظلمة بالطرق السلمية إلا فيما ندر ، أما أكثر المدينين فإنهم كانوا مضطرين إما إلى الهرب إلى الصحراء ، والالتحاق بطبقة المتشردين وقطاع الطرق ، وإما أن يدخلوا في طبقة الأرقاء ، ويقيموا فيها إلى ما شاء الله »^(٣) .

ويرجع هذا إلى أن مكة كانت في الجاهلية - كما هي في الإسلام - حرماً مقدساً « لا ظلم ولا بغى فيها »^(٤) ، نظراً لوجود الكعبة فيها ، هذا إلى جانب أنها مدينة لها نظامها الاجتماعي ، ويقيم سكانها في منازل ، فهي لهذا ليست بالميدان الصالح لحركات الصعاليك المتمردين . ومن هنا لم يجدوا مفرّاً من الخروج منها إلى البادية الواسعة حيث الحياة فوضى ، ومجال العمل المتمرد متسع ، وحيث طوائف المتشردين وقطاع الطرق وذؤبان الصحراء منتشرة ، فإذا ما ضاقت بهم حياة التصعلك والتشرد ، أو ضاقوا بها ، أو رغبوا في الراحة منها إلى حين ، فإن طريق العودة إلى مكة ميسر ، فأبواب البلد الحرام مفتوحة لكل لاجئ أو خائف أو طريد ، « من دخله كان آمناً » ، ومن أسدث في غيره من البلدان حدثاً ثم لجأ إليه فهو آمن إذا دخله »^(٥) . ومن هنا نستطيع أن نفهم السر في كثرة عدد الخلعاء من شتى القبائل فيها ، واتخاذهم منها مركزاً يلتقون

(١) بندلي جوزي : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام / ١٩ .

(٢) ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

(٣) بندلي جوزي : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام / ١٩ ، ٢٠ .

(٤) تاريخ الطبري ٢ / ١٩٨ .

(٥) ياقوت : معجم البلدان (مكة) ٨ / ١٣٦ .

فيه آمنين على حياتهم من الطلب ، حتى إذا ما حانت ساعة العمل خرجوا منها إلى ميدان كفاحهم ، وقد رأينا في الفصل السابق صورة لأولئك الخلعاء والفتاك الذين كانوا يجتمعون في مكة ، حتى إذا ما احتاج إليهم ثائر لغزوة من الغزوات قدم إليهم فيها ، وواعدهم في الحرم ، ثم خرج بهم جنوداً مرتزقة .

٥

الصراع الاقتصادي في البادية :

إذا ما تركنا هذه المدن التجارية بطبقاتها الاقتصادية ، وما يدور بينها من صراع ، ومضينا إلى البادية لتبين موقف أهلها من هذا النشاط التجاري ، فإننا نجد أن موقفهم قد اختلف تبعاً لمواقع قبائلهم ، من حيث قربها من مراكز النشاط التجاري وطرق القوافل أو بعدها عنها .

ومن الطبيعي أن تشارك القبائل التي كانت تنزل على طول الطرق التجارية أو قريباً منها في هذا النشاط التجاري ، فقد كان مرور القوافل التجارية بهم فرصة تسنح لهم من حين إلى حين ، يستغلونها في إنعاش حياتهم الاقتصادية ولو لفترة محدودة من الزمن ، فكان بعض الأفراد من الطبقات الفقيرة في هذه القبائل يعملون لهذه القوافل نظير أجر يتقاضونه ، يعينهم على تكاليف الحياة ، ويساعدتهم على موازنة حياتهم الاقتصادية ، وسداد ما عليهم من ديون اضطروا إليها في أوقات الأزمات التي كانوا كثيراً ما يتعرضون لها ، ويحدثنا الطبري أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما كان يستعد لغزوة بدر بعث برجلين إلى ماء بدر ليتحسسا له أخبار قريش ، فسمعا جارييتين « تتلازمان على الماء ، والملازمة تقول لصاحبتها : إنما تأتي العيرُ غداً أو بعد غد فأعمل لهم حتى أقضيك الذي لك »^(١) .

وليس من شك في أن هذه القوافل الضخمة في رحلاتها الطويلة في مجاهل

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٢٧٥ - والملازمة : المطالبة بالحق .

الصحراء كانت تحتاج إلى أشياء كثيرة حتى تصل إلى غايتها البعيدة بسلام .
ولعل أول ما كانت تحتاج إليه « الأدلاء » الذين يهدونها الطريق في
دروب للصحراء الملتوية الغامضة ، بما لهم من خبرة ودراية بها ، حتى لا تضل
أو تضيع بين مجاهلها ، وتجدرنا الأخبار عن دليان كانت تستخدمهما
القوافل المكية في أيام النبي صلى الله عليه وسلم : فرات بن حيان ، وقيس بن
امرئ القيس^(١) .

وليس من شك في أن هؤلاء الأدلاء كانوا كثيرين ، نظراً لطبيعة البيئة
الصحراوية التي تفرض على سالكيها أن يكون على علم دقيق بطرقها ، ومواقع
مياهاها ، ومنازل الرعى التي تحتاج إليها الإبل في طريقها ، ومواطن الأمن
والخوف فيها ، إلى غير ذلك مما جعل العربي يفخر بمقدرته على هداية الركب
« في ديمومة فيها الدليل يتعصُّ بالخمسة »^(٢) ، ومكابدته الحرق الذي :

ينسى الدليلُ به هدايته من هول ما يلقي من الرعب^(٣)

ولم يكن هذا العلم الواسع ليهياً إلا لأولئك البدو الذين يعيشون في قلب
الصحراء ، ويضطرون تحت الظروف الجغرافية إلى التنقل من منزل إلى منزل ،
أما أبناء المدن من العرب المستقرين فلم يكن يتاح لهم — أولاً أكثرهم على الأقل —
شيء من هذا ، فلم يكن هناك بدٌّ من استعانهم بهؤلاء الأدلاء « جوازي
الصحراء الذين لا يتعبون » كما يصفهم لامانس^(٤) ، والذين لم تعد الصحراء
أمامهم سرّاً مغلّقاً ، وإلا كان إقدامهم على اختراقها مغامرة جنونية

(١) الواقدي : كتاب المغازي / ١٩٦ ، ٣٦ . وقد ورد ذكرهما في شعر حسان بن ثابت
(انظر ديوانه ط السعادة بالقاهرة / ٢٣٧ قصيدته الكافية) ، وقد وصف المكيون فرات بن حيان
بأنه دليل بطرق الصحراء يسلكها وهو مغضض العين قد دوخها وسلكها (المغازي / ١٩٦) ، وقد طلبوا
إليه في أثناء الحصار الذي ضربه المسلمون على طريقهم التجاري إلى الشام أن يسلك بهم طريقاً إلى
أسواق الشام دون أن يمروا بمنطقة المدينة (المصدر السابق / ١٩٦) .

(٢) الأغاني / ٩٧ ، والتبريزي : شرح حجة أبي تمام / ١٥٥ .

(٣) الأصمعيات / ١٠ البيت ١٤ .

(٤) La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 182 = 278 .

لا تؤمن عواقبها ، ويحدثنا ابن حبيب عن طائفة من « أدلاء العرب الذين انتهت إليهم الدلالة »^(١) . ويذكر منهم واحداً « بلغ وبار ولم يبلغها غيره »^(٢) . وإلى جانب هؤلاء الأدلاء كانت القوافل التجارية تحتاج إلى « خفراء » أو « حماة » يؤمنون سبلها ، وينودون عنها وحوش الصحراء^(٣) ، ويدفعون عنها « ذؤبان العرب ، وصعاليك الأحياء ، وأصحاب الغارات ، وطلاب الطوائل » كما يعددهم الجاحظ في بعض رسائله^(٤) ، وذلك لأن طرق القوافل كانت دائماً معرضة لغزو القبائل ، وسطو شذاذ الطرق وقطاعها ، الذين كانوا يعيشون في الصحراء فساداً ، ويعيشون من السلب والنهب^(٥) ، وبخاصة في تلك المناطق التي يصفها المؤرخون بأنها « لم تكن أرض مملكة ، وكان من عزٍّ فيها بز »^(٦) ، أي تلك المناطق التي لم تكن فيها حكومة منظمة تضرب على أيدي العابثين ، وإنما كانت تدين بشريعة القوة ، ويسيطر عليها مذهب « الحق للقوة » ، ولهذا كان أصحاب القوافل مضطرين إلى استخدام جماعات كبيرة من الناس لحفارة بضائعهم والحفاظ على عابثي الطريق^(٧) ، وكانوا يسارعون إلى تقوية هذا الحرس عند اقترابهم من المسالك الخطرة ، بالقرب من تلك المفاوز المعرضة لغزوات الصعاليك ، أو عند ما يضطرون إلى اختراق المناطق التي تنزلها قبائل معادية أو مشتبهاً فيها^(٨) ، كقبيلة هذيل التي كانت قبيلة تخشاه القوافل التجارية^(٩) ، وكقبيلة فهم التي كانت

(١) المحبر / ١٨٩ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق / ١٨٩ .

(٣) O'Leary; Arabia before Muhamamad, p. 185.

(٤) رسالة فضل هاشم على عبد شمس / ٧١ .

(٥) بנדلي جوزي : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام / ١٦ .

(٦) تاريخ اليعقوبي ١ / ٣١٤ ، والمحبر / ٢٦٧ .

(٧) بندلي جوزي : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام / ١٧ .

(٨) Launens; La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 185 = 281.

وانظر أيضاً مقالته عن "Mecca" في : Ency. of Islam; p. 440.

(٩) Lammeus, La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 52 = 148.

برغم صغرهما مشهورة بلصوصها^(١) ، وكان هؤلاء الخفراء يقومون بهذا العمل نظير جعل يسمى « الخفارة »^(٢) ، وسواء أكان هدايا أم نقداً^(٣) فقد كان في العادة جعلاً كبيراً يتكافأ مع خطر العمل ، وكثرة تبعاته ، وكان هؤلاء الخفراء « يعيدون في أكثر الأحيان هذا الجعل إذا ما عرض عارضٌ يحول دون أن تزنى خفارتهم ثمرتها »^(٤) ، ومن الطبيعي أن يكون هؤلاء الخفراء من القبائل التي تمر بها القوافل لأن في هذا ضماناً من تعرض هذه القبائل لهم ، أو قطعها الطريق عليهم ، وإرضاءً لكبرياء البلوى التي تجعله دائماً يتوقع « أن يطلب ليتقدم الطريق أمام أي قافلة تخترق إقليمه الذي يعده ملكاً خاصاً لقبيلته »^(٥) ، كما أن أفراد هذه القبائل أعرف — بطبيعة الحال — بمواطن الخطر في مناطقهم ، وأدري بسبل النجاة منها ، ويحدثنا الرواة أن كل تاجر يخرج من اليمن والحجاز في طريقه إلى سوق دومة الجندل كان يتخفر بقريش ما دام في بلاد مضر ، لأن مضر لم تكن تعرض لتجار مضر ، ولا يهيجهم حليف لمضري ، فإذا أخذ طريق العراق تتخفر بيني عمرو بن مرثد من بني قيس بن ثعلبة فتجيز ذلك له ربيعة كلها ، أما إذا مضى إلى مهرة ، وهي ليست بأرض مملكة ، فإنه كان يتخفر فيها بيني محارب من مهرة ، فإذا مضى إلى حضرموت حيث تقام سوق الرابية التي « لم يكن يصل إليها أحدٌ إلا بحفارة » ، لأنها لم تكن أرض مملكة ، وكان من عز فيها بز صاحبه ، فإن قريشاً كانت تتخفر بيني آكل المزار ، وسائر الناس يتخفرون بآل مسروق بن وائل من كندة^(٦) ، ومن هنا كان أصحاب القوافل يلجئون في أكثر الأحيان إلى رؤساء القبائل ، أو إلى سيد

(١) Krenkow; Ency. of Islam, art. "Al-Shanfara".

(٢) Ency. of Islam; art, Arabia, p. 325.

(٣) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 179.

(٤) Ibid; pp. 179, 186.

(٥) Ibid; p. 185.

(٦) ابن حبيب : المجير / ٢٦٤ - ٢٦٧ .

فيهم مطاع ، ليجبروا لهم قوافلهم ، كما كان يفعل النعمان مع لطائمه التي كان يبعث بها كل عام إلى سوق عكاظ ، فقد كان يجبرها له سيد مضر^(١) ، ومن هنا أطلقوا على هذه الخفارة أيضاً الجوار^(٢) ، وكان هذا الجوار « عملاً مربحاً يسعى وراءه سادة الصحراء سعياً شديداً »^(٣) ، فقد كان أصحاب القوافل يشركونهم في عملياتهم التجارية ، أو يقاسمونهم الأرباح ، أو يفتحون لهم حسابات جارية في نوافذ مصارفهم ، على حد تعبير لامانس^(٤) . ولم يكن يعدلُ سعي هؤلاء السادة وراء هذا الجوار إلا حرص أصحاب القوافل عليه ، حتى لقد كانوا يستميلونهم أحياناً بالمصاهرة^(٥) ، ولعل أشهر قصص هذا الجوار قصة « إيلاف قریش » التي أشار إليها القرآن الكريم^(٦) ، ويحدثنا العتبي ومحمد بن سلام عن قصة هذا الإيلاف حديثاً طويلاً يرويه لنا القالي في نواته^(٧) ، وكذلك يحدثنا الجاحظ في بعض رسائله^(٨) عن هذا الإيلاف حديثين آخرين ، وكيفما كان هذا الإيلاف فيبدو لي أن المسألة - في أبسط صورها - ترجع إلى أن القرشيين قاموا بمفاوضات مع جيرانهم الذين تمر قوافلهم بديارهم ، من أجل تأمين سلامة هذه القوافل ، والإذن لها بالمرور ، وحصلوا على ترخيص من ملوك البلاد التي كانت لهم « متاجر » أو « وجوهاً » - كما

(١) الأغاني ١٩/٧٤ .

(٢) الأغاني ١٦/٩٩ سطر ١٢ .

(٣) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 185 .

(٤) La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 178 = 274 .

(٥) بندلي جوزي : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام / ١٧ .

(٦) سورة قریش ٢٧٤ ، والإيلاف : العهد والتمام (لسان العرب ، مادة ألف) وهو « عهد بينهم وبين الملوك » (الألوسي : روح المعاني ٣٠/٢٣٨) ويفسر الأزهري بأنه « شبه الإجارة بالخفارة » (المصدر السابق / ٢٤٠) ، وقد أجمع الرواة على أن أول من أخذ الإيلاف لقریش هاشم بن عبد مناف (رسالة فضل هاشم على عبد شمس من رسائل الجاحظ / ٧٠) ، وفي حديث ابن عباس « وقد علمت قریش أن أول من أخذ لها الإيلاف هاشم » (لسان العرب مادة ألف) .

(٧) ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .

(٨) رسالة فضل هاشم على عبد شمس / ٧٠ ، ٧١ .

كانوا يسمونها^(١) - ليدخلوا بتجاراتهم أسواق هذه البلاد ، ويذكر الجاحظ في تفسير قوله تعالى « وآمنهم من خوف » في قصة هذا الإيلاف أنه « خوفٌ مَنْ كان هؤلاء الإخوة (يعنى هاشما وإخوته) يمرون به من القبائل والأعداء وهم مغربون ومعهم الأموال »^(٢) .

وإلى جانب هذه الحفارة كان بنو القبائل يقومون أحياناً بدور الرسل أو « البريد » بين القوافل في أثناء الطريق وبين المراكز التجارية التي خرجت منها أو التي تقصدها ، فإذا جد ما يستدعي اتصال القافلة بأحد هذه المراكز استأجر أصحابها بعض البدو من القبيلة التي يمرون بها ، وبعثوا به إلى حيث يريدون . ويحدثنا رواية السيرة أن أبا سفيان عندما تعرضت قافلة قريش لخطر مهاجمة المسلمين لها عند بدر « استأجر ضَمَضَمَ بن عمرو الغفاري ، فبعثه إلى مكة ، وأمره أن يأتي قريشاً يستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه ، فخرج ضَمَضَمُ بن عمرو سريعاً إلى مكة »^(٣) ، وكان هذا نظير عشرين مثقالاً استأجره بها^(٤) .

ولكن إلى جانب هذه العناصر الكادحة من بنو القبائل ، وجدت عناصر متمردة رأوا في هذه القوافل الضخمة التي تنتقل بين أطراف الجزيرة محملة بثرواتها وكنوزها ، مخترقة البادية ، أرضَ الجوع والجذب والضيق ، صورةً من صور اختلال التوازن الاقتصادي ، ومثلاً من أمثلة سوء توزيع الثروة ، فرفضوا أن يشاركوا في هذه الأوضاع الاقتصادية المختلفة ، ورأوا أن يقفوا منها موقفاً معادياً يعتمد على القوة في كسب الرزق ، ففي مرور هذه القوافل في مناطق الصحراء المقفرة الموحشة فرصةً صالحة للغارة والغزو ، وصَيْدٌ مَوَاتٍ للسلب والنهب ، ورزقٌ ساقه الله إليهم يجدر بهم أن يعتمدوا على قوتهم في اغتصابه ، فاجتمعوا في عصابات ، وانضم إليهم خلعاء القبائل ،

(١) انظر الأغاني ٥٦/٩ ، والمخبر ١٦٢/١٦٣ .

(٢) رسالة فضل هاشم على عبد شمس ٧١ .

(٣) تاريخ الطبري ٢/٢٧٠ .

(٤) الواقعي : كتاب المغازي ٢٢ .

وشذاذ الأحياء ، وصعاليك القبائل التي تنزل بعيداً عن طرق القوافل ، ووقفوا يتربصون بها في مواسم مرورها ، ويقطعون عابها الطرق ، وينتهبون ما يقدرون على انتهابه ، ليتقاسموه فيما بينهم ، ويشركوا فيه أحياناً أولئك الصعاليك الضعاف والمرضى والمسنين ممن حالت ظروفهم الخاصة دون المشاركة في الغزو والغارة .

ومن الطبيعي أن يتربص هؤلاء المتمردون من الصعاليك بالقوافل الصغيرة ، لأنها غنيمة أيسر منالا ، وأضمن عاقبة ، ويحدثنا ابن قتيبة عن فاتكين التقياً « فساراً حتى لقياً رجلاً من كندة في تجارة أصابها من مسك وثياب وغير ذلك » فتربصا به ، حتى قتلاه واقتسما ماله ^(١) . ولهذا كان أصحاب القوافل يحرصون — إلى جانب ما كانوا يتخذونه من وسائل لسلامة قوافلهم — على أن تكون هذه القوافل كبيرة ضخمة كثيرة العدد ، وقد بلغت قافلة قريش التي تصدى لها المسلمون عند بدر ألف بعير ^(٢) ، وبلغ عدد الرجال المرافقين لها قريباً من سبعين راكباً في بعض الروايات ^(٣) . وثلاثين أو أربعين في رواية أخرى ^(٤) ، ويصفها ابن إسحق بأنها « عير عظيمة » ^(٥) ، وكانت بعض قوافل قريش تصل إلى ألفين وخمسمائة بعير ^(٦) ، وكان مرافقو بعض هذه القوافل يبلغون أحياناً ثلاثمائة ^(٧) ، وقد رأى سترابو قافلة من قوافل العرب التجارية وشبهها بالجيش ^(٨) ، ويذكر لامانس أن هذه القوافل كانت تتميز عادة بضخامتها العددية ^(٩) .

ومع ذلك لم يحل هذا كله دون استمرار حركات المتمردین ضد هذه

(١) عيون الأخبار ، المجلد الأول ١٨١/٢ ، ١٨٢ .

(٢) الواقدي : المغازي / ٢٠ .

(٣) تاريخ الطبري ٢٦٧/٢ .

(٤) المصدر السابق / ٢٧٠ .

(٥) المصدر نفسه / ٢٧٠ .

(٦) الواقدي : المغازي / ٢ .

(٧) المصدر السابق / ٧ .

(٨) O'Leary; Arabia before Muhammad, p. 185. & Lammens; La Mecque

à la veille de l'Hégire, p. 178 = 274.

(٩) La Mecque à la veille de l'Hégire, p. 178 = 274.

القوافل ، أو « تعوير المتجر » كما كان يقول أهل مكة ^(١) ، ويحدثنا الرواة أن لطائم النعمان التي كان يبعث بها كل عام للتجارة إلى عكاظ كان يعرضها بعض بني كنانة فينتهبها ^(٢) ، وليس من شك في لطائم النعمان كانت ضخمة كثيرة العدد والرجال .

ويبدو أن هذه الغارات - مهما تختلف أسبابها المباشرة باختلاف أصحابها - يرجع سببها العام إلى اختلال التوازن الاقتصادي في ذلك المجتمع الذي يضع طائفة من أفرادها بين تايين من فقر وجوع ، بينما يضع في أيدي طائفة أخرى كنوز الثروة ومفاتيح الاقتصاد ، وهو لا يفصل بين هاتين الطبقتين ، ولا يجعل كلا منهما تعيش في عالمها الخاص ، وإنما أباح لإحدهما أن تعرض ثراءها ، وتتيه بما أغلق عليها أمام أعين الطائفة الأخرى ، فتزيد من إحساسها بالفقر والجوع ، فكان من الطبيعي - إذا ما أتاحت لهذه الطائفة البائسة الفرصة لاغتصاب أي شيء من الطائفة الأخرى - أن تنهزها مؤمنة بأن هذا الاغتصاب حق ، ما دامت لا تبغى من ورائه سوى أن تعيش .

فإذا ما تركنا هذه القبائل التي كانت تنزل على الطرق التجارية ، ومضينا إلى داخل البادية العربية حيث تنزل القبائل بعيدة عن مراكز النشاط التجاري ، فإننا نجد ثمة صوراً أخرى من صور الصراع بين الفقر والغنى .

والمجتمع البدوي من ناحيته الاقتصادية بسيط التكوين ، يتكون من طبقتين اقتصاديتين أساسيتين : طبقة أصحاب الإبل ، أو « أرباب الخائض » كما يسميهم بعض الشعراء ^(٣) ، وطبقة الصعاليك .

والناظر في المجتمع البدوي يلاحظ لأول وهلة أن الفرق الاقتصادية بين هاتين الطبقتين كان بعيداً ، بقدر ما كان الفرق النفسي بينهما قريباً ، ومن

(١) الواقدي : المغازي / ١٩٦ .

(٢) ابن حبيب : المجر / ١٩٦ .

(٣) يزيد بن الصقيل العقيلي في الكامل للبهر / ٥٩ .

هاتين الظاهرتين المتناقضتين : ظاهرة البعد الاقتصادي ، وظاهرة القرب النفسي نشأت ظاهرة الصعلة .

وقد حصرت البيئة الجغرافية لأعراب البادية مواردهم الطبيعية في المراعى ، ووقفت ظروفهم الحضارية بمجال عملهم عند الرعى ، ومن هنا انحصرت ثروتهم في قطعان من الإبل والغنم والمعز . ومن الطبيعي أن تكون الإبل مقياس ثروتهم ، فهي خير ما في هذه الثروة ، وقد سموها « النعم »^(١) ، لأنها النعمة الكبرى التي أنعم الله بها عليهم ، وقد كان من عوامل سقوط اعتبار الفرد في الهيئة الاجتماعية أن تقوم المعز أو صغار الماشية في حياته مقام الإبل^(٢) ، وبينما كانت المعز مادة يشتق منها السائحون من الهجائين عناصر مخريتهم ، كانت الإبل مادة يشتق منها المادحون عناصر مدحهم ، أما الغنم فليست بحيوان الصحراء الأول ، لشدة حاجتها إلى المراعى ، وقلة صبرها على الماء . ومن هنا كانت الإبل حيوان الصحراء الأول بلا منازع ، والدعامة التي تقوم عليها ثروة أبنائها ، وبحق سموها مالا^(٣) ، لأنها — على حد التعبير الاقتصادي الحديث — « الرصيد » الذي تعتمد عليه « ميزانيتهم » ، و« العملة » التي يتعاملون بها في حياتهم ، « منها مهور نسائهم ، وديات دمائهم ، ورهن ميسرهم »^(٤) . ولهذا كانت كل قبيلة تتخذ « وسمًا » خاصًا لإبلها تميزها به^(٥) ، كما تتخذ كل دولة في العصر الحديث رسماً خاصاً لنقدها .

وكانت ثروة الأفراد في المجتمع البدوي تقاسُ بمقدار ما يملكون من الإبل ، « فكل ثرائهم كان يقوم بالإبل »^(٦) ، وما أكثر ما نسمع عن أولئك

(١) لسان العرب مادة (نعم) .

(٢) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. 1, p. 134.

(٣) « وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل » (لسان العرب ، مادة مول) ، ويقول الزنجشري « مال العرب الإبل » (أساس البلاغة ، المادة نفسها) ، ويقول الشاعر « فلم أر مثل الإبل مالا لقتن » (حجاسة أبي تمام ٦٧/٤) .

(٤) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. 1, p. 134.

(٥) Smith; Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 247.

(٦) Lammens; Le Berceau de l'Islam, Vol. 1, p. 134.

الذين كان لهم « نعم قد ملأ الأرض »^(١) ، أو « نعم قد ملأ كل شيء »^(٢) ، أو أولئك الذين كانوا يفتنون أعين فحلهم ليردوا عن إبلهم العين لأنها بلغت ألفاً^(٣) ، أو ذلك الذى فقأ أعين عشرين بغيراً لأن إبله بلغت عشرين ألفاً ، والذي ربما ذبح في أيام الحجيج عشرة آلاف بدنة^(٤) ، وفي الأخبار أن عتّاب بن ورقاء تكفل مرة بدفع تسع ديات^(٥) ، وما أكثر ما نسمع عن ديات بلغت آلافاً من الإبل^(٦) .

وإلى جانب هذه الطبقة من المالة الذين ملأ نعمهم الأرض ، وجدت طبقة أخرى من الصعاليك لا تكاد تملك شيئاً ، أو — كما يقول بعض شعرائها — « تجرّر حبلاً ليس فيه بعر »^(٧) . وقد رأينا في الفصل الأول صورة لفقر هؤلاء الصعاليك ، وكيف أن بعضهم كان يملق حتى لا يبقى له شيء ، أو يفتقر فيخرج وقد آلى على نفسه ألا يرجع حتى يستغنى .

والأمر الذى لا شك فيه أن حياة هذه الطبقة الفقيرة من البدو كانت في مستوى اقتصادى سيئ جداً ، حتى ليضطّر بعضهم إلى قتل أولادهم خشية إملاق ، كما يحدثنا القرآن الكريم^(٨) ، أو يبيعهم ليستعينوا بأثمانهم على الحياة ، كما نرى فيما يرويه الرواة عن صَعْصَعَة بن ناجية الذى كان يشتري المؤودات من آبائهن ، إذ يذكرون عنه أنه لما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلم ، قال له : « يا رسول الله ، إني كنت أعمل عملاً في الجاهلية ، أفينفعني

(١) نقائض جرير والفرزدق ٢٣٤/١ .

(٢) الأغاني ١٨/١٣٤ .

(٣) نقائض جرير والفرزدق ٢٣٤/١ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ١/١٨٧ .

(٥) الجاحظ : البيان والتبيين ٣/١٣٤ .

(٦) بلغت الدية التي دفعت لبني ثعلبة بن سعد في حرب داحس والغبراء ألف ناقة (نقائض

جرير والفرزدق ١/١٠٥) وقد عرض بنو أسد على امرئ القيس بعد قتلهم أباء ألف بعر دية

(الأغاني ١٩/٨٥) وبلغت الديات في حرب عيس وذبيان ثلاثة آلاف بعر (الأغاني ١٠/٢٩٧)

(٧) الأحيمر السعدي في المؤتلف والمختلف للآمدى ٣٦ .

(٨) الأنعام ١٥١ ، والإسراء ٣١ .

ذلك اليوم ؟ قال : وما عملك ؟ قال : أضللتُ ناقَتين عُشْراوين ، فركبت جملاً ومضيت في بُغائهما ، فرفُع لي بيت حريدٌ ، فقصدته فإذا شيخ جالس بفناء الدار ، فسألته عن الناقَتين ، فقال : ما نارهما ؟ قلت : ميسمُ بني دارم فقال : هما عندي وقد أحيا الله بهما قوماً من أهلك من مضر ، فجلستُ معه لتُخْرِجَا إليَّ ، فإذا عجوزٌ قد خرجت من كسر البيت فقال لها : ما وضعت ؟ فإن كان سقياً شاركنَا في أموالنا ، وإن كانت حائلاً وأدناها ، فقالت العجوز : وضعت أنثى ، فقلت : أتبيعها ؟ قال : وهل تبيع العربُ أولادها ؟ قلت : إنما أشتري منك حياتها ولا أشتري رقها ، قال : فبكم ؟ قلت : احتكم ، قال : بالناقَتين والحمل ، قلت : ذاك لك على أن يبلغني الحمل وإياها ، قال : ففعل ، فأمنت بك يا رسول الله وقد صارت لي سنة في العرب على أن أشتري كل موعودة بناقتين عشراوين وجمل ، فعندى إلى هذه الغاية ثمانون ومائتا موعودة فقد أنقذتها ^(١) ، وهي قصة تعطينا صورة واضحة عن الفرق الكبير بين هاتين الطبقتين الاقتصاديتين في المجتمع البدوي ، وبين أولئك الذين يبيعون بناتهم بهذا الثمن البخس ، وذلك الذي يشتري ثمانين ومائتي موعودة ، ثم أرأيت إلى هذا اللون من ألوان « التجارة » عند هؤلاء الأعراب الفقراء ؟ بيع بناتهم نظير ناقَتين وجمل راجين من وراء ذلك أن يتكون لهم رأس مال من الإبل يعينهم على الحياة ، ويساعدهم على رفع مستواهم الاقتصادي ، ولو كان ذلك على حساب أكبادهم التي تمشي على الأرض ، كما يقول شاعرهم القديم ^(٢) .

والقصة بعد هذا تشير إلى نفسية أولئك الأعراب الفقراء ، وإحساسهم بما سميته « القرب النفسى » بينهم وبين الأغنياء ، أرأيت إلى ذلك الأعرابي كيف يقول لذلك السيد إن ناقتيه اللتين أضللهما قد أحيا الله بهما قوماً من أهله ؟ كأنما يرى أن الأغنياء والفقراء أسرة واحدة ، وأن هذا الفرق الاقتصادي بينهما

(١) المبرد : الكامل / ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٢) سلطان بن المعل ، في حسانة أبي تمام ١ / ١٥٣ .

لا تأثير له في «العامل المشترك» بينهما وهو كرم العنصر وطيب النجار ، ثم أرأيت إليه كيف يتساءل منكراً : وهل تبيع العرب أولادها ؟ وانظر كيف عبر بالعرب ولم يقل الناس ، كأنما يرى أن العرب جنس متميز لا يجري عليهم ما يجري على سائر الأجناس ، أولئك الذين يرى أولادهم رقيقاً يشتري عند «أهله» من السادة الأغنياء ؟ وليس يتقضى هذا الإحساس بالجنس أنه باع ابنته بعد ذلك ، فقد كان ذلك تحت ضغط الفاقة وإلحاح الحاجة ، ثم هو لم يفعل ذلك إلا بعد أن تعهد له هذا السيد بأنه لن يستعبدوها ، وهو عذر — مهما يكن واهياً — بصور ذلك الإحساس النفسى الذى كان يسيطر على نفوس هؤلاء البدو ، فإن «الصفقة» لم تتم بين ذلك السيد وذلك الصعلوك إلا بعد هذه المحاولة من السيد لإرضاء نفس الصعلوك . ومهما يكن من أمر ذلك الأعرابي ، فالشيء الذى لا ريب فيه هو أن هؤلاء البدو — بقدر ما كانوا في فقر مادي — كانوا على جانب كبير من الغنى النفسى . ومعنى هذا أن البدوى الفقير كان يرى نفسه مساوياً للسيد الغنى ، ويرفض أن يكون فقره سبباً في التزول بنفسه أو تطامن كبريائه ، وأن الحياة إذا كانت قد ظلمته برغمه ، فإن عليه أن يعمل على أن يزيل عنه ذلك الظلم ، سالكاً في ذلك أى سبيل ، والغاية تبرر الوسيلة .

ولسنا في حاجة إلى القول بأن مجال العمل أمام هؤلاء البدو الفقراء كان ضيقاً جداً ، فهذه قضية مفروغ منها ، لأن اختلاف الحياة الاقتصادية الثلاثة : الزراعة والتجارة والصناعة لا تُدرّج خيراً فوق رمال الصحراء القاحلة ، وفي وسط تلك الظروف الحضارية المتأخرة . ومن هنا لم يكن أمامهم إلا أن يعملوا هؤلاء الأغنياء ، يقومون لهم بالرعى وخدمة الإبل ، أو يعينون نساء الحى ، كما يقول عروة بن الورد^(١) ، فإذا رفضت نفوسهم القيام بهذه الأعمال لم يكن هناك بد — إبقاء على حياتهم — من الغزو والإغارة للسلب والنهب محاولين — كما يقول بعض الباحثين — «أن يزيلوا هذا الحيف المقدّر بأسنة رماحهم ،

معتقدين أن من الحلال دهم القوافل ، وسلب ما بأيديهم ، تعويضاً لهم عما لم تقدر أن تجود عليهم به أراضيهم القاحلة ،^(١) .

ولكن يجب أن نسجل أن حركات القبائل في هذا الصراع بين الفقر والغنى كانت حركات قبلية ، تصدر عن القبيلة وتجرى برضاها ، أما حركات الصعاليك فقد كانت حركات فردية ، تصدر عن شخصياتهم المتمردة ، حتى لو أدى الأمر إلى أن يخلع الصعلوك نفسه من قبيلته في سبيل تنفيذ حركته . وعلى هذا الأساس من التفسير الاقتصادي نستطيع أن نفهم كثيراً من حركات صعاليك العرب .

ومعنى هذا أن ثمة صراعاً كان يدور في داخل البادية العربية بين طبقة المالة أصحاب المخاض والمتمردين من طبقة الصعاليك ، وأن مادة هذا الصراع التي دار حولها كانت الإبل عادةً ، لأنها الثروة الأساسية في المجتمع البدوي ، فكان هؤلاء المتمردون يربصون بقطعان الإبل ما أمكنهم الفرصة ، وينهبون منها ما يقترون على نهبه ، أو يقتلون أصحابها أو رعائهم ويسوقون القطيع بأسره ، ولكن ليس معنى هذا أن الإبل كانت المادة الوحيدة التي دار حولها هذا الصراع ، فإن أيدي الصعاليك لم تكن تمتنع عن أية غنيمة تعرض لهم ، ففي أخبار تأبط شرا أنه خرج غازياً مع رجل يريدان بجيلة ، فأتى ناحية منهم و«فقتل رجلاً ثم استاق غنماً كثيرة»^(٢) ، وفي أخبار عروة أنه سلب هذلياً فرسه^(٣) ، ولكن الأمر الذي نراه بكثرة تلفت النظر في أخبار هؤلاء الصعاليك وأشعارهم تعرضهم للإبل ونهبها .

(١) جوستاف لوبون : حضارة العرب / ٨٢ .

(٢) الأغاني ١٨ / ٢١٣ .

(٣) الأغاني ٢ / ٨٤ .

الباب الثاني

شعر الصعاليك

الفصل الأول

ديوان الصعاليك

١

مصادره :

يقف الدارس لشعر الصعاليك أمام مسألة بالغة الخطر ، تواجهه منذ البداية ، وتوشك أن تنصرف به عن المضي في دراسته ، إذ هي عماد هذه الدراسة ، والمحور الذي تدور حوله ، تلك هي مسألة مصادر هذا الشعر : أين هي ؟

ومن الحق أن نسجل قبل الإجابة عن هذا السؤال أن مسألة مصادر الشعر الجاهلي من المسائل التي تواجه الباحثين فيه منذ البداية ، ذلك لأن أكثر مجموعات شعر القبائل التي تزخر بأسمائها كتب التراجم قد فقدت ، ولم يصل إلينا منها إلا القليل ، أما دواوين الشعراء فقد تركزت عناية الرواة والشرح بدواوين المشهورين منهم ، أما أولئك الذين لم يكن لهم خطر في نظرهم فلم يكن حظهم من العناية بهم كبيراً . هذا إلى أن عمل هؤلاء الرواة والشرح قد اتجه انجهاً فنياً أو لغوياً خالصاً ، أما فكرة جمع الوثائق الأدبية التي تمثل الجوانب الاجتماعية أو الاقتصادية أو الدينية أو غير ذلك من جوانب العصر المختلفة فشئ وراء اهتمام هؤلاء الرواة ، مع ما له من أهمية للباحث الأدبي والباحث التاريخي على حد سواء . وليس من شك في أن هؤلاء الرواة لو نظروا إلى عملهم على أنه عمل تاريخي يحرص على تسجيل كل جوانب العصر الذي يجمعون وثائقه الأدبية ، حتى تلك التي تصور انحطاطه أو ضعفه ، لتغير وجه التاريخ الأدبي للعصر القديم تغيراً كبيراً .

أما أولئك المغمورون من الشعراء فقد بُعِثَتْ مجموعاتُهم الشعرية بين ثلاثة مصادر : كتب الثقافة العربية المختلفة ، كل منها يستغلها لأغراضه الخاصة وفي دائرته الخاصة ، ثم مجموعات المختارات من شعر الشعراء ، وهذه - بطبيعة الحال - كانت متأثرة بذوق أصحابها ، كما أنها كانت محصورة داخل دائرة الاختيار ، وهي دائرة مهما تتسع ضيقة ، ثم كتب التراجم التي تذكر بعض أخبار من ترجم لهم وبعض نماذجهم الفنية ، وحتى هذه - أو على الأقل أكثرها - لم تكن تعنى إلا بالمشهورين . ولنستمع إلى ابن قتيبة في مقدمة الشعر والشعراء : يحدثنا عن الأساس الذي أقام عليه كتابه ، لئلا نرى صورة من ذلك الاهتمام الذي يقف عند المشهورين فحسب ، ولا يكاد يفكر فيمن عداهم : « قال أبو محمد : وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب ، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النحو وفي كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما من خفي اسمه ، وقل ذكره ، وكسد شعره ، وكان لا يعرفه إلا بعض الخواص ، فما أقل من ذكرت من هذه الطبقة » (١) . ومعنى هذا أن رواة الشعر العربي - أو على الأقل أكثرهم - كانوا ينظرون إلى الشعر القديم على أنه وسيلة لأغراض لغوية لا على أنه نتاج عصر متعدد الجوانب .

والأمر في شعر الصعاليك أسوأ من هذا ، فقد عرفنا أن هؤلاء الصعاليك كانوا يمثلون طائفة خارجة على المجتمع ، متمردة على أوضاعه وتقاليده ، لا تحرص على قبائلها كما لا تحرص قبائلها عليها ، ونتيجة هذا أن القبائل لم تحرص على شعرهم ، لأنه يمثل ذلك الخروج عليها ، وذلك التمرد على أوضاعها وتقاليدها ، ولأنه حديث فردي يعنى بتصوير شخصيات أصحابه بقدر ما يهمل شخصيات قبائلهم ، وما حاجة القبائل إلى ذلك اللون من الشعر الذي لا يهتم بها في شيء ، بل على العكس يهتم بتسجيل تمرده عليها والإساءة إليها ؟ وماذا يحمل هذه القبائل على الحرص على هذا الشعر بعد أن لم تحرص على أصحابه ؟ وقد رأينا إلى جانب

هذا أن هؤلاء الصعاليك عاشوا حياة متشردة بين أرجاء الصحراء الواسعة الرهيبة ، حيث يعيش الحيوان النافر ، والوحش الضارى ، ونتيجة هذا أن سبل الاتصال بين هؤلاء الصعاليك وبين مجتمعهم لم تكن ميسرة ، بل على العكس كانت معقدة أشد التعقيد ، إذ هي صلة عداوة مستحكمة ، لا تجعل أحدهما يطمئن إلى الآخر ، وقد قلنا من قبل إن المجتمع فقد اطمئنانه إلى هؤلاء الصعاليك كما فقدوا هم طمأنينتهم فيه . ومعنى هذا أن كثيراً من شعر الشعراء الصعاليك ضاع بين آفاق الصحراء المجهولة ، وذهبت أنغامه ما بين حيوانها ووحشها ، حيث لا ناطق ولا سميع ولا راوية إلا هؤلاء الصعاليك أنفسهم الذين بَعُدَ ما بينهم وبين مجتمعهم ، وقد هدد تأبط شرا عاذليه إن لم يتركوا عذله ليتركهم إلى آفاق الصحراء المجهولة حيث لا أحد — مهما تكن معرفته — بمنيتهم عن موضعه^(١) ، وإذن فكيف يصل ما يقوله من شعر في تلك الآفاق المجهولة إلى آذان المجتمع الأدبي ؟

ومع ذلك فقد وصلت إلينا مجموعة لا بأس بها — وإن تكن قليلة — من شعر هؤلاء الصعاليك . وقد نتساءل : كيف وصلت إلينا هذه المجموعة برغم كل هذا ؟

مصادر هذه المجموعة ، عندى ، ثلاثة :

فليس من شك في أن هؤلاء الشعراء الصعاليك قد مرت بهم في حياتهم فترات عاشوا فيها مع قبائلهم حياةً قبلية متوافقة توافقاً اجتماعياً ، وهى تلك الفترات التى سبقت حياتهم المتصعلكة ، إذ ليس مما يمكن تصوّره أن يبدأ هؤلاء الصعاليك حياتهم المتصعلكة منذ أن ترى أعينهم نور الحياة ، وإنما الذى يمكن تصوّره أنهم عاشوا فترة من حياتهم — قصرت أو طالت — مع قبائلهم ، فليس التصعلك بالظاهرة الوراثة ، وإنما هو كما رأينا فى الفصول السابقة ظاهرة تعمل فيها عوامل جغرافية واجتماعية واقتصادية . ومن الطبيعى أن يكون بعض هؤلاء الشعراء الصعاليك قد اكتملت ملكاتهم الفنية قبل أن يتصعلكوا ،

(١) انظر البيتين ٢٣ و ٢٤ من قصيدته القافية (ابن الأنبارى : شرح المفضليات/ ١٨) .

وأن يكونوا قد شاركوا مائر شعراء قبائلهم في حياتهم الفنية ، وقد رأينا مثلاً لهذا قيس بن الخدّادية الذي شارك قبيلته اجتماعياً وقنياً مشاركة قوية ، خاض معها غمار أيامها ، بل قادها أحياناً إلى مواطن النصر ، وتغنى بهذا كله في شعره . ومن الطبعي أيضاً أن تحرص القبيلة على هذا الشعر وترويه ، وتتغنى به ، وتتناقله جيلاً بعد جيل ، حتى يتلقفه من أفواه أبنائها رواة الشعر العربي الذين كانوا يشدون الرحال إلى البادية ليجمعوا شعر قبائلها . ومعنى هذا أن جزءاً من شعر الصعاليك ، وهو ما يصح أن نطلق عليه « الشعر خارج دائرة الصعلكة » ، قد وصل إلينا عن طريق قبائلهم نفسها .

ومن هذه المجموعة أيضاً ذلك الشعر الذي خلا من مهاجمة القبيلة أو التعرض لها بما تكره ، كوصف الغارات ، أو وصف وحش الصحراء ، أو قصص تلك الأشباح التي كانت تراءى للصعاليك في تشردهم في ليالي الصحراء المظلمة ، فما على القبيلة ضيراً من رواية هذا الشعر ، أو هذه الأقاصيص العجيبة التي ترضى الذوق الشعبي ، في أوقات فراغها أو في ليالي أسمارها . ولعل مما يؤيد هذا قلّة ما وصل إلينا من شعر هؤلاء الصعاليك الذي هاجموا فيه قبائلهم ، أو تعرضوا فيه لها بما تكره ، وليس من شك في أنه كان شعراً كثيراً ، فإن هذه المجموعة من الشعر قد أغفلتها القبائل ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً . ويشبه هذا ما نلاحظه من ضياع تلك المجموعة من الشعر التي قالها مشركو مكة في أول ظهور الإسلام ، عند احتدام الصراع بين شعراء مكة المشركين وشعراء المدينة الذين اعتنقوا الإسلام ، ووقفوا يدعون له ، ويدافعون عنه .

ومن هذه المجموعة أيضاً شعر أولئك الصعاليك الذين فقدوا توافقهم الاجتماعي مع قبائلهم لأسباب اقتصادية في أكثر الأحيان ، أو اجتماعية في بعض الأحيان ، ولكنهم لم يفارقوها ، كما نرى عند طائفة من صعاليك هذيل ، أو عند السليك الذي قلنا إن العصية القبلية عنده قد اتسعت حتى أصبحت « عصية جنسية » ، أو عند تأبط شرا الذي جعل من قبيلته فهم — أو بتعبير

أدق - من موطنها مركزاً يعود إليه بعد غاراته^(١) ، فهذه الطوائف من الصعاليك لم تجد قبائلهم ضيراً من أن تروى ما وصل إليها من شعرهم ، وبخاصة لأنه يصلح مادة للسمر الممتع الشهي .

ومعنى هذا أن المصدر الأول من مصادر شعر الصعاليك هو قبائلهم نفسها . وقد رأينا أن الصعاليك الخلعاء الذين تبرأت منهم قبائلهم ، وطردتهم من حماها ، قد استجاروا ببعض القبائل أو ببعض ساداتها ، إما استجارة دائمة وإما استجارة مؤقتة . ومن الطبيعي أن يتحدث شعراء هذه الطائفة من الصعاليك الشذاذ عن هذا الجوار في شعرهم ، فيمدحوا من أجاروهم ، ويشنوا عليهم بما يرونه رداءً لذلك الدين الذي طوّقت به أعناقهم . ومن الطبيعي أيضاً أن يتعرضوا لقبائلهم التي خلعتهم ، فيكيلوا لها الهجاء ، ويخصوا بالذات أولئك الذين كانوا مبياً في خلعتهم . ومن الطبيعي أن تحرص هذه القبائل التي أجارتهم ، وهؤلاء السادة الذين أنزلوهم في حماهم ، على هذا الشعر حرصاً شديداً ، وأن يعملوا على إذاعته بين العرب ، لأنه تسجيل لبعض مفاخرهم ، وإشادة ببعض أمجادهم ، وليس ما يمنع من أن تذيع هذه القبائل ما قاله هؤلاء الصعاليك في قبائلهم التي خلعتهم ، لأنه فرصة للنيل منها .

وإذن فالمصدر الثاني من مصادر شعر الصعاليك هي تلك القبائل التي استجار بها الخلعاء منهم .

والمصدر الثالث من مصادر شعر الصعاليك هم الصعاليك أنفسهم . وأظن أنه ليست هناك غرابة في أن يروى الصعاليك شعر شعرائهم ، ويتغنوا به ، ويرددوه في كل مناسبة ، لأنه صورة من حياتهم ، وصدى لما يدور في نفوسهم . ومن الطبيعي أن يعمل هؤلاء الصعاليك على أن يذيعوا هذا الشعر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، لأنه تعبير عن مذهبهم في الحياة ، وتعليل لذلك الأسلوب الذي سلكوه في حياتهم ، لعلهم بهذا يضمنون إليهم أنصاراً جُدداً ،

(١) قابت إلى فهم وما كدت آتياً وكم مثلها فارقتهما وهي تصغر
(حياة أبي تمام ٢٨/١) .

أويقنعون مجتمعتهم بأنهم على حق في حركتهم . وساعدهم على هذا ما كان يجده هذا الشعر من إعجاب في الأوساط الشعبية التي كانت تُفْتَنُ بهذا اللون من الشعر ، بما فيه من غرابة ، وما فيه من بطولة ، ولأنه تعبير عن أشياء لعلهم أكثر من يحسونها ويشعرون بها . ولعل شعر عروة بن الورد وصل إلينا أكثره عن طريق هذا المصدر ، لأن عروة كان يمثل شخصية الزعيم الشعبي صاحب المذهب الذي يحرص على أن يضم إليه أكبر عدد ممكن من الأنصار ، ولعل هذا هو السبب في أن شعر عروة هو أكبر مجموعة من شعر الصعاليك وصلت إلينا .

أما تلك المجموعة من الشعر التي نظمها الصعاليك المخضرمون بعد ظهور الإسلام ، والتي يصح أن نطلق عليها « شعر ما بعد الصعلكة » ، فإن شأنها شأن سائر الشعر في ذلك العصر ، رواها الرواة كما روه ، وحفظوها كما حفظوه ، إذ أن الصعاليك المخضرمين قد ودعوا حياة التصعلك بعد ظهور الإسلام وشاركوا في الحياة الجديدة كما شارك غيرهم .

عن طريق هذه المصادر وصل إلينا شعر الصعاليك . ويبدو أن بعض رواة الشعر العربي قد تنبهوا إلى أن هذا الشعر يكون مجموعة متشابهة المقومات الفنية ، فعملوا على جمعه في دواوين خاصة به ^(١) . ولكن مع الأسف الشديد لم يصل إلينا من هذه الدواوين إلا أسماؤها وأسماء مؤلفيها ، أما هي فقد ضاعت مع ما ضاع من التراث العربي القديم ، وليس بين أيدينا الآن من هذه الدواوين - فيما أعرف - سوى قطعة من « كتاب أشعار اللصوص » لأبي سعيد السكري الذي أشار إليه البغدادي في مقدمة الخزانة بين الكتب التي اعتمد عليها في تأليفها ^(٢) ، والذي ذكره ابن النديم من بين مؤلفات السكري ^(٣) ، ويذكر بركلمان أن هذه القطعة هي ديوان طههمان من العصر الأموي ، وأن

(١) انظروا ورد في فهرس معجم الأدباء لياقوت عن كتب أشعار اللصوص والسطار والفتيان والفتاك (جزء ٢٠) .

(٢) خزانة الأدب ١٠/١ .

(٣) الفهرست ٧٨/ .

الأستاذ رايت نشرها^(١) ، وفي خزانة الأدب للبغدادى قطعة أخرى منه^(٢) ، هي مجموعة من أخبار عبيد الله بن الحرّ وأشعاره ، وهو أيضاً من صعاليك العصر الأموى ، وينقل عنه ياقوت في معجم البلدان في كثير من المواضع^(٣) ، وكذلك ينقل عنه صاحب الأغاني^(٤) ، ويذكر بركلمان أن في شرح الحماسة للتبريزى مقتطفات منه^(٥) . ويبدو أن هذا الكتاب من الكتب التى كانت لها قيمتها ، والقطع التى وصلت إلينا منه تدل على هذا دلالة قوية ، وصاحب الخزانة يثنى عليه^(٦) ، وحسب هذا الكتاب أنه من عمل السكرى الذى يقول عنه ابن النديم « الذى عمل من علماء أشعار الشعراء فجود فأحسن أبو سعيد السكرى »^(٧) . وللسكرى أيضاً كتابان آخران يذكرهما ابن النديم ، هما أشعار فهم وأشعار الأزدي^(٨) . وليس من شك فى أن هذين الكتابين كانا يضمّان شعر تأبط شرا وغيره من صعاليك فهم ، والشنفرى وحاجز وغيرهما من صعاليك الأزدي . وما يزسّف له حقاً أن تضيع هذه المجموعة من كتب السكرى التى لو قد وصلت إلينا لأفادتنا كثيراً كما أفادنا ديوان الهذليين له .

وتشير مصادر الأدب العربى إلى دواوين لبعض الشعراء الصعاليك ، فيشير الآمدى فى ترجمته لأبى الطّمّحان القينى إلى « ديوانه المفرد »^(٩) ، وينقل ذلك عنه البغدادى فى خزانته^(١٠) ، ويذكره أيضاً ابن النديم ، ويذكر

(١) Brockelmann; Geschichte der Arabischer Literatur, I, p. 21.

(٢) ٢٩٩ - ٢٩٧/١ .

(٣) انظر على سبيل المثال مادة (شعّان) ٢٧٤/٥ ، ومادة (شعّين) ص ٢٧٥ فى أخبار عن عمرو بن الورد .

(٤) انظر ١٥٩/٢٠ .

(٥) Brockelmann; Geschichte der Arabischer Literatur, I, p. 108.

(٦) ٢٩٩/١ .

(٧) الفهرست ١٥٧ .

(٨) المصدر السابق ١٥٩ .

(٩) المؤلف والمختلف ١٤٩ .

(١٠) ٤٢٦/٣ .

أن الذى عمله الأصمعى وأبو عمرو^(١) ، وما يؤسف له أن يفقد هذا الديوان أيضاً . ويشير صاحب الخزانة أيضاً إلى ديوان تأبط شرا فى نص ينقله عن ابنى جنى فى تصحيحه رواية بيت له يقول فيه « وكذلك وجدتُها فى شعر هذا الرجل بالخط القديم ، وهو عتيد عندى إلى الآن »^(٢) ، ويذكر بركلمان فى حديثه عن تأبط شرا أن « بعض مختارات من ديوانه جمعها ابن جنى مخطوطة فى الاسكوريال المجلد الثانى / ٧٧٨ »^(٣) .

وقد وصل إلينا من دواوين الشعراء الصعاليك ديوانان : ديوان عروة بن الورد ، وديوان الشنفرى .

ويذكر ابن النديم أن شعر عروة قد جمعه اثنان من الرواة : الأصمعى وابن السكيت^(٤) ، ولكن لم يصل إلينا إلا الثانى . وقد طبع هذا الديوان عدة مرات ، طبعه نولدكه فى جوتنجن سنة ١٨٦٣ مع مقدمة وتعليقات وترجمة ألمانيا ، ثم طبع مرة أخرى فى المطبعة الوهية بمصر سنة ١٢٩٣ هـ فى مجموع مشتمل على أربعة دواوين أخرى هى دواوين النابغة الذبياني ، وحاتم الطائي ، وعلقمة الفحل ، والفرزدق ، تحت اسم « مجموع مشتمل على خمسة دواوين من أشعار العرب » ، وديوان عروة فيه مختلف فى ترتيبه عن طبعة نولدكه ، وفى أوله ترجمة عروة نقلا عن الأغاني دون إشارة إلى ذلك ، ثم طبع هذا المجموع مرة أخرى فى بيروت بالمطبعة الأهلية بدون ذكر لتاريخ الطبع ، ويبدو أن هذه الطبعة منقولة عن الطبعة المصرية ، وإن يكن صاحبها يذكر فى أولها أنها « طبعة جديدة مصححة منقحة ، مقابلة على عدة نسخ ، مرتبة على الحروف ، مضافاً عليها كثير من شعره مما تفرق فى دواوين الأدب » .

وأدرج لويس شيخو ديوان عروة مع شرح ابن السكيت فى شعراء

(١) الفهرست / ١٥٨ .

(٢) ٥٤٠ / ٣ .

(٣) Geschichte der Arabischer Literatur, I, p. 25.

(٤) الفهرست / ١٥٨ .

النصرانية^(١) ، وأضاف إليه ما ورد في شرح التبريزي على حماسة أبي تمام مع بعض أخبار منقولة عن الأغاني .

ثم طبعه مرة أخرى الشيخ ابن أبي شنب الأستاذ بكلية الأدب بالجزائر ، بمطبعة جول كربونيل بالجزائر سنة ١٩٢٦ ، وأضاف إليه جملة من شعره مما لم يذكر فيه ، وشرحا على الأبيات يكمل به شرح ابن السكيت .

ومن ديوان عروة نسخة خطية في دار الكتب المصرية تحت رقم ٥٠٨٤ (أدب) ، وهي أيضاً من جمع ابن السكيت وشرحه ، وهي صورة من ديوانه المطبوع .

ولديوان عروة ترجمة فرنسية قام بها الأستاذ R. Basset ونشرها في المجلة الأفريقية التي تصدرها كلية الأدب بالجزائر بالعدد ٦٢ سنة ١٩٢٨ .

أما ديوان الشنفرى فقد كان حظه من العناية دون حظ ديوان عروة ، فبين أيدينا منه نسختان : نسخة مطبوعة صنعها الأستاذ عبد العزيز الميمني ، ونشرها في مجموعة « الطرائف الأدبية » بلجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٧ يذكر في مقدمتها أنها عن نسخة خطية من الديوان عثر عليها بكتبخانة خسرو باشا في استنبول تحت رقم ١٤٩ ، وعن مجموعة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٨٦٤ (أدب) يظن أنها نسخة أخرى من الديوان مبتورة ، وقد أضاف إلى ما ورد في هاتين المخطوطتين بعض أبيات وجدها في مصادر الأدب العربي الأخرى ، ولكنه أسقط من الديوان التائية المفضلية ، ولامية العرب ، ورتاء تأبط شراً « لأن الأوليين وإن كانتا توجدان في النسختين إلا أن ما عند غيرهما أوفى وأتم ، والثالثة خلطتا عنها مرة » ، فإلى ولإثباتها ، وهي في عامة الكتب ، على أنها لا يوثق بعزوها إليه » - كما يقول في مقدمته^(٢) .

والنسخة الأخرى التي بين أيدينا من هذا الديوان نسخة مأخوذة بالتصوير الشمسي عن نسخة خطية بخط محامن بن إسماعيل بن علي من شعراء حلب ،

(١) من ص ٨٨٠ إلى ص ٩١٦ .

(٢) ص ٣٠ .

فرغ من كتابها بلعشق في منتصف شهر جمادى الآخرة سنة ٨٣٥ هـ .
وهذه النسخة المصورة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت اسم « شعر الشنفرى »
تحت رقم ٦٦٧٦ (أدب) ، وهى نسخة من الراجح أن المبنى لم يطلع عليها
لأنه لم يشر إليها في ديوانه الذى طبعه .

والى جانب هذين الديوانين هناك مجموعة أشعار هذيل التى عملها السكرى
أيضاً^(١) ، وبين أيدينا منها الجزء الأول الذى نشره الأستاذ كوسجارتين
John Godfrey Lewis Kosegarten تحت اسم « كتاب شرح أشعار الهذليين »
فى لندن سنة ١٨٥٤ ، والجزء الذى نشره الأستاذ يوسف هل فى ليزج ،
سنة ١٩٣٣ تحت اسم « مجموعة أشعار الهذليين الجزء الثانى » ، والقسم الذى
نشرته دار الكتب المصرية تحت اسم « ديوان الهذليين القسم الثانى » فى
سنة ١٩٤٨ . ففى هذه المجموعات من أشعار الهذليين طائفة من دواوين صعاليك
هذيل : أبى خيرا^(٢) ، والأعلم^(٣) ، وصخر الغنى^(٤) ، وعمرو ذى الكلب^(٥) ،
كما أن فيها طائفة متناثرة من شعر تأبط شرا^(٦) ، الذى كانت بينه وبين
هذيل عداوة مشبوبة الأوار .

فإذا ما تركنا هذه المجموعة من دواوين الشعراء الصعاليك وجدنا أنفسنا
أمام مشكلة صعبة ، هى مشكلة شعر سائر الصعاليك : أين نجده ؟
لا مفر لنا - من أجل هذا - من الرجوع إلى كل مصادر الأدب العربى ،
سواء منها المطبوعة أو المخطوطة ، لننقب - بعد امتداح علماء الآثار - عن
آياته ومقطوعاته وقصائده . والواقع أن شعر الصعاليك مفرق تفريقاً شديداً بين

(١) ابن النديم : الفهرست / ٧٨ .

(٢) مجموعة أشعار الهذليين ٢ / ٤٧ - ٧٨ ، وديوان الهذليين القسم الثانى / ١١٦ - ١٧٢ .

(٣) شرح أشعار الهذليين ١ / ٥٤ - ٦٩ ، وديوان الهذليين القسم الثانى / ٧٧ - ٨٧ .

(٤) شرح أشعار الهذليين ١ / ٦ - ٤٩ ، وديوان الهذليين القسم الثانى / ٥١ - ٧٦ ،

٢٢٣ - ٢٤٠ .

(٥) شرح أشعار الهذليين ١ / ٢٣٢ - ٢٤١ ، ولم تصل طبعة دار الكتب إلى ديوانه .

(٦) انظر شرح أشعار الهذليين ١ / ٤ ، ٢٣٨ ، ٢٥٢ ، وهناك طائفة من أخباره وحديث

شعراء هذيل عنه متناثرة فى ٤٦ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ .

هذه المصادر ، حتى ليصح أن نقول - في شيء من الحذر - إن كل هذه المصادر تضم أبياتاً من شعر الصعاليك . وأظن أن ليس في هذا غرابة ، فما دام شعر الصعاليك يمثل البادية العربية في كثير من جوانبها اللغوية والجغرافية والاجتماعية والاقتصادية تمثيلاً صادقاً صحيحاً ، فمن الطبيعي أن يتخذ اللغويون والرواة والجغرافيون والمؤرخون مصدراً من مصادرهم الأساسية ، لأنهم يجدون فيه شواهد لكثير مما يقررون .

ومن هنا كانت المجموعة اللغوية من أهم مصادر شعر الصعاليك ، وأخص بالذكر منها لسان العرب وتاج العروس وجمهرة اللغة لابن دريد ، وأهمية هذه المصادر - إلى جانب ما تقدمه لدارس شعر الصعاليك من شرح لألفاظه ومعانيه ، وإلى جانب ما تتيحه له من فرصة الموازنة بين الروايات المختلفة - ترجع أيضاً إلى ما انفردت به من أبيات لم ترو في مصادر هذا الشعر الأخرى^(١) ، بل إن الأمر ليصل أحياناً إلى انفرادها بمجموعة كبيرة من الأبيات لشاعر واحد من بحر واحد وقافية واحدة مما يرجح أنها من قصيدة واحدة^(٢) ، أو انفرادها بأبيات تصلح أن تكون تكملة لما روته المصادر الأخرى^(٣) .

فإذا تركنا هذه المجموعة اللغوية وجدنا أن المجموعة الجغرافية ، وأخص بالذكر منها معجم البلدان لياقوت ، ومعجم ما استعجم للبكري ، من المصادر

(١) انظر على سبيل المثال في لسان العرب المواد : قطار . وجر . بأس . سكن . نوم (تأبط شراً) - جوش . شق . قها (أبو الطمحان) - رمل . صرى (السليك) - ولغ (حاجز) - وانظر أيضاً ابن دريد : جمهرة اللغة ١ / ١٤٠ (حاجز) .

(٢) انظر الأبيات اللامية من بحر الطويل لتأبط شراً في المواد : جلب . خعب . ركب . شح . كلب . صوف . ثمل . ختل . رمل . رعل . حلل . كدل . هبل . همل . جثم . رمي . غزا . وهي أبيات نرجس - لاتحاد وزنها وقافيتها وموضوعها - أنها من قصيدة واحدة لم تصل إلينا ، كما نرجح أن الأبيات التي تروى في معلقة امرئ القيس ، والتي يشك الرواة في صحة نسبتها إليه ، ويرجعون أنها لتأبط شراً ، وهي التي يتحدث فيها عن حمله قرية الماء وقطعه الوادي المقفر حيث تعوى الذئاب ، من هذه القصيدة أيضاً .

(٣) انظر على سبيل المثال لسان العرب : مادة (جنم) حيث يروى بيت لتأبط شراً لعله من قصيدته الرائية التي يروى لها الأصمعي في الأصمعيات ٣٥ .

الأساسية أيضاً لشعر الصعاليك . ويرجع ذلك إلى أن هذا الشعر - لكثرة ما يرد فيه من أسماء الأماكن في الجزيرة العربية - يُعدُّ مادةً صالحةً يستشهد بها هؤلاء الجغرافيون في دراساتهم . وقيمة هذه المجموعة من المصادر - إلى جانب ما تقدمه لنا من هذا الشعر - ترجع إلى أنها تعيننا على ضبط نصوصه ، وتصحيح روايته ، بما تقدمه لنا من ضبط لألفاظ الأماكن التي ترد فيه ، والتي قد تكون واردة في المصادر الأخرى محرقة أو مصحفة^(١) .

فإذا ما تركنا هاتين المجموعتين اللتين تعينان بشعر الصعاليك من حيث هو وسيلة لأغراضهما اللغوية والجغرافية ، نصل إلى مجموعة تُعنى بهذا الشعر من حيث هو غاية فنية تقصد لذاتها ، وهي مجموعة المختارات من شعر الشعراء ، وعلى رأس هذه المجموعة نضع المفضليات للضبي ، لا لكثرة ما فيها من شعر الصعاليك ، فليس فيها منه سوى قصيدتين : إحداهما قافية تأبط شراً^(٢) ، والأخرى تائية الشنفرى^(٣) ، ولكن لأنها روت هاتين القصيدتين كاملتين ، مما أتاح لنا فرصة الوقوف أمام نصين كاملين من ديوان الصعاليك . هذا إلى جانب أن ابن الأنباري في شرحه عليهما قدم لنا مجموعة أخرى من شعر الصعاليك ، لم ترَ في المصادر الأخرى^(٤) .

ومن الطبيعي أن نذكر مع المفضليات الأصمعيات ، لأنها بمثابة التكملة لها ، أو الجزء الثاني منها ، وقد قلمتُ لنا أيضاً قطعتين من ديوان الصعاليك ،

(١) انظر على سبيل المثال ما ورد في لسان العرب ، مادة (مرج) ، السليك :

وأذعر كلاباً يقسود كلابه ومرتجة لما أقتبسها بمقنب

فإننا حين نغضى إلى المجموعة الجغرافية لا نجد (مرتجة) بالجم ، وإنما هي (مرتجة) بالحاء وهي « بلد باليمن ومن نواحيه واد كثير النخل » (ياقوت : معجم البلدان ١٩/٨) ، فإذا أضفنا إلى هذا ما قررناه في التفسير الجغرافي لظاهرة الصعلكة من أن السليك قد تخصص في الإغارة على اليمن ، وأن حركات الصعاليك كانت تتجه إلى المناطق الخصبية ، تأكد لنا أن صحة هذا الاسم بالحاء ، وأن موضعه في لسان العرب يجب أن يكون في (مرخ) لا في (مرج) .

(٢) من ص ١ - ٢٠ .

(٣) من ص ١٩٤ - ٢٠٧ .

(٤) انظر بيتي الشنفرى الداليين في ص ١٩٧ ، وأبياته الثلاثة الدالية أيضاً في ص ١٩٨ ،

وقد نقلها الميمى عنه في ديوانه التي نشره في الطرائف الأدبية (ص ٣٤ ، ٣٥) .

إحداهما رائية عروة المشهورة^(١) ، والأخرى رائية لتأبط شراً^(٢) ، وهذه الأخيرة قد انفردت بها الأصمعيات دون المصادر الأخرى ، وقد قلنا منذ قليل إن في لسان العرب بيتاً نرجح أن يكون منها .

وهناك « جمهرة أشعار العرب » لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ، وفيها قطعة كبيرة من رائية عروة المشهورة^(٣) يضعها في مجموعة « المنتقيات » . ثم هناك « منتهى الطلب من أشعار العرب » لمحمد بن المبارك ، وهي مخطوطة بدار الكتب المصرية (تحت رقم ٥٣ ش أدب) ، الموجود منها جزآن ، في الأول منهما طائفة من قصائد عروة بن الورد ، وفي الثاني بعض مقطوعات للشنفرى وتأبط شراً .

وهناك مخطوطة أخرى مجهولة المؤلف في الخزانة التيمورية (تحت رقم ١٢٧٥ تيمورية شعر) فيها قصائد للشنفرى ولعمرو بن بركة الهمداني . ثم هناك مجموعات الحماسة ، وعلى رأسها حماسة أبي تمام التي تمدنا بمجموعة كبيرة من شعر الصعاليك متنوعة الأغراض ، كما يمدنا التبريزي في شرحه عليها بمجموعة أخرى كبيرة ، تجعل من هذا المصنر مصنراً أساسياً لشعر الصعاليك .

وتقف إلى جانب حماسة أبي تمام في مستوى واحد حماسة الخالدين ، وهي مخطوطة بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية (تحت رقم ٢٦٢ تيمورية شعر) ، فإنها تمدنا بمجموعة كبيرة من شعر الصعاليك ، بل إنها تنفرد أحياناً برواية قطع منه^(٤) .

ثم هناك حماسة البحترى ، وهي أيضاً تمدنا بمجموعة لا بأس بها من شعر الصعاليك موزعة على أغراضها .

(١) ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) ص ٣٥ .

(٣) ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٤) انظر على سبيل المثال : أبيات عمرو بن بركة (ورقة رقم ٤٤٣) ، وبيتى السليك (ورقة رقم ٣٧٠ ورقم ٣٧١) وبيتى تأبط شراً (ورقة رقم ٢٩١) .

ثم هناك الحماسة الصغرى لأبي تمام ، وهي المعروفة بالوحشيات ، ومنها نسخة مصورة بدار الكتب المصرية (تحت رقم ٢٢٩٧ أدب) وفيها أيضاً مجموعة لا بأس بها من شعر الصعاليك .

وهناك أيضاً الحماسة البصرية لعلي بن أبي الفرج البصري ، ومنها نسختان في دار الكتب المصرية ، إحداهما مخطوطة (تحت رقم ٥٢٠ أدب) ، والأخرى مصورة (تحت رقم ٦٣٠٠ أدب) ، وفيها أيضاً مجموعة لا بأس بها من شعر الصعاليك .

وهناك حماسة ابن الشجري ، وهي مطبوعة ، وفيها قصيدة لتأبط شرا ، هي لامية له ^(١) ، وقطعة لعمر بن بركة من قصيدته الميمية المشهورة ^(٢) .

فإذا ما تركنا هذه المجموعة من المختارات التي تعنى بشعر الصعاليك من حيث هو غاية فنية تقصد لذاتها ، فإننا نقف عند مجموعة أخرى من مصادر هذا الشعر تعنى به من حيث هو جانب من جوانب حياتهم ، ونعنى بها كتب التراجم ، وما أحسبني في حاجة إلى القول بأن كتاب الأغاني لأبي الفرج على رأس هذه المجموعة بدون استثناء ، ففيه أكبر مجموعة من شعر الصعاليك يرويها صاحبه في أثناء تراجمه لأصحابها ^(٣) .

وكذلك الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ولكننا نلاحظ أنه أغفل ترجمة الشنفرى ، وإن يكن قد روى له بضعة أبيات في مقدمته ^(٤) ، وربما كانت ترجمة الشنفرى قد سقطت من مخطوطات الكتاب .

(١) ص ٤٧ .

(٢) ص ٥٥ .

(٣) عروة بن الورد (٧٣/٣ - ٨٨ دار الكتب) ، وفضالة بن شريك (١٧١/١٠ - ١٧٣ بولاق) وأبو الطمحان (١٣٠/١١ - ١٣٤ بولاق) ، وحاجز (٤٩/١٢ - ٥٣ بولاق) .
وقيس بن الهدادية (٢/١٣ - ٨ بولاق) ، والسليك (١٣٣/١٨ - ١٣٨ بولاق) . وتأبط شرا (٢٠٩/١٨ - ٢١٨ بولاق) ، وصهر النقي (٢٠/٢٠ - ٢٢ بولاق) وعمر بن ذو الكلب (٢٢/٢٠ ، ٢٣ بولاق) ، وأبو خراش (٥٤/٢١ - ٧٠ ليدن) ، والشنفرى (١٣٤/٢١ - ١٤٣ ليدن) ، وعمر بن براق (١٧٥/٢١ ، ١٧٦ ليدن) .

(٤) ص ١٩ .

ثم المؤلف والمختلف للآمدى ، ومعجم الشعراء للمرزبانى ، وتراجم الشعراء فيهما - وإن تكن موجزة جداً - تمدنا بمجموعة لا بأس بها من شعرهم. ثم كتاب « المغتالين » لابن حبيب ، ومنه نسختان في دار الكتب المصرية : نسخة خطية (تحت رقم ٥٧ ش أدب) ونسخة مصورة (تحت رقم ٢٦٠٦ تاريخ) . وطرافة هذا الكتاب تأتي من أنه يهتم بتلك اللحظات الأخيرة في حياة من يترجم لهم ، فإذا لاحظنا أن أكثر الشعراء الصعاليك قد قتلوا ، أدركنا أهمية هذا الكتاب للباحث في شعر الصعاليك ، وإن كنا نلاحظ أن تراجم الشعراء فيه موجزة .

ثم كتاب « مَنْ نُسِبَ إلى أمه من الشعراء » لابن حبيب أيضاً ، وقد كنا ننتظر أن نجد في هذا الكتاب شيئاً كثيراً عن الشعراء الصعاليك ما دام كثير منهم كانوا أغربة يُنسبون إلى أمهاتهم ، ولكن ابن حبيب ، أو لعل النسخة التي وصلت إلينا من كتابه ، قد خيبت ظننا ، فليس فيها من الشعراء الصعاليك سوى قيس بن الخدادية ، وليس فيها من شعره سوى قطعة من أرجوزته التي أنشدها قبيل مقتله ^(١) .

ثم كتاب « المعمرين » للسجستاني ، وفيه البيتان اللذان أنشدهما أبو الطمحان في شيخوخته ^(٢) .

فإذا ما تركنا مجموعة كتب التراجم التي تُعنى بشعر الصعاليك من حيث هو جانب من جوانب حياتهم ، وصلنا إلى مجموعة أخرى تعنى به من حيث هو مادة للدراسة الأدبية أو اللغوية ، ونعنى بها كتب الأمالى والمحاضرات والأحاديث ، ونخص بالذكر منها الكامل للمبرد ، والأمالى للقالى ، والنوادر له أيضاً ، والتنبيه لأبى عبيد البكرى ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، والبيان والتبيين للجاحظ ، والمجهر لابن حبيب ، ومحاضرات الأدباء للراغب ، ولباب الآداب لأسامة بن منقذ ، ونقد الشعر لقدامة ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ،

(١) ص ٦ .

(٢) ص ٦٣ .

والوساطة بين المتنبي وخصومه ، وغيرها من كتب تلك المجموعة الضخمة من التراث العربي .

ثم هناك مجموعة كتب الشواهد ، ونخص بالذكر منها خزانة الأدب للبغدادى ، وشرح الشواهد الكبرى للعيني ، ففيهما مقدار كبير جداً من شعر الصعاليك . ومرد ذلك إلى اهتمام النحاة بهذا الشعر في شواهدهم . وميزة الخزانة - فوق هذا - أنها ترد كل ما ترويه إلى مصادره التي تنقله عنها ، وما أكثر المصادر التي اعتمد عليها صاحب الخزانة في تأليفها ، والتي أشار إليها في مقدمته لها^(١) ، حتى لتعد الخزانة من المصادر الأولى لشعر الصعاليك .

وقد قلنا إن الشعراء الصعاليك - نتيجة لتشردهم - ذكروا طائفة كبيرة من حيوان الصحراء في شعرهم ، ومعنى هذا أن الكتب العربية التي تعنى بدراسة الحيوان تضم مجموعة لا بأس بها من شعر الصعاليك ، ونخص بالذكر من بين هذه الكتب كتاب الحيوان للجاحظ .

ومن بين الشعراء الصعاليك جماعة أدركوا الإسلام ، وأسلموا في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، كأبي خراش وأبي الطمحان ، فهؤلاء نجد تراجمهم وطائفة من شعرهم في كتب الصحابة ، كالإصابة لابن حجر ، وأسد الغابة لابن الأثير . ومن هذا القبيل أيضاً ما ترويه كتب السيرة من شعر عروة بن الورد وأخباره ، نظراً لأن إحدى سبباته كانت في بني النضير عندما أجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى خيبر^(٢) .

هذه أهم المجموعات التي تكون مصادر « ديوان الصعاليك » ، وهذه أهم كتبها ، ولم نقصد من ذكرها إلى الحصر ، فإنه ليس باليسير ، وقد قلنا في أول حديثنا عنها إننا نستطيع أن نقول ، في شيء من الحذر ، إن كل مصادر الأدب العربي تضم أبياتاً من شعر الصعاليك ، وإنما كل ما قصدنا إليه من

(١) انظر ١/٨ - ١٢ .

(٢) انظر على سبيل المثال : السهيل : الروض الأنف ٢/١٧٨ - ١٨١ .

هذا الحديث هو أن نهى « المفاتيح » التي نتوصل بها إلى « كنوز » ديوان الصعاليك .

٢

مادته :

حين ننظر في « المادة » التي تجمعت لنا من كنوز ديوان الصعاليك نلاحظ عابها ثلاثة أشياء : قلتها ، وكثرة الاضطراب في رواية نصوصها ، ثم الشك الذي يحيط ببعض نصوصها .

والأمر الذي لاشك فيه هو أن مادة شعر الصعاليك قليلة قلة لا تتكافأ مع كثرة مصادرها ، ومرد ذلك من غير شك إلى ضياع جزء كبير منها ، لأنها — من ناحية — شعر جاهلي ، ونحن نعرف أن الشعر الجاهلي قد ضاع أكثره ، ولم يصل إلينا منه إلا أقله ، وهي حقيقة معروفة مقررة عند القدماء^(١) ، ثم هي — من ناحية أخرى — نتاج طائفة من الشعراء متمردة على قبائلها ، متشردة في مجاهل الصحراء . وليس الأمر استنتاجاً نظرياً ، وإنما هي حقيقة يذكرها القدماء ، فهم يذكرون عن قيس بن الحداية أنه « شاعر قديم كثير الشعر »^(٢) ، وليست مجموعة شعر قيس التي بين أيدينا بالتى يصح أن نطلق على صاحبها أنه « كثير الشعر » . وليس من شك في أن كثيراً من الشعراء الصعاليك كانوا مثل قيس من حيث كثرة الشعر ، وأن كل الشعراء

(١) يقول أبو عمرو بن العلاء « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله » ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » (ابن سلام : طبقات الشعراء / ١٠) ، ويعمل عمر بن الخطاب لهذا بهلاك روايته من العرب في الفتوح الإسلامية (المصدر السابق / ١٠) ، ويقول ابن قتيبة « ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ولا قصيدة إلا رواها » (الشعر والشعراء / ٣) ، ويحدثنا الأصمعي أنه « كان ثلاثة أخوة من بني سعد لم يأتوا الأمصار فذهب رجزهم » (المصدر السابق / ٤) .

(٢) المرزبانى : معجم الشعراء / ٣٢٦ .

الصعاليك كانوا مثله ومثل سائر الشعراء الجاهليين من حيث ضياع أكثر شعرهم .

ولمى جانب هذه القلة فى المادة تلاحظ أيضاً كثرة الاضطراب فى رواية نصوصها ، وهى ظاهرة نلاحظ على كل نصوص الشعر الجاهلى ، ولكنها تلاحظ بصورة قوية فى نصوص شعر الصعاليك . ومن اليسير أن نفهم هذا ما دما قد عرفنا أن الشعراء الصعاليك كانوا يمثلون طائفة متمردة على قبائلها ، متشردة فى مجاهل الصحراء ، وما دام هذا الشعر قد وصل إلينا مفرقاً فى مصادر الأدب العربى المختلفة ، ولم يصل إلينا إلا قليل منه فى دواوين مستقلة .

وكما نلاحظ هذا الاضطراب فى ألفاظ هذا الشعر ، يلاحظ فى ترتيب أبياته ، ويلاحظ أيضاً فى عدد هذه الأبيات ، وهذا ما سنحاول الإشارة إليه فيما يمر بنا منه فى هذا البحث .

فإذا ما تركنا هاتين الملاحظتين الشكليتين ، فإننا نصل إلى الملاحظة الثالثة ، وهى الشك الذى يحيط ببعض نصوص هذا الشعر ، وهى ملاحظة جوهرية ، لأنها تتصل بالمادة التى بين أيدينا : أهى حقاً لأصحابها أم هى مزيفة عليهم ؟ وشعر الصعاليك فى هذه المسألة ليس بدعاً من سائر الشعر الجاهلى الذى اتهم بالترفيف والانتحال اتهاماً شديداً ، والذى تعرض لحملة شديدة كانت على وشك أن تعصف بأركانه . ولستأ نبرئ الشعر الجاهلى من هذا الاتهام ، ولكننا أيضاً لا نمضى مع هذا الاتهام إلى ذلك الحد الذى يجعل من رواة الشعر الجاهلى « عصابة من المزيفين » لا همّ لهم إلا صناعة نماذج من الشعر ثم حملها على الشعراء الجاهليين ، والذى يجعل درس الشعر الجاهلى ضرباً من الأعمال « البوليسية » التى لا هم لها إلا البحث عن هؤلاء المزيفين ومصادرة « عملهم » الزائفة .

والأمر الذى لا أكاد أشك فيه هو أن الشعر الجاهلى قد لقي من عناية القدماء نصيباً موفوراً ، وأن نقاد هذا الشعر لم يشكوا فى شىء منه إلا سجلوا هذا الشك ، وحسبنا هذا الشك دليلاً على عناية القدماء بأمر هذا الشعر . أما

ما كان التزييف فيه بارعاً إلى درجة خفيت على القدماء أنفسهم من النقاد والرواة ، فما أظن أننا نبيح لأنفسنا الادعاء بأننا أدق حساً بالشعر الجاهلي من هؤلاء القدماء الذين كانوا أقرب منا عهداً بعصر هذا الشعر ، أما إذا كان الراوية أو الناقد مجرّحاً عرفت عنه الغفلة أو الكذب ، أو كان المتن نفسه يحمل في أثناؤه دليلاً على الكذب أو التزييف ، فهنا تكون مواضع الشك والالتهام . وليست هذه الخطوة بدعاً في الدرس ، وإنما هي خطوة سار عليها علماء الحديث في دراستهم لأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وتحققها .

ومجموعة شعر الصعاليك التي دارت حولها أحاديث الشك نوعان : فمجموعة كان الشك فيها « داخلياً » بمعنى أن الرواة قد اتفقوا على أنها من شعر الصعاليك ، ولكنهم اختلفوا في نسبتها إلى أيهم ، ومن الأمثلة على هذه المجموعة تلك البائية التي تروى مرة لأبي خراش الهذلي^(١) ، ومرة للأعلم الهذلي^(٢) ، ومرة لتأبط شراً^(٣) وهم جميعاً من صعاليك منطقة واحدة هي منطقة السراة .

ومن الأمثلة على هذه المجموعة أيضاً تلك الدالية التي يرويها الأصمعي وأبو عمرو الشيباني والسكري لصخر الغي الهذلي^(٤) ، والتي يذكر أبو عبيدة « أنه رأى جماعة من شعراء هذيل يختلفون في هذه القصيدة فيرويها بعضهم لصخر الغي ، ويرويها بعضهم لعمر وذي الكلب ، وأن الهيثم بن عديّ حدثه عن حماد الراوية أنها لعمر وذي الكلب »^(٥) ، وكلا الشاعرين من صعاليك هذيل .

والحطّوب في هذه المجموعة هين ، فإن المسألة لم تخرج عن دائرة الصعاليك . وهذا الاختلاف — وإن يكن له تأثير في الدراسة الفنية للشاعر الواحد —

(١) ديوان الهذليين ، القسم الثاني / ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٢) الآمدي : المؤلف والمختلف / ٩٥ .

(٣) ديوان الهذليين ، القسم الثاني / ١٦٨ ، ١٦٩ ، وابن دريد : جمهرة اللغة / ١ / ٢٤٠ .

(٤) الأغاني ١٩ / ٢٠ ، وشرح أشعار الهذليين ١٢ / ١ ، ويرويها له أيضاً ابن قتيبة في

الشعر والشعراء / ٤٢٠ .

(٥) الأغاني ١٩ / ٢٠ .

لأن تأثير له في الدراسة الفنية لشعر الصعاليك من حيث هو شعر مجموعة ، ولا تأثير له في الدراسة الاجتماعية لظاهرة الصعلكة .

ومن هنا وقفنا من هذه المجموعة موقفين مختلفين ، فاعتمدنا عليها في دراسة ظاهرة الصعلكة ، وفي دراسة شعر الصعاليك من حيث هو شعر مجموعة ، أما حين ندرس شاعراً معيناً ، فننطلق من الطبيعي ألا نعتمد عليها ، لا في دراسة حياته ، ولا في دراسة فنه ، وإلا وصلنا إلى نتائج مشكوك في مقلداتها .

أما المجموعة الأخرى فإن الشك فيها شك « خارجي » بمعنى أنه يدور حول نسبتها إلى الشعراء الصعاليك أو إلى غيرهم من الشعراء ، كذلك الأبيات التي تنسب مرة إلى تأبط شراً^(١) ، ومرة ثانية إلى البسعيث^(٢) ، ومرة ثالثة إلى هذبة العنبري^(٣) ، وكذلك الأبيات البائية التي تنسب في بعض المصادر إلى أبي الطمحان^(٤) ، وفي بعضها إلى لقيط بن زُرارة^(٥) ، وكاليتين اللذين ينسبان في بعض المصادر إلى السليك^(٦) ، وفي بعضها إلى المعتصم بالله ابن هارون الرشيد^(٧) .

وقد يكون من اليسير أن ينتهي الباحث إلى رأى في هذا الاختلاف إذا أعانته بعض الخصائص الفنية في نصوص هذه الأبيات على التعرف على شخصيات أصحابها ، فمثلاً قد يكون من اليسير أن نصحح نسبة البيتين الأخيرين إلى المعتصم ، إذ أن سمات « الأرستقراطية » تبدو عليهما في صورة ذلك السيد الذي يأمر غلامه بأن يهيئ له حصانه ويطرح عليه سرجه ويلحاه ، فإذا أضفنا إلى هذا أن البيت الثاني يروى في بعض المصادر « أبلغ الأثران »^(٨)

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار ، المجلد الأول / ٢٨١ .

(٢) المصدر السابق / ٢٧٦ .

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١ / ١١٦ .

(٤) المبرد : الكامل / ٣٠ ، وانظر أيضاً ص ٦٦ ، ٥٠٧ .

(٥) الجاحظ : الحيوان ٣ / ٩٣ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٤٤٧ .

(٦) أسامة بن منقذ : ليلاد الآداب / ١٨٢ .

(٧) المرزباني : معجم الشعراء / ٤٢٥ .

(٨) المصدر السابق / ٤٢٥ .

مكانه «أبلغ الفتيان»، رجحت لدينا نسبة هذين البيتين للمعتصم، ومن الحق أن السليك كان له فرس اسمه «التحام»^(١)، ولعل هذا هو الذي أشكل على بعض الرواة فنسبوا البيتين له، ولكن هذا ليس كافياً لإثبات صحة هذه النسبة، فقد يكون في خيل المعتصم ما يحمل هذا الاسم.

والأمر في الأبيات التي تنسب إلى أبي الطمحان أو لقيط بن زرارة يشبه هذا الأمر، فإن في الأبيات فخراً يقوم الشاعر بالسيادة والحسب، وهذا ألقى بلقيط ذلك السيد التميمي الذي يصفه ابن قتيبة بأنه «كان أشرف بني زرارة»^(٢)، كما أن فخر الشاعر بلسان قومه ليس من الخصائص المألوفة في شعر الصعاليك، ومن هنا نستطيع أن نرجح نسبة هذه الأبيات إلى لقيط، وقد تنبه ابن قتيبة إلى هذا حيث يقول «وبعض الرواة ينحل هذا الشعر أبا الطمحان القيني، وليس كذلك، وإنما هو للقيط»^(٣).

وقد تنبه القدماء إلى مثل هذا، فقد اختلف الرواة في أربعة أبيات من معلقة امرئ القيس: أمي له أم لتأبط شرا؟ وهي تلك الأبيات التي يتحدث فيها الشاعر عن حمله قرية الماء، وتشرده في الوديان المقفرة مع الذئاب الجائعة، وعن فقره وإسرافه وهزله^(٤): أما الأصمعي فقد ذهب إلى أن هذه الأبيات ليست لامرئ القيس وإنما هي لتأبط شرا، وتابعه في هذا الرأي أبو حنيفة الدينوري وابن قتيبة، وأما السكري فقد خالفهم في هذا ورواها لامرئ القيس في معلقته^(٥)، وقد تنبه صاحب خزنة الأدب إلى أن هذا الشعر أشبه بكلام اللص والصعلوك لا بكلام الملوك^(٦).

وقد يقال إن امرأ القيس تصعلك حقبة من حياته، فلعله يعبر عن هذه

(١) انظر الكامل المبرد / ٤٧١، ولسان العرب مادة (نحم).

(٢) الشعر والشعراء / ٤٤٦.

(٣) المصدر السابق / ٤٤٧.

(٤) التبريزي: شرح القصائد العشر / ٣٧، ٢٨.

(٥) للبغدادى: خزنة الأدب ١/ ٦٥.

(٦) المصدر السابق / ٦٥.

الحقبة في هذه الأبيات ، ولكن يلاحظ أن وضع هذه الأبيات في المعلقة وضع قلق ، إذ أنها حديث شاب «أرسطراطي» عن اللهو والنساء والصيد فليس من المعقول أن يتحدث في أثناء هذا عن حمله قرية الماء وفقره وتشرده ، وقد رجحنا منذ قليل أن هذه الأبيات قطعة من لامية لتأبط شرا لم تصل إلينا ، وقلنا إنه من الممكن أن تتألف من تلك الأبيات الكثيرة الواردة له في لسان العرب من وزن واحد وعلى قافية واحدة .

وصورة أخرى من هذا «الشك الخارجي» نراها حين تنهم بعضُ نصوص شعر الصعاليك بأنها قد صُنعت وحملت عليهم ، فمثلا يقول أبو عمرو تعليقا على القصيدة القافية المنسوبة إلى قيس بن الخدّادية في مدح أسد بن كُرُز : «وهذه الأبيات من رواية أصحابنا الكوفيين ، وغيرهم يزعم أنها مصنوعة ، صنعها حماد الراوية لخالد القسري في أيام ولايته وأنشده إياها ، فوصله ، والتوليد يبين فيها جدًّا»^(١) ، ويذكر أبو الفرج بعد أن روى القصيدة البائية المنسوبة إلى قيس بن الخدّادية أيضاً التي يفتخر فيها بقومه ، ويعيّر عامر ابن الظرب بفراره : «هذه القصيدة مصنوعة والشعر يبين التوليد»^(٢) .

ولعل أشهر ما تعرض لهذا الشك من شعر الصعاليك لاميّتان : إحداهما تنسب إلى الشنفرى ، وهى المعروفة بلامية العرب ، ومطلعها :

أقيموا بنى أمى صلور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأميلُ
والأخرى تختلف القدماء في نسبتها اختلافاً شديداً ، ومطلعها :

إن بالشعب الذى دونَ سلع لقتيلا دمه ما يطل
وكلتا اللاميتين اتهم بصنعهما خلف الأحمر^(٣) .

والقدماء يصفون خلفاً بأنه «كان من أمّرس الناس ليبت شعر»^(٤) ،

(١) الأغاني ١٣/٥ (بولاقي) .

(٢) المصدر السابق ٤/ .

(٣) ابن عبد ربه : المقد الفريد ٣٠٧/٥ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء ٤٩٧/ ،

والجاحظ : الحيوان ١٨٢/١ ، والقال : الأمل ١٥٦/١ .

(٤) ابن النديم : الفهرست ٥٠/ .

ويقول ابن سلام : « أجمع أصحابنا أن الأحمر كان أفرس الناس بيت شعر » ^(١) ، ويقول الأنخفش : « لم أدرك أحداً أعلم بالشعر من خلف الأحمر الأصمى » ^(٢) ، ويقول أبو اليزيد : « أتيت بغداد حين قام المهدي محمد ، فوافاها العلماء من كل بلدة بأنواع العلوم ، فلم أر رجلاً أفرس بيت شعر من خلف » ^(٣) . ولكنهم مع الأسف يصفونه بأنه « كان يقول الشعر فيجيد ، وربما نَحَلَّه الشعراء المتقدمين ، فلا يتميز من شعرهم لشاكلة كلامه كلامهم » ^(٤) ويقول أبو الطيب عبد الواحد اللغوي : « كان خلف يضع الشعر وينسبه إلى العرب فلا يُعرف » ^(٥) ، ويذكر ابن قتيبة أنه « كان يقول الشعر وينحله المتقدمين » ^(٦) ، ويقول ابن عبد ربه : « وكان خلف مع روايته وحفظه يقول الشعر فيُحسِّن وينحله الشعراء » ^(٧) ، ويذكر ابن النديم عنه أنه « كان شاعراً يعمل الشعر على لسان العرب وينحله إياهم » ^(٨) ، بل إنه هو نفسه يصرح بهذا في بعض الأخبار أنه قال : « كنت آخذ من حماد الراوية الصحيح من أشعار العرب ، وأعطيه المنحول فيقبل ذلك مني ، ويدخاها في أشعارها » ^(٩) .

ومعنى هذا أننا أمام « مزيف » بارع يعرف أساليب العرب في الشعر ويقلدها ثم يحملها عليهم ، فلا يكادون يميزونها ، وهنا موطن الخطر ، فلو لم يكن خلف على هذه البراعة ، لاستطاع القدماء ، ولاستطعننا نحن أيضاً ، أن نعرف ما هو صحيح النسبة إلى أصحابه مما يرويه من الشعر وما هو منحول عليهم .

(١) ياقوت : معجم الأدباء ١١ / ٦٧ .

(٢) المصدر السابق ١١ / ٦٧ .

(٣) ابن النديم : الفهرست / ٥٤ .

(٤) ابن الأثير : نزهة الألباء في طبقات الأدباء / ٦٩ ، ٧٠ .

(٥) ياقوت : معجم الأدباء ١١ / ٦٨ .

(٦) الشعر والشعراء / ٤٩٧ .

(٧) المقدم الفريد / ٥ / ٣٠٧ .

(٨) الفهرست / ٥٠ .

(٩) الأغاني / ٦ / ٩٢ .

ولعل الأمر في اللامية الأخيرة « إن بالشعب » أيسر ، فإن الشك يكتنفها اكتنافاً شديداً لم تتعرض لمثله أية قضية أخرى من « ديوان الصعاليك » ، وتكاد مصادر الأدب العربي المختلفة لا تتفق على قائلها ، فهي مرة تُنسب إلى تأبط شرا^(١) ، ومرة إلى ابن أخت تأبط شرا^(٢) ، ومرة إلى الشنفرى^(٣) ، هذا إلى جانب نسبتها إلى خلف الأحمر^(٤) ، بل إن أبا تمام الذى ينسبها في حماسته في صراحة إلى تأبط شرا^(٥) ، ينسبها في بعض المصادر الأخرى في صراحة أيضاً إلى الشنفرى^(٦) ، بل الغريب أن تنسب أحياناً إلى الشنفرى في رثاء تأبط شرا^(٧) ، مع أن المعروف أن الشنفرى قُتل قبل تأبط شرا ، وأن تأبط شرا هو الذى رثاه^(٨) ، والجاحظ لا يعرض لها إلا متشككاً ، فهو يقول مرة : « وقال تأبط شرا أو أبو عمرز خلف بن حسيان الأحمر »^(٩) ، ويقول مرة أخرى : « وقال تأبط شرا ، إن كان قالها »^(١٠) . وينقل ابن دريد بيتاً منها في أسلوب التشكيك حيث يقول : « وقد رُوى البيت المنسوب إلى الشنفرى أو إلى تأبط شرا . . . »^(١١) ، ووضع العبارة على هذه الصورة المتشككة ، والتعبير بكلمة « المنسوب » ، يشعران بما كان يدور في نفس ابن دريد من الشك في صحة هذه النسبة إلى أى من الشاعرين . ويقول ابن عبد ربه : « ويقال

-
- (١) حجة أبى تمام ١٦٠/٢ . ولسان العرب : مادة (سلع) .
 (٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٢٥٢/١ ، ٢٩٨/٣ ، ٣٤٥/٥ ، ٣٤٦ .
 (٣) البغدادى : خزانة الأدب ٥٣٢/٣ . ولسان العرب : مادة (سلع) . وحجة الخالدين (مخطوطة) ورقة ٢٤٩ .
 (٤) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٤٩٧ .
 (٥) حجة أبى تمام ١٦٠/٢ .
 (٦) حجة الخالدين (مخطوطة) ورقة ٢٥٠ .
 (٧) البغدادى : خزانة الأدب ٥٣٢/٣ . ولسان العرب : مادة (سلع) . وحجة الخالدين (مخطوطة) ورقة ٢٤٩ .
 (٨) الأغاني ١٣٦/٢١ .
 (٩) الحيوان ١٨٢/١ .
 (١٠) المصدر السابق ٩٨/٣ .
 (١١) جمهرة اللغة ٦٩/١ .

إن الشعر المنسوب إلى ابن أخت تأبط شرا وهو :

إن بالشعب السدى دون ملع لفتيلاً دمه ما يطل
خلف الأحمر ، وإنه نحله إياه ^(١) . ويقول التبريزي في صراحة عن
هذا الشعر : « وذكر أنه خلف الأحمر ، وهو الصحيح » ^(٢) . وكذلك يفعل
ابن قتيبة إذ يذكر في صراحة لا تحتل شكاً أن قائل هذه القصيدة هو خلف ،
وهو يذكر هذا في ترجمته له ^(٣) .

ومعنى هذا أن القدماء لم يتفقوا على نسبتها إلى أحد من الشعراء الصعاليك ،
ولما كان اختلافهم في هذا اختلافاً عريضاً ، وأنهم يقفون منها موقف التشكك
في صحة نسبتها إلى أي من الشعراء الصعاليك ، بل إن بعض من يُعتمد برأيهم
يصرحون في قوة بأنها خلف .

ولكننا نعود فنقف أمام نص للخالدين في محامستها يذكران فيه — بعد
أن ذكرا هذه القصيدة منسوبة إلى الشنفرى — « وقد زعم قومٌ من العلماء أن
الشعر الذى كتبنا للشنفرى هو لخلف الأحمر ، وهذا غلط » ^(٤) ، ثم يرويان
خبراً طويلاً ^(٥) عن الصولي عن أبي العيناء عن العُشْبِيّ في إثبات هذا ، خلاصته
أن العُشْبِيّ كان جالساً يوماً بالمربد مع « جماعة من أهل الأدب » ومعهم خلف
الأحمر يتذاكرون « أشعار العرب » ، ثم أخذ خلف ينشدهم قصيدة له
على روى هذه اللامية وقافيتها « يذكر فيها ولد أمير المؤمنين عليهم الرحمة وما نالهم
وجرى عليهم من الظلم » ، إذ هجم عليهم الأصمعي ، وكان منحرفاً عن أهل
البيت ، فقطع خلف قصيدته ، ودخل في هذه اللامية ، ولم يكن في الجماعة
« أحدٌ عرف هذا الشعر ولا رواه للشنفرى » ، فلما انصرف الأصمعي أقبلوا
على خلف يُطْطِرُون سرعة يديته ، ومقدرته على الارتجال ، ولكنه قال لهم

(١) المقد القريد ٣٠٧/٥ .

(٢) شرح حسانة أبي تمام ١٦٠/٢ .

(٣) الشعر والشعراء ٤٩٧ .

(٤) ورقة رقم ٢٥٠ (مخطوطة) .

(٥) من ورقة رقم ٢٥١ — إلى ورقة رقم ٢٥٤ .

« إن كان تقرّبطكم لى لأنى عملت الشعر فما عملته والله ، ولكنه للشنفرى تأبط شراً^(١) ، والله لو سمع الأصمعى بيتاً من الشعر الذى كنت أنشدكموه ما أمسى أو يقوم به خطيباً على منبر البصرة فيتلف نفسه ، فادّعاء شعر لو أردت قول مثله ما تعذر على أهون عندي من أن يتصل بالسلطان فألحق باللطيف الخبير . »

والخبير على هذه الصورة يحمل فى ثناياه كذبه ، فإذا يحمل خلفاً على أن يدّعى أمام الأصمعى أن هذه القصيدة له ، ولا ينسبها صراحة إلى صاحبها ؟ ثم كيف نتصور أن الأصمعى لم يكن يعرف هذه القصيدة لو كانت حقاً للشنفرى أو غيره من الشعراء الجاهليين ، وهو الذى يقرنه الأنخفش بخلف الأحمر فى العلم بالشعر ، ويقول إنه لم يدرك أحداً أعلم بالشعر منهما^(٢) ؟ كيف نتصور أن خلفاً يسيء الظن بالأصمعى إلى هذا الحد الذى ينشده فيه قصيدة جاهلية ، ويدّعيها لنفسه ، دون أن يظن أن الأصمعى قد يكون يرويها هو أيضاً ؟ ثم كيف نتصور أن هذه « الجماعة من أهل الأدب » المجتمعة لتذاكر « أشعار العرب » — على حد تعبيرات القصة — قد خلت من واحد يعرف أن هذه القصيدة جاهلية ؟ ثم أين سائر أفراد هذه « الجماعة من أهل الأدب » ولم لم يدّكر واحدٌ منهم غير العتيبي هذا الخبير ؟

أما أنا فأرجح ترجيحاً شديداً أن العتيبي راوى هذا الخبر هو مختلقه . ويؤيد هذا انفراده بروايته ، وقوله إنه لم يبق من يعرفه غيره ، وأنه تحدث به فى مجلس له ورجلٌ يقرأ عليه شعر الشنفرى ، فلما وصل إلى هذه اللامية قال بعض من كان فى المجلس : هذه القصيدة لخلف الأحمر ، فضحك العتيبي مستخفاً به ، ومضى يقص هذا الخبر . وهذا يجعلنا نرجح أن المسألة كانت تحدياً بينه وبين بعض الحاضرين ، وفى مثل هذا الموقف قد يعتمد بعض الناس إلى الاختلاق . ثم قد يكون العتيبي اختلق هذه القصة ليبرئ خلفاً من

(١) كذا فى المخطوطة (ورقة رقم ٢٥٢) وأظن أن صوابه « للشنفرى يرثى تأبط شراً » .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ١١/٦٧ .

تهمة الكذب ، وكلاهما شيعي .

هذا من الناحية التاريخية ، أما من الناحية الفنية فقد حاول القدماء ممن نسبوها إلى خلف أن يدللوا على صحة هذه النسبة ، يروى التبريزي عن الثمري أنه قال « وما يدل على أنها لخلف الأحمر قوله فيها — جَلَّ حتى دَقَّ فيه الأجلُ — فإن الإعرابي لا يكاد يتغلغل إلى مثل هذا »^(١) . ويروى عن أبي الندي أنه قال « مما يدل على أن هذا الشعر مولد أنه ذكر فيه سَلْعاً وهو بالمدينة ، وأين تأبط شراً من سلع ؟ وإنما قُتِل في بلاد هذيل »^(٢) . ولكن صاحب معجم البلدان يذكر أن في ديار هذيل جبلاً اسمه سلع^(٣) ، ولكنه — من ناحية أخرى — ينقل عن بعض العلماء أنهم استدلوا على أن هذه القصيدة ليست لتأبط شراً « بأن سلعاً ليس دونه شِعْبٌ »^(٤) .

على هذه الأسس التاريخية والفنية نظن ، بل نرجح ، أن هذه اللامية ليست لأحد من الشعراء الصعاليك ولا في رثاء أحد من الصعاليك .

أما القصيدة الأخرى ، لامية العرب ، فإن الأمر فيها أصعب من هذا ، فليس حولها هذا الخلاف العريض الذي رأيناه حول اللامية الأولى ، فإن الرواة الذين تعرضوا لها ينسبونها إلى الشنفرى^(٥) ، ما عدا صاحب تاج العروس الذي ينسبها إلى تأبط شراً^(٦) ، وليس بين أيدينا من النصوص الصريحة على أنها ليست للشنفرى سوى نص يرويه القالي عن ابن دريد يذكر فيه أن هذه القصيدة المنسوبة إلى الشنفرى لخلف الأحمر^(٧) . وهو نص له قيمته ، لأن ابن دريد

(١) شرح حجة أبي تمام ٢/ ١٦٠ ، ١٦١ .

(٢) المصدر السابق ١٦١ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ٢/ ١٠٨ ، مادة (سلع) .

(٤) المصدر السابق ١/ ٥ (المقدمة) .

(٥) انظر على سبيل المثال التبريزي في شرحه على حجة أبي تمام ١/ ٢٣٤ ، والبغدادى

في خزانة الأدب ٢/ ٤١٤ ، ٣/ ٣٣٤ ، والعيني في شرح الشواهد الكبرى (على هامش خزانة

الأدب) ٢/ ١١٧ وإن كنا نلاحظ أن العيني يذكر أن الشنفرى هو عمرو بن براق ، وهو خلط ،

وهبة الله العلوي في ديوان مختارات شعراء العرب ٢١/ ، وحجة الخالدين (مخطوطة) ورقة رقم ١٣٠ .

(٦) مادة (آم) .

(٧) الأمل ١/ ١٥٦ .

كان قريبَ عهدٍ بخلف ، فأكثر أخباره مرويةً عن تلاميذ الأصمعي عن خلف ، ثم إنه كان على صلة بأعمال المدرسة البصرية التي يسمي إليها خلف^(١) ، فإذا أضفنا إلى هذا أن أبا الفرج قد أغفل هذه اللامية في ترجمته للشنفرى إغفالا تاماً ولم يشر إليها أى إشارة على كثرة ما روى من شعره^(٢) ، كما فعل مع اللامية الأولى في ترجمته لتأبط شراً^(٣) ، وأن لسان العرب—على كثرة ما نقل من شعر الصعاليك—لم يرد فيه أى ذكر لها ولا أى بيت منها ، بدأت كفة الشك في صحة نسبتها إلى الشنفرى ترجح .

هذا من الناحية التاريخية ، أما من الناحية الفنية فإن أول ما يلتفت نظرنا أن هذه اللامية طويلة طولا ليس مألوفاً في شعر الصعاليك ، وسرى فيما بعد أن شعر الصعاليك كان في مجموعه شعر مقطوعات ، فهذه اللامية تبلغ عانية وستين بيتاً ، في حين لا تريد أطول قصيدة في «ديوان الصعاليك» وهي ثمانية الشنفرى المفضلية على خمسة وثلاثين بيتاً في بعض المصادر^(٤) ، أى أن هذه اللامية تبلغ ضعف أطول قصيدة في ديوان الصعاليك تقريباً . وإلى جانب هذا نلاحظ قلة الاضطراب في رواية ألفاظها ، وفي ترتيب أبياتها ، وهي ظاهرة ليست مألوفة في شعر الصعاليك ، فقد لاحظنا في أول هذا الفصل أن ممّا يميز شعر الصعاليك الاضطراب في رواية ألفاظه وترتيب أبياته . فإذا أضفنا إلى هذا ما لاحظته كرنكو^(٥) من قلة أسماء المواضع والأشخاص فيها ، وهي ظاهرة ليست طبيعية في قصائد الشعر العربى المبكرة ، زادت كفة الشك في صحة نسبة هذه اللامية إلى الشنفرى في الرجحان .

وقد نتساءل بعد هذا : ما السر في تلك العناية الغريبة التي لقيتها هذه

(١) Krenkow; The Ency. of Islam, Art. Al-Shanfara. (١)

(٢) ١٤٣ - ١٣٤/٢١ .

(٣) ٢١٨ - ٢٠٩/١٨ .

(٤) انظر في شرح ابن الأنبارى على المفضليات (ط بيروت) تعليق الأستاذ Lyall

على البيت الأخير من الثمانية (ص ٢٠٧) .

(٥) The Ency. of Islam, Art. Al-Shanfara, (٥)

اللامية حتى تُولِّفَ فيها تلك الشروح الكثيرة المتعددة^(١) ، وحتى يحرص الغرييون على ترجمتها إلى لغاتهم^(٢) ؟

الذى يبدو لى أن سر إقبال الشراح العرب عليها هو أنهم وجلوا فيها مادة لغوية طيبة ، ثم أخذت المسألة تصبح لوناً من التقليد والتنافس بين الشراح ، أما الغرييون فقد وجلوا فيها صورة متقنة لحياة الأعراب فى الجزيرة العربية ، فكان اهتمامهم بها لغرض اجتماعى ، كما كان اهتمام العرب بها لغرض لغوى .

والحق يقال إن خلفاً قد صور حياة صعايلك العرب فى هذه اللامية تصويراً رائعاً ممتازاً ، حتى ليصح أن تكون مصدراً من مصادر دراسة حياتهم الاجتماعية . والأمر الذى لاشك فيه هو أن خلفاً قد تمثل أولاً حياة صعايلك العرب وخصائص شعرهم الفنية ، ثم مضى يصور هذه الحياة وهذا الفن فى قصيدة رائعة ، حاول ما استطاع أن يجعلها صورة صادقة لما عرّفَ عن شعرهم وأخبارهم ، حتى ليصح أن نطلق عليها لا « لامية العرب » وإنما « لامية الصعايلك » أو « دنيا صعايلك » .

(١) انظر فهرس دار الكتب المصرية فى شروح هذه اللامية التى تبلغ أكثر من عشرين شرحاً .

(٢) انظر The Ency. of Islam, art. Al-Shanfara.

الفصل الثاني

موضوعات شعر الصعاليك

١ - الشعر داخل دائرة الصعلكة

أحاديث المغامرات :

من الطبيعي - ما دامت حياة صعاليك العرب قد اتخذت شعارها « الغزو والإغارة للسلب والنهب » - أن يكون أكبر ما يعنى به شعراؤهم أحاديث مغامراتهم ، لأن هذه المغامرات هي « الحرفة » التي قامت عليها حياتهم ، والأسلوب الذي انتهجوه فيها لتحقيق غاياتهم . وهم يتحدثون عن هذه المغامرات حديث المؤمن بقيمتها في حياته ، المعجب بها ، الفخور ببطولته فيها ، أو بمقدرته على النجاة من أخطارها وقد ضاقت في وجهه سبل النجاة .

وهم يصفون كل ما يحدث في هذه المغامرات ، منذ أن تأخذ جماعة الصعاليك في وضع خططها ، إلى أن تنتهى الغارة ، ويعود فتيان الصعاليك بأسلابهم بعد أن نفلوا خططهم ، وحققوا أهدافهم ، وهم يصفون ، في أثناء ذلك ، الطريق الذي سلكوه ، ويتحدثون عن رفاق الغارة ، ودور كل واحد فيها ، وكيف نفلوا خططهم ، وكيف كانت آثارها في أعدائهم ، وكيف انتهت الغارة وعاد فتيان الصعاليك إلى قواعدهم سالمين بعد أن قتلوا وسلبوا ونهبوا .

فهذا الشنفرى يخرج في عِدَّة من فَنَهم^(١) فيهم عامر بن الأخنس وتأبط شرا والمسيب وعمرو بن براقة ومرة بن خليف يقصدون العوص ، وهم حتى من بجيلة ، فلما انتهوا من الغارة ، وأخذوا طريق العودة ، اعترضت لهم خنم ،

(١) الأغاني ١٨/٢١٥ ، ٢١٦ ، وديوان الشنفرى في الطرائف الأدبية / ٣٢ .

ودارت بينهم معركة انتهت بانتصار الصعاليك ، فإذا ما انتهت المعركة فرغ الشنفرى إلى فنه يحدثنا عنها حديثاً رائعاً فيه دقة وتفصيل ، يبدأ منذ أن أعلن امرأته أنه خارج لها ، غير مبال بحياته أو حريص عليها ، وفيه المبالاة أو الحرص وهو يعلم أن أجله لا بد آت في يوم من الأيام :

دعيني وقولي بعد ما شئت إننى سيغدى بنعشى مرة فأغيب وهو لا يطيل في هذا الحديث لأنه في لطفة إلى أن يدرك رفاقه ، والموقف لا يحتمل ريثاً ولا إبطاء ، فليترك امرأته بعد هذا القول الفاصل «دعيني وقولي بعد ما شئت» ، وبعد هذا الحجة القاطعة «إننى سيغدى بنعشى مرة فأغيب» ، وليسرع إلى رفاقه في لطفة شديدة ، يمثلها انتقاله السريع من هذا الحديث إلى حديثه عن خروجهم في مغامرته . وهو يذكر لنا أنهم كانوا ثمانية ، وأنهم خرجوا جميعاً مسرعين ، لم يعهلوا إلى أحد بالقيام على شئونهم ، ولم يؤصوا أحداً بأهلهم ، وهم جميعاً فتيان كأنهم الذئاب ، وجوههم مشرقة لا تبدو عليها مظاهر جزع أو خوف :

خرَجنا فلم نعهد وقلت وصاتنا ثمانية ما بعدها متعَب سراحين فتيان كأن وجوههم مصابيح أو لون من الماء مذهب^(١) ثم هاهم أولاء في طريقهم إلى هدفهم مسرعين ، لا يرجون على شيء حتى على الماء ، على شدة حاجتهم إليه ، وعلى علمهم أن الزاد ظن مغيب ، ثم هاهم أولاء بعد ثلاثة أيام على أقدامهم يصلون إلى هدفهم يتقدمهم دليل خفيف فارح شجاع :

نمر برهو الماء صفحاً وقد طوت ثمانتنا ، والزاد ظن مغيب ثلاثاً على الأقدام حتى سماً بنا على العوص شعثاع من القوم محرب^(٢)

(١) الذى هنا رواية الأغاني ، وفي الديوان « مستعَب » مكان « متعَب » . والسراحين : الذئاب .

(٢) الرهو : مستنقع الماء . الثمانى جمع ثمانية وهى سقاء الماء . الشعثاع : الطويل الخفيف . المحرب : الشديد الحرب الشجاع .

ثم يصور المعركة التي دارت قبيل الفجر ، في ظلام الهزيع الأخير من الليل ، وقد تنبه لهم الحى الذى بهاجمونه ، فعلت صيحاتهم ، واختلطت بصيحات الصعاليك . ودارت المعركة وقام كل من الصعاليك بدوره فيها فى بطولة وشجاعة : أما تأبط شرا فقد بدأ هجومه السريع بسيفه الذى يهتر فى يده لسرعة ضرباته ، وأما المسيب فقد أعمل فيهم سيفه فى تصميم لا يلين ، وأما الشنفرى فقد وقف للدفاع هو وجماعة من فتيان الصعاليك ، وثبتوا فى موقفهم ، حتى انجلت المعركة عن انتصار الصعاليك بعد أن قتلوا جماعة من أعدائهم وسلبوهم ، أما سائرهم - على كثرتهم - فقد انتابهم فرع شديد ، حتى خيل إليهم أن كل مرتفع من الأرض يصب عليهم كل الصعاليك الثمانية :

فثاروا إلينا فى السواد فهججهجوا وصوت فينا بالصباح المثوب
فشن عليهم هزة السيف ثابت وصمم فيهم بالحسام المسيب
وظلت بفتيان معى أتقيهم بن قليلا ساعة ثم خيَّبوا
وقد خر منهم راجلان وفارس كمي صرعناه ونخوم مسلَّب
يشن إليه كل ريع وقلعة ثمانية ، والقوم رَجُلٌ ومقنَّب^(١)

وهنا ، وقد انتهى الشاعر من تصوير هذه الغارة الناجحة ، لم يعد أمامه هو وأصحابه إلا أن يسرعوا عائدين إلى قواعدهم سالمين ، ليحدثوا قومهم الصعاليك فى فخر واعتزاز بما قاموا به من بطولة :

فلما رأنا قومنا قبل أفلحوا فقلنا اسألوا عن قائل لا يكذب
وهذا السليك يخرج مع رفيقين له يريدون الغارة « فى عشية فيها ضباب ومطر » ، حتى يأتوا بيتاً « قد انفرد من البيوت » ، ويأبى السليك إلا أن يكون بطل هذه الغارة ، فيخلف صاحبيه وراءه ، ويتربص هو بمفرده ، حتى

(١) هججهجوا : صاحوا . المثوب : الداعي المكرر الدعاء . النخوم : الثقل . الريع : المرتفع من الأرض . الرجل : الجماعة على أرجلهم . المقنَّب : الجماعة على الخيل - وقد خالفنا الأستاذ الميمنى فى شرحه البيت الأخير (انظر الطرائف الأدبية / ٣٢) .

إذا خرج رب البيت بإبله ليعشيها تبعه السليك ، حتى إذا ما أخذت الشيخ سنة* من النوم وقد غطى وجهه بثوبه من البرد حانت الفرصة للسليك ، فاستله من رذائه فضربه فأطار رأسه ، وصاح بالإبل فطردها إلى حيث ينتظره صاحبه ، فطردها معها^(١) ، حتى إذا ما اطمأنوا فرغ السليك لفنه مسجلا هذه المغامرة في هذه المقطوعة الرائعة :

وعاشية راحت بطاناً دَعَرَتْهَا بسوط. قتيل ووسطها يتسيف^(٢)
 كأن عليه لون برد محبر إذا ما أتاه صارم يتلهف^(٣)
 فبات له أهل خلا فشاؤهم ومرت بهم طير فلم يتعيفوا^(٤)
 وباتوا يظنون الظنون ، وصحبتي إذا ما علوا نشزا أهلوا وأوجفوا^(٥)
 وما نلتها حتى تصعلكت حقة وكدت لأسباب المنية أعرف^(٦)
 وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرنى إذا قمت تغشاني ظلال فأسدِف^(٧)

فالشاعر الصعلوك هنا يبدأ مقطوعته من حيث انتهت مهمته الخطرة ، فهو لا يذكر شيئا عن خروجه للغارة ولا عن تربصه لها ، وإنما يبدأ بذكر طرده الإبل بعد أن قتل صاحبها ، كأنما هو فرح بتلك الغنيمة التي أنقذته من الجوع والإشراف على الهلاك ، فهو لا يرى إلا تلك الإبل التي نهبا ، ثم ينتقل إلى موازنة طريفة بين طرفي الصراع : بين أصحابه الصعاليك وأهل ذلك الشيخ القتيل ، أما هؤلاء فقد خلا فشاؤهم من إبلهم ، ولكنهم مطمئنون حتى إنهم لم يتعيفوا الطير التي مرت بهم ، لأن خبر الغارة لما يبلغهم بعد ، وأما أولئك

- (١) الأغاني ١٨/١٣٤ ، ١٣٥ ، والميداني : مجمع الأمثال ١/٣٩٩ .
 (٢) هذه رواية الأغاني ، وفي مجمع الأمثال « وعاشية روح بطان » ، و « بصوت قتيل » .
 والعاشية : الإبل ترمي ليلا . ويتسيف : يضرب بالسيف .
 (٣) هذه رواية الأغاني ، وفي مجمع الأمثال « صارخ » مكان « صارم » ، وفيه أيضا « متلهف » . ويريد بقوله « لون برد محبر » طرائق الدم على القتيل .
 (٤) هذه رواية الأغاني ، وفي مجمع الأمثال « لها » مكان « له » .
 (٥) كذا في المصدرين . النشز : المكان المرتفع . أهل : صاح ورفع صوته . أوجفوا : حملوا الإبل على الوجيف وهو ضرب من السير .
 (٦) كذا في المصدرين .
 (٧) هذه رواية الأغاني ، وفي مجمع الأمثال « يقشاني » . أسدِف أى أظلم بصره من شدة الجوع .

فقد نجوا بتغنيهم فوق طريق جبلى وعمر ، وهم يصيحون صيحة الفرح والفوز ،
ويحثون الإبل المنهوبة على الإسراع بينما أهل الشيخ يفكرون أين استقر به
ويأبله المقام ؟ وماذا أخره حتى تلك الساعة من الليل ؟ وفي هذه الغمرة من
الفرح لا ينسى السليك أن يبرر غارته ، فهو لم يقدم عليها إلا بعد أن أصبحت
المسألة مسألة حياة أو موت ، فقد أشرف على الهلاك لشدة فقره وجوعه ، حتى
ليصيبه الدُّوار كلما قام لفرط ضعفه وإعيائه ، وتظلم عيناه لشدة هزاله وإجهاده .
وهذا تأبط شرا يحدثنا في مقطوعة له ^(١) عن مغامرة طريفة من مغامراته ،
خرج فيها إلى غار في بلاد هذيل ، أعدائه الألداء ، ليشتر عسلا ، وعلمت
هذيل بنجره ، فوجدوا الفرصة سانحة ليتخلصوا منه ، فحاصروه في الغار
وطلبوا إليه التسليم ، ولكنه راح يراوغهم وقد أخذ « يسيل العسل على فم الغار ،
ثم عمد إلى زق فشده على صدره ، ثم لصق بالعسل ، ولم يزل يزلق حتى جاء
سليماً إلى أسفل الجبل ، فنهض وفاتهم » .

يبدأ الشاعر الصعلوك قصيدته بأبيات في الحكمة يودعها خلاصة تجربته
التي مر بها ، فالشخص الحازم هو الذى يستعين بالحيلة في مواطن الخطر ،
لينجو بها منه ، وهو الذى يعمل للأمر حساباً قبل أن يأخذه على غرة ،
وعلى المرء أن يكون مرناً في تصرفاته إذا ما سدت منافذ الأمر عليه :

إذا المرء لم يحتل وقد جدَّ جدّه أضاع وقاسى أمره وهو مدبّر
ولكن أخو الحزم الذى ليس نازلاً به الخطب إلا وهو للقصد مبصر
فذاك قريع الدهر ما عاش حول إذا سد منه منخر جاش منخر ^(٢)

(١) التبريزي : شرح حاسة أبي تمام ٣٨/١ وما بعدها ، والبندادى : خزائن الأدب
٣٥٧/٣ وما بعدها ، والميقي : شرح الشواهد الكبرى (على هامش الخزانة) ١٦٥/٢ - ١٧٠ ،
وفي الأغاني ٢١٥/١٨ مع اختلاف في ترتيب الأبيات عن سائر المصادر الأولى ، ومع انفراد
بزيادة بيت على آخر القصيدة ، وقد أثردا رواية المصادر الأولى لأنها أدق في التعبير عن نفسية
الشاعر .

(٢) قريع الدهر : يريد به المجرب البصير . وقوله : « إذا سد منه منخر » المراد به إذا
ضائق عليه الأمور ، وسدت المسالك .

فإذا ما انتهى الشاعر من هذا « الدرس النظري » انتقل إلى « التطبيق العملي » ، يبدأ به منذ أن تخرجت أموره حين محاصرتة لحيان^(١) ، وينقل لنا طرفاً من حوارهم ، ذلك الحوار الذي أراد أن يخدعهم به حتى يفرغ من إعداد وسيلة للنجاة :

أقول للحيان وقد صَفِرْتُ لهم وطابي ، ويومى ضيقُ الجُحْرِ مَعُورٍ^(٢)
 هما خطتا إما إِسَارٌ ومِنَّةٌ وإما دَمٌ ، والقتلُ بالحر أَجَلٌ
 وأخرى أَصَادَى النفس عنها وإنها لمُورِدُ حَزْمٍ إِن فعلتُ وَمُضَدَّرُ
 ولا يكاد الشاعر يفرغ من مُهَيَّاة وسيلة نجاته حتى يسارع إلى تنفيذها ، فإذا هو يفرش لها صدره في براعة تساعد عليها ضخامة صدره ودقة متنه ، حتى نجا من الموت الذي وقف ينظر إليه خزيان ، ثم إذا هو في قبيلته وقد عاد إليها بعد أن كاد يهلك :

فَرَشْتُ لها صَدْرِي فزَلَّ عن الصِّفا به جَوْجُوٌّ عَيْلٌ ومَتْنٌ مُخَصَّرٌ^(٣)
 فخالطَ سَهْلَ الأَرْضِ لم يكَدَحِ الصِّفا به كَدْحَةً ، والموتُ خَزِيَانٌ يَنْظُرُ
 فَأَبْتُ إلى فهمٍ ولم أَكْ آيِباً وَكَمْ مثلها فارقتها وهي تَصْفِرُ^(٤)
 شعر المراقب :

كما تحدث الشعراء الصعاليك عن مغامراتهم ، تحدثوا أيضاً عن تربصهم بأعدائهم ، وترصدهم لضحاياهم ، وارتقابهم الفرصة الملائمة لمهاجمتهم ، فوق المرتفعات العالية التي يشرفون منها على الطريق بحيث يرون الناس ولا يرونهم ، والتي كانوا يسمونها « المراقب » . وتكثر في شعر الصعاليك هذه الأحاديث

(١) لحيان : بطن من هذيل .

(٢) الوطاب : جمع وطب وهو سقاء اللبن . وصفرت : خلت . والمراد بقوله « صفرت لهم وطابي » أن نفسه أشرفت على الهلاك بسببهم . والمعور : الذي انكشفت عورته للعدو فهو مكشوف غير محصن . والمراد بقوله « ويومى ضيق الجحرمعور » أنه في مركز حرج ضيق المذاقة .

(٣) الصفا : الصخر . والجوجو : الصدر . والعيل : الضخم .

(٤) فهم : قبيلته . وقوله « وهي تصفر » المراد به أنها تلتقط في أمره ، وتكثر القول في شأنه ، أو المراد أنها تتأسف على إفلاته منها .

الى يصح أن نطلق عليها « شعر المراقب » .

والمرقبة التي يتربص فوقها الشاعر الصعلوك دائماً منيعة أبية على سواه ،
وأكثر ما يتحدثون عن تربصهم فوقها والليل مقبل يغشى الكون بدياجيه
الكثيفة ، ليكون هذا أمعن في التخفي ، وأقرب إلى موأاة الفرصة ، وأدل على
جرأتهم وقوة قلوبهم ، و « الليل أنتنى للويل » كما يقول العرب في أمثالهم (١) ،
و « الصعاليك نومهم قليل » كما يقول الشاعر الصعلوك عمرو بن براقة (٢) .

ويرسمُ الشنفرى في قصيدة من شعره لوحة رائعة لمرقبة منيعة عالية يعجز
دونها الصيادُ الماهر الخفيف الذي يخرج بكلايه المضراً للصيد ، ويصف
كيف صعدَ إليها وقد أقبل الليل بظلامه الحالك الشديد الذي يلف الكون ،
وكيف قضى الليل فوقها مربصاً ، مُخدباً على ذراعيه مبالغة في تخفيه كما
يتطوى الأفعوان المتكسر ، ولا شيء معه سوى نعلين باليتين ، وثياب أخلاق ،
ثم أصحابه الذين لا يفارقونه ، سيفه وقوسه وسهامه :

ومَرْقِبَةٌ عِيطَاءٌ يَقْصُرُ دُونَهَا أَخْوَالُ الضَّرْوَةِ الرَّجُلُ الْخَفِيفُ الْمَشْفَفُ
نَمِيتُ إِلَى أَعْلَى ذُرَاهَا وَقَدْ دَنَا مِنَ اللَّيْلِ مَلْتَفٍ الْحَدِيقَةِ أَسْدَفُ
فَبِتْ عَلَى حَدِّ الذَّرَاعَيْنِ مُخْدَباً كَمَا يَتَطَوَّى الْأَرْقُشُ الْمُتَقَصِّفُ
قَلِيلٌ جَهَازِي غَيْرَ نَعْلَيْنِ أَسْحَقَتْ صَدُورُهُمَا مَخْصُورَةٌ لَا تُخْصَفُ
وَمَلْحَفَةٌ دِرْسٌ وَجَرْدٌ مَلَاءَةٌ إِذَا أَنْجَمَتْ مِنْ جَانِبٍ لَا تَكْفَفُ (٣)

(١) الميداني : مجمع الأمثال ١٢٠/٢ .

(٢) الأغاني ١٧٥/٢١ .

(٣) الأغاني ١٤٠/٢١ ، ١٤١ . وديوانه في الطرائف الأدبية ٣٧ . وديوانه المصور
لوحة رقم ٥٠ . ورواية الأبيات في المصدرين الآخرين مضطربة يكثر فيها التحريف ، ولذا آردنا
رواية الأغاني - العيطاء : العالية المرتفعة ، أو الأبية الممتنعة . أخو الضروة : الصياد معه كلاب
ضراها للصيد . الرجل بسكون الجيم وفتح الراء كالرجل بضمهما . المشفف : التحيل . الأسدف :
المظلم . مخدباً : من أحطب إذا انحى . أسحقت : بليت . الملحفة : ما يلبس فوق الثياب من دثار
البرد ونحوه . الدرس بكسر الدال : الثوب الخلق ، ومثله الجرد بفتح الجيم . أنجمت : ظهرت وطلعت .
كف الثوب : خاط حاشيته .

فلذا ما قتل الشنفرى ، ووقف تأبط شرا يرثيه ، لم ينس تلك المراقب
 السماء الى طالما رُبضَ فوقها فى انتظار فرائسه ، فرائس الغزو وفرائس الثأر :
 ومراقبة شماء أقعيت فوقها ليغنمَ غاز أو ليدركَ ثائر^(١)
 وأما عند تأبط شرا فالمرقبة ذات صورة طريفة ، إنها مرقبة تعلو سائر
 المراقب ، وهى - إلى جانب هذا - معقدة ذات تجاعيد كأنها عجوز شمطاء
 عليها ثياب بالية ، ولكنه - مع ذلك - ما إن ينتصف الليل حتى ينهض إليها
 ليبدأ فى تنفيذ خططه :

ومراقبة يا أم عمرو طميرة مذبذبة فوق المراقب عيطل
 نهضت إليها من جشوم كأنها عجوز عليها هدميل ذات خيعل^(٢)
 وأما ذو الكلب فالمرقبة التى يتربص فوقها بعيدة واسعة عالية ملساء ،
 وهو متربص فوق حرقها طول يومه يحنى شخصه ، حتى إذا حانت الفرصة
 تحلر فوقها وهو ما يزال متخفياً كما يتحلر الماء الصافى :

ومراقبة يحار الطرف فيها تزل الطير مشرفة القذال
 أقمت بريدها يوماً طويلاً ولم أشرف بها مثل الخيال
 ولم يشخص بها شرفى ولكن دنوت تحدر الماء الزلال^(٣)
 وأما أبو خراش فالصورة التى يرسمها لمرقبته أشمل وأكثر تفصيلاً ،
 فهى مرقبة فى تنوء مشرف من الجبل كأنه حد الفأس ، يشرف على طريق
 ضيق كأنه النفق ، يتسرب فيه الناس بعضهم فى إثر بعض ، وقد أقيم فوق
 هذا التنوء عرش يستظل المتربص تحته ويختبئ فيه ، ولكن هذا العرش قديم
 مهلم لم يبق منه إلا عودان أحدهما قائم والآخر ملقى على الأرض :

(١) ديوان الشنفرى فى الطرائف الأدبية / ٢٨ .

(٢) لسان العرب ، مادة (همل) ، ومادة (جثم) . ويرى البيت الثانى أيضاً فى أمالى
 القتلى ٢٨/١ - الطميرة : المرتفعة . العيطل : الطويلة . الهدمل : الثوب الخلق . الخيعل : ثوب
 من ثياب النساء كالقميص ، أو هو قميص لا كين له .

(٣) شرح أشعار الهذليين ١/ ٢٢٧ - القذال : الرأس ، يريد به رأس المرقبة . الريد :
 الحرف ينذر من الجبل ، ومعنى البيت الثانى أنه أقام بها متكياً ولم يقم مشرفاً .

لستُ لمرةً إنْ لم أوفِ مرقبةً يبدو لي الحَرْفُ منها والمقاصيبُ
 في ذات رَيْدٍ كذَلَّتْ الفأسُ مُشرفةً طريقها سَرَبٌ بالناسِ دُعيوبُ
 لم يبقَ من عرشها إلا دعامتها جذلان : منهدمٌ منها ومنصوبٌ^(١)
 ولكن أبا خراشٍ يختلف هنا عن زولائه شعراء المراقب ، فهو لم يكن
 وحيداً فوق مرقبته ، وإنما كان معه صاحب له ، وهو معنيٌ بصاحبه
 أكثر من عنايته بنفسه ، فهو صاحبٌ حذر قوى النفس لم يرضَ لها أن يكون
 عبداً راعياً ، وإنما آثر أن يكون صعلوكاً عاملاً ، يتربص فوق المراقب في
 سواد الليل ، رافضاً تلك الراحة البغيضة التي ينعم بها الضعفاء الذين لا خير
 فيهم ، ممن يؤثرون النوم والدفع على العمل والكفاح :

بصاحب لا تُنالُ الدهر غِرَّتُهُ إذا افتلى الهدفَ القِنَّ المَعاذِبُ
 بعثته بسواد الليل يرقبني إذ آثر النومَ والدفعَ المناجيبُ^(٢)
 ويمضي أبو خراش بعد ذلك مضيفاً إلى صورة صاحبه خطين آخرين ،
 فهو قائم فوق هذه المرقبة كأنه السهم ، ثم هو سَمَحَ النفس على نحافته وقلة لحمه :
 يظل في رأسها كأنه زَلَمٌ من القداح به ضَرْسٌ وتعقيبُ
 سَمَحَ من القوم عريانُ أشاجعه خَفَّ النواشرُ منه والظنابيبُ^(٣)

(١) ديوان الهذليين ٢/ ١٥٩ ، ١٦٠ - أوفى : أشرف . الحرف من الجبل : أعلاه المحدد ،
 وقد رجحنا من قبل أنها هنا تحريف صوابه « الحرث » بمعنى النبات ، بدليل « المقاصيب » التي تأتي
 بعدها ، وهي الأرض تنبت النبات الرطب . ذلق الفأس : حدها . السرب : الشائع الذي يتسرب
 فيه الناس بعضهم في إثر بعض . الدعيوب : الموطوء . الجذل : العود .

(٢) ديوان الهذليين ٢/ ١٦٠ - افتلى الهدف أي فلاه من أهله ، أي عزله وفصله . الهدف :
 الثقليل الوخم من الرجال . القن : الذي أبوه عبد وأمه أمة . المعازيب : الإبل والشاة التي تعرب عن
 أهلها في المرعى . يريد بصاحب ليس براع تبعده إبله وشاؤه عن أهله . المناجيب : الضعفاء الذين
 لا خير فيهم .

(٣) المصدر السابق / ١٦١ - الزلم بفتح الزاي وضمها : القدح لا ريش عليه . الضرس :
 تأثير العض . عريان أشاجعه يعني ليس بكثير اللحم . النواشر : عصب ظهر الكف . الظنابيب :
 عظام الساق أو حرفها .

وأما صخر الغي—وإن لم يرد فيما بين أيدينا من شعره حديثٌ عن المراقب—
فإن حديثها قد وردَ عنه في رثاء شاعر هذلي له هو أبو المثلث، حيث يصفه بأنه
« رِبَاء مَرْقَبَةٌ » (١) .

وأما عروة فصفة الزعامة لا تفارقه ، فهو لا يقف ربيئاً لأصحابه ، وإنما
يبعث أحدهم ليرقبَ لهم الطريق فوق المرتفعات ، وهو يرسم في بعض شعره
صورة لهذا الرقباء ، وقد وقف فوق مرقبة ثابتاً لا يتحرك كأنما غرس فوقها ،
ولكن عينيه لا تستقران ، فهو يقلبهما دائماً في الفضاء الذي يحيط بهن ، حيث
أناخوا إبلهم ، وأوقدوا مواقدنهم يهيتون لأنفسهم طعاماً :

إذا ما هبطنا منهلاً في مخوفة بعثنا ربيئاً في المرائي كالجدل
يقلّب في الأرض الفضاء بطرفه وهن مناخات ومرجلنا يغلي (٢)
التوعد والتهديد :

كما تحدث الشعراء الصعاليك عن التربص والترصد تحدثوا عن التوعد
والتهديد ، حتى يجمعوا بين ركني الجريمة القانونيين : التربص وسبق الإصرار !
وأكثر من يتوعدنهم الشنفرى بنو سلامان ، أولئك الذين أشربت نفسه
بغضهم ، والذين كانوا السبب المباشر لتصعلكه ، والذين عاهد نفسه ليقتلن
منهم مائة بما اعتبلوه (٣) . وهو يتوعدنهم في شعره توعداً عنيفاً ، فيعلن لهم أنه
— ما لم يحل الموتُ بينه وبينهم — لن يكف عن غزوهم ، فالمسألة عنده مفروغ
منها ، وكل ما يرجوه أن يمد الله في أجله حتى يشنى غليله منهم حين يلاقينهم في
عقر دارهم :

فإلاً تزرّني حتفتي أو نلاقني أمش بدهور أو عداًف بتورا
أمشي بأطراف الحمّاط ، وتارة ينفضّ رجلى بشبّطاً فعصنصراً
أبغى بني صعب بن مُسرّ بدارهم وسوف ألاقينهم إن الله أخراً

(١) شرح أشعار الهذليين ١/ ٣٤ .

(٢) ديوانه / ١١١ ، ١١٢ — الجدل هنا جلع الشجرة .

(٣) انظر الأغاني ٢١/ ١٣٤ .

ويوماً بذات الرُّسَّ أو بطن منجَلٍ هنالك نَبَغِي القاصِي المتغَوِّراً^(١)
وهو إذا كان يتأخر عن غزوهم أحياناً فليس هنا دليلاً على أنه قد كف
عنهم ، وإنما هو يمهّلهم إلى حين ، وهو واثق من قوته على غزوهم ، فهو
يعرفهم وهم يعرفونه ، وأحب شيء إليه أن يغير عليهم ، وأن يقطع الطريق على
سادتهم ، وهو الخبير بطرق الصحراء ومسالكها ، القدير على الاهتداء في مجاهلها :
كَأَنَّ قَدْ ، فَلَا يَغْرُزُكَ مَنِي تَمْكُثِي ، سَلَكْتُ طَرِيقاً بَيْنَ يَرْبِغَ فَالسَّرْدِ
وَإِنِّي زَعِيمٌ أَنْ أَلْفَ عَجَاجَتِي عَلَى ذِي كَسَاءٍ مِنْ سَلَامَانَ أَوْ بَرْدِ
وَأَمْشِي لَدَى الْعَصْدَاءِ أَبْغَى سَرَائِهِمْ وَأَسْلُكُ خَلّاً بَيْنَ أَرْقَاعَ وَالسَّرْدِ
هَمُّ عَرَفُونِي نَاشِئاً ذَا مَخِيلَةٍ أَمْشِي خِلَالَ الدَّارِ كَالْأَسَدِ الْوَرْدِ
كَأَنِّي إِذَا لَمْ أَمْسِ فِي دَارِ خَالِدٍ بَتِيَاءَ لَا أَهْدِي سَبِيلًا وَلَا أَهْدِي^(٢)
أما عمرو ذو الكلب فيعلن أعداءه بأن الصراع بينه وبينهم سيكون مريباً
لا رحمة فيه ، الويلُ فيه للمغلوب ، وينذرهم بأنه لن يرحمهم إذا ظفروا بهم ،
كما أنه لا يريد منهم رحمة إذا هم ظفروا به ، فليكن الصراع بينه وبينهم عنيفاً ،
وليفزهم برفاقه الصعاليك الشجعان الذين يختلف عددهم بين الواحد والجماعة ،
وهو — فوق ذلك كله — يتوعدهم بأنه لن يكف عن غزوهم حتى يقتلهم ويرمل
نساءهم :

فَإِنْ أَتَقِفْتُمُونِي فَاقْتُلُونِي وَإِنْ أَتَقَفْتُ فَسَوْفَ تَرَوْنَ بَالِي
فَأُبْرِحُ غَازِيًا أَهْدِي رَعِيلًا أَوْ مَسَاوِدَ طُودِ ذِي نِجَالِ
وَيُبْرِحُ وَاحِدٌ وَاثْنَانِ صَحْبِي وَيَوْمًا فِي أَضَامِيمِ الرِّجَالِ

(١) ديوانه في الطرائف الأدبية / ٣٥ ، ٣٦ . والأغاني ١٣٥/٢١ . وديوانه المصور ،
لوحه رقم ١٠ ، ١١ . مع اختلاف في الألفاظ والترتيب — دهم أو وهو ، وعداف ، وبنور ،
وبسيط ، وعصنصر : أسماء جبال ، الحياط : شجر يشبه شجر التين . بنو صعب بن مرهم إخوة
سلامان . ذات الرُّس وبطن منجل : موضعان .

(٢) ديوانه في الطرائف الأدبية / ٣٤ . والأغاني ١٣٥/٢١ . والبيكري : معجم ما استعجم
١٢٩/١ . يربغ : موضع بين عمان والبحرين . السرد وأرقاع : جبلان لبني سلامان ، وهما
منازلهم . العصداء : أرض لبني سلامان . الخل : الطريق ينغذ في الرمل ، أو الناقذ بين رملتين ،
أو الناقذ في الرمل المتراكم .

بفتيان عمارط. من هذيل هم ينفون أناس الحلال
وأبرح في طوال الدهر حتى أقيم نساء بجلة بالنعال^(١)
وأما تأبط شرا فقد كان أوسع ميداناً من ذى الكلب ، فإنه لا يقنع بغير
غزو خشم وبجيلة وثمالة وهذيل ، وهو يرد الفضل في هذا كله إلى قدميه اللتين
أودع الله فيهما عذاباً وشراً يصيبهما عليهما :

أرى قدمي وقعهما خفيف كتحليل الظلم حذا رثالة
أرى بهما عذاباً كل يوم لخشم أو بجيلة أو ثمالة
وشراً كان صب على هذيل إذا علق حبالهم حباله^(٢)
وهو لا يترك دم صديقه دون أن يثار له ، وإنما يهدد بالانتقام الشنيع ،
يقتل فيه الرجال ، ويسبي النساء ، فأكبر همه كما يقول « دم الثار أو يلقي
كياً مسفحاً »^(٣) ، غاية ما في الأمر أنه يحترم تقاليد مجتمعه الدينية ، فيؤخر
انتقامه حتى تنهى الأشهر الحرم :

لعدوا شهور الحرم ثم تعرفوا قتيل أناس أو فتاة تعانق^(٤)
وهو في هذا الاحترام لمقلصات مجتمعه يخالف تلميذه الشنفرى الذى
يصرح في بعض شعره بأنه قتل قتيلاً في أيام حجه وسط الحجيج المصوت بمنى :
قتلنا قتيلاً مهدياً بمليسد جمار منى وسط الحجيج المصوت^(٥)

(١) شرح أشعار الهذليين ١/ ٢٢٢ ، ٢٢٤ - أثقفه : ظفر به . الرمال في البيت الأول
معناه الحال . قوله « فأبرح غازياً » يريد به فلا أبرح . الرغيل : الجماعة المتقدمة . النجال :
ما يخرج من الأرض . الأصاميم : الجماعات ، واحدها إصامة . العمارط : الصعاليك . الحلال :
جمع حلة ، والمعنى أنهم يمرون بأصحابها فيهربون من خوفهم . بجلة : قبيلة .

(٢) الأغاني ١٨/ ٢١٨ ، وأيضاً ٢١٦ - التحليل : العدو . الرمال : جمع رال وهو
ولد النعام . حذا : حاذى .

(٣) حجة ابن تمام ١/ ٤٦ . والأغاني ١٨/ ٢١٧ وفيه « مقنما » مكان « مسفحاً » .

(٤) الأغاني ١٨/ ٢١٤ . الحرم : الإحرام . ويريد بقوله « فتاة تعانق » سبية تقع في
أسره .

(٥) المفضليات / ٢٠٥ . والأغاني ٢١/ ١٤٠ وفيه « محلهما بين الحجيج » . وأيضاً / ١٣٧ =

الشعراء الصعاليك

ومن أطرف ما تصادفه في هذا الباب تواعد الصعلوك للصعلوك ، وتأتي طرافته من أنه يمثل صراعاً بين قوتين متكافئتين ، ومن هنا كان حرص كل منهما على تجنب الاصطدام بالآخر من أنحص ميزات هذا اللون من التواعد ، ولكن هذا الحرص ليس جيناً ، وإنما هو محاولة لتفادي الكارثة ، ولهذا كان حديث الشاعر الصعلوك عن حرصه هذا مقروناً عادةً بحديثه عن قوته ، ومقابلة على التغلب على خصمه إذ أن أي ضعف يبدو منه في هذا الحديث قد يكون سبباً في أن يدفع حياته ثمناً له ، ولهذا كله كان تواعد الصعلوك للصعلوك في شعر الصعاليك قليلاً جداً ، ولعل أصدق مثال لهذه « الحرب الباردة » بين الشعراء الصعاليك تواعد صخر الغي الهذلي لتأبط شراً ، أو ابن ترثني كما كان يلقبه ، فهو في قصيدة له يصفه أولاً بأنه يعاني صراعاً نفسياً ، مسببه حقدته عليه وعجزه عنه ، ثم ينصحه ثانياً بأن يخفف من حدة هذا الصراع النفسي ، ولكنه يحذره من أن يجعل وسيلته إلى ذلك الاصطدام به ، فإنه لو فعل لآتى حظه لا محالة ، ثم يعود فيخفف قليلاً من حدة أساوبه ، فيمزج العنف باللين في حديث فيه لباقة وفيه دهاء ، يجعل وسيلته إليه أن يشير إلى بعض الصفات المحمودة في خصمه ، ويسأله ألا يكون سبباً في الإساءة إليها :

فإن ابن ترثني إذا جثتكم	أراه يُدافعُ قولا عنيفا
قد أفي أنامله أزمه	فأمسى بعض على الوظيفة
فلا تقعدن على زخة	وتضمرن في القلب وجداً وخيفاً
ولا تُقمن على خطة	تكون إماماً لك حتماً ذفياً
ولا أبغينك بعد النهي	وبعد الكرامة شراً ظليفاً
ولا أرقعنك رقع الصدير	ح لاعم فيه الصناع الكسيفاً ^(١)

= وفيه « قتل حراماً » و « بطن من وسط الحجيج » ، وهي رواية البغدادى في خزنة الأدب ١٨/٢ - المهدي : الذي يقدم المهدي . والمليد : المحرم القوي يأخذ صمغاً فيلبس به شعرة لثلا يشعث في مدة الإحرام . والمعنى : قتلنا رجلاً محرماً برجل محرم . وقوله « جبار منى » أي عند جبار منى . والمصوت : الملقى الذي يرفع صوته والتدية في الحج .

(١) شرح أشعار المهديين ١/٤٦ ، ٤٧ - الأزم : الغرض . الوظيفة : الفراع . الزخة : =

وصف الأسلحة :

ومن الطبيعي أن يتحدث الشعراء الصعاليك عن أسلحتهم ، فهي القوة الثالثة التي يعتمدون عليها في مغامراتهم إلى جانب قوة قلوبهم وقوة أرجلهم ، تلك القوى الثلاث التي تقوم عليها حياة الصعلوك يجمعها تأبط شرا في رثائه للشنفرى حيث يقول :

فلا يبعدن الشنفرى ، وسلاحه الـ حديد ، وشد خطوه متواتر^(١)
والأسلحة التي يصفها الشعراء الصعاليك هي تلك التي كان يعرفها العرب في العصر الجاهلي ، سواء منها أسلحة الهجوم : السيف ، والرمح ، والقوس ، والسهام ، أو أسلحة الدفاع : الدرع ، والدرع ، والمغفر . ويلج الشعراء الصعاليك على الحديث عن هذه الأسلحة إلحاحاً شديداً ، وليس في هذا غرابة ، إذ أنها تكاد تكون كل ما يملكون في حياتهم الفقيرة ، وهي من غير استخدام لأفعال المقاربة كل ما يحرسون عليه في هذه الحياة الحمراء المتمردة . وفي أبيات لعروة يذكر أنه لن يخلف لورثته بعد موته سوى درع ومغفر وسيف ورمح وجواد^(٢) ، فهذا كل ما يحرس عليه في حياته ، وكل ما سيظل محافظاً عليه إلى آخر رمق منها حتى يرثه ورثته من بعده .

وبصرح صخر الغي في بعض شعره بأنه حريص على سلاحه لا يفرط فيه ، لئلا يطمع فيه أحد من أولئك الذين يتوعلونه ، ويتربصون به ، من أعدائه الذين طالما وترهم ، فهو يعدد سلاحه في قصيدة طويلة له ويصفه ، ثم يقول عنه :
ذلك بزى ، فلن أفرطه أخاف أن ينجزوا الذي وعلوا^(٣)
ويصل اعتداد الأعمى الهنلي بسلاحه إلى درجة أنه يرى فيه وسيلة تنقله من

الغيف : الخيف : جمع خيفة . الخنف الخفيف : القاتل الذي يجهز عليه . الظليف : الشديد أو الظليظ . وقعه : أصله بالرقاع كرقعه (بالشديد) . الصديق : النصف من الشيء المشقوق نصفين . لام . أصلح . الكنيف : الضبات ، يريد لا أرقمك بالمجاء .

(١) الأغاني ٢١/١٢٧ . وديوان الشنفرى في الطرائف الأدبية ٢٩/ - شد : الجرى .

(٢) انظر ديوانه ٢٠٧ .

(٣) شرح أشعار الهذليين ١٣/١ - والبز : السلاح .

دائرة البشرية إلى دائرة يكون فيها صنواً للموت :

متى ما تلقى ومعى سلاحى تلاق الموت ليس له عليل^(١)
ويصف الشعراء الصعاليك أسلحتهم المختلفة ووصف المفتون بها الذى يتم
بكل أجزائها ، ويحرص على أن يسجل فى حديثه عنها كل شىء فيها : لونها ،
وشكلها ، وصوتها ، وطريقة صنعها ، وطريقة استعمالها ، وقيمتها فى حياته ،
وفعلها فى أعدائه .

قال سيف عند عمرو بن براقة «جل ماله» لا يفارق يمينه ، بل هو طوع
أمرها ، ولكن لحمله تقاليد ، فصاحبه يجب أن لا ينام الليل ، إذ أن من تقاليد
حمله أن يكون صاحبه من «أبناء الليل» الذين يرعون حتى «أبوته» :

وكيف ينام الليل من جل ماله حسام كلون الملح أبيض صارم
غموض إذا عض الكربة لم يدع له طمعاً ، طوع اليمين ملازم^(٢)
وهو عنده أحد أركان ثلاثة يعتمد عليها من يريد أن تجتنبه المظالم فى ذلك
الجمع الذى يدين بشريعة القوة :

متى تجمع القلب الذكى وصارماً وأنفاً حميماً تجتنبك المظالم^(٣)
وهو عند عمرو ذى الكلب الهذلى وشاح لصدره :

تمنأى وأبيض مشرفياً وشاح الصدر أخلص بالصقال^(٤)
وصخر الفى الهذلى حريص على أن يرسم لسيفه صورة دقيقة ، فهو سيف
ماض من حديد جيد أصيل ، رقيق الشفرتين ، يجرى الفرند فى منته ، ثم هو
سيف متنى ، فلا عنه سيوف أريج حتى أخرجه من بينها سيفاً معلوم النظير ،
لا تقوى أشد العظام على ضربته ، وإنما تنكسر تحتها قطعاً :

وصارم أخلصت خشيته أبيض مهو فى منته ربد

(١) المصدر السابق / ٦٣ .

(٢) القائل : الأمل ٢/ ١٢٢ ، والأغانى ٢١/ ١٧٥ ، وفيه «صوت» مكان «غموض» ،

و «مكارم» مكان «ملازم» . والسيف التموض : الذى يفتب فى اللحم .

(٣) المصدران السابقان : الأمل الصفحة نفسها ، والأغانى / ١٧٦ .

(٤) شرح أشعار الهذليين ١/ ٢٣٥ .

فَلَوْتُ عَنْهُ سَيْوْفَ أَرْيَحَ إِذْ بَاءَ بِكَفَى وَلَمْ أَكِدْ أَجْدُ
 فَهُوَ حَسَامٌ تُتَرُّ ضَرْبَتُهُ سَاقِ الْمَذَكِيِّ فَعَظَمَهَا قَصْدُ^(١)
 أما تأبط شرا فيعرض علينا صورة طريفة لسيفه ، فهو - إلى جانب أنه
 حاد ثقيل لا يفارقه حتى أبلى محمله - سيف أصيل إذا كل لا يحتاج إلى
 صيقل ، وإنما حسبه أن يحده صاحبه على الصخر فإذا هو حاد كما كان :
 فطَارَ بِقَحْفِ ابْنَةِ الْجَنِّ ذُو سَفَاسِقٍ قَدْ أَخْلَقَ الْمُحْمَلَا
 إِذَا كُلُّ أَمْهِيتِهِ بِالْصِّفَا فَحَدَّ وَلَمْ أَرَهُ صَيْقِلًا^(٢)
 وأما الشنفرى فيهم بأثر سيفه في أعدائه ، وبالحدث عن براعته في استخدامه ،
 فهو يقصد به أطراف سواعدهم : ليعجزهم بذلك عن العمل :
 وَأَبْيَضُ مِنْ مَاءِ الْحَدِيدِ مَهْدٌ مِجْدُ لِأَطْرَافِ السَّوَادِ مِقْطَفُ^(٣)
 وهو حريص على أن يصور رفاقه ونفسه في غاراتهم وهم يستخدمون سيوفهم
 في الهجوم والدفاع حتى ينهزم أعدائهم :
 فَشَنُّ عَلَيْهِمْ هِزَّةَ السَّيْفِ ثَابِتٌ وَصَمَّ فِيهِمْ بِالْحَسَامِ الْمَسِيبُ
 وَظَلَّتْ بِفَتْيَانٍ مَعِيَ أَتَقِيهِمْ بَيْنَ قَلِيلَا سَاعَةٍ ثُمَّ خَيَّبُوا^(٤)
 ولا يعدل وصف السيف عند الشعراء الصعاليك إلا وصفهم القوس
 والسهم . وأكثر من اهتم بوصفها منهم الشنفرى والهلاليون . ويبدو أن مرد هذه
 الظاهرة الفنية إلى ظواهر اجتماعية خاصة في حياتهم ، فقد كان الشنفرى - كما
 يصوره الرواة مفتوناً بسهامه ، حريصاً على أن تكون معلمة يعرفها الناس ،

(١) المصدر السابق / ١٣ - خشيت : طبيعته . مهر : رفيق الشفرتين . ربد : أى لم
 تخالف لونه ، يريد القرنه . فلا : بحث . أريح : قرية بالشام . باء بكفى : أى صار بكفى .
 تر : تبرى . المذكى : الممن أو اليدى . القصد : الكسر ، أو القطع فيها مخ .

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ١٧٦ - سفاق السيف : طرائقه . أمهى السيف : أحده .

(٣) ديوانه في الطرائف الأدبية / ٣٨ . وديوانه المصور لوحة رقم ٥٠ . والأغاني ١٤١ / ٢١
 وفيه « فحد لأطراف السواعد معطف » . والتحرير فيه واضح .

(٤) الأغاني ١٨ / ٢١٦ ، وديوان الشنفرى في الطرائف الأدبية / ٣٢ - الضمير في « بن »
 يعود على السيوف المفهومة من السياق .

فكان يميزها بعلامة خاصة حتى تعرف ، ويحدثنا الرواة أنه كان « يصنع النبل ويجعل أفواقهم من القرون والعظام » ، فكان أعداؤه إذا رماهم « يعرفون نبله بأفواقها في قتالهم »^(١) ، وأما الهذليون فقد عرف عنهم الرمي من بين ثلاث صفات مميزة سجلها لهم القدماء^(٢) .

وهم يصفون السهام في جميع أطوارها ، منذ برئها ، وتركيب الريش فيها ، حتى استخدامها ، في الرمي ، كما يصفون نصالها وأفواقها . ويتحدث الشنفرى في بعض شعره عن سهامه وكيف يتخيرها ، وكيف يركب في قدامها الريش ، وكيف يتابع فيها البرئ حتى نصير صالحة للاستعمال ، ثم يتحدث عن قيمة هذه السهام التي أعطاها هدية لأعدائه الذين يغضهم :

وَرَدْتُ بِمَائِثٍ يَمَانٍ وَضَالَةٍ تخيرتها مما أريش وأرصفُ
أركبها في كل أحمر غائر وأنسج للولدان ما هو مقرِفُ
وتابعت فيه البرئ حتى تركته يرنُ إذا أنزفته ويزفُفُ
بكنى منها للبغض عراضةً إذا بعث خلأ ما له متعرفُ^(٣)

ويتحدث في مقطوعة أخرى عن رميه أحد أعدائه بسهم قوى لا عوج فيه ، ثم يصف أجزاء هذا السهم ، فهو عود من نج عليه ريش من ريش العقاب ، وله فوق كانه عروق القطاة :

ومستبسل ضاق القميص ضمته بأزرق لا نكس ولا منعوج

(١) الأغاني ١٤٢/٢١ - « أفواقهم » كذا في المصدر ، ومن الواضح أنه خطأ صوابه « أفواقها » . وأفواق جمع فوق وهو موضع الرمز من السهم .

(٢) يقول الأصمى : « إذا قاتك الهذلي أن يكون شاعراً أو ساعياً أو رامياً فلا خير فيه » . (المصدر السابق / ٥٧) .

(٣) ديوانه في الطرائف الأدبية / ٣٨ . والأغاني ١٤١/٢١ . وديوانه المصور ، لوحة رقم ٥١ . مع اختلاف في الروايات ، والتي هنا رواية المصدر الأول - المائثور : السيف . الضالة : يريد بها هذا السهم . الضرة : غيرة إلى خضرة . المقرِف : الداني . أنزفته : كذا في نسختي الديوان ، وأظنها تحريفاً صوابه ما في الأغاني « أنفذه » . الزفزة : صوت القمح حين يدار على النقر . المراضة : الهدية . الخلل : الطريق في الرمل .

عليه نُسارى على خوط. نبعة وفوق كعقوب القطاة مُدَحْرَج^(١)
وأما عمرو ذو الكلب فيعني بوصف نصال مهامه لأنها التي يكمن في
ستانها الموت ، فهي حيناً رماح طائرة يكسوها ريش منسول :

وَتُجْرَأُ كالرماح مسيرات كسين دَوَاخِلِ الريش النصال^(٢)
وهي حيناً آخر كأنها شوكة العضاه :

وفي قعر الكنانة مرهفات كأن ظلماتها شوكة السبال^(٣)
وهم يتحدثون أحياناً عن عددها ، فهذا الشفري يصف تأبط شرا أو
«أم العيال» كما كان يسميه مداعباً ، ويذكر عدد مهامه التي يحملها في
جعبته :

لها وَفْضَةٌ فيها ثلاثون مَيْحَفًا إذا آنست أولى العدى اقشعرت^(٤)
أما حين يذكرون القوس فأشد ما يهتمون به صوتها حين ينبضون فيها ،
أو حين يهينون للرى ، فهو صوت يفتنهم فتنة شديدة تلبو في ذلك الإلحاح
الشديد على تسجيله في شعرهم ، وليس في هذا غرابة فإن هذا الصوت ليدان
ببده عملهم الذي وهبوا حياتهم له . وصوت القوس في سمع صخر الغي عندما
ينبض فيها كأنه أصوات قوم يبحثون عن شيء قتلوه :

وَسَمَحَةٌ من قِيسٍ زَارَةٌ صفراء هتوف عِدَادُهَا غِرْدُ

(١) ديوانه الملبوع / ٣٤ . والأغاني ١٤١/٢١ . وديوانه المصور ، لوحة رقم ٥٢ .
مع اختلاف في رواية البيتين - الأزرق يريد به السهم . النكس : السهم ينكسر فوقه فيجلى أعلاه
أسفله . النسارى : ريش النسارية وهي العقاب ، ويذكر الميمى في تعليقاته على الديوان أنه لم يجددها
في المعاجم ، وقد ظن أنها من ريش النسر . المدحرج : المدور .

(٢) شرح أشعار المهذلين ١/٢٣٥ - الشجر : جمع أثجر وهو النصل العريض الوسط .
النصال : ما تساقط من الريش .

(٣) شرح أشعار المهذلين ١/٢٣٥ - السبال : نبات له شوكة أبيض طويل ، أو ما طال
من السمر .

(٤) المفضليات / ٣٠٤ . والأغاني ١٤٠/٢١ وفيه « سلجيا » و « إذا ما رأت » -
الوفضة : اللعبة . السيف : السهم العريض النصل . العدى : القوم من الرجال . اقشعرت :
تهيات للقتال .

كَأَنَّ إِرْنَانَهَا إِذَا رُدِمَتْ هَزْمٌ بُغَاةٌ فِي إِثْرِ مَا فَقَدُوا^(١)
ولكنه في سمع عمرو ذى الكلب عجيجٌ ، كأنه نحتين ناقة مسنة تسبقها
إبل شابة فتية ، فهي عاجزة عن مسايرتها وهي لهذا دائمة الحنين :

وَفِي الشَّامِ سَمْحَةٌ مِنَ النَّشْمِ صَفْرَاءُ مِنْ أَقْوَاسِ شَيْبَانَ الْقَدَمِ
تَعِجُ فِي الْكَفِّ إِذَا الرَّاىِ اعْتَزَمَ تَرَنَّمَ الشَّارِفِ فِي أُخْرَى النَّعَمِ^(٢)
وهو في سمع الشنفرى زنين وهتاف ، ولكنه زنين حزين كصوت الشجى
أثقلته شجونه وأحزانه :

وَصَفْرَاءُ مِنْ نَبْعِ أَبِي ظَهِيرَةٍ تُرْنُ كَارِنَانَ الشَّجَى وَهَتَفُ^(٣)
ولكن هذا الصوت الحزين الخافت ينقلب عندما تأخذ السهام في
الانطلاق إلى صوت نشط مدو كأنه دوى نحل عائد إلى غاره ، فهو ملتف
حوله مطيف به ، يبحث عن منفذ إلى داخله في نشاط ودوى :

إِذَا طَالَ فِيهَا النِّزْعُ تَأَبَّى بِعَجْسِهَا وَتَرَى بِذُرْوَيْهَا بَهَنَ فَتَقْدَفُ
كَأَنَّ حَفِيفَ النَّبْلِ مِنْ فَوْقِ عَجْسِهَا عَوَازِبُ نَحْلِ أَخْطَأَ الْغَارَ مُطْنِفُ^(٤)
والشنفرى لا يكتفى بهذا ، بل يأبى إلا أن يكون دقيقاً في وصفه ، فهو
يلاحظ أن للقوس عند الرمي صوتين : صوتاً عند بدء الرمي ، وصوتاً بعد الانتهاء
منه ، فانطلاق السهم يبدأ بصوت عال صارخ ، ثم ما إن ينطلق السهم حتى
يهدأ زنين القوس ، ويتحول إلى صوت ضعيف خافت نتيجة لاهتزازات وترها ،
فهما صوتان مختلفان ، أما أولهما فهو عنده صياح ، وأما الآخر فأنين كأنين الجريح :

(١) شرح أشعار الهذليين ١٣/١ . وديوان الهذليين ٦٠/٢ - السمحة : القوس المواتية .
زارة : حى من أزد السراة . عدادها : صوتها . غرد : شديد الصوت .
ردمت : أنبض فيها . الهزم : الصوت .

(٢) شرح أشعار الهذليين ٢٣٩/١ ، ٢٤٠ - النشم : شجر . الشارف : الناقة المسنة .
(٣) الأغاني ١٤١/٢١ . وديوانه المطبوع ٣٨/ . وديوانه المصور ، لوحة رقم ٥٠ ،
وفيها « وحمراء » بدلا من « وصفراء » - الظهيرة : القوة الظهر .

(٤) الأغاني ١٤١/٢١ . وديوانه المطبوع ٣٨/ . وديوانه المصور ، لوحة رقم ٥١ ،
مع اختلاف في الروايات - العجس ، مثلثة السين ، مقبض القوس . والنروان : طرفاها . والمطنف :
الذى يماو الطنف وهو رأس الجبل .

وقاربتُ من كفى ثم فرجتها بتزع إذا ما استكبره النزعُ مخلج
فصاحت بكفى صيحة راجعتُها أنينَ الأُميم ذي الجراح المشجج^(١)
وكما يهتم الشعراء الصعاليك بصوت القوس ، يهتمون أيضاً بلونها ، وهي عند
الهذليين في ضوء ما وصل إلينا من شعرهم صفراء دائماً :

وسمحة من قسي زارة صفراء هتوفُ عداها غرد^(٢)
وصفراء البراية عود نبع كوقف العاج في ورك حُدال^(٣)
وفي الشمال سمحة من النشم صفراء من أقواس شيبان القدم^(٤)
ولكنها عند الشنفرى أحياناً صفراء وأحياناً حمراء ، ويبدو أن مرد هذا إلى
دقة ملاحظة الشنفرى ، وصدق تعبيره عن تجاربه ، فالقوس تكون صفراء
في أول أمرها ، فإذا ما كثر استعمالها وتعرضت للشمس والمطر والتقلبات الجوية
صارت حمراء . يقول في ثائيته متحدثاً عن أصحابه في بعض غزواته بهم :

وباضعة حمسر القسي بعثتها ومن يغز يغم مرة ويشمت^(٥)
ويقول في قصيدة أخرى :

وصفراء من نبع أبي ظهيرة تُرنُ كلران الشجي وتهنف^(٦)
ومن هنا اختلف الرواة في هذا البيت ، فبعضهم يرويه « وحمراء من

(١) الأغاني ٢١/١٤١ ، ١٤٢ . وديوانه المطبوع ٢٤/ . وديوانه المصور ، لوحة
رقم ٥٢ ، مع اختلاف في الروايات - النزع : مد القوس . مخلج : من خلج بمعنى جذب وغمز
وانزع ، وفي نسخة الديوان « مخلج » من خلج النداف . الأُميم : المشجج على أم رأسه .
(٢) انظر ص ٢٠٠ من هذا البحث ، الهامش رقم ١ .
(٣) شرح أشعار الهذليين ١/ ٢٣٥ - الوقف : السوار . الورك : جانب القوس ، ويجرى
الوتر منها ، والقوس المصنوعة من ورك الشجرة أي عجزها . القوس الحُدال : التي مال عنقها ،
وتطامنحت إحدى سبيلتيها .

(٤) انظر ص ٢٠٠ من هذا البحث ، الهامش رقم ٢ .
(٥) المفضليات ٢٠٢ - الباضعة : القاطعة ، ويريد بها قوماً غزاة . حمسر القسي : يقول
ابن الأنباري في شرحه على المفضليات ٢٠٣ « غزوا مرة بعد مرة فاحمرت قسيهم للشمس والمطر ،
والقسي تحمر على القدم » . يشمت : يخيب ولا يغم .

(٦) انظر ص ٢٠٠ من هذا البحث ، الهامش رقم ٣ .

نبح^(١)، ولكن من الطريف أن تأبط شراً في رثائه له يصف نفسه بأنها صفراء:
يُفَرِّجُ عَنْهُ غُمَّةَ الرُّوعِ عِزْمَةً وَصَفْرَاءَ مَرْتَانٍ وَأَبْيَضُ بَاتِرٌ^(٢)
أما وصف الصعاليك للرماح فهو قليل ، ولعل السبب في هذا قلة اعتمادهم
عليها في معاركهم ، وذلك لأنها من الأسلحة التي يستعملها الفرسان أكثر
من استعمالها الرجال ، ومن هنا كان أشهر من تحدث عنها من الشعراء
الصعاليك عروة بن الورد وهو من الصعاليك الفرسان^(٣) ، وهو يرسم في رائيته
المشهورة صورة رائعة له ولأصحابه ، وهم على خيلهم يطاردون إبلًا نهبوا ، وقد
أشرعوا رماحهم وسيوفهم ليدفعوا عنها أصحابها الذين خرجوا خلفهم ليستردوها :
سَيْفِزِعُ بَعْدَ الْيَأْسِ مِنْ لَا يَخَافُنَا كَوَاسِعُ فِي أُخْرَى السَّوَامِ الْمَنْفَرِ
نَطَاعِنُ عَنْهَا أَوَّلَ الْقَوْمِ بِالْقَنَا وَبَيْضُ خَفَافِ ذَاتِ لَوْنٍ مَشْهُرٌ^(٤)
وهي صورة تستمد روحها من صدقها وحيويتها ، فهذه الخيل القوية السريعة
التي يمتطيها الفرسان الصعاليك مشغولة بمطاردة أخريات الإبل النهوية ،
أما فرسانها أنفسهم فمشغولون بمقاتلة طلائع القوات المهاجمة من أصحاب الإبل .
وقد مر بنا أن عروة ذكر رمح من بين الأسلحة التي هي كل ما سيخلفه لورثته
من بعده ، وهو يذكر أنه رمح أسمر ، قناته من الخطى المشهور ، ثم هو رمح
مقوم معتدل :
وَأَسْمَرُ خَطِيٌّ الْقَنَاةُ مَشَقْفٌ وَأَجْرُدُ عَرِيَانُ السَّرَاةِ طَوِيلٌ^(٥)
والطريف في حديث عروة عن رمح أنه لا يذكره إلا مقترناً بجواده ،
كما نرى في هذين المثلين ، مما يؤكد تعليلنا لقلة وصف الشعراء الصعاليك للرماح
بأنها من أسلحة الفرسان .

(١) انظر الموضع السابق ، الهامش نفسه .

(٢) ديوان الشنفرى المطبوع / ٢٨ . وحاشية الخالدين (مخطوطة) ، ورقة رقم ٤١٧ .

(٣) الأغاني ٧٣/٣ .

(٤) ديوانه / ٨٣ ، ٨٤ .

(٥) انظر ص ٥٤ من هذا البحث .

ومع ذلك نجد عند بعض الصعاليك السرويين آثاراً ضئيلة من أحاديث الرماح . يتحدث تأبط شرا ، في رثائه لصاحبين له قتلا في بعض غزوهما ، عن مغامراته بفتيان من الصعاليك يحملون في أيماهم نوعين من الأسلحة ، ماحاً سمرأ ونصالا ذات شعبتين :

لأَطْرَدُ نَهْياً أَوْ نَرُودَ بَفْتِيَةٍ بِأَيْمَانِهِمْ سَمَرَ الْقَنَا وَالْفَتَانِقُ^(١)
ويتحدث الشنفرى عن طعنه قتلة أبيه طعنة سامة تمج من حولها سم ثعبان خطر :

فَإِنْ تَطَعَنُوا الشَّيْخَ الَّذِي لَمْ تُفَوِّقُوا مَنِيَّتَهُ ، وَغَبْتُ إِذْ لَمْ أَشْهَدْ
فَطَعْنَةُ خَلَسَ مِنْكُمْ قَدْ تَرَكْنَاهَا تَمَجَّ عَلَى أَقْطَارِهَا سُمُّ أَسْوَدٍ^(٢)
ويتحدث أبو الطمحن عن ضرب يزيل الرعوس عن الأعناق ، وطعن شديد يحدث صوتاً كأنه تشهاق ولد الحمار حين يهم بالنهق :

بضرب يزيل الهام عن مسكناته وطعن كتشهاق العفا هم بالنهق^(٣)
وهي جميعاً - ما عدا بيت تأبط شرا - حديث عن آثار استخدام الرماح في الطعن ، وليست وصفاً صريحاً لها .

ومن الطريف أننا لا نجد حديثاً عن الرماح في شعر صعاليك هذيل ، ما عدا بيتاً واحداً لأبي خراش ، وهو مع ذلك ليس في مقام الحديث عن

(١) الأغاني ١٨/٢١٤ - النهب : الغنيمة . والفتيق : النمل له شعبتان .

(٢) ديوانه المطبوع ٣٥ . وشرح ابن الأنباري على المفضليات ١٩٨/ - لم تفوقوا : يرى الميمنى في تعليقاته على الديوان أنه تحريف « ولعل صوابه لم تفوتوا من الفوت » ، ويرى Bevan أن صوابه « لم تفوقوا » (انظر تعليقاته على هذا البيت في شرح المفضليات ١٩٨/) ، وعندى أن الكلمة صحيحة لا تحريف فيها ، وأنها من فوق الفصيل إذا سقاء اللين فواقاً فواقاً ، والفواق ما بين الحلبتين من الوقت ، والمفوق ما يؤخذ قليلاً قليلاً من مأكول ومشروب ، ويكون المعنى على هذا « أنكم طعنتموه طعنة قاتلة لم تدع له فرصة لنجاة » . والطعن خاص بالرماح (انظر الشمالي : فقه اللغة ٣٠١/) .

(٣) لسان العرب : مادة (شق) . والسيوطي : المزهر ٢/ ٢٣٤ ، وفيه « بضرب كآذان الفراء فضوله » - السكنة : مقر الرأس من العنق . التشهاق : الشيق . العفا : ولد الحمار .

استخدامه لها ، وإنما في مقام تشبيه إخوته الذين يرثيهم بها ^(١) .
وكما يتحدث الشعراء الصعاليك عن أسلحة الهجوم ، يتحدثون عن أسلحة
الدفاع : الدرع والبرص والمخفر ، ولكنه حديث خافت الأنغام . وهذا طبيعي
لأن الصعاليك ليسوا في حاجة إلى أسلحة للدفاع لأن سلاحهم الدفاعي الأول -
أو بتعبير أدق - سلاح أكثرهم سرعة العدو الخارقة للعادة ، وهو سلاح طالما
استخدموه فأنجاهم . ولهذا كان طبيعياً أن يتحدث عروة عن درعه ومخفره كما
نرى في أبياته التي أشرنا إليها والتي يتحدث فيها عما سيخلفه لورثته من بعده ،
فإن عروة كما نعرف عنه لم يكن من العدائين ، ومع ذلك لم يتحدث عن هذه
الأسلحة الدفاعية إلا في هذا الموضع ، إلا إذا كان شعر عروة الذي بين
أيدينا ليس كل شعره ، وكان في شعره المفقود حديث عن هذه الأسلحة
الدفاعية . ولكن الغريب حقاً أن يرد ذكر هذه الأسلحة الدفاعية في شعر
صعاليك هذيل ، ووجه الغرابة أن الهذليين مشهورون بالعدو ، فهم ليسوا
في حاجة إلى هذه الأسلحة الدفاعية لأن سلاحهم معهم دائماً . ومع ذلك فالمسألة
لا تصل إلى درجة المشكلة لأن حديث صعاليك هذيل عن هذه الأسلحة
لم يتجاوز حديثهم عن البرص فقط ، وهو مع هذا حديث خافت الأنغام
لا يعلو حائتين : إما إشارة سريعة له ، وإما وصفاً لصنعه ، فصخر الغي
يشير إلى ترسه ، عند ذكره لمجموعة أسلحته ، أو « بَرَزَه » كما يسميها ، إشارة
سريعة لا تتجاوز جزءاً من شطر يصفه فيه بأنه مقبب موثق :

إني سينهي عني وعيدهم بيض رهاب ومجنأ أجد ^(٢)

وقد يكون عمرو ذو الكلب أشد عناية بترسه من صخر الغي ، فهو يفرد
له بيتاً في إحدى قصائده يصفه فيه بخمس صفات : فهو أسمر ، مقبب ،
مصنوع من جلد ثور ، أصم لا خلل فيه ، نصيبه النصال فترتد عنه وقد
تكسرت ظلماتها :

(١) ديوان الهذليين ١٢٤/٢ (البيت الأول) .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١٣/١ - رهاب أي رفاق . مجنأ أي مقبب . أجد أي موثق .

وأَسْمَرَ مُجْنَأً من جلد ثور أَصَمُّ مَفْلَأَ ظُبَّةِ النَّصَالِ^(١)

أما أبو خراش ، ثالث الصعاليك الهذليين الذين وصفوا الترس ، فقد وصف
ترسه بأنه موثق ، مصنوع من جلد ثور ، ولكن وقفته طالت عند هذه الصفة
الثانية ، إذ مضى يصف هذا الثور ، وكيف نشأ في واد خصيب مطير ، حتى
شب قوياً يطعن الثيران المتصدية له ، فترتد دامية من طعناته ، ضخماً كأنه
خيمة كبيرة :

أَوَاقِدُ ، لَا آلُوكَ إِلَّا مَهْنَدًا وَجِلْدَ أَبِي عَجَلٍ وَثِيقَ الْقِبَائِلِ
غَذَاهُ مِنَ السَّرِينِ أَوْ بَطْنِ حَلْيَةٍ فَرُوعُ الْأَبَاءِ فِي عَمِيمِ السَّوَائِلِ
مِشَبُّ إِذَا الثَّيْرَانِ صَدَتْ طَرِيقُهُ تَصَدَّعْنَ عَنْهُ دَامِيَاتُ الشَّوَاكِلِ
يَظُلُّ عَلَى الْبَرْزِ الْيَفَاعُ كَأَنَّهُ طِرَافٌ رَمَتْ أَوْتَادُهُ عِنْدَ نَازِلِ^(٢)

وهكذا نستطيع أن نقرر ، في ضوء ما بين أيدينا من شعر الصعاليك ،
أنهم بقدر ما كانوا حريصين على ذكر أسلحة الهجوم ، مفتونين بوصفها ،
كانوا نفورين من ذكر أسلحة الدفاع ، مقلين من وصفها .

الحديث عن الرفاق :

كما يتحدث الشعراء الصعاليك عن أسلحتهم التي يستخدمونها في مغامراتهم ،
يتحدثون عن رفاقهم الذين يرافقونهم فيها ، ودور كل واحد منهم . وما أكثر
ما نجد في شعرهم ألفاظ الرجُل ، والمنسِير ، والسُرْبَةِ ، والمِقْنَبِ ، والفتيان ،
والأصحاب ، والصحب ، والقوم ، وأمثال هذه الألفاظ التي تدل على الجماعة ،

(١) شرح أشعار الهذليين ٢٣٥/١ .

(٢) ديوان الهذليين ١٣٩/٢ - لا آلوك : أي لا أدع جهداً في أمرك . أبو عجل هو الثور .
السرين : هي رتقة السرين بللة على الساحل قريبة من مكة بين حل ورجدة . الأباء : القصب .
العميم : ما أعم من النبات في سواحل المطر ، والسوائل الأماكن التي تسيل بالماء . المشب : الشاب
من الثيران أو المنس . الشواكل : كل لحم مضطرب بين الجنب والورك . الطراف : الخيمة .

وما أكثر ما نجد في شعرهم استخدام ضمير الجماعة، يعبرون به عن رفاقهم لا عن قبائلهم .

وقد مر بنا في صدر هذا الفصل ^(١) حديث الشنفرى في بانيته عن رفاقه الذين خرج معهم ليغزوا العوص، أولئك الرفاق الثمانية الذين يعتر بهم ، ويملاً الإعجاب بهم نفسه ، حتى ليصفهم بأنهم :

سراحين فتيان كأن وجوههم مصابيح أولون من الماء مذهب
ورأينا كيف وصف خروجهم معه ، وسيرهم إلى العوص ثلاث ليل على
الأقدام ، والدور الذى قام به كل واحد منهم فى الغارة ، فن مهاجم بسيفه
لا يشئ ولا يلين ، ومن مدافع عن رفاقه يحمى ظهورهم ، حتى تم لهم النصر ،
وعادوا بغنيمتهم إلى قومهم الصعاليك .

وفى تائيته المفضلية المشهورة بحدثنا الشنفرى أيضاً عن غزوة له لبني سلامان
أعدائه الألداء ، بل ألد أعدائه ، على رأس جماعة من رفاقه الصعاليك ^(٢) ،
وهو يبدأ الحديث برسم صورة لرفاقه ، صورة سريعة ولكنها قوية وصعبة ،
فهم جماعة من الغزاة المغامرين قد احمرت قسيم لكثرة غزواتهم ، ويقدم
نفسه لنا رئيساً عليهم ، يبعثهم للغزو وهو يعلم أن النصر والهزيمة أمران يتعرض
لهما كل مغامر ، وما احتمال الهزيمة بصارف له عن المغامرة ، فهذه طبيعة
المغامرة ، ومن يغزى يغتم مرة ويشمت مرة أخرى . ثم بعد أن ينتهى من
تقديم رفاقه وتقديم نفسه ، يأخذ فى وصف خروجهم ، فيحدد أولاً الموضع
الذى اجتمعوا فيه بأمره تحديداً جغرافياً دقيقاً ، ثم يذكر اللواحق التى دفعت
إلى هذه المغامرة ، ثم يهون على نفسه مشقة الطريق ، فستنتهى هذه المشقة
باقترابه من هدفه حيث يراوح أعداءه ويغاديهم بغاراته ، ثم يعود بعد هذا إلى
رفاقه ليتحدث عنهم حديثاً طويلاً ، وهو يخص أحدهم - وهو تأبط شرا الذى
كان يقوم على زادهم فى غزواتهم ، ويتولى أمر التكوين فيها - بحديث مرح

(١) انظر : ص ١٨٢ من هذا البحث .

(٢) المفضليات / ٢٠٢ - ٢٠٥ وانظر أيضاً ص ٥٠ من هذا البحث .

يلاعبه فيه ملاعبة طريفة ، فهو « أمهم » التي تقوم على قوتهم ، وتقر عليهم مخافة أن تطول الغزاة بهم فيموتوا جوعاً ، يعلن أنه غير راض عن هذه السياسة التي تنتهجها « أمهم » لأن « عيالها » جياع من تقثيرها ، فما تخشاه عليهم توقعهم فيه ، ولكنها لا تؤثر نفسها بشيء عليهم ، حتى لقد أصبحت نحيلة دقيقة ، وهي « أم » ليست كسائر الأمهات ، إنها غير محجة ، لا يحجبها ستر ، ولا يضمها بيت ، تحمل جعبة فيها ثلاثون سهماً عريضة النصال ، وتعدو في مرعة فائقة وفي عيها سيف صارم بتار :

وأمٌ عيالٍ قد شهدتُ نفوتهم إذا أطعمتهم أوتحتُ وأقلتِ
تخاف علينا العيل إن هي أكثرتُ ونحن جياع ، أي آلٍ تألتِ
مصعكة لا يقصرُ الستر دونها ولا تُرتجى للبيت إن لم تُبيتِ
لها وقضة فيها ثلاثون سيحفاً إذا آنستُ أولى العدى أقشعرتُ
وتأى العدى بارزاً نصفُ ساقها تجول كعير العانة المتلفت
إذا فزعوا طارت بأبيض صارم ورامتُ بما في جفرها ثم سلّت
حسام كلون الملح صاف حديدُه جراز كاقطاع الغدير المنعت
تراها كأذ ناب الحسيل صوادراً وقد نهلتُ من الدماء وعلّت^(١)
ويتحدث عروة كثيراً عن أصحابه ، ولكنه حديث الزعيم أو القائد ، لا حديث الرفيق أو الزميل ، فهو يدعوهم إلى الخروج معه للغزو والغارة :

أقيعوا بنى لبنى صدور مطيكم فإن منايا القوم خيرٌ من الهزل

(١) أوتحت : أقلت . العيل : الفقر . قوله « أي آل تألت » يعني أي سياسة ماست ، يقال آله إذا ماسه . مصعكة بكسر اللام : صاحبة صعايلك ، وبفتحة : الوضة : الحمية ، والسيحف : السهم المريض النصل . العدى : القوم من الرجالة . أقشعرت : تهيأت للقتال . المتلفت : أي الذي يتلفت إلى الخمر يطرد بها عن أثنه ، ويرى « المتلفت » أي الذي يتلفت إلى قتال الخمر عن عانته ، والعانة : حماة الأذن الوحشية . الجفر : الكتافة . الجراز : السيف القاطع . الحسيل : جمع حيلة وهي أولاد البقر ، شبه السيوف بأذنان الحسيل إذا رأت أمهاتها فنبعت تحرك أذناها .

فإنكم لن تبلغوا كل همي ولا أربني حتى تروا منبت الأثل^(١)
وهو يصرح بأنه سيقزوهم - لا معهم - ليحقق أهدافه ، أو يرضى
نفسه :

فإني لمستافُ البلاد بمرئية فمبلغ نفسي عذرها أو مطوف^(٢)
وهو قائد بارع ، يجمع جنوده ، ويخرج بهم فرساناً ورجالة ليغيروا ،
حتى إذا ما انتهت الغارة ، وأخلوا طريق العودة ، ونزلوا عند بعض المياه لينحروا
مما نهوه ، حتى ينالوا حظهم من الطعام والراحة ، تحول القائد البارع إلى قائد
حذر ، يبعث ريثاً منهم فوق شرق عال ، ليراقب لهم الطريق حتى لا يفجأهم
علو وهم غافلون :

لعل انطلاقي في البلاد ورحلتي وشدي حيازيم المطية بالرحل
سيلفني يوماً إلى رب هجمة يدافع عنها بالعقوق وبالبحل
قليل تواليا وطالب وترها إذا صحت فيها بالقوارس والرجل
إذا ما هبطنا منها في مخوفة بعثنا ريثاً في المرائي كالجندل
يقلب في الأرض الفضاء بطرفه وهن مناخات ، ومرجلنا يغلي^(٣)
ولعل أطرف ما في حديث عروة عن أصحابه حديثه عن مضابقاتهم له ،
وشكواه من بعض تصرفاتهم التي يضيق صدره بها ، وبخاصة تنكرهم له
بعد أن يخلصوا ويستغنوا ويصبحوا كالأغنياء الممولين ، ولكنه - مع هذا
كله - يغفر لهم ، لأنهم عياله وأبناؤه ، وهو أبوهم الذي يتقبل منهم ما يرتكبونه
في حقه ، ثم لأنه يقوم منهم مقام السيد الذي تفرض عليه سيادته أن يتحمل
ما يصدر عنهم ، فيعفو عن جاهلهم ، ويغفر لمسيئهم ، ثم لأنه أخيراً يقف

(١) ديوانه / ١٠٦ - وشرح التبريزي على حاشية أبي تمام ٩٠٨/٢ . مع اختلاف لفظي يسير .

(٢) ديوانه / ٩٣ .

(٣) ديوانه / ١٠٨ - ١١٢ . الهجعة : الجماعة من الإبل - أو كما أربعون إلى ما زادت ، أو ما بين السبعين إلى المائة ، أو إلى دويتها .

منهم موقف الزعيم الخبير بنفسية جماهيره^(١) .
ويتحدث تأبط شرا عن رفاقه حديث المعجب بهم ، المعتر برفقتهم ،
المقدر لقيمتهم في حياته المغامرة ، تلك الحياة التي يحياها وحيداً إلا منهم ،
فهم عون على هذه الحياة ، يستعين بهم عليها ، ويستغيث بهم إذا أفرعه أمر .
وهم دائماً أبطال شجعان شعث ، لكثرة اشتغالهم بالغزو والكفاح ، والضرب في
أعماق الصحراء ، وجوب آفاقها ، عيونهم نفاذة تتوقد بنار الحماسة والحرارة
والإقدام كأنها نار الغضا المتأججة :

مساعرة شعث كأن عيونهم حريق غصاً تلقى عليه الشقائق^(٢)
وهو لهذا لا ينسى أبداً فضلهم وقيمتهم في مغامراته ، وهو يسأل الله أن
يتولى عنه جزاءهم ، لأنه عاجز عن جزائهم :

جزى الله فتياناً على العوص أمطرت سماءهم تحت العجاجة بالدم^(٣)
فإذا ما سقط أحدهم صريعاً اشتد جزعه عليه ، فإذا مصابه فيه لا يعدله
مصاب ، وإذا آماله في الحياة تنهار :

أبعد قتيل العوص أمي على فتى وصاحبه أو يأمل الزاد طارق^(٤)
وهو يرى أن فقد أحدهم خسارة لا تعوض ، وإضعاف للجماعة التي تشق
طريقها في الحياة بقوة أبنائها ، وكسر لسلاح من أسلحتها يستحق الأسف ،
بل يستحق الأمي والحزن والبكاء ، وهو - على قلة دمعه - لا ييخل بها على
من تفقده هذه الجماعة من أبنائها الممتازين ، أولئك الذين يمتازون بما يجب
أن يمتاز به كل صعلوك عامل : من بصر بكسب المحامد ، وسبق إلى غايات
المجد ، وقوة وزعامة بين الرفاق ، وخفة في الجسم ، وجرأة على اقتحام الأهوال

(١) انظر أبياته اللاحقة التي يقص فيها قصة من هذه المضايقات في ديوانه من ص ١١٢ - إلى
ص ١١٨ ، ومن ص ١٢٣ - إلى ص ١٢٥ .

(٢) الأغاني ٢١٤/١٨ - مساعرة : جمع مسعر وهو موقد نار الحرب . والشقائق هنا
المراد بها أعشاب الجبال .

(٣) الأغاني ٢١٥/١٨ .

(٤) المصدر السابق / ٢١٤ .

والسرى في الليل البهيم للمظلم ، وشجاعة فائقة ، ورأى صائب ، وكرم واسع ،
وفصل في الأمور ، وحسب الحركة والتزوي ، ويغض الدعة والإقامة والاستقرار :

لكنما عولى إن كنتُ ذا عولٍ على بصير بكسب الحمد سباق
سباق غاياتٍ مجّدٍ في عشيرته مرجع الصوت هذا بين أرفاق
عارى الظنابيب ممتد نواشره مدلاج أدهم واهى الماء غساق
حمال ألوية ، شهاد أنلية قوال محكمة ، جواب آفاق
فذاك همى وغزوى أمتغيث به إذا استغثت بضافى الرأس نفاق^(١)

ومن هنا كثرت رثاؤه لأصحابه ، فهو رفيق لم ولذكراهم ، لا تنسبه إياهم
شواغل حياته . وهو يرى صديقه الأعز ، وتلميذه النابتة ، الشفري ، رثاء
حاراً تتجلى فيه تلك اللوعة التي أصابته بعده ، وتلك الحسرة التي استشعرها
لفقده ، وتلك الفجعة التي لا يجد لها دفماً ، وهو يأسف لأنه لم يكن معه
في ساعة الشدة حين قتل ، إذن لوقف إلى جانبه أنحاً ناصراً معيناً :

فلو نبأتني الطيرُ أو كنت شاهداً لآمالك في البلوى أخ لك ناصراً^(٢)
وهو لا ينسى في غمرة هذا الأسى أن يسجل تعاونهما معاً في ساعات
الشدة ، وأوقات الكفاح :

إذا راع روع الموت راع ، وإن حمى حمى معه حر كريم مصابراً^(٣)

(١) المفضليات / ١٣ - ١٥ . العول : الإعوال . مرجع الصوت : يريد أنه يصيح
بأصحابه آمراً ونهاياً . الهد : الصوت الغليظ . الظنابيب : جمع ظنوب وهو حروف عظم الساق ،
ويريد بقوله « عارى الظنابيب » أنه خفيف اللحم ، والعرب تملح الهزال وتقم السمن . النواشر :
عروق ظاهر الذراع ، ويريد بقوله « ممتد نواشره » أنه طويل الذراعين دلالة على تمام خلقه . الأدهم
هنا : الليل ، والنفاق : الشديد الظلمة . المحكمة : الكلمة القاطعة للأمور . ضافى الرأس :
رجل كثير شعر الرأس لكثرة اشتغالها بالتزوي فهو لا يتعاهد شعره . النفاق : الذي يصيح في إثر الطرائد .

(٢) ديوان الشفري المطبوع / ٢٩ .

(٣) المصدر السابق / ٢٩ .

أحاديث الفرار :

كما يتحدث الشعراء الصعاليك عن مغامراتهم وانتصاراتهم فيها ، وفوزهم على أعدائهم ، يتحدثون أيضاً عن فرارهم وهربهم ، دون أن يجلوا في هذه الأحاديث غصاصة ، أو أمراً يدعو إلى الحجل والمدارة . وفي الحجل ما دام الفرار أمراً طبيعياً من قوم عدائين ، أو - بعبارة أخرى - سلاطاً من أسلحتهم يضمن لهم النجاة ليعيدوا الكرة من جديد ليحققوا أهدافهم الاجتماعية والاقتصادية ؟ فإذا لاحظنا - إلى جانب هذا - أن الفرار فرصة تتيح لهم إظهار تلك الميزة التي يفخرون بها دائماً ، وهي سرعة العدو ، أدركنا سر حرصهم على أحاديث الفرار في شعرهم ، لأنها أحاديث تتيح لهم مجال الفخر بهذه الميزة .

وقد اشتهر بعض الصعاليك بفرارهم ، وبخاصة صعاليك الحجاز ومنطقة جبال السراة ، وبالذات صعاليك هذيل التي كانت تترل في هذه المنطقة ، وقد رأينا من قبل^(١) ما يذكره الأصمعي من كثرة انتشار العدائين في الحجاز والسراة ، أولئك الذين كانوا « يعلون على أرجلهم ويختلسون » ، وما يذكره من « أن بهذيل وحدها منهم أربعين » ، ويصف الرواة حجازاً الأزدي بأنه « كان مع غاراته كثير الفرار »^(٢) . ويفرد البحري في حماسه باباً « فيما قيل في الفرار على الأرجل »^(٣) ، يروي فيه اثني عشرة مقطوعة لثمانية من الشعراء ، منها ثمانى مقطوعات لأربعة من الصعاليك^(٤) ، أى أن ثلثي المقطوعات من شعر الصعاليك ، ونصف الشعراء من الصعاليك ، فإذا لاحظنا أن من هذه المقطوعات الثمانى ثلاثاً لحاجز وحده^(٥) ، أدركنا أن الرواة كانوا على حق حين وصفوه بكثرة الفرار ، وإذا لاحظنا أيضاً أن من المقطوعات الاثني عشرة

(١) انظر : ص ٨٠ من هذا البحث (فصل التفسير الجغرافي) .

(٢) الأغاني ٥٢/١٢ (بولاق) .

(٣) الباب الخامس والعشرون من ص ٦٣ - إلى ص ٦٩ .

(٤) أبو غراش الهذلي (ص ٦٣ ، ٦٤) ، وحاجز الأزدي (ص ٦٤ ، ٦٥) ، والأعظم

الهذلي (ص ٦٦) ، وتأيبط شرا (ص ٦٨ ، ٦٩) .

(٥) ص ٦٤ ، ٦٥ .

التي يضمها الباب أربعاً لشعراء من هذيل^(١) ، أي ثلث الباب كله أو ما يعادل نصف عدد مقطوعات الصماليك أدركنا دقة ملاحظة الأصمعي عن كثرة العدائين في هذيل .

والواقع أن أحاديث الفرار ظاهرة واضحة كل الوضوح في أخبار الهذليين وأشعارهم حتى لتعد سمة من سمات الشعر الهذلي . وفي شعر الأعمى الهذلي قصيدة طويلة^(٢) يتحدث فيها عن فراره مع صاحب له من مغامرة لهما في بعض بلاد كنانة . وهو يبدؤها مباشرة بالحديث عن ذلك المأزق الحرج الذي وجد نفسه فيه حين رأى القوم يطاردونه هو وصاحبه ، وقد اقتربوا منها حتى لم يعد بينهما وبينهم إلا أقل من رمية سهم ، ثم يصور الفرع الذي انتابه فشل مقلته على الرمي ، وإن لم يشل تفكيره عن أن يحث صاحبه على العدو حتى ينجوا معاً :

لما رأيتُ القومَ بالاً علياءَ دونَ قِدَى المناصبِ
وفريتُ منْ فرعٍ فلا أرئى ولا ودعتُ صاحبُ
يغرونُ صاحبهمَ بنا جهداً وأغرى غيرَ كاذبِ
أغرى أباً وهبَ ليه جزهمَ ومَلدوا بالحلائبِ^(٣)

ثم يمضي في وصف تلك الجماعات التي تطاردها ، وسرعة عدو أحد مطارديه ، ثم ينتقل إلى الاعتذار عن فراره بأنه خشي أن يقتل بسيوفهم فيصير طعاماً للذئاب والضباع والشعالب والطير الجارحة :

ونخشيتُ وَقَعَ ضريبة قد جربتُ كلَّ التجاربِ
فأكونُ صيدهمُ بها وأصيرُ للضبعِ السواغبِ
جزراً وللطيرِ المرْبُة والذئابِ والشعالبِ

(١) ص ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ .

(٢) شرح أشعار الهذليين ٥٥/١ وما بعدها ، وديوان الهذليين ٧٧/٢ وما بعدها . وفي حاشية البحري ٦٦/ قطعة منها .

(٣) القدى : القدر . المناصب : الرأى الذي يتناصبك الرى ، رميك ورميه . فريت : تحيرت ودهشت . الحلائب : الجماعات يجيء بعضها في إثر بعض .

وتَجَرُّ مُجَرِّية لها لحمى إلى أَجْرِ حَوَاشِبٍ^(١)
 ثم يصف هذه الضباع وجرائعها، وكيف تنزع جلد المرء نزعاً شديداً ،
 ولا يكاد ينتهى من رسم هذه الصورة المفزعة لمصيره لو قتل ، حتى يعود لذكر
 علوه في شدة الحر ، ولكنه لا يبالي بشيء من هذا ، فقد اقترب من منطقة
 الأمان ، ولاحت لعينيه منازل السلامة ، وهنا فقط يذكر أهله وفقيرهم ، وأولاده
 الصغار وحاجتهم ، كأنما يزنّب نفسه التي أغرته بالفرار والهرب دون أن يحقق
 شيئاً من أهدافه :

حتى إذا انتصف منها رُ وقلت يومُ حَقُّ ذائبُ
 رَفَعْتُ عَيْنِي المحجا زَ إلى أناس بالمناقب
 وذكرتُ أهلي بالعرا ء وحاجة الشُّعْث التَّوَالِبُ
 المُضْرمين من التلا د اللامحين إلى الأقارب^(٢)
 ولا يجد حاجزاً غضاضة من أن يتحدث عن فراره إلى صاحبه الجميلة
 المتأنقة ، وحسبه - وحسبها أيضاً - أن نجا من أعدائه بعد أن كادوا يقتلونه :
 ألا هل أتى ذات الخواتم فرّتي عشية بين الجُرْف والبحر من بحر
 عشية كادت عامرٌ يقتلونني لدى طَرْف السَّلْماءِ راعيةَ البَكر^(٣)
 وهو ينهزها فرصة كغيره من الشعراء الصعاليك العدائين ، ليتحدث عن
 سرعة علوه التي تفوق سرعة الظبي الهارب من مطاردة طائر جارح له :

فما الظبي أخطت حلقة الظفر رجله وقد كاد يلقي الموت في حلقة الظفر
 كمثلي أو أن القوم بين مُعَيِّع وآخر كالنشوان مرّتكز يغري^(٣)

(١) الضريبة : السيف . جزرا : أى قطعاً ، يقال : تركته جزراً للسياح . الطير المريبة :
 المقيمة على لحم أبداً . مجرية : أى ضبع ذات جراء . الأجرى : الجراء . الحواشب : المنتفضات البطن .
 (٢) يوم حق ذائب : أى شديد الحر . المناقب : أماكن . التوالب : الجحاش الصغار ،
 يريد بها هنا أولاده .

(٣) حكمة البحري ٦٥ / . والأغاني ١٢ / ٥٢ (يولاق) ، والرواية فيه مضطربة لفظياً .
 عيى : عى عن أمر قصده . ومرّتكز أى معتمد على سية قومه . والجرف : موضعان . وراعية البكر :
 مثل في الشدة والثوم ضرب في بكر ذاقة صالح . (انظر أساس البلاغة مادة - وغو -) .

ويدافع تأبط شراً في قصيدة له عن قراره وتركه رفيقاً له بأنه ما كان
ليستطيع أن ينتظر حتى يذهب مطاردوه الذين كانوا وراءه كالتحل ،
ولا أن يطيء في علوه حتى تصيبه السهام التي كانوا يرسلونها خلفه فتدبه صريعاً ،
وهو لهذا يشي جسده ، ويسرع بعيداً عن الشر كأنه الظلم المدعور :

ولم أنتظر أن يذهبوني كأنهم ورأى نحل في الخلية واكنا
ولا أن تُصيب النافذات مقاتلي ولم أكن بالشد الذليق مداينا
فأرسلتُ مثنياً عن الشر عاطفاً وقلت تزحزح لا تكونن حائنا
وحشحتُ مشعوف النجاء كأنني هجفتُ رأى قصراً يسماً وداجنا^(١)

وبعد أن يمضي في وصف سرعة الظلم ، على طريقة الهذليين في الإلحاح
على أوصاف المشبه به ، يستقل إلى الصورة التي رأيناها عند الأعمى ، صورة
الفرع من الموت على أيدي الأعداء ، تلك الصورة التي تقرن عادة بإلقاء
الجسد لحوان البادية الضاري ، وبخاصة الضباع ، تلك الفصيلة التي اشتهرت
بولعها بحيف الموتى كما يقرر علماء الحيوان^(٢) ، فيحدثنا عن نجاته من
مطارديه ، ولو لم ينبج منهم لأمسى قتيلاً في صحراء غبراء ، أو بين برائن ضبع
تنبش الأرض بحثاً عن الحيف :

فزحزحتُ عنهم أو تجئني مني بغيراء أو عرفاء تفرى اللفائنا
كأنني أراها الموت ، لا در درها إذا أمكنت أنياها والبرائنا^(٣)
ويدافع أبو خراش عن قراره ، ويضفي على دفاعه لوناً من « المذهبية » ،

(١) الأغاني ٢١٣/١٨ - الشد : العدو . الذليق : الخاد . النجاء : الإسراع ، والمشعوف
هنا : من أصيب قلبه بضر . الهجفت : الظلم . والقصر هنا : اختلاط الظلام . واليسال : جمع
سحلة وهي بقية الماء في الخوض . والناجن : لعل معناه هنا المطر المطبق ، أو الصياد المتعود للفرز .
ويكون الشاعر بهذا يصور فرع الظلم حين أخذ الظلام يختلط ، والمطر يسقط ، أو حين رأى
عند اختلاط الظلام ماء عند صياد متربص .

(٢) للسيبى : حيلة الحيوان ٧١/٢ .

(٣) الأغاني ٢١٣/١٨ - المرقاء : الضبع .

فهو يفر لا لأنه جبان ، فهو إلى جانب فراره مقاتل شجاع ، ولكن لأنه يرى أحياناً أن قتاله لا يجديه شيئاً إلا أن يورده موارد الهلاك ، وهو مع ذلك لا يكف عن القتال إلا إذا لم يجد لنفسه مجالا فيه :

فإن تزعمى أنى جينتُ فإننى أفر وأزى مرة كل ذلك
أقاتل حتى لا أرى لى مقاتلاً وأنجوا إذا ما خفت بعض الممالك^(١)
ولكن الأعم يعلم يعلن فى منتهى الصراحة والبساطة أنه حين تكاثر عليه أعداؤه فر منهم مسرعاً ، ولم يحاول قتالهم :

بذلت لهم بذى وسطان شدى غدا تشد ولم أيدل قتالى^(٢)

سرعة العدو :

ولا يكاد الشعراء الصعاليك يتحدثون عن شيء فى مثل ذلك الإلحاح الذى نراه فى حديثهم عن مغامراتهم كما يتحدثون عن سرعة عدوهم ، ويبدو أن مراد هذا إلى أمرين : أولهما شعورهم بأنها ميزة تفردوا بها من بين إخوانهم فى البشرية ، وثانيهما إيمانهم بأنها من الأسباب الأساسية فى نجاتهم من كثير من المآزق الحرجة . ومن هنا كان حديثهم عنها حديث المعجب بنفسه تارة ، والمعجب بها تارة أخرى : المعجب بنفسه لأنه تفرد بها من بين سائر الناس ، والمعجب بها لأنها كم أنقذته من أخطار أحطقت به .

وأحسب أننا لسنا فى حاجة إلى القول بأن الشعراء الصعاليك الذين تحدثوا عن سرعة عدوهم هم أولئك الذين تحدثنا عنهم فى تفسيرنا الجغرافى لظاهرة الصعلكة وهم الصعاليك السرويون - كما يسميهم الأصمعى^(٣) - وبخاصة صعاليك هذيل وفهم والأزد ، أما أولئك الذين لم يعرفوا بالعدو كعروة بن الورد فمن الطبيعى ألا يتحدثوا عن شيء لم يعرفوا به .

ويتحدث الصعاليك العدائون عن هذه الميزة حديث المعجبين بأنفسهم

(١) ديوان الهذليين ١٦٩/٢ ، وحاشية الخالدين (مخطوطة) ورقة ٢٩٧ .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١٦٣/١ .

(٣) فعول الشمر (مخطوطة) ورقة رقم ١٥ .

الذين يرون أنهم قادرون على شيء يعجز عنه بعض الناس ، على نحو ما نرى في قول الأعلم :

فلا وأبيك لا ينجو نجائي غداة لقيتهم بعض الرجال^(١)
ولكن ذا الكلب لا يرضى بهذه « البعضية » ، وإنما يوسع دائرة حكمه حتى تشمل كل ذي قدم :

فجئت لا يشتد شدى ذو قدم^(٢)

بل إن أبا خراش لا يرضى بالبشر طرفاً ثانياً في هذه المباراة كأنما يرى أن البشر أبطأ من أن يصلحوا لها ، وإنما يعقد المباراة بينه وبين حمار الوحش ، ذلك الحيوان المشهور بسرعة العدو ، ومع ذلك فحمار الوحش لا يستطيع أن يجاريه في عدوه :

أقبلت لا يشتد شدى واحد عِلْجُ أَقْبُ مَسِيرُ الْأَقْرَابِ^(٣)
وقد رأينا حاجزاً يتحدث إلى صاحبه الجميلة المتأنقة عن فرته دون أن يجد في هذا الحديث غصاصة ، وما من سبب لذلك سوى إعجابه بنفسه إذ استطاع النجاة من أعدائه عدواً على قدميه ، فهو في هذا الحديث كأنما يقلم إلى صاحبه لوناً من ألوان البطولة التي يراها جديرة بإعجابها ، حتى ليتساءل في أول حديثه في لهفة ظاهرة « ألا هل أتى ذات الخوام فرقى ؟ »

وهم يتحدثون عن هذه الميزة أيضاً حديث المعجبين بها ، المقلدين لقيمتها في حياتهم . يصرح حاجز بأن الفضل الأكبر في نجاته من بعض مواقف الضيقة لا يرجع إلى قتاله ، وإنما يرجع إلى عدوه ، وهو - لهذا ولشدة إعجابه برجليه اللتين أتاحتا له هذا العدو - لا يتورع عن أن يفديهما بأمه ونخالته ، وماذا جنى

(١) شرح أشعار الهذليين ٢٠/١ .

(٢) المصدر السابق ٢٣٩/ ، وترى لأي خراش ، وقد قلنا في الفصل السابق إن هذا الاختلاف لا يضيرنا في هذا الدراسة لأنه اختلاف داخلي .

(٣) ديوان الهذليين ١٦٩/٢ ، وترى لتأبط شراً وللأعلم ، والقول في هذا كالقول في البيت السابق - والعِلْج : حمار الوحش السمين القوي . والأَقْبُ : الضامر البطن . ومسِيرُ الْأَقْرَابِ : أي مخطط الحاصرتين .

من أمه وتخالته غير ذلك السواد الذى صبغه بصبغة بغیضة كانت سبباً من أسباب تلك الحياة المتصلة التى يحياها ، وإلى زجت به فى هذا الموقف الضيق الذى لولا رجلاه لفقد حياته فيه :

فغير قتالى فى المضيق أغائنى ولكن بذلى الشد غير الأكاذب
فداً لكما رجلى أوى وخالى بشد كما بين الصفا والأثائب^(١)
ويصرح أبو خراش بأنه لولا سرعة عدوه فراراً من أعدائه لآمت امرأته
ويتم ابنه :

ولولا دراك الشد قاطت حيلتى تخير من خطاياها وهى أيم
فتقعد أو ترضى مكانى خليفة وكاد خراش يوم ذلك ييتم^(٢)
ويقص علينا تأبط شرا فى قافيته المشهورة كيف أنجاه عدوه من عدوه ،
برغم ما أرسلوه خلفه من خيل سريعة :

ليلة صاحوا وأغروا فى سراعهم بالعيكتين لدى معدى ابن براق
كأنما حشحو حصاً قواده أو أم خشف بذى شت وطباق
لا شىء أسرع منى ، ليس ذا عذر وذا جناح بجنب الرید خفاق
حتى نجوت ولما ينزعوا سلبى بواله من قبض الشد غيداق^(٣)
وكما يتحدث الصعاليك العداءون عن شدة عدوهم ، يتحدثون عن شدة
عدو رفاقهم ، ويصف تأبط شرا أحد أصحابه الصعاليك بأنه سريع العدو
يسبق الريح :

(١) حماسة البحتري / ٦٤ . والأغانى ١٢ / ٥٢ (بولاى) .

(٢) ديوان المذليين ٢ / ١٤٨ . والأغانى ٢١ / ٥٦ ، ٥٧ - قاطت : من القبط ، أى أدركها القبط ، ردو الصيف .

(٣) الفضليات / ٧ - ١١ . حصاقواده يريد به الظليم ، والأحص : الذى تنثر ريشه وتكسر ، والقوادم من ريش الجناح : ماوى الرأس . وأم خشف يريد بها الظبية . والشط والطباق : من نبت السراة ، وإنما خصهما لأنهما يضمران ما يرعاها من الحيوان ، ويشدان لحمه . وذا عذر يعنى به قرصاً ، والعذر : ما أقبل من شعر الناصية على الوجه . الرید : أعلى الجبل ، وإنما خص جارج الجبل لأنه أسرع طيراً من جارج السهل . الواله : الذاهب العقل . والقبيض : السريع . والغيداق : الكثير الواسع .

ويسبق وقد الريح من حيث ينتحي بمنفرد من شدة المتشارك^(١)
 ويشبه الأعم اقضاض جماعة من الصعاليك العذائين من كل ناحية
 على فريسة عرّضت لهم في أثناء تربصهم بالصحرَاء بتفجر الماء من حوض
 قديم منهم يحاول صاحبه أن يصلحه ولكن الماء يغلبه فيتفجر من شتى نواحيه :
 تخاف لزام عادية تحول كما يتفجر الحوض اللقيف^(٢)
 ويرسم أبو خراش صورة رائعة لجماعة من العذائين يحرض كل منهم على
 ألا يتخلف عن رفاقه حتى لا يفتضح بينهم ، وهم خارجون للغزو في ليلة
 ممطرة ، وقد ابتلت أقدامهم ، والشجر يتكسر من وقعها ، فيلتف تحتها أكواماً
 كأنها أوساط الإبل السود :

وليلة دجن من جمادى سريتها إذا ما استهلكت وهي ساجية نهى
 وشوط فضاح قد شهدت مشايحاً لأذك ذحلاً أو أشيف على غنم
 إذا ابتلت الأقدام والتف تحتها غشاء كأجواز المقرنة الدهم^(٣)
 وكما يتحدثون عن شدة علو رفاقهم ، يتحدثون عن شدة علو أعلائهم
 أيضاً ، ليثبتوا لأنفسهم تلك الميزة عن طريق غير مباشر . ويرسم الأعم في
 بآيته التي يتحدث فيها عن فراره هو وصاحب له من بعض أعلائهما صورة
 رائعة لمطاردتهم لهما ، يصف فيها خروجهم خلفهما ، وكيف يغرون أسرعهم
 ليدركهما ، بينما يغري هو صاحبه ليفوتهم ، ثم يصف تلك الجماعات التي
 تطاردهم ، والتي يحىء بعضها في إثر بعض ، كما تلغ الرياح السحب فتجلجل
 بالرعد ، ثم يصف سرعة علو أحد مطارديه الذي ينطلق خلفه كأنه حمار
 وحش ضامر يسرع ليورد الماء :

(١) حجة أبي تمام ٤٨/١ .

(٢) شرح أعمار الخليلين ١٨/١ - الزمام : الطاب . الشول : التي لها زيادات بمنزلة
 القصر . القيف : التي أصله صاحبه فليت وسواء من فواحيه .

(٣) ديوان الخليلين ١٣٠/٢ - شوط قضاخ : أي إن سبقه رجل اقضض . المشايخ :
 الجاد في كلامه . أشيف : أشرف .

يُغْرُونَ صاحبهم بنسا جهداً وأغرى غير كاذب
أغرى أبا وهب ليع جزهم وملوا بالحلائب
مدد المجلجل ذى العما ، إذا يراح من الجنائب
يُغْرِى جزيمة والردا ، كأنه بأقب قارب^(١)

ويرسم أبو خراش في ميمته التي يتحدث فيها عن فراره من خراعة صورة
دقيقة لمطارديه ، وقد اقرب منه أحدهم حتى صار كأنه توأم له ، والسهام تنال
حوله ولكنها تخطئه ، وكيف زاد من سرعته حين رأى وراء ظهره أحد مطارديه
مسرعاً وقد بسط ذراعيه ، ومد ساقيه الطويلتين ، وهو حريص على أن يدركه
لأن له ثأراً عنده ، وأبو خراش حريص على أن ينجو منه لأنه شخص فائق
جريء أثيم :

بأسرع مني^(٢) إذ عرفت عديهم كأتى لأولاهم من القرب توأم
وأجود مني يوم وافيت ساعيا وأخطائي خلف الثنية أسهم
أوائل بالشد الذليق وحتي لدى المتن مشبوح الذراعين خلجهم
تذكر ذحلاً عندنا وهو فائق من القوم يعرفه اجترأ ومائم^(٣)

ومن أطرف الأشياء أن يحدثنا الأعلام عن كراهيته لمطارده ، لا شيء
إلا لأنه عدا سريع لا يألو جهداً في مطاردته :

كرهت جزيمة العبدى لما رأيت المرة يجهد غير آلى^(٤)
وأكثر ما يتحدث الصعاليك العدائون عن شدة علوهم مقرونة بموازنة
بينهم وبين الطير أو بعض حيوان الصحراء المشهور بسرعة العدو .

ويتردد ذكر حمار الوحش عند صعاليك هذيل ، ولا نعر به عند غيرهم

(١) شرح أشعار الهذليين ١/ ٥٥ ، ٥٦ . وجيزة البحري ٦٦/ - الهاء : أرفع السحاب
في السماء . يراح : تصيبه الريح . القارب : طالب الماء ليلاً . أبو وهب صاحبه ، وجزيمة عدوه .

(٢) متعلقة بوصفه ظلياً يطارده الصيادون يشبه به نفسه في شدة علوه .

(٣) ديوان الهذليين ٢/ ١٤٧ . وجيزة البحري ٦٤/ . والأغاني ٥٦/٢١ - واط : طلب
النجاة . مشبوح الذراعين : عريضهما . الخليم : الطويل .

(٤) شرح أشعار الهذليين ١/ ٦٠ .

من الشعراء الصعاليك فيما بين أيدينا من شعهم ، فيما علما مقطوعة تروى
لأبي خراش أو للأعلم أو لتأبط شرا ، وهي تلك البائية التي أشرنا إليها^(١) ،
حتى ليصح أن نقول إن ذكر حمار الوحش في صدد الحديث عن العدو خاصة
هذلية .

يصف صخر الغي صاحباً له بشدة العدو فيشبهه بحمار وحش ضامر
تعضه الحمر فيفر منها هارباً :

معي صاحبٌ داجنٌ بالغزا ة لم يكُ في القوم وَغَلًا ضَعِيفًا
تري عدوّه صُبْحَ إِقْوَانِهِ إِذَا رَفَعَ الْمَأْبُضَانِ الْحَشِيفَا
كَعْدُو أَقْبَ رَبَّاعٍ تَري بِفَائِلِهِ وَنَسَاهُ نُسُوفًا^(٢)
أما الأعلم فالصورة التي يرسمها لحمار الوحش أكثر خطوطاً وألواناً ، فهو
عنده ضامر البطن ولكن في غير هزال كأنه عرقُ السدر في حمرة ، وهو
سريع يسبق الإبل والحيل النجبية ، خرج ليلاً في طلب الماء ، فلاحته له أتان
سمينة مكتنزة اللحم ، فهو حريص على إدراكها :

يَغْرَى جَذِيمَةً وَالرِدَا ء كَأَنَّهُ بِأَقْبَ قَارِبَ
خَاطِ كَعْرَقِ السَّدْرِ يَسَ بِقِ غَارَةِ الْخَوْصِ النِّجَائِبِ
عَنْتَ لَهُ مَفْعَاءُ لَكَّ تَ بِالْبَضِيعِ لَهَا الْخَبَائِبِ^(٣)

وأما الظليم ، وهو من أسرع حيوان الصحراء عدواً^(٤) ، فقد ورد ذكره
عند تأبط شرا والأعلم ، كما ورد ذكر النعامة عند أبي خراش . أما تأبط شرا

(١) انظر : ص ٢١٦ الهامش ٣ .

(٢) شرح أشعار الهذليين ٤٨/١ - داجن : معاود مرة بعد مرة ، أو متعود للغزو .
الوفل : التفل . الإقواء هنا : النزول في القفر من الأرض . المأبضان : باطن الركبة وباطن المرفق .
الحشيف : الثوب الخلق . الرباع : الذي أتى رباعيته وهي السن التي بين الثانية والثاب . لفافل
والنسا : عرقان . النسوف : آثار الض .

(٣) شرح أشعار الهذليين ٥٦/١ - خاط أي مكتنز مثله لما . مفعاء : سوداء الوجه
في حمرة . لكت : قنفت باللحم . البضيع : اللحم . الخبائب : خرافق اللحم . لها هنا بمعنى منها .

(٤) في أمثال العرب « أعنى من الظليم » (الميداني : جميع الأمثال ٤٢٩/١) .

فالظلم عنده مذعور يقطع الصحراء وقد مد جناحيه ، وكل ما يحرص عليه تأبط شرا وصفه بالسرعة ، ومن هنا كثرت في أبياته تلك المترادفات التي تدل على السرعة ، ولكنه لا يكتفى بهذا بل يعقد بين هذا الظلم وبين الخيل السريعة مبارزة ، فإذا هو أسرع منها :

وحشحت مشعوف النجاء كأتني هجف رأى قصرا سمالا وداجنا
من الحص هزروف كأن عفاءه إذا استدراج الفيضا ومد المغابنا
أزج زلوج هذرفي زفازف هزف يبذ الناجيات الصوافنا^(١)
وأما الأعم فالصورة عنده أكثر خطوطاً وألواناً ، فالظلم عنده سريع يعترض فراخه في وقت العشية ، وهو غليظ الساقين طويلهما ، وقد تساقط ريشه ، وهو مذعور قد اختبأ بين أشجار طويلة ، فإذا عدا خفق جناحاه خفقان ربح جنوبية بشاب جليدة غير ممزقة :

كأن ملاءتي على هزف يعن مع العشية للرنال
على حت البراية زمخري السواعد ظل في شري طوال
كأن جناحه خفقان ربح يمانية بریط. غير بالي^(٢)
وأما أبو خراش فهو يشير للنعام في صدد حديثه عن شدة عدوه إشارة سريعة^(٣) ، كما يفعل مع حمار الوحش ، وهو لا يقف طويلا عندهما لأنه مشغول بحيوان آخر سريع هو الظبي .

(١) الأغاني ٢١٢/١٨ - الهزروف : الظلم السريع الخفيف . الحص : جمع أحص هو القليل شعر الرأس . المغابن : جمع مغبن وهو الإبط . الأزج من النعام . البعيد الخطو . الزلوج : الناجي من الغمرات . الهذرفي : نسبة إلى الهذرة وهي السرعة . زفازف : من الزفزة وهي رى الطائر بشفه أو بسط جناحيه . هزف : سريع .

(٢) ديوان الهذليين ٨٣/٢ ، ٨٤ . وحاسة البحرى ٦٦ . وروى البيت الأول في لسان العرب مادة (خرق) وفيه « هجف » مكان « هزف » ، وروى البيت الثاني في مادة (شري) ومادة (حت) - الرنال : جمع رال وهو ولد النعام أو حوله . الزمخري : الأجوف ، وكان العرب يظنون أن النعام لامخ بساقيه . وقوله « على حت البراية » يريد به أنه سريع حتى لا يبقى منه إلا براية . والشري : شجر .

(٣) ديوان الهذليين ١٤٥/٢ - البيت الأول .

والمنظر الذي يتخيره أبو خراش للظبي حين يخرج الصيادون لصيده ، وقد
 بثوا جبالهم في مسارحه ليعلق فيها ، ولكنه ينجو منها ، فلا يجد الصيادون مفراً
 من رمية سهامهم وإطلاق كلابهم خلفه ، ولكنه يفوتها ، ومع ذلك يظل
 مدعوراً غير مطمئن يصغى إلى ناحيتهم وقد نصب أذنيه كأنهما قطعتا لعدم
 تحركهما ، فإذا ما سمع صوت ذباب يطوف حوله دُعر وخيل إليه أنه
 صوت سهام الرماة ، فانطلق كما ينطلق السهم مخلفاً وراءه غباراً مختلفاً ألوانه
 كأنه الملاء :

فو الله ما ربداء أو علج عانة أقبُّ وما إن تيسر ربل مصمم
 وبُثتُ حبالٌ في مرادٍ يروده فأخطأه منها كفافٌ مخزم
 يطيح إذا الشعراء صانت بجنبه كما طاح قدحُ المستفيض الموشم
 كأن الملاء المحض خلف ذراعه صراحيه والآخني المتحم
 نراه وقد فات الرماة كأنه أمام الكلاب مضغى الخد أضلم
 بأسرع مني إذ عرفتُ عليهم كأنى لأولاهم من القرب توأم^(١)
 ويتردد ذكر الظبي أيضاً في شعر حاجر ، وهو حيناً يتخير منظر الظبي
 المذعور الهارب من جوارح الطير بعد أن كاد يلقى الموت في أظفارها ، كما
 رأينا في أبياته الرائية من قبل ، وهو حيناً آخر يذكره مع حيوانين آخرين من
 حيوان الصحراء السريع : الأرنب ، والوعل ، وهو لهذا يكتب بأن يذكر
 أنه ظبي في منطقة جبلية ، فهو خفيف تشيط قوي ، أما الأرنب فهو يمر
 بها مرّاً سريعاً ، وأما الوعل فيتخير له منظراً يكون فيه في أقصى سرعته ، حين
 يحس الصيادين خلفه وسهم كلابهم المدربة :

(١) المصدر السابق / ١٤٥ ، ١٤٦ . والأغاني ٥٦/٢١ - الربداء : النعامة السوداء
 لك غيرة . والتيس هنا للذكر من الظباء والربيل : نيت ينبت في أول الشتاء . وقوله : في مرادٍ يروده
 أي في مسارح يسرح فيها . والكفاف : الحباله يصيدون بها الظباء تيسل كالطوق . والمخزم : المنظم .
 يطيح : يسرع . والشعراء : ذباب يلسع . والمستفيض : الذي يفيض بالقنداح يضرب بها . والموشم :
 قلبي به علامات . وصراحيه : أبيضه . والآخني : نوع من الثيلاب . والمتحم : الذي به خطوط
 خضر وحمر . والأصلم : المتأصل الأذن .

وكأنما ابتعث القوارس أرنبا أو ظبي رابية خفافاً أشعبا
 وكأنما طردوا بجني عاقل صدعاً من الأزوى أحس مكلباً^(١)
 وهذان البيتان هما الموضع الوحيد فيما بين أيدينا من شعر الصعاليك الذي
 ورد فيه ذكر للأرنب والوعلى في صدد الحديث عن العدو .

وإذا كان حاجر يشبه نفسه بالظبي الهارب من جوارح الطير فإن أبا خراش
 يعكس هذه الصورة فيشبه نفسه بالعقاب تطارد صيداً ، فهو يقدم لنا في
 بعض قصائده صورة رائعة قوية لتلك المطاردة ، فهي عقاب كاسرة منقضة
 تطلب الصيد ، ولها فرخ في رأس جبل ، تحمل له طعامه مما تصيد حتى
 امتلأ وكرها بعظامه ، وقد رأت على بعد صيداً فتحفزت له ثم انقضت فوقه
 في أرض فضاء ليس فيها ما يستره :

كأنى إذ علّوا ضمنتُ بزى من العقبيان خائنة طلوبا
 جريمة ناهض في رأس نيق ترى لعظام ما جمعت صليبا
 رأت قنصاً على قوت فضمتُ إلى حيزومها ريشاً رطيبا
 فلاقته مبلقعة برّاز فصادم بين عينيها الجبّوبا^(٢)
 وهنا أيضاً الموضع الوحيد فيما بين أيدينا من شعر الصعاليك الذي ورد
 فيه ذكر العقاب في صدد الحديث عن شدة العدو .

ويشبه أبو خراش ابنه ، والقوم يطاردونه بعد غارة له عليهم ، بطائر
 خفيف العظم ، قليل اللحم ، عائد إلى وكره ، وقد دنا الليل ، فهو جاد في
 طيرانه يسط جناحيه ويقبضهما في شدة وقوة :

(١) حجة البحرى / ٦٥ - الخفاف : الخفيف القلب المتوقد . الأشعب : ما كان بين
 قرنيه بعيداً جداً . الصدع بتحريك الدال وتسكينها : القى الشاب القوى . المكلب : معلم الكلاب
 الصيد . وانظر البيتين أيضاً في الأغاني ١٢ / ٥٢ (يولاق) مع اختلاف لفظي .

(٢) ديوان الهنليين ١٣٣ / ٢ ، ١٣٤ - الخائنة : العقاب تنقض على الصيد . الناهض
 هنا المراد به فرخها ، وقوله « جريمة ناهض » يريد به أنها تكسبه ، وجريمة القوم : كلهم .
 النيق : التسراخ في الجبل . الصليب : الهوك وهو النسم ، يقال : صلب العظام إذا استخرج ودكها .
 على قوت أي على سبى . البراز : الفضاء البارز . الجبّوب : الأرض .

كَأَنَّهُمْ يَشْبَبُونَ بِطَائِر خفيف المشاش عظمه غير ذي نخضر
 يبادر قرب الليل فهو مُهَابِدٌ يبحث الجناح بالتبسط. والقبض^(١)
 وقد تساءل : أين الخيل بين هذه القصائل المختلفة من الحيوان السريع !
 ولماذا لم يذكرها الصعاليك العدائون في مجال حديثهم عن العدو كما ذكروا هذه
 القصائل ؟

يبدو لي أن سبب ذلك أن الصعاليك العدائين كانوا ينظرون إلى الخيل على
 أنها أقل منهم سرعة ، وهي نظرة يؤيدها واقع حياتهم ، وقد رأينا في الفصل
 الأول من الباب الأول أن رواة الأدب العربي يذكرون عنهم أنهم كانوا
 يسبقون الخيل ، ويروون عنهم قصصاً في هذا الصدد ، ومهما يكن من مبالغة
 في هذه القصص فإنها تصور أصداء حقيقة واقعية ، وقد فسرنا هذه الظاهرة في
 حياة الصعاليك العدائين عند تفسيرنا الجغرافي لظاهرة التصعلك ، وانتهينا إلى أنها
 — على ما فيها من غرابة — ليست بالمستحيلة في الحياة الواقعية . فإذا أضفنا
 إلى هذا أن الصعاليك العدائين لم يكونوا على صلة دائمة بالخيل ، وإنما كانت
 صلتهم بها صلة عداوة ، وهي تلك الصلة بين المطارد والطريد ، مما جعل نفوسهم
 مشبعة بالسخط على ذلك الحيوان السريع الذي يستغله أعداؤهم في مطاردتهم ،
 استطعنا أن نجد تعليلاً آخر لهذه المسألة .

ولهذا نلاحظ أن الصعاليك العدائين لا يذكرون الخيل في صدد الحديث
 عن عدوهم إلا مقترنة بأنهم أسرع منها ، أو على الأقل بأنها ليست أسرع منهم ،
 كما نرى عند تأبط شرا الذي يصرح بأنه يسبق الخيل عدوًّا على قلبيه ، ويكسر
 طلائعها المتقدمة الغبار الثائر من عدوه :

يَفُوتُ الْعِجَادَ بِتَقْرِيْبِهِ وَيَكْسِرُ هَوَادِيهَا الْقَسْطَلَا^(٢)

(١) ديوان الهذليين ٢/ ١٥٩ . ولسان العرب : مادة (هــذ) ومادة (هــب) — المشاش :
 جمع مشاشة وهي رأس العظم الممكن المنقح . النخض : اللحم أو المكتنز منه . المهابذ : الذي يسرع
 في طيرانه ، من المهابة وهي الإسراع في الطيران .

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ١٧٦ . وحجاسة ابن السجري / ٤٧ — التقريب : ضرب
 من العدو . القسطل : الغبار .

ويحرص الصعاليك العداءون على تسجيل ظاهرة طريفة في حديثهم عن العدو ، وهي حركة ثيابهم عند عدوهم ، وما يفعلونه أو تفعله الرياح بها ، وهي ظاهرة تستمد طرافتها من صدقها وبساطتها وواقعيتها ، ومن أطراف الأشياء في هذا الصدد أنهم أكثر ما يذكرون ثيابهم يذكرون أنها بالية ممزقة .

يصف صخر الغي صاحباً له بأنه يعدو فيرفع باطن ركبتيه ثوبه الخلق :

ترى عدوه صُبحَ إقوائه إذا رفع المأبضان الحشيفا
كعدو أقبَّ رباع ترى بفسائله ونسائه نسوفا^(١)
أما أبو خراش فتوبه الخلق البالي يهتز في أثناء عدوه كأنه ينتفض من حمى
تلازمه :

فعديتُ شيئاً والدريس كأنما يُزعزعه وزد من الموم مردم^(٢)
وهو أحياناً يضيق بشيابه لأنها تعوقه عن سرعة العدو فيطرحها عنه :

ورفعتُ ساقاً لا يُخافُ عثارها وطرحْتُ غنى بالعرء ثيابي^(٣)
وفي قصيدة أخرى يصف جماعة من العدائين وقد ألقوا ثيابهم عنهم من شدة عدوهم :
وعادية تلقى الثياب وزعتها كرجل الجراد ينتحي شرف الحزم^(٤)
ويتحدث تأبط شرا غن مطاردة حاجز الأزدي وأصحابه له ، ويصفهم بأنهم قد
ألقوا عن أجسادهم ثيابهم البالية ، وشعروا عن سيقانهم ليسهل عليهم إدراكه :
فتعتتُ حِصْنِي حاجز وصحابه وقد نبذوا خلقانهم وتشنعوا^(٥)

(١) شرح أشعار الهذليين ٤٨/١ . وانظر : ص ٢٢٠ من هذا البحث .

(٢) ديوان الهذليين ١٤٤/٢ . والأغاني ٥٦/٢١ . وحجاسة البحري ٦٣/ - الدريس : الثوب الخلق . الموم : الحمى . المردم : الملازم .

(٣) ديوان الهذليين ١٦٨/٢ ، وروى للأعلم ولتأبط شرا ، وهذا الاختلاف لا يضيرنا في شيء فهم جميعاً صعاليك .

(٤) المصدر السابق ١٣٢ - الرجل بالكسر : القطعة العظيمة من الجراد . الحزم : المكان المرتفع كالحزن .

(٥) الأغاني ٢١٨/١٨ ، وفيه « تمتعت » وواضح أنه تحريف - تمتعه : حركه بعنف . تشنعوا : تهيأوا للقتال .

وبما يتصل بهذا حديثهم عن نعالهم ، ووصفها بأنها بالية ممزقة ، لكثرة سيرهم وعلوهم . يتحدث تأبط شرا عن صعوده إلى المرقبة بنعل بالية ممزقة قد تشدها بسيور بعد أن جعل تحتها نعلا أخرى :

بشَرَّة خَلَق يُوقِي البَنَانُ بِهَا شَدَدَتْ فِيهَا سَرِيحاً بَعْدَ إِطْرَاقٍ^(١)

ويصف الشنفرى نعليه بأنهما ممزقتان كأنهما أشلاء السمانى ، وبأنه خلعهما فى بعض طريقه إما ليسهل عليه علوه ، وإما لأنهما لم تعودا صالحتين للاستعمال لتمزقهما الشديد :

وَنَعْلَ كَأَشْلَاءِ السَّمَانَى تَرَكْتَهَا عَلَى جَنْبِ مَوْرِ كَالنَّحِيْزَةِ أَغْبِرًا^(٢)
وهى صورة نجدها عند أبى خراش أيضاً :

وَنَعْلَ كَأَشْلَاءِ السَّمَانَى نَبَذْتُهَا خِلَافَ نَدَى مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ أَوْرِهِمْ^(٣)
ومن الطريف أننا نجد لأبى خراش قصيدة نظمها فى مدح رجل حذاه نعلين جديدتين^(٤) ، وهو فيها مقلد له هذا الصنيع تقديراً كبيراً ، معجب بنعليه الجديدتين ، يصفهما ، ويصف صنعهما ، ويتحدث عن قيمتهما فى حياته ، إذ يروح بهما متأنقاً للهوى ، ويستخدمهما فى سيره وعلوه ، ومن يبرى فلفل له فيهما مآرب أخرى ! !

وهنا نقف لتساءل : أين شعر السليك فى العلو ، وهو الصعلوك العداء الرجل الذى يضرب به المثل فى سرعة العلو ، والذى تحدث عن سرعته رواة

(١) المفضليات / ١٧ - الشرقة : النعل البالية . والسريح : القد أو السيور التى تشدها النعال . والإطراق : أن يجمل تحت النعل مثلها .

(٢) ديوانه المطبوع / ٣٥ . وديوانه المصور : لوحة رقم ١٠ ، وفيه « وأشلاء نعل كالسمانى » المور : الطريق الموطوء المستوى . والنحيزة : لعل أقرب معانيها إلى معنى البيت أنها نسيجة شبه الخزام تكون على الفسطاط .

(٣) ديوان الهذليين ٢ / ١٣١ - الرهم : المطر الضعيف الساكن اللين .

(٤) انظرها فى المصدر السابق / ١٤٠ ، ١٤١ . وفى الأغاني ٢١ / ٥٧ ، ٥٨ .

أخباره والشعراء المعاصرون له ، والذي اتخذه الشعراء من بعدُ مادةً طريفةً لأحاديثهم عن السرعة ؟

الحق يقال إنها مسألة غريبة ألا نجد للسليك شعراً يتحدث فيه عن سرعة عدوه ، ولكن يبدو أن أقرب الفروض لتعليل هذه المسألة هو أن شعر السليك في عدوه وسرعته قد فقد . وليس من شك عندى في أن جانباً كبيراً من شعر السليك قد فُقد ، فليس من المعقول أن كل ما نظمه السليك من شعر لا يعدو تلك الأبيات القليلة المتفرقة في مصادر الأدب العربى المختلفة . وإذا كنا قد لاحظنا أن مجموعة السليك الفنية لا تضم حديثاً عن هذا الجانب من حياته ، فإننا نلاحظ أيضاً أنها لا تصور جوانب حياته الأخرى تصويراً كاملاً أو شبه كامل ، وإنما هي مقطوعات قليلة لا تكاد تصور حياة صاحبها . أما صورة حياة السليك فصدها الأول أخبار الرواة وأقاصيصهم عنه . ومع ذلك فشعر السليك — كما يبدو مما وصل إلينا — ليس من الجودة بحيث نأسف على ضياعه ، وقديماً سئل الأصمعى عنه فقال « ليس من الفحول »^(١).

الغزوات على الخيل :

ويتحدث الشعراء الصعاليك أيضاً عن غزواتهم على الخيل . وليس هناك ما يمنع الصعاليك من استخدام الخيل في غزواتهم إذا وجدت ، وليس في هذا ما يطن في مقدرتهم على العدو ، فهي مقدره معترف لهم بها . هذا إلى أن بعض الصعاليك لم يكونوا عدائين .

وقد عرفت أسماء خيل بعض الصعاليك ، ففقرمى فرس عروة بن الورد^(٢) ، والنحام فرس السليك^(٣) ، واليحموم فرس الشنفرى^(٤) .

(١) فحولة الشعراء (مخطوطة) ورقة رقم ١٥ .

(٢) ديوانه / ١٢٠ . ولسان العرب : مادة (قروى) .

(٣) القتالى : النوادر / ١٨٥ . ولسان العرب : مادة (نحم) .

(٤) ديوانه المطبوع / ٤٠ . وحامه الخالدين (مخطوطة) ورقة رقم ٤٠٠ .

ويتحدث الصعاليك أحياناً عن غزواتهم على الخيل مقترنة بغزواتهم على الأقدام ، على نحو ما رأينا في الفصل الأول من الباب الأول من أبيات تأبط شرّاً وعروة . ويتحدثون أحياناً أخرى عن غزواتهم على الخيل حديثاً مستقلاً . وهي ظاهرة أكثر ما نجدها في شعر عروة .

فهو يتوعد حيناً أولئك الأغنياء المطمئنين الذين حسبوا أن لن يجرؤ على غزوهم أحد ، وينذرهم بأنه سوف يفزعهم بخيل نشطة تطرد أمامها إبلهم المنفرة طرداً عنيفاً :

سَيُفْرِعْ بَعْدَ الْيَأْسِ مَنْ لَا يَخَافُنَا كَوَاسِعُ فِي أُخْرَى السَّوَامِ الْمُنْفَرِ^(١)
وحيثما آخر يصرح بأنه لن يكف عن المغامرة في سبيل الغنى ومعه جماعة من الصعاليك الفرسان حتى يحقق أهدافه أو يُعذر نفسه :

فإِنِّي لَمُسْتَأَفُّ الْبِلَادِ بِسُرْبَةٍ فَمَبْلَغُ نَفْسِي عُذْرُهَا أَوْ مَطْوَفُ^(٢)
ويشير أحياناً أخرى إلى نجاحه من مأزق حرج على ظهر جواده « قرمل » ، وهو يعد ذلك منةً لهذا الجواد لا تنسى :

كَلِيلَةُ شِيَاءِ الَّتِي لَسْتُ نَاسِيَا وَلَيْلَتُنَا إِذْ مَنْ مَا مَنْ قَرْمَلِ^(٣)
ويصرح السليك ، ذلك الرجل الذي يضرب به المثل في سرعة العدو ، بشدة حاجته إلى فرسه في أثناء غارات أصحابه الفرسان على أهدافهم :

وَمَا يَدْرِيكَ مَا فَقَرَى إِلَيْهِ إِذَا مَا الرِّكْبُ فِي نَهَبِ أَغَارُوا^(٤)
وكذلك الشنفرى ، ذلك الرجل الآخر الذي يضرب به المثل أيضاً في سرعة العدو ، يتحدث عن فرسه حديثاً طريفاً ، ففرسه لا عيب فيه سوى هزاله ، ولكنه جرىء مقدام ، تطنخى جرأته وإقدامه في أثناء القتال على هزاله ، بل إن الخيل السمينة لا تستطيع الوقوف أمامه :

(١) ديوانه / ٨٣ .

(٢) ديوانه / ٩٢ .

(٣) ديوانه / ١٢٠ .

(٤) لسان العرب : مادة (ركب) .

ولا عيبَ في اليخُموم غير هزاله على أنه يوم الهياج مسمينُ
 وكم من عظيم الخلق عبل موثق حواه ، وفيه بعدَ ذلك جنون^(١)
 وطرافة الصورة تأتي من أن الشنفرى يُضقى صفات التصعلك على جواده ،
 فهو جواد هزيل كصاحبه ، جنى عليهما الفقر والجوع ، ولكنه كصاحبه
 أيضاً جرىء مقدام ، كأنما يشعر كما يشعر صاحبه بأن الحق للقوة ، وأن الرزق
 في الشجاعة ، وأن الجواد الحامل كالصعلوك الحامل . وتأتى طرافة الصورة أيضاً
 من أن الشنفرى يلون صورة جواده بألوان مغامراته هو ، فإذا جواده صورة منه ،
 كم حوى من خيل سمينة قوية موثقة ، كشأنه هو مع أفراد مجتمعه الأغنياء ،
 وهكذا يقدم لنا الشنفرى جواده على أنه « جوادٌ صعلوكٌ » .

فإذا ما قتل الشنفرى ، وفزع صديقه الحميم وأستاذه نابط شراً لأحزانه
 عليه يستمد منها رثاءه له ، لم ينس ذلك « الجواد الصعلوك » فخصه بيتين
 راثعين من مرثيته ، عند حديثه عن الوسائل التى كان يعتمد عليها الشنفرى في
 قتاله ، عزمه ، وقوسه ، وسيفه ، وفرسه :

وأشقرُ غَيْدَاقُ الجراء كأنه عُقابٌ تَدَلَّى بين نِيقَيْنِ كاسرُ
 يَجْمُ جُمُومَ البحر طال عُبابه إذا فاض منه أولُ جاش آخر^(٢)

الآراء الاجتماعية والاقتصادية :

من الطبيعى أن يعلل الشعراء الصعاليك لمغامراتهم الدامية التى وهبوا
 لها حياتهم ، وأن يفسروا الدوافع التى دفعتهم إلى تلك الثورة التى أشعلوها فى
 وجه مجتمعهم ، حتى تكون حركتهم التى وصفها مجتمعهم بالشذوذ قائمة
 على أساس معلن مسبب ، وحتى تكون إجاباتهم حاضرة لكل من يسألهم :

(١) ديوانه المطبوع / ٤٠ . وحاسة الخالدين (مخطوطة) ورقة رقم ٤٠٠ .
 (٢) ديوان الشنفرى فى الطرائف الأدبية / ٢٨ . وحاسة الخالدين (مخطوطة) ورقة رقم
 ٤١٧ - الفيداق : الطويل . والجراء : الجرى . والنيق : أرفع موضع
 فى الجبل . وجم الماء : كثر واجتمع .

لم فعلتم هذا ؟ وحتى يهينوا للباحثين في حركتهم أن يعرفوا أسبابها ودوافعها .
وقد رأينا في الباب الأول أن حركة الصعاليك قامت نتيجة لعوامل ثلاثة :
عامل جغرافي ، وعامل اجتماعي ، وعامل اقتصادي ، وأن العامل الجغرافي -
وإن يكن أول هذه العوامل - ليس العامل المباشر ، وإنما العامل الاجتماعي
والعامل الاقتصادي هما العاملان المباشران في قيام هذه الحركة . وليس من شك
في أن الشعراء الصعاليك كانوا يشعرون بهذه المعاني شعور المتصل بها الآخذ
بأسبابها . وقد أدرك الشعراء الصعاليك عن طريق هذا الشعور أن حديثهم عن
العامل الجغرافي لن يجدي حركتهم شيئاً ، ولن يضيف إلى حيثيات الحكم في
قضيتهم ما يفيدها ، لأنه عامل عام يشترك في التأثير به مجتمعهم كله ، وإنما
الذي ينفع قضيتهم ، ويصلح مادةً للدفاع عنها العاملان الآخران الاجتماعي
والاقتصادي ، ومن هنا حرصوا كل الحرص على تسجيل آرائهم الاجتماعية
والاقتصادية .

ومن الطبيعي أن يتحدث الصعاليك عن انقطاع الصلة بينهم وبين قبائلهم ،
تلك الظاهرة التي كان لها أكبر الأثر في تصعلكهم ، والتي تُعد نقطة التحول
أو الحد الفاصل بين حياتهم القبلية بما فيها من توافق اجتماعي ، وبين حياتهم
المتصعلكة بما فيها من شذوذ .

يعلن حاجز في صراحة أنه - وإن يكن أزدياً من سلامان - أصبح منتسباً
إلى بني مخزوم من قريش فقيهم حلفه ، وهم لا يتخذونه إذا استنصر بهم
وإنما يسرعون شجعاناً إلى نجدته :

قوى سلامانُ إذ ما كنت سائلاً وفي قريش كريم الحلف والنسب
إني متى أدعُ مخزوماً ترى عُناقاً لا يرْعَشون لضرب القوم من كُشب^(١)
ويدعو قيس بن الحداية أن يجزي الله عنه خيراً أولئك الذين حسموه
بعد أن خلعه قومه ، فما يملك شيئاً ليجزيهم به ، وهو الصعلوك الفقير ، سوى

(١) الأغاني ١٢/٤٩ (بولاقي) - العتق : الجماعة من الناس والرؤساء .

ذلك الدعاء الصادق الصادر من أعماق نفسه :

جَزَى اللهُ خَيْرًا عَنْ خَلِيعٍ مُطَرَّدٍ رجلاً حموه آل عمرو بن خالد
وماله لا يدعو لهم وقد آووه ، وعطفوا عليه ، ونصروه بعزم وشرفهم وبأبنائهم
الأبطال الأجداد :

وقد حذبت عمرو على بعزها وأبنائهما من كل أروع ماجد
وهو لهذا يعلن على الملأ أن هؤلاء القوم الذين لجأ إليهم ، إنما هم الأصحاب
والأهل والثروة والنصر :

أولئك إخواني وجل عشيرتي وثروتهم والنصر غير المحاردي^(١)
بل إن أبا الطمخان يعلن أنه قد نسي أهله في جوار من استجار بهم بعد
خلعه ، وأصبح كأنه واحد منهم ، حتى لقد عرفت كلابهم ثيابه فما نهر عليه :

وقد عرفت كلابهم ثيابي كأني منهم ونسيت أهلي^(٢)
ولا ينسى الصعاليك الخلاء خلع قبائلهم لهم حتى في آخر لحظات حياتهم ،
حين يمر بهم ماضيهم الحافل بالمغامرة والكفاح ، فإذا قصة الخلع هي الحد
الفاصل بين حياتين ، والسر الأول في تلك الحياة القاسية التي عاشوها ، والتي
يودعونها في هذه اللحظات . هذا قيس بن الحداية يقاتل أعداءه الذين تكاثروا
عليه حتى قُتل وهو يرتجز ذاكرًا أول ما يذكر قصة خلعه وبغض أهله له .
أنا الذي تخلعه موالبي^(٣) وكلهم بعد الصفا قاله^(٤)
وكلهم يقسم لا يباليه^(٥)

وإذا كان الصعاليك الخلاء والشذاذ قد صوروا في شعرهم هذه العقد
النفسية التي كان منشؤها انقطاع الصلة بينهم وبين قبائلهم ، فإن الصعاليك
الأغربة لم يتحدثوا في شعرهم عن ظاهرة اللون التي كانت عقدة العقد في حياتهم ،
والتي كانت سبباً في انعدام التوافق الاجتماعي بينهم وبين قبائلهم ، وفيما عدا

(١) الأغاني ١٣/٥ (بولاقي) - المحاردي : من حاربت الناقة إذا انقطعت ألبانها أو قلت .

(٢) الجاحظ : الحيوان ١/٣٨٠ .

(٣) الأغاني ١٣/٨ (بولاقي) . وابن حبيب : من نسب إلى أمه من الشعراء ٦/ .

تلك المقطوعة التي أشار فيها الشنفرى إلى أنه هجين^(١) لا نكاد نعر فيها بين أيدينا من شعر الصعاليك الأغربة على إشارة إلى هذه الظاهرة ذات الأثر البعيد في حياتهم .

والذى يبدو لى تعليلا لهذا هو أن الصعاليك الأغربة كانوا يجنون غضاضة فى الحديث عن هذه الظاهرة التى كانت مصدر احتقار المجتمع الجاهلى لهم ، حتى إن إشارة الشنفرى إليها فى تلك المقطوعة السابقة كانت إشارة ملتوية تبدو عليها محاولة التنصل منها ، أو على الأقل الدفاع عنها . كما أن حديثهم عنها لا يفيدهم شيئا فى قضيتهم ، لأنها ظاهرة خلقية لا يد لهم فيها ، ولا قدرة لهم على تغييرها ، وهذا عكس الفقر الذى كثر حديثهم عنه ، فهو ظاهرة يستطيعون دفعها وتغييرها ، والمقصر فى هذا من الصعاليك الحاملين عليه وزره ، وعليه لعنة الصعاليك العاملين ، وهذا - بطبيعة الحال - إذا لم يكن فيما فقد من شعر الصعاليك الأغربة حديث عنها .

أما عقدة العقد التى اشترك فيها جميع الصعاليك ، وتحدث عنها جميع شعرائهم فهى الفقر ، تلك الظاهرة الاجتماعية الاقتصادية التى كانت السبب الأقوى فى تصعلكهم .

ويتحدث الشعراء الصعاليك فى أكثر من موضع من شعرهم عن فقرهم ، وأسبابه ، وتأثيره فى أجسامهم ، وأثره فى حياتهم الاجتماعية ، والوسائل التى يسلكونها للتخلص منه ، والأسباب التى يحرصون من أجلها على التخلص منه ، إلى غير ذلك من ألوان الحديث .

يصور الأعمى الهذلى فقره فى صورة بلوية ساذجة ، ولكنها طريقة :

زَعَمْتُ خَنَازِرَ بَأْنِ بُرْمَتَنَا تَغْلَى بِلَحْمٍ غَيْرِ ذِي شَحْمٍ^(٢)
والشاعر الصعلوك هنا قد سجل على نفسه الفقر . ولن تجديه شيئا هذه

(١) ديوانه المطبوع ٤٠ / قصيدة حرف (الك) ، وديوانه المصور لوحة رقم ٢ .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١ / ٦٥ ، ولسان العرب مادة (خنز) وفيه « تجرى » مكان

« قتل » - وخناز : لقب امرأة ، والخناز فى اللغة : المنتنة .

المحاولة « المكشوفة » للداراة فقره حين ادعى أنه زعم من هذه المرأة التي يسبها ،
ومع ذلك فهو يردّ عليها في آخر مقطوعته بأنه يفخر بأكل هذا اللحم الهزيل ،
ما دامت نفسه لم يمسه عار ولا إثم :

إنا لنأكل لحمنا ، فاستيقنى في غير منقصة ولا إثم^(١)

وفي قصيدته البائية المشهورة يرسم صورة إنسانية مؤثرة له ، وهو يفر من
أعدائه بعد مغامرة من مغامراته في سبيل العيش ، وقد ذكر أهله الفقراء في
صحرائهم المحبدة ، وحاجة أولاده الصغار الشعث الذين خلفهم وراءه في العراء
ولا شيء لهم سوى تلك الذلة التي تبدو عليهم كلما نظروا لمخاً إلى أقاربهم في
انتظار شيء يجودون به عليهم :

وذكرتُ أهلي بالعرا ، وحاجة الشعث التوالب

المصرمين من التـلا د اللامحين إلى الأقارب^(٢)

ويتحدث الشعراء الصعاليك عن أسباب فقرهم ، وهم يردونه عادة إلى
كرمهم وإسرافهم . فعروة أبو الصعاليك يرد فقره إلى بذله ماله للفقراء المحتاجين
الذين يأتون إليه يشكون فقرهم وعوزهم وكثرة أولادهم :

إذا قلتُ قد جاء الغنى حال دونه أبو صبيّة يشكو المفاقر أعجفُ

له خلّة لا يدخل الحق دونه كريمُ أصابته خطوب تجرّفُ^(٣)

ويسجل تأبط شراً في قافيته المفضلية حواراً بينه وبين شخص يعذله على
كرمه وإسرافه ، يصور نفسه فيه كريماً لا يُبني على شيء عنده ، مغامراً في
سبيل الحصول على مزيد من المال ليرضى به مطالب كرمه ، وماذا في الحياة
يدفعه إلى الحرص ما دام كل ما فيها فانياً مهما يحرص الإنسان عليه :

بل مَنْ لَعَذَّالَةَ خَذَّالَةَ أَشْبَحَ حَرَقَ باللوم جلدى أى تحراق

يقول أهلكت مالا لو قنعت به من ثوب صدق ومن برّ وأعلاق

(١) شرح أشعار الهذليين ١/ ٦٦ .

(٢) المصدر السابق ٥٨/ . وانظر ص ٢١٣ من هذا البحث .

(٣) ديوانه ٩٢/ . وحياة أبي تمام ٤/ ١٢٢ .

عاذلتى إن بعض اللوم مَعْنَفَةٌ وهل متاع وإن أبقيتهُ باق^(١)
ويذكر أبو خراش أنه كريم يدعو امرأته دائماً إلى ألا تدخر شيئاً ، ولا تبقى
لغد شيئاً ، فإذا لم يجد في غد بعض زادها فسيحاول أن يحصل لها على زاد
غيره ، أو فلتمسك فيها عن الطعام :

لقد علمت أم الأديبر أننى أقول لها : هدى ولا تدخرى لحمى
فإن غداً إلا نجد بعض زادنا ننى لك زاداً أو نعدك بالأزم^(٢)
ويتحدث الشعراء الصعاليك أيضاً عن أثر الفقر في أجسامهم ، وما يحمله
لهم من جوع وهزال . وقد مرّ بنا^(٣) حديث السليك عن فعل الجوع به في
أشهر الصيف المحرقة ، وما كان يصيبه من إغماء ودوار ، حتى لقد أوشك أن
يفقد حياته صريع الفقر والجوع والهزال ، أو — بعبارة أخرى — صريع
الصعلكة :

وما ناتها حتى نصعلكت حقة وكدت لأسباب المنية أعرف
وحنى رأيت الجوع بالصيف ضرني إذا قمت تغشاني ظلال فأسدف
ويرسم تأبط شراً في بعض شعره صورة لجسمه دقيقة كل الدقة ، صورة
الشخص الذى لا يبقى من الزاد إلا ما يتعلل به ، حتى لقد نشرت أضلاعه ،
والتصق معاه :

قليل ادخار الزاد إلا تعلقة فقد نشرت الشرسوف والتصق المعى^(٤)
وينظر بعض الشعراء الصعاليك إلى المسألة من زاوية أخرى ، فيتحدثون
عن صبرهم على الجوع واحتمالهم له ، متخذين من هذا الحديث مجالا للفخر

(١) المفضليات / ١٨ - الخدالة : الذى يخذله في إرادته ويخالفه فيها . والأشب : المخلط
عليه المعرض . والبيت الثانى معناه أنه يأمره أن يبخل ويمسك عليه ماله حتى يستغنى عن الغزو
ولا يحتاج إلى طلب المال (انظر شرح ابن الأنبارى) .

(٢) ديوان المهذلين ٢ / ١٢٥ - هدى : أى أقسى هديتك وما عندك . الأزم : الإمساك
وترك الأكل .

(٣) انظر الباب الأول : الفصل الأول (التعريف بالصعلكة) ص ٣٠ .

(٤) حياصة ابن تمام ٢ / ٢٧ ، والأغانى ١٨ / ٢١٧ .

بقوة نفوسهم وصدق عزائمهم ، ولكننا نلاحظ أن بين النظرتين فرقاً في المجال :
فأما الذين يشكون من الجوع فإنهم يتحدثون عن ذلك في مجال حديثهم عن
مغامراتهم المتمردة ، وأما الذين يتحدثون عن صبرهم عليه فإنهم يتحدثون عن
ذلك في مجال حديثهم عن قوة نفوسهم .

ويقدم لنا أبو خراش صورةً نبيلةً لذلك الجوع . الذي يُبطل حُبسه حتى
يَمَله فيمضي عنه دون أن يلحقه منه عار ، وهو يكتنى بالماء القراح في حين
يستمتع البخلاء الأشحاء بزادهم ، فإذا ما تلظى الجوع في بطنه فإنه يرده ويغلبه
على أمره ، وهو يزتر عياله على نفسه بالطعام ، وهو يفعل ذلك كله حتى يعيش
حياةً كريمةً مرفعةً لا تسقط إلى مهاوى المذلة والهوان والعار حيث يكون الموت
خيراً من الحياة :

وإني لأتوى الجوعَ حتى يَمَلني فيذهبَ لم يَدْنَسْ ثيابي ولا جِرْمي
وأغْتَبِقُ الماءَ القَرَّاحَ فأنْتَهِي إذا الزادُ أَمْسَى للمزَلَجِ ذا طَعْمِ
أردُ شُجَاعَ البَطْنِ قد تعلّمينه وأوثرَ غَيْرِي من عيالك بالطُّعْمِ
مخافةً أن أحيا برغم وذلة وللموتُ خيرٌ من حياةٍ على رِغْمٍ^(١)
ومن الطبعي أن يتحدث الشعراء الصعاليك عن تلك السياط النفسية التي
يصبها الفقر على نفوسهم ، والتي تحدثنا عنها في الفصل الأول من الباب الأول .
وفي شعر عروة أحاديث طويلة عن هوان منزلة الصعاليك الاجتماعية ،
ومقامهم خلف أديار البيوت ، وسوء منظرهم في هذا المقام الذليل ، وعن تلك
الغضاضة التي يراها عليهم ، وكيف يتوارون من الناس ، فلا يقيمون إلا حيث
لا يراهم أحد ، وعن ضيق أقاربهم حتى ليوشكوا أن ينكروا قرابتهم لهم :

رأيتُ بنيَ لبنيَ عليهم غَضاضَةٌ بيوتهمُ وسطَ الحلولِ التكنُفِ^(٢)
ذريني أطوّفُ في البلادِ لعلني أخليك أو أغنيك عن سوءِ مَحْضَرِ
فإن فاز سهمٌ للمنية لم أكن جزوعاً ، وهل عن ذاك من متأخر

(١) ديوان الهذليين ١٢٧/٢ ، ١٢٨ ، والأغاني ٢١/٦٠ - المزج : البخيل .

(٢) ديوانه ٩٤ .

وإن فاز سهمى كفكم عن مقاعد
إذا المرء لم يطلب معاشاً لنفسه
لكن خلف أدبار البيوت ومنظر^(١)
شكا الفقر أولام الصديق فأكثر
وصار على الأدنين كلاً ، وأوشكت
صلوات ذوي القربى له أن تنكرا^(٢)
ويرسم السليك صورة إنسانية مؤثرة لما تلاقيه خالاته الإمام السود من الضيم
والهوان ، وهو عاجز لفقره عن أن يفعل من أجلهن شيئاً حتى ليشيب رأسه مما
يقاسيه نفسياً من أجلهن :

أشاب الرأس أنى كل يوم أرى لى خالة وسط الرحال
يشق على أن يلقين ضياء ويعجز عن تخلصهن مالى^(٣)
والسليك فى هذين البيتين لا يقصد خالاته القربيات شقيقات أمه بالذات ،
ولكنه يقصد بهن عامة الجنس ، فهو يصور فيهما هوان الجنس الأسود الذى
تنتمى إليه خالاته ، ويقول المبرد « وإنما توجع لخالاته لأنهن كن إماء »^(٤) .
ومن الطبيعى أن يتحدث الشعراء الصعاليك ، بعد أن عرضوا لمشكلة الفقر
وأثرها وأسبابها ، عن آرائهم فيها ، وكيف يكون السبيل إلى حلها . والسبيل الوحيد
إلى ذلك عندهم ، كما أسلفنا ، الثورة على المجتمع ، أو بالذات على طبقة المالة
فيه ، واغتصاب حقوقهم منها ، معتمدين على قوتهم ، مهما يكلفهم ذلك من ثمن .
وقد صور الشعراء الصعاليك هذا كله فى شعرهم ، فكما تحدثوا عن
مغامراتهم وهى الناحية العملية من حلهم للمشكلة ، تحدثوا عن الناحية النظرية
فيها ، فسجلوا آراءهم الاجتماعية والاقتصادية تسجيلاً صادقاً بارعاً .
فهم يحتقرون تلك الطائفة الخاملة من الصعاليك الذين قبلوا وضعهم
الاجتماعى الذليل وقنعوا به ، فعاشوا على هامش المجتمع ينتظرون من فضلات

(١) ديوانه / ٦٧ .

(٢) ديوانه / ١٩٠ .

(٣) المبرد : الكامل / ٢٩٩ . والبخداى : خزانة الأدب ٣ / ١٢٨ وفيها « يعز » مكان

« يشق » .

(٤) الكامل / ٢٩٩ .

الأغنياء ما يسلون به رفقهم ، ويعلمون ذلك الغنى كل الغنى ، لا يفكرون إلا في أنفسهم يلتصقون لها ذلك الزاد القليل الدليل ، أما التفكير في أن يكون لهم من الثراء ما يُطعمون به غيرهم ، ويسجلون به لأنفسهم أحاديث خالدة تتناقلها الأجيال من بعدهم ، فهذا أبعد الأشياء عن محيط نفوسهم الضعيفة التي تحيا حياة خاملة متكاسلة أقصى ما فيها من عمل خدمة النساء « الأرستقراطيات » إذا احتجن إليهم .

أما الصورة التي يريدون أن يكون عليها أفراد جماعة الصعاليك فهي صورة الصعلوك المغامر القوي النفس والجسد ، الذي يشرق وجهه في أوقات الشدة ، والذي يهب حياته للمغامرة ، ويبت الرعب في قلوب أعدائه حتى ليخشونه في وجوده وفي غيابه ، فإذا استغنى فإنه جدير بهذا الغنى لأنه حصل عليه بقوة ، وإذا جاءه أجله في ميدان كفاحه فليمض إلى ربه حميداً مبرأ من العار والذم^(١) .

وهم حريصون كل الحرص على أن يفرق المجتمع بين هاتين الطائفتين ، وكم يتمنون لو عرف لكل طائفة قيمتها ، فاحترق الأولى ، وقدر الأخرى حتى قدرها . وهذا السليك يوضح ذلك الفرق لصاحبه حتى تكون على بينة من أمرها فلا تخطئ بينه وبين صعاليك الطائفة الأولى الخاملة الضعيفة ، لعلها إن أدركت هذا الفرق كفت عن هجره ونال إعجابها :

ألا عَتَبْتُ عَلَى فَصَّارَمَتِي	وأعجبها ذوو اللمم الطوال
فإني يا ابنة الأَقْوَامِ أُرِي	على فَضْلِ الوَضِيِّ من الرجال
فلا تَصَلِّي بصعلوك نَئُوم	إذا أَمْسَى يُعَدُّ من العيسال
ولكنْ كُلَّ صعلوك ضُروب	بنصل السيف هامات الرجال ^(٢)

(١) انظر الحديث عن هاتين الصورتين : صوري الصعلوك الخامل والصعلوك العامل في رائية عروة في ديوانه / ٧٣ - ٨٢ والأصعبيات / ٢٩ ، ٣٠ وجمهرة أشعار العرب / ١١٥ ، وحجاسة أبي تمام / ٢١٩ ، ٢٢٠ . وانظر ص ٣٢٩ من هذا البحث .

(٢) المبرد : الكامل / ٢٩٨ .

وما دام الأمر كذلك فليرسموا لأولئك الذين آمنوا بدعوتهم خطة العمل ، وليحسبوا إلى قلوبهم ، وليدافعوا عنها وعنهم كما دفعوهم إليها . وقد ترددت هذه المعاني كثيراً في شعرهم ، ووقف عروة بن الورد بالذات - كما يقف صاحب المذهب - يدعو إلى مذهبه ويحجبه إلى قلوب الناس ، ويدافع عنه . وليس في هذا غرابة ، فلم يكن عروة يعد نفسه صعلوكاً من الصعاليك ، وإنما كان يعد نفسه زعيماً للصعاليك ، أو داعية لفلسفة التصعلك ، إن صحّت العبارة . وبهذه النظرة نظر إليه رفاقه ، وبحق سموه أبا الصعاليك^(١) .

والخطة العملية في فلسفتهم الغزو والإغارة ، وكما كثر في شعرهم الحديث عن الجانب التنفيذي من هذه الخطة ، كثر أيضاً حديثهم عن الجانب التشريعي منها ، أو بعبارة أخرى كثرت دعوتهم إليها . وأكثر من ظهر عنده هذا الجانب التشريعي عروة بحكم وضعه داعية لفلسفة الصعلكة . وأساس دعوتهم أن هذه الخطة هي السيل الوحيدة للغنى لمن هو في مثل حالتهم :

مَتَى تَطْلُبُ الْمَالَ الْمَنْعَ بِالقِنَا تَعَثُّنَ مَا جَدًّا أَوْ تَخْتَرِمَكَ الْمَخَارِمُ^(٢)
ويتحدث الشعراء الصعاليك أيضاً عن الأهداف التي يقصدونها بغزواتهم ، فيحددون تلك الطوائف من مجتمعهم التي يرون أن يوجهوا إليها رموس حراهم . ومن الطبيعي أن تكون طبقة المالة أكثر طبقات مجتمعهم تعرضاً لغزواتهم ، لأنها الهدف اللصم الذي يسيل له لعابهم . ويتحدث تأبط شرا عن ثلاث طوائف من هؤلاء المالة كان يوجه إليهم غزواته : أصحاب المواشي ، وأصحاب المزارع الخصبية ، وأصحاب النوق الخوامل :

فَيَوْمًا عَلَى أَهْلِ الْمَوَاشِي وَتَارَةً لِأَهْلِ رَكِيبٍ ذِي ثَمِيلٍ وَسَنْبِلٍ^(٣)
وَلَكِنْ أَرْيَابَ الْمُخَاضِ يَشْفُهُمْ إِذَا اقْتَفَرُوهُ وَاحِدًا أَوْ مَشِيعًا^(٤)

(١) الأغاني ٨١/٣ .

(٢) عمرو بن براقة في الأمالي للقالى ١٢٢/٢ .

(٣) لسان العرب : مادة (ركب) ومادة (ثميل) - الركب : المزرعة . والتميل : الحب .

(٤) حياصة أبي تمام ٢٨/٢ ، والأغاني ٢١٧/١٨ - يشفهم : يهزم ، ويك . عيشهم .

واقترفوه : تتبعوا أثره .

أما الأعم فإنه يقصد أولئك السمان المترفين ضعاف القلوب ، وهو يرسم في مقطوعة له صورة ساخرة لطريقة نموذج من أولئك الذين يجعل منهم أهدافاً لغزواته ، فهو رجل غنى سمين مترف ، يعيش بين الستائر والحظائر ، وجهت امرأته إليه برها وعنايتها حتى سمته فأصبح من صنعها ، ولكنه مع ذلك ضعيف القلب لو اخترق صحراء لغزته شخصها ، ولحسب كل شخص فيها فارساً ، لأنه خائف من أولئك الصعاليك المتربصين به وبأمثاله في أرجائها ، الذين إذا رأوه انصبوا عليه كما تتفجر المياه من حوض متهدم يحاول صاحبه إصلاحه دون جدوى ، وعندئذ تضطرب نفسه ، وينهار كيانه ، ويفر هارباً ، ويذهب صنع امرأته فيه سدى :

أيسخط. غزونا رجلٌ سمين تُكَنُّهُ السنارة والكنيفُ
ولو رَفَعْتَ ثوبك في خروق ترُوعك في مهالكها الشُّدُوف
تخاف لِيْزام عاديةٍ تُعول كما يتفجر الحوض اللقيفُ
إذن لذكرت حالك غيرَ عصر وأفسدَ صنْعَها فيك الوجيف^(١)

أما أولئك الصعاليك الذين خلعتهم قبائلهم ، أو خلعوا هم أنفسهم منها ، فكما يشاركون غيرهم من الصعاليك في غزوهم أولئك الأغنياء ، يحرصون - إلى جانب ذلك - على الانتقام من أولئك الذين كانوا سبباً في صعلكتهم . ومن هنا نجد أن لهم أهدافاً أخرى غير هؤلاء الأغنياء . كما كان يفعل الشنفرى مع بنى سلامان .

ويتحدث الشعراء الصعاليك أيضاً عن الغاية التي يريدون أن يصلوا إليها من وراء هذه الخطة الدامية التي يسلكونها في حياتهم ، وهى - بطبيعة الحال - الغنى . ويسجل الأعم في أبيات له الأسباب التي يحرص على الغنى من أجلها

(١) شرح أشعار الهذليين ١/ ٦٨ ، ٦٩ - الخروق : جمع خرق وهو القفر والأرض الواسعة تتخرق فيها الرياح . والشُدُوف : جمع شدف (بالتحريك) وهو الشخص . والليْزام : العذاب . والشُعول : التي لها زيادات بمنزلة الفرع . واللقيف : الذى أصلحه صاحبه فليته وسواه من فواحيه . والوجيف : ضرب من الير ، أو هو الاضطراب .

في ثلاثة : فأمواله تُغنيه عن الناس من ناحية ، وهو يُعين بها الداعين إذا حلت بهم عزيمة من ناحية ثانية ، ثم هو — من ناحية ثالثة — يعدّها للأضياف والمعوزين في أيام الجذب والشدة التي لا يجد الناس فيها ما يُطعمون به من بَكرت بَغلام ، ولا تجد الأم شيئاً تُسكت به فطيمها عن البكاء والصراخ جوعاً :

أَحْبَبْتُ إنا قد يُمتنعنا الغنى بأموالنا نريحها ونُسِيمها
ونحبسها على العظام نَتَّقِي بها دعوة الداعين ، إنا نقيمها
إذا النفساء لم تخرش ببيكرها غلاماً ، ولم يسكت بحتر فطيمها^(١)
ويذكر صخر الغي أنه قتل رجلاً من مزينة وسلبه ماله ، ليقوى به مال رجل
فقير كريم لا يكاد يثبت له مال :

في المزني الذي حششتُ به مَالَ ضَرِيكَ تلاده نَكِدُ^(٢)

أحاديث التشرد :

قلنا إن هذه الحياة الواقعة في وجه المجتمع المتمردة عليه الخارجة على نظمه ، كان من أثرها أن فقد المجتمع اطمئنانه إلى أصحابها ، كما فقد هؤلاء طمأنينتهم فيه ، وقلنا إن النتيجة الطبيعية لهذا كانت هي التشرد .

وقد تحدث الشعراء الصعاليك عن تشردهم في أرجاء الصحراء الموحشة ، ووديانها الخيفة ، واقتخروا باهتدائهم فيها دون دليل ، أو قيامهم بمهمة الدليل لجماعة من رفاقهم ، واتخذوا من هذا مادة للفخر بأنفسهم ، أو لمدح رفاقهم الصعاليك . يفتخر تأبط شرا — في حديثه إلى امرأة خطبها فامتنعت عليه — بأنه لطول تشرده ألفت وحش الصحراء واطمأنت إليه ، حتى لتوشك أن تصافحه لو أن وحشاً تصافح إنساً :

يبيتُ بمغنى الوحش حتى أَلْفَنه وَيُصْبِح لا يحمي لها الدر مرتعا

(١) شرح أشعار الهذليين ١/ ٦٧ . و « بها » في البيت الثاني ساقطة ، ولا يستقيم الوزن بدونها . الحرمة : طعام الولادة . والحر : الشيء القليل .

(٢) المصدر السابق ١٣/ — حششت به : قويت به . ضريك : فقير .

رَأَيْنَ فَتَى لَا صَيْدَ وَحَشٍ يَهْمُهُ فَلَوْ صَافَحَتْ إِنْسَاءً لَصَافَحْنَاهُ^(١)
وَيَفْتَخِرُ فِي قَافِيَتِهِ الْمَشْهُورَةِ بِكَرَمِهِ وَتَشْرُدُهُ ، وَبِتَوَعُّدِ عَازِلِيهِ إِنْ لَمْ يَكْفُوا
عَنْ عَذْلِهِ بِتَرْكِ دِيَارِهِمْ وَالْمَضَى مُتَشَرِّدًا فِي الْآفَاقِ الْبَعِيدَةِ حَتَّى يَخْتَفِيَ عَنْهُمْ وَمَا هُمْ
بِقَادِرِينَ عَلَى مَعْرِفَةِ مَكَانِهِ مَهْمَا يَجِدُوا فِي السُّؤَالِ عَنْهُ :

إِنِّي زَعِيمٌ لِّشَنْ لَمْ تَتْرَكُوا عَلَيَّ أَنْ يَسْأَلَ الْحَيُّ عَنْ أَهْلِ آفَاقٍ
أَنْ يَسْأَلَ الْقَوْمُ عَنْ أَهْلِ مَعْرِفَةٍ فَلَا يَخْبِرُهُمْ عَنْ ثَابِتٍ لَاقٍ^(٢)
وَيَمْدَحُ صَدِيقًا لَهُ مِنَ الصَّعَالِيكِ ، فَلَا يَجِدُ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَبْدَأَ مَدْحَهُ بِذِكْرِ
تَشْرُدِهِ :

قَلِيلَ التَّشْكِيِّ لِلْمَهْمِ بِصِيبِهِ كَثِيرَ الْهَوَى شَتَّى النُّوَى وَالْمَسَالِكِ
يُظَلُّ بِعَوْمَاءَ وَيَمْسَى بِغَيْرِهَا جَحِيشًا وَيَعْرَوْرِي ظَهْوَرَ الْمِهَالِكِ^(٣)
ثُمَّ يَمْدَحُهُ بِطَائِفَةٍ مِنَ الْمَعَانِي الْآخَرَى ، وَلَكِنَّهُ لَا يَنْسَى أَنْ يَخْتِمَ مَقْطُوعَتَهُ
بِذِكْرِ تَشْرُدِهِ مَرَّةً أُخْرَى ، كَأَنَّمَا هُوَ حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يُوَكِّدَ هَذِهِ الْمِيزَةَ لِصَاحِبِهِ
الَّذِي بَلَغَ بِهِ تَشْرُدَهُ أَنْ أَصْبَحَتْ الْوَحْشَةُ أَنْسَهُ الْأَنْيسِ ، وَالصَّحْرَاءُ الْغَامِضَةُ
الْمُجْهُولَةُ كِتَابًا مَفْتُوحًا يَهْتَدِي فِيهِ كَمَا تَهْتَدِي الشَّمْسُ فِي فَلَكِهَا :

يَرَى الْوَحْشَةَ الْأَنْسَ الْأَنْيسَ وَيَهْتَدِي بِحَيْثُ اهْتَدَتْ أُمُّ النُّجُومِ الشُّوَابِكِ^(٤)
وَيَفْتَخِرُ عُرْوَةً بِمَقْدَرَتِهِ عَلَى الْإِهْتِدَاءِ فِي الْفَلَاةِ الْغَامِضَةِ الْمَخُوفَةِ الَّتِي يُعْرَضُ
سَالِكُهَا نَفْسُهُ لِلْمِهَالِكِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَشِيرَ أَحَدًا أَوْ يَسْتَعِينَ بِأَحَدٍ :

وَغَيْرَاءَ مَخْشَى رَدَاها مَخُوفَةٌ أَخْوَهَا بِأَسْبَابِ الْمُنَايَا مَغْرَرٌ
قَطَعَتْ بِهَا شَكَّ الْخِلَاجِ وَلَمْ أَقُلْ لَخَيَابَةِ هَبَابَةِ كَيْفِ تَأْمَرِ^(٥)

(١) الْأَغَانِي ٢١٧/١٨ .

(٢) الْمَفْضَلِيَّاتُ ١٨ . وَابْنُ قَتَيْبَةَ : الشُّعْرُ وَالشُّعْرَاءُ / ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٣) حِمَاةُ أَبِي تَمَامٍ ٤٧/١ - جَحِيشًا : مُنْفَرِدًا . يَعْرَوْرِي : يَرْكَبُ .

(٤) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ / ٤٩ .

(٥) دِيْوَانُهُ / ١٣٠ - غَيْرَاءَ : مَظْلَمَةٌ لَيْسَتْ بِمَسْفَرَةِ الطَّرِيقِ . وَشَكَّ الْخِلَاجِ : مَا يَخَابِلُهُ وَيَشْكُكُهُ .

وتأخذ الصورة عند أبي خراش وضعاً آخر ، فهو لا يقنع باهتدائه في مجاهل الصحراء ، بل يذكر في مجال فخره أنه يهdy رفاقه في الليالي المظلمة :
 وإني لأهdy القوم في ليلة الدجى وأرى إذا ما قيل هل من فتى يرى^(١)
 ويتحدث الشعراء الصعاليك عن أماكن تشردهم في قلب الصحراء ،
 وبعدها عن المناطق المأنوسة ، وما يحيط بها من أهوال ، وما يكتنف الطريق إليها
 من مخاوف .

يتحدث تأبط شرا عن شعب من شعاب الصحراء ، في جهة نائية
 مهجورة ، ضربت حوله الجبال نطاقاً ، حتى غدا الطريق إليه وعراً ، وملأته
 الصخور ، وتجمعت فيه آثار من مياه قديمة لا تعرف مصادرها ، ويفتخر بأنه
 اهتدى إليه دون دليل ، ودون أن يسأل أحداً عنه :

وشعب كشل الثوب شكس طريقه مَجَامِعُ صَوْحِيهِ نَطَاقُ مُحَاصِرُ
 به من سيول الصيف بِيضُ أَقْرَاهَا جُبَارٌ ، لَصُمُ الصخر فيه قَرَاقِرُ
 تبطنته بالقوم ، لم يهdy له دليلٌ ، ولم يُثَبِتْ لِي النعتَ خَابِرُ
 به سَمَلَاتٌ من مياه قديمة مَوَارِدُهَا مَا إِنْ لَهَا مَوَادِرُ^(٢)
 ويتحدث الشنفرى عن واد بعيد في أعماق الصحراء ملتف الشجر ، قد
 ألفته الجن والآساد ، حتى بات يخشاه المغامرون الشجعان ، وكيف أقدم
 في جرأة وشجاعة على السير فيه في وقت مبكر قبل أن يتطاير الندى عن أشجاره :
 ووَادَ بَعِيدُ الْعَمَقِ ضَمْنِكَ جَمَاعُهُ بَوَاطِنُهُ لِلْجَنِّ وَالْأَسْدِ مَأْلَفُ
 تَعَسَّفَتْ مِنْهُ بَعْدَ مَا سَقَطَ الندى غَمَالِيلَ يَخْشَى غِيلَهَا الْمُتَعَسِّفُ^(٣)
 وقد قلنا إنه نتيجة لهذا التشرد وردت في أشعار الصعاليك أحاديث كثيرة

(١) ديوان الهذليين ١٣١/٢ .

(٢) الأصمعيات ٣٥/١ . ويرى البيت الثاني في لسان العرب مادة (جبر) « به من نجاه
 الصيف » - الشل : أن يصيب الثوب سواد ولا يذهب بغسله . الصوح : حائط الوادي وأسفل
 الجبل أو وجهه القائم كأنه حائط . الجبار : السيل . السملة : الماء القليل .

(٣) الأغاني ١٤١/٢١ - الغمائل : الروابي . والفيل : الشجر الكثير الملتف .

عن حيوان الصحراء ووحشها وطيورها وحشراتهما وما يُنجّل للسارى فيها من أشباح .
 وحين نستعرض مجموعة شعر الصعاليك التى . بين أيدينا نجد أنهم تعرضوا
 بالذكر لسبعة وعشرين نوعاً من هذه الفصائل السابقة : الذئب ، والضبع ،
 والسمّع ، والفمر ، والأسد ، والثعلب ، والضب ، ثم حمار الوحش ، والنعام ،
 والوعول ، والظباء ، والأرانب ، ثم الحيات ، والعظايا ، ثم النسر ، والصقر ،
 والعقاب ، والغراب ، والبوم ، والسمانى ، والقمرى ، والقطة ، والمهدد ، ثم
 النحل ، والجراد ، ثم الجن ، والغيلان .

ومن الطبيعى ألا يتحدث الشعراء الصعاليك عن هذه الأنواع جميعاً بدرجة
 واحدة ، فإن بعضها أقرب إلى طبيعة حياتهم ، وأدل على تصويرها ، وأصلح
 للانتفاع به فى فهم من بعضها . ومن هنا تفاوت اهتمام الشعراء الصعاليك بهذه
 الأنواع تفاوتاً كبيراً .

وقد رأينا كيف استغل العداءون منهم تلك المجموعة من الحيوان السريع
 العدو فى حديثهم عن سرعة عدوهم استغلالاً رائعاً ممتازاً ، ورأينا تأبط شرا
 يذكر فى بعض شعره أن وحش الصحراء قد ألفته ولم تعد تخشاه أو تنفر منه ،
 كما رأينا الشنفرى ، وهو يصف الوادى البعيد الذى اعتسفه ، يذكر أنه موطن
 للجن والآساد .

ولكن الأمر لا يقف بالشعراء الصعاليك عند هذا الحد ، بل يتجاوز ذلك
 أحياناً إلى تعرضهم لبعض هذه الأنواع بالوصف الدقيق المفصل ، الأمر الذى
 لا ينهى إلا لمن اتصل بها اتصالاً قريباً عرف منه طبائعها وعاداتها .
 ففى شعر عروة وصف للأسد ، فهو عريض الساعدين عريض الصدر ،
 رابض فوق أجمة يتساقط قصبها فوق ظهره ، ولكن إذا بدت له فريسة فما
 هى إلا وثبة واحدة حتى يقتنصها ، أما زهير فيشبه صوت الرعد :

تبغاني الأعداءُ إما إلى دم وإما عراض الساعدين مصدراً
 بظلّ الأباء ساقطاً فوق متنه له المدوة الأولى إذا القيرن أصحرا

كَأَنَّ خَوَاتَ الرعد رَزْ زَثِيرَه من اللاء يسكنُ الغريفَ بَعْشَرًا^(١)
وتستأثر الضباع بجزء كبير من شعر الأعلام ، وهو يصفها وصفاً دقيقاً ،
ويصف جراءها ، وفعلهن بفريستن ، فالضبع غليظة لها ثمانى جتواعر ،
خلف أظلافها شعرات مجتمعة ، وفوق هذه الشعرات دوائر مثل الخلاخيل
يخالف لونها سائر لون الأرجل :

عَشَنَزَرَةٌ جَواعرها ثمان فُوقَ زَماعها خَدَمٌ حُجُولٌ^(٢)
ويصف جراءها ، وانتفاخ بطونها ، وسواد جلودهن كأنما ارتدين ثياب
رهبان ، وقصر آذانهن العريضة التي تشبه المغارف ، وما يفعلنه بالقريسة المسكينة
التي تجر أمهن إليهن لحمها ، وكيف يتزعن جلدها كما يتزع القيون بطائن
الحنون البالية :

وَتَجَرُ مُجْشِرِيَّةٌ لَهَا لَحْمِي إِلَى أَجْرِ حَوَاشِبٍ
سُودٍ سَحَالِيلٍ كَأَنَّ جَلُودَهُنَّ ثِيَابَ رَاهِبٍ
آذَانُهُنَّ إِذَا احْتَضَرُ نَ فَرِيَسَةٌ مِثْلُ الْمَذَانِبِ
يَنْزَعْنَ جِلْدَ الْمَرْءِ نَزْ عَ الْقَيْنِ أَخْلَاقَ الْمَذَاهِبِ^(٣)
وهي صورة يخشاها تأبط شراً أيضاً ، ويصورها في بعض قصائده ، فالضبع
تنبش الأرض عن الجيف المدفونة ، ثم تنشب فيها أنيابها وبرائثها ، ثم تدعو
رفيقاتها وبناتها ، فيسارعن إليها ليشاركنها نهشاً :

(١) ديوانه / ٥٥ ، ٥٦ - العراض : العريض . والمصدر : العريض الصدر . والأبواء :
القصب . وأصغر : برز إليه . وخوات الرعد : صوته . والرز : الصوت تسمعه من بعيد ولا ترى
صاحبه . والغريف : الشجر الملتف . وعثر : أرض قبل تباله تسكنها الأسود ، وتباله بلدة من
أرض تهامة جنوب الطائف .

(٢) شرح أشعار الجاهليين ١ / ٦٤ - العشزرة : الغليظة المسنة . والزماع : جمع زمعة ،
وهي شعرات خلف ظلف الشاة فضربه مثلاً . والخلم جمع خدمة وهي لون يخالف سائر لون رجلها مثل
الخلاخال .

(٣) المصدر السابق ١ / ٥٧ ، ٥٨ - مجرية : أى ضبع ذات جراء . والحواشب : المنتفضحات
الجنوب . والسحالييل : العظام البطون . والمذانب : المغارف التي يعرف بها . والمذاهب : بطائن
ملحبة تفشى بها أجفان السيوف .

فَزُخْزِجْتُ عَنْهُمْ أَوْ تَجَشَّنِي مَنِيَّ بَغِيرَاءٍ أَوْ عِرْقَاءٍ تَفْرَى الدَفَائِنَا
 كَأَنِّي أَرَاهَا الْمَوْتَ لَادِرٌ دَرَاهَا إِذَا أَمَكَنْتُ أَنْبِيَاهَا وَالْبِرَائِنَا
 وَقَالَتْ لِأُخْرَى خَلْفَهَا وَبِنَاتِهَا : حُتُوفٌ تَنْقَى مُخًّ مِنْ كَانَ وَاهِنَا
 أَخَالِيجُ وَرَادٌ عَلَى ذِي مُحَافِلٍ إِذَا نَزَعُوا مَدَا الدَّلَا وَالشَّوْاطِنَا^(١)
 أما الشنفرى فلا يخشى على جسده الضبع ، بل يحرص على أن يهيئ لها
 منه ولحمة شبيهة ، وهو لهذا يبشرها بمقتله ، ويطلب إلى قاتليه ألا يدفنوه :
 لَا تَقْبِرُونِي إِنْ قَبِرَى مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَبْشِرَى أُمَ عَامِرٍ^(٢)
 ويرسم أبو خراش في قصيدة له صورةً طبيعية صادقة لجمار الوحش وأتته
 التي استبان حملها ، وما يدور بينه وبينها ، فهي تتأبى عليه ، وهو يصاومها
 ويتبعها . ولكن هذا ليس كل شيء في حياة هذا الحيوان ، وإنما هناك جانب
 نفسي آخر في حياته ، هو ذلك الذعر الذي يملأ نفسه هماً من خشية
 الصيادين ، ويعبر الشاعر عن هذا الذعر بمنظر الجمار وقد اعتلى مرتفعاً من
 الأرض يشرف منه على الآفاق حوله ، وقد امتلأت نفسه خوفاً وهماً ، حتى
 إذا آذنت الشمس بالمغيب بعد يوم طويل شديد الحر تذكر إنائه ، فأخذ
 يطاردها مرة أخرى وهي تعلو أمامه فتثير غباراً ممتداً كأنه خيوط لم تُبرم :
 أَرَى الدَّهْرَ لَا يُبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ أَقْبَبْتُ نَبَارِيهِ جَدَائِدُ حَوْلُ
 أَبْنُ عِقَاقاً ثُمَّ يَرْمَحُنْ ظَلَمَهُ إِبَاءٌ وَفِيهِ صَوْلَةٌ وَذَمِيلُ
 يَظَلُّ عَلَى الْبَرْزِ الْيَفَاعِ كَأَنَّهُ مِنَ الْغَارِ وَالْخَوْفِ الْمَحِمْ وَبِيلُ
 وَظَلُّ لَهَا يَوْمَ كَأَنَّ أَوَارَهُ ذَكَاءُ النَّارِ مِنْ فَيْحِ الْقُرُوعِ طَوِيلُ
 فَلَمَّا رَأَيْنِ الشَّمْسَ صَارَتْ كَأَنَّهَا فَوَيْقُ الْبَضِيعِ فِي الشَّعَاعِ خَمِيلُ

(١) الأغاني ٢١٣/١٨ - الضمير في « عنهم » يعود على أعدائه الذين يطاردونه وهو يفر منهم . والأخاليج : جمع إخليج وهو السريع ، أو من خلع بمعنى جذب وانتزع . الدلا : هي الدلاء جمع دلو . والشواطن : الحبال .

(٢) ديوانه في الطرائف الأدبية ٣٦ . والشعر والشعراء ١٩/ - وأم عامر : الضبع .

فهيئجها وانشام نَقْعاً كأنه إذا لفها ثم استمر سَحِيلٌ^(١)
ويرسم أيضاً صورة طبيعية صادقة للون من ألوان الصراع الذي يدور في
تلك الصحراء المقفرة بين كائناتها الحية ، والصراع هنا بين صقر وأرنب ،
فالصقر فوق مرتفع مشرف على الآفاق ، رأى على بعد أرنباً بين شقوق الأرض ،
فهوى إليها ، ولكنها تسرع لتنجو منه ، فيزيد هو من سرعته حتى انقض
عليها فانتظم قلبها :

ولا أَمْعُرُ الساقين ظل كأنه على مُخَزَّيَلَاءَاتِ الإِكام نصيلٌ
رأى أرنباً من دونها غولٌ أشرج بعيدٌ عليهن السرابُ يزول
فَضَمَ جناحيه ومن دون ما يرى بلادٌ وحوشٌ أَمْرُعٌ ومُحُولٌ
تَوَائِلُ منه بالضراء كأنها مَفَاةٌ لها فوق التراب زَلِيلٌ
يقربُه النهض النجيج لما يرى ومنه بدوٌ تارة ومثول
فأهوى لها في الجوف اختل قلبها صَيودٌ لحبات القلوب قتول^(٢)
ولعل أطرف ما في شعر الصعاليك من هذا الباب أحاديث الجن والغيلان .

(١) ديوان الهذليين ١١٧/٢ - ١١٩ . أقب : حمار ضامر البطن . جمدائه : جمع جمدود
وهي التي لا لبن لها . وحول : جبل حائل وهي التي لم تحمل من عامها . والعقاق : الحمل . والظلم :
طلب السفاد في غير موضعه . والذميل : سير لين مع سرعة . والبرز : ما يبرز للشمس . واليفاع :
المرتفع من الأرض . وقوله الخوف الحم يريد به الخوف الذي يأخذه معه هم وحديث نفس . والوبيل :
العصا القليظة الشديدة ، يريد أنه من الخوف ضمر حتى صار كالعصا . ذكا النار : اشتعلها .
من فيح القروغ : أي يغور ويحتاج من مجراء الذي يجرق منه كمثل فرغ الدلو . البضيع : الجزيرة
في البحر . والحميل : القليظة لها أهداب ، يقول : صارت الشمس حين دنت للغروب فويق جزر
البحر كأنها قليظة لها أهداب يشبه بها أشعتها . وقوله : انشام نقعا أي دخل فيه ، والتقمع : الغبار .
والسحيل : خيط لم يبرم يشبه به الغبار ، أي أن الحمار دخل في غبار كأنه هذا النسيج قبل أن
ينسج .

(٢) ديوان الهذليين ١٢١/٢ - ١٢٣ . أَمْعُرُ الساقين : لا ريش عليهما ، يريد به صقرا .
المخزئل : المرتفع . النصيل : حجر طويل أملس يجعل في البئر . الأشرج : شقوق تكون في الأرض
بعيدة طوال . غول : أي ذات بعد . يزول : أي يتحرك . بلاد وحوش : أي بلاد واسعة تسكنها
الوحوش . توائل : أي تتوارى لتنجو منه . الضراء : ما وارك من الشجر . السفاة : الشوكة .
وقوله لها فوق التراب زليل : أي من خفتها تزل فوق الأرض . اختل قلبها : أي انتظمه .

وأكثر ما يرد ذلك في شعر تأبط شرًا ، وهي صورة - وإن تكن محاطة بإطار أسطوري - تصور ما كان يخيله الوهم لذلك الصعلوك المغامر المتشرد البعيد الآفاق في الليالي المظلمة بين أرجاء الصحراء الموحشة ، حيث تتجسم الروى أشباحاً مخيفة ، وتختلط الأصوات في لحن غامض رهيب . ومع ذلك فقد يكون ما يقصده تأبط شرًا من الغيلان تلك القصيدة من الحيوان المعروفة باسم « الغورلا »^(١) ، ولكن هذا لا يبنى أن صورتها عنده محاطة بإطار أسطوري . وهو يصور لقاءه لها ، بعد أن يمهد لذلك بالحديث عن الليل ، ثم يصفها ، ويسجل ما دار بينه وبينها ، وتنتهى القصيدة بينهما دائماً بقتلها :

وأدهم قد جُبتُ جليابه	كما اجتابت الكاعبُ الخيَلا
إلى أن حدا الصبحُ أثناءه	ومزقَ جليسابه الأليلا
على شيم نار تنورتها	فبت لها مديراً مقبلا
فأصبحت والغولُ لى جارة	فيا جارتنا أنت ما أهولا
وطالبتها بضعها فالتوت	بوجه تغول فاستغولا
فقلتُ لها يا انظري كى ترى	فولتُ فكنتُ لها أغولا
فطار بقحف ابنة الجن ذو	سفاسق قد أنطق المحملا
إذا كل أمهيته بالصفاء	فحدّ ولم أره صيقلا
عظاية قفر لها حلتا	ن من ورق الطلح لم تغزلا
فمن سأل أين ثوت جارتى	فإن لها باللوى منزلا ^(٢)

وهناك مقطوعان أخريان تصوران قصتين أخريين مع الغول والجن^(٣) ،

(١) في القاموس المحيط : من معاني الغول السعلاة ، والحية ، وساحرة الجن ، « أو دابة رأها العرب وعرفتها ، وقتلها تأبط شرًا » (مادة غول) .

(٢) الشعر والشعراء / ١٧٦ ، ١٧٧ . والأغاني ١٨ / ٢١٠ - الخيميل : ثوب تلبسه المرأة كالقميص ، أو قميص لا كين له . العظاية : دويبة كسام أبرص .

(٣) انظر الأغاني ١٨ / ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ والبغدادى : غزاة الأدب ٣ / ١٠٨ . والبكرى : معجم ما استعجم ١ / ٢٥٧ . ولسان العرب : مادة (حد) .

ولكن الشك يحيط بنسبتهما إلى تأبط شرا ، إذ أنهما كما تنسبان له تنسبان لغيره من الشعراء ، ولكن هذا يدل دلالة واضحة على شهرة تأبط شراً بحديثه عن الجن والغيلان ، حتى ليختلط الأمر على الرواة فيما يروى من هذا الحديث أهو له أم لغيره من الشعراء .

٢ - الشعر خارج دائرة الصعلكة

آثار القبلية في شعرهم :

الباحث في شعر الصعاليك يجد مجموعة من القصائد والمقطوعات قيلت في أغراض قبلية ، وتتسم بسمات الشعر الجاهلي القبلي ، وهي مجموعة - وإن تكن قليلة متضائلة - تبدو للنظرة الأولى غريبة على شعر الصعاليك ، لأننا نعرف أن هؤلاء الصعاليك قد تحللوا من التزاماتهم القبلية ، فتحللت شخصياتهم الفنية من التأثير بها ، فكان طبيعياً أن يخلو شعرهم من تلك الأغراض القبلية التي نراها في سائر الشعر الجاهلي .

ولكن المسألة لا تصل إلى درجة المشكلة ، فمن الطبيعي أن حياة هؤلاء الصعاليك قد مرت بمرتين اجتماعيين : الدور الأول وهو فترة ما قبل التصعلك ، تلك الفترة التي كان الصعلوك فيها عضواً عاملاً في المجتمع القبلي قبل أن يبلغ سوء توافقه الاجتماعي الذروة التي يبدأ من عندها الدور الثاني في حياته الاجتماعية ، وهو فترة تصعلكه التي قد تستمر حتى مقتله أو موته . وليس بعنينا أن يقلع الصعلوك عن تصعلكه ، فهو في هذه الحالة لا يبدأ دوراً ثالثاً من حياته الاجتماعية ، وإنما يعود عودة اجتماعية لا عودة زمنية إلى الدور الأول . ومن الطبيعي أيضاً أن يكون بعض هؤلاء الصعاليك قد اكتملت مواهبهم الفنية في الدور الأول فشاركوا شعراء القبيلة في حياتهم الفنية ، وأيضاً قد يشاركونهم فيها إذا ما انتهى الدور الثاني بالعودة إلى الحياة القبلية . ومعنى هذا أن هذه المجموعة القبلية من شعر الصعاليك نتاج لفترتين تمثلان في الحقيقة دوراً اجتماعياً واحداً : فترة ما قبل التصعلك وفترة ما بعد التصعلك .

ولعروة بن الورد العبسي مجموعة قليلة من القصائد والمقطوعات في موضوعات قبلية^(١)، كما نثر برواسب ضئيلة جداً من الحياة القبلية عند صخر الغي الهللي، والسليك بن السليكة السعدي. أما صخر الغي فلا يتجاوز ما وصل إلينا من شعره القبلي أبياتاً قليلة في مقطوعتين يناقض فيهما شاعراً فيهدده بكثرة قومه، وبأنهم ينصرونه، ويأبون له الضيم:

وَحَفَّضَ عَلَيْكَ الْقَوْلَ وَاعْلَمْ بِأَنِّي مِنْ الْأَنْسِ الطَّاحِيِ الْخُلُولِ الْعَرْمَرِ
أَبْتُ لِي عَمْرُو أَنْ أَضَامَ وَمَازِقُ وَقَرْدُ وَلُخْيَانُ وَسَهْمُ فَسَلَمُ^(٢)
ويعلمه بأن قومه يلبون دعوته إذا دعاهم، فيسرعون لنصرته كما تسيل الشعاب بالماء:

أَبَا الْمُثَلَّمِ إِنْ غَسِبَ مُهْتَضِمٌ إِذَا دَعَوْتُ نَمِيًا سَالَتْ الْمُسَلُّ^(٣)
وأما السليك فكل ما وصل إلينا من شعره القبلي مقطوعة واحدة في ثلاثة أبيات يحترفها قومه من مغيرين قابلهم في بعض تشرده مسرعين إليهم، ويذكر أن قومه يكذبونه، ويؤكدهم صدقه:

يُكَذِّبُنِي الْعُمَرَانُ عَمْرُو بْنُ جَنْدَبٍ وَعَمْرُو بْنُ سَعْدٍ وَالْمَكْذِبُ أَكْذَبُ
ثَكَلْتَكُمَا إِنْ لَمْ أَكُنْ قَدْ رَأَيْتَهَا كِرَادِيْسُ يَهْدِيهَا إِلَى الْحَيِّ مَوْكَبُ
كِرَادِيْسُ فِيهَا الْحَوْفَزَانُ وَقَوْمُهُ فَوَارِسُ هَمَامٌ مَتَى يَدْعُ يَرْكَبُوا^(٤)
ومن مجموعة شعر حاجز القليلة التي وصلت إلينا خمس قطع من هذا الشعر القبلي قالها في ظروف قبلية معروفة يذكرها الرواة. وحاجز في هذه القطع مندمج في المجتمع القبلي اندماجاً واضحاً، يعبر بلسان قومه كما يعبر أي شاعر جاهلي قبلي، يفخر بهم فيذكر أنهم كرماء، ويعتر بأبيه وعمه اللذين أسديا

(١) انظر ديوانه: القطعتين رقم ١٠ ورقم ٢٤.

(٢) شرح أشعار الهذليين ١/ ٢١ - الأنس: الحى. والطاحي: المتبع المنتشر. والأسماء في البيت الثاني أسماء قبائل.

(٣) المصدر السابق ٢٤ - وتيم هنا من هذيل. والمسلى: جمع مسلى وهو مسيل الماء.

(٤) الأغاني ١٨/ ١٣٦. والشعر والشعراء ٢١٦.

للقبيلة يدين يضاوين في يومين من أيامها . والطريف حقاً أن حاجزاً يبدأ إحدى هذه القصائد كما يبدأ الشعراء القبليون قصائدهم بالنسيب^(١) ، فيحيي صاحبه ويدعوها بالسلامة ، ثم يصفها ويتحدث عن صرمها له وبعدها عنه ، ثم ينتقل — كما يفعل الشعراء القبليون أيضاً — إلى الحديث عن ناقته ورحلته عليها ، ثم ينتقل انتقالاً مفاجئاً — كمادة الشعراء القبليين أيضاً — إلى الحديث عن قومه .

وكما يفخر حاجز بقومه يذكر أيامهم التي انتصروا فيها :

بَوَاءُ بِأَيَّامٍ كَثِيرٍ عَدِيدُهَا	إِنْ تَذَكَّرُوا يَوْمَ الْقَرِيِّ فَإِنَّهُ
جَهَاراً فَجئْنَا بِالنِّسَاءِ نَقُودَهَا	فَنَحْنُ أَبَحْنَا بِالشَّخِصَةِ وَاهُنَا
بَنَى مَالِكٌ وَالْخَيْلُ صُعُرُ خُدُودَهَا	وَيَوْمَ كِرَاءٍ قَدْ تَدَارَكَ رَكْضُنَا
سَرَاةَ بَنِي لَهْيَانَ يَدْعُو شَرِيدَهَا	وَيَوْمَ الْأَرَاكَاتِ اللَّوَاتِي تَأَخَّرَتْ
بِغِلْمُومَةٍ يُهْوَى الشَّجَاعَ وَثِيْدَهَا	وَنَحْنُ صَبَحْنَا الْحَيَّ يَوْمَ تَنْوَمَةُ
لَدَى جَانِبِ الطَّرْفَاءِ حَمْرُ أَجْلُودَهَا	وَيَوْمَ شُرُومٍ قَدْ تَرَكَنَا عَصَابَةَ
مِنَ الذَّلِيلِ لِأَنَّا نَحْنُ رَغْمَانُ زَيْدَهَا ^(٢)	فَمَا رَغِمَتْ حَلْفَا لَأْمَرٍ بِصِيْبِهَا

ويسجل شماته ، أو — بعبارة أدق — شماته قبيلته بأعدائهم ، ويعبرهم بما فعلوه بهم من قتل رجالهم وسبي نسايتهم :

أَمْ هَلْ حَدَوْنَا نَعْلَكُمْ بِمِثَالِ	يَا ضَمَرَ هَلْ تَلْنَاكُمْ بِدَمَائِنَا
فَالْيَوْمِ تَبْكِي صَادِقاً لَهْلَالِ	تَبْكِي لِقَتْلِي مِنْ فُقَيْمٍ قُتِلُوا
يَبْكِينَ مُرَدِّفَةً عَلَى الْأَكْفَالِ	وَلَقَدْ شَفَانِي أَنْ رَأَيْتُ نِسَاءَكُمْ
لَقِيتُ عَلَى الدِّكَاءِ بَعْدَ حِيَالِ ^(٣)	يَا ضَمَرَ إِنْ الْحَرْبُ أَضَحَّتْ بَيْنَنَا

ويتوعد أعداء قبيلته ، ويهددهم بأبطال شجعان من قومه مسلحين

(١) (ميجته) الأغاني ١٢/٥٠ (بولاقي) .

(٢) المصدر السابق / ٥١ . البواء : الكفء . والملمومة : الكتيبة .

(٣) المصدر السابق / ٥٢ . الحِيَال : العقم .

بالسيوف والرماح قد عرفتهم القبائل من قبل :

سَتَمْنَعُنَا مِنْكُمْ وَمِنْ سَوْءِ صَنْعِكُمْ صَفَائِحُ بَيْضُ أَخْلَصَتِهَا الصِّبَاقُلُ
وَأَسْمَرُ خَطِيٍّ إِذَا هُزَّ عَاسِلٌ بِأَيْدِي كِمَاةٍ جَرَّبَتْهَا الْقِبَائِلُ^(١)
وأما قيس بن الحداذية ففي مجموعة شعره القليلة أيضاً التي وصلت إلينا ،
نعت بثلاث قطع من الشعر القبلي ، إذا أخرجنا تلك القصيدة البائية المشكوك
فيها ، والتي أشرنا إليها في الفصل السابق^(٢) .

وشأن قيس في هذا الشعر شأن حاجر في شعره القبلي شأن سائر الشعراء
القبليين ، يفخر بانتصار قومه على أعدائهم ، ويسجل أسماء من قتلوا منهم ،
ويذكر عودتهم بالإبل التي غنموها ، والنساء اللاتي سبوهن^(٣) ، ويعتر بقومه
حين تغزوهم قبيلة أخرى فيثبتون لهم ، ويردونهم على أعقابهم خاسرين ، بعد
أن أعمل فيهم فرسانهم الرماح والسيوف التي تنتزع سواعدهم^(٤) ، ويهجو أعداء
قومه ويرد عليهم دعواهم بالنصر بأنهم يفخرون بيوم ليس لهم ، ويعيرهم بفرارهم
أمامهم ، والخيل تركض خلفهم ، وقد تركوا وراءهم أسرى^(٥) . وقد يحور
من الطريف أن نلاحظ أن اثنتين من هذه القطع الثلاث نقيضتان بين قيس
وبين شاعرين من أعداء قومه^(٦) يرد بهما عليهما ، وهي صورة أدل على قبلية
هذا الشعر ، لأن قيساً حريص على أن يكون رده على هذين الشاعرين من
جنس قولهما ، وهما شاعران قبليان .

وعلى كل حال فهذه المجموعة من الشعر القبلي التي تقابلنا في شعر الصعاليك
قليلة ، كما أن عدد شعرائها قليل أيضاً .

(١) المصدر نفسه / ٥٠ .

(٢) الأغاني ١٣ / ٤ (بولاقي) . وانظر ص ١٧٤ من هذا البحث .

(٣) انظر قصيدته الحائية في المصدر السابق / ٣ .

(٤) انظر مقطوعته الدالية في المصدر نفسه / ٥ .

(٥) انظر مقطوعته الميمية في المصدر نفسه / ٤ .

(٦) الحائية والميمية السابقتان .

المجموعة الإسلامية في شعرهم :

حين ننظر فيما بين أيدينا من شعر الصعاليك نجد مجموعة أخرى قليلة نظمها المخضرمون منهم : أبو الطمحان القيني ، وأبو خراش الهذلي ، وقضالة ابن شريك الأسدي ، بعد أن أشرقت الجزيرة العربية بنور ربها .

وقبل أن نمضي في استعراض موضوعات هذه المجموعة التي يصح أن نطلق عليها « المجموعة الإسلامية في شعر الصعاليك » نقف لتسجيل ملاحظتين : أولاهما أن مجموعة شعر أبي الطمحان ليس من اليسير تمييز الجاهلي فيها من الإسلامي ، إذ أن كل ما يرويه الرواة حولها من أخبار لا يكفي لتحديد الوقت الذي قيلت فيه ، كما أن هذه المجموعة خالية تماماً من الإشارات التي تحدد زمنها ، ما عدا بيتين يصف فيهما انحناء جسمه وتقارب خطوه^(١) ، مما يرجح أنه قالهما في شيخوخته المتأخرة ، وبيتين آخرين في مدح يزيد بن عبد الملك يذكر الأصمعي أنه أعطاهما مغنياً ليتغنى بهما في مجلس يزيد^(٢) .

وأما الملاحظة الأخرى فهي أن كل ما وصل إلينا من شعر قضالة بن شريك إسلامي ، تؤكد ذلك أخباره والأسماء الإسلامية التي وردت فيه ، أما شعره الصعلكي فلم يصل إلينا شيء منه ، مع أنهم يذكرون عنه أنه « كان شاعراً فاتكاً صعلوكاً مخضرمًا أدرك الجاهلية والإسلام »^(٣) . وهي ظاهرة غريبة وقفت طويلاً أمام تعليلها ، وانتهيت إلى فرضين : إما أن قضالة لم يكن قد نضج فنياً في الجاهلية ، ولم يتم نضجه إلا بعد الإسلام ، وإما أن يكون له شعر داخل دائرة التصعلك ولكن عملت ظروف خاصة على ضياعه ، وأنا أرجح هذا الفرض الأخير ، وأرجح أن أهم هذه الظروف المركز الاجتماعي لابنه فاتك ، فقد « كان سيداً جواداً »^(٤) ، وكان كريماً على بني أمية ، وهو

(١) السجستاني : كتاب المعمرين / ٦٣ . والبغدادى : غزاة الأدب ٤٢٦/٣ . والأغاني

١١/ ١٣٠ ، (بولاقي) وحاسة البحتري ٣٢٣ .

(٢) المقد الفريد ٣٧/٦ .

(٣) الأغاني ١٧١/١٠ (بولاقي) .

(٤) المصدر السابق ١٧١ .

الوافد على عبد الملك بن مروان قبل أن ينهض إلى حرب ابن الزبير فضمن له على أهل العراق طاعتهم وتسليم بلادهم إليه ، وأن يُسلموا مصعباً إذا لقيه ويتفرقوا عنه ، وله يقول الأقيشر في هذه الوفادة :

وقد الوفود فكنت أفضل وافد يافاتك بن فضالة بن شريك^(١)
وقد يؤيد هذا أن كل أخبار تصعلك فضالة قد ضاعت أيضاً ، والسبب هنا هو السبب هناك ، ولو قد وصل إلينا شيء منها لعقنا من هذا الفرض موقف التشكك .

ومهما يكن من أمر فإن موضوعات « المجموعة الإسلامية في شعر الصعاليك » قد خلت من تلك الموضوعات التي عرفناها في شعرهم داخل دائرة التصعلك ، وهذا طبيعي بعد أن غير الإسلام من أوضاع الحياة العربية الاجتماعية والاقتصادية ولم يعد للتصعلك مجال فيها . وتوشك موضوعات هذه المجموعة الإسلامية أن تنحصر في تلك الموضوعات العامة التي يعرفها الشعر العربي : المدح والهجاء والثناء . أما المدح والهجاء فيوشك فضالة أن يستأثر بهما . ويبدو أن فضاله أدرك أن هذه وسيلة من وسائل العيش تغنيه عن التصعلك ، فاندمج في الوسط السياسي الأموي ، وشارك شعراءه ، وأصبح شاعراً أموياً يمدح الأمويين ويهجو أعداءهم . وهو يؤثر بالمدح خاصة يزيد بن معاوية^(٢) ، وقد تبدو هذه الصلة بين يزيد وفضالة طبيعية ، فقد كان يزيد بما فيه من استهتار وجاهلية أقرب إلى نفس فضالة الصعلوك ، حتى ليجيره من عمرو بن سعيد بن العاص أمير المدينة يومئذ بعد أن هرب منها لهجائه عاصم بن عمر بن الخطاب ، واستعداء عاصم الأمير عليه^(٣) ، وهو — وإن يكن قد آثر يزيد بمدحه — لم ينس أن يمدح بني أمية عامة^(٤) .

(١) الأغاني ٢٧١/١١ (دار الكتب) وانظر أيضاً ١٧١/١٠ (بولاقي) .

(٢) الأغاني ١٧٠/١٠ ، ١٧٢ (بولاقي) .

(٣) المصدر السابق ١٧١/١٧٢ .

(٤) المصدر نفسه ١٧٠/١٧٢ ، ١٧٣ .

أما الهجاء فقد صبه مرةً على عاصم بن عمر بن الخطاب ، كما رأينا ،
لأنه «نزل به فلم يقره شيئاً» ، ولم يبعث إليه ولا إلى أصحابه بشيء ، وقد عرّفوه
مكانهم ، وهو يعلن له في بعض هجائه أنه لولا فضل أبيه لقلده خزيًا وعارًا:
فلولا يدُ الفاروق قلّدتُ عاصمًا مطوّقةً يحزى بها في المواسم^(١)
وصبه مرةً ثانية على رجل من سُلَيم أودع عنده ناقةً وخرج في سفر فلما
عاد وطلبها منه ذكر السلمي أنها سرقت^(٢).

وصبه مرةً ثالثة على عبد الله بن مطيع وإلى عبد الله بن الزبير على الكوفة
بعد أن طرده عنها المختار الثقفي^(٣) ، وعلى عبد الله بن الزبير نفسه في قصيدة
ينسبها بعض الرواة إليه ، وينسبها بعضهم إلى ابنه عبد الله^(٤) .
وصبه مرةً رابعة على رجل من الكوفة تزوج امرأة فسأل في صداقها^(٥) ،
وهي مسألة مشينة وبخاصة في نفس صعلوك لم يرض أن يتخذ من السؤال وسيلة
للعيش في يوم من الأيام .

وقد روى بيتان لأبي الطمحان يمدح بهما يزيد بن عبد الملك وكان قد
انتجعه :

يكاد الغمامُ الغُرُّ يُرْعِدُ أنْ رأى مُحَيّا ابن مروان وينهلُ بارقهُ
يظل فتيتُ المسك في رونق الضحى تَسِيلُ به أَصداغُه ومفارقة^(٦)
أما الرثاء فقد اختص به أبو خراش ، شأنه في ذلك شأن سائر الشعراء
الهلاليين الذين عرفوا بمقدرتهم الرثائية الفائقة . والطريف أن أبا خراش في
الإسلام يرثي أصدقاءه في الجاهلية ، وبين أيدينا من شعره الإسلامي أربع
قطع يرثي بها صديقين من أصدقاء الجاهلية : أخاه أو ابن عمه زهير بن

(١) المصدر نفسه / ١٧١ .

(٢) المصدر نفسه / ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٣) المصدر نفسه / ١٧٢ .

(٤) المصدر نفسه / ١٧١ ، ١٧٣ .

(٥) المصدر السابق / ١٧٢ .

(٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٦ / ٣٧ ، ٣٨ .

العَجْوَة^(١) الذي ينحصر بثلاث منها: قصيدتين ومقطوعة^(٢) ، ودُيُة سادن العزى الذي يرثيه بمقطوعة من أربعة أبيات^(٣) . وتتجلى لوعته وفجيئته بالذات على زهير الذي يبدو من حديثه عنه أنه كان أيضاً رفيقاً له في مغامراته^(٤) ، أما دبية فلا يتحدث عنه حديث الملتاع المفجوع بقدر ما يتحدث عنه حديث الذاكر لأيامه الأسف على انقضائها ، ولعله وفاء بدين كان لدبية في عتق أبي خراش ، أو - بعبارة أدق - في قدمي أبي خدّاش منذ أيام تصعلكه ، فقد حذاه دبية مرة نعلين فرح بهما فرحاً شديداً ، ومدحه بمقطوعة يسجل فيها هذه الهدية وقيمتها له^(٥) . والأمر الذي لا شك فيه أن أبا خراش كان جريئاً حين وقف في الإسلام يرثي دبية سادن العزى الذي قتله خالد بن الوليد بأمر من النبي صلى الله عليه وسلم^(٦) . ومع ذلك فمن المحتمل أن أبا خراش حين قُتل دبية لم يكن قد أسلم بعد ، ولكن يبدو أنه احتمال ضعيف نظراً لطبيعة المروية التي بين أيدينا ، فإن أبا خراش فيها لم يتعرض لقاتل دبية على الإطلاق ، ولو كان أبو خراش قالها قبل إسلامه لتعرض لخالد بن الوليد كما فعل مع قاتل زهير . ومع ذلك فقد يكون الرواة أسقطوا منها تعرضه لخالد ، وحتى مع هذا الاحتمال بأنه قالها قبل إسلامه فلا شك في أنه كان جريئاً حين وقف يرثي دبية في ذلك الوقت الذي أخذ فيه المسلمون يسيطرون على الموقف في جزيرة العرب ، إذ أن دبية لم يقتل إلا بعد فتح مكة^(٧) .

ويرثي أبو خراش صديقيه بمعان مألوفة في الشعر الجاهلي عامة : الكرم والشجاعة وعجز الإنسان أمام الموت الذي لا ينجو منه حتى الحيوان

(١) يقال إنه أخوه ، ويقال إنه ابن عمه (انظر ابن الأثير : أسد الغابة ٥ / ١٧٨ ، ١٧٩) .

(٢) ديوان الهذليين ٢ / ١٤٨ - ١٥٠ ، ١٦١ - ١٦٤ ، ١٥٧ .

(٣) المصدر السابق / ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٤) انظر الأبيات السبعة في المصدر السابق / ١٥٠ .

(٥) انظر مقطوعة اللامية في المصدر السابق / ١٤٠ ، ١٤١ . وانظر كتاب الأصنام / ٢٢ ،

(٦) انظر كتاب الأصنام / ٢٤ - ٢٦ .

(٧) المصدر السابق / ٢٤ ، ٢٥ .

الشارد في صحرائه ، ولكننا نقف أمام ظاهرتين طريفتين تستحقان التسجيل :

أولاهما : رواسب الصعلكة في شعر أبي خراش الإسلامي .

والأخرى : تأثير الإسلام فيه .

فما زالت صورة الفقراء المهتلكين الجياع ذوي الثياب البالية ، والضباع التي تنتظر أجساد القتلى في اشتهاى ظامئ ، والآثار الذي يملأ النفوس تحقداً وغليلاً ، وذكريات الماضي الذي لا ينساه أبو خراش ، تردد في رثائه لزهير ، وبخاصة في لاميتيه^(١) .

ومع هذه الصورة نعر على صورة أخرى لتلك الحياة التي تغيرت ظروفها نتيجة لظهور الإسلام ، فقد أحاطت برقاب هؤلاء الصعاليك سلاسل الدين الحديد ، فلم يعودوا قادرين على أن يمضوا في حياتهم كما كانوا في الجاهلية ، وأصبح مقياس الأمور في هذه الحياة الإسلامية العدل والحق ، أما الظلم والباطل فقد مضى عهدهما الطائش الجاهل ، وأصبح فتیان الصعاليك وقد تفرقت جماعاتهم كأنما فرق بينهم الموت :

فليس كعهد الدار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل
وعاد الفتى كالكهل ليس يقائل سوى العدل شيئاً فاستراح العواذل
فأصبح إخوان الصفاء كأنما أهال عليهم جانب الترب هائل^(٢)
وأشد ما يملأ نفس أبي خراش غيظاً وغليلاً أنه أصبح عاجزاً عن أن يثار
لصاحبه من قاتله ، وهو من قريش ، أولئك الذين صارت الإمارة والملك
فيهم ، ولولا ذلك ما كان ليخشاهم ، ولكن ماذا يفعل سوى أن يظل طول
عمره مغيظاً محققاً عليهم حتى يُقتلوا بصاحبه :

فما كنتُ أنخشي أن تنال دماءنا قريش ولما يُقتلوا بقتيل
وأبرح ما أمرتكم وملككم يد الدهر ما لم تُقتلوا بغليل^(٣)

(١) ديوان المهديين ٢/ ١٤٨ - ١٥٠ ، ١٥٧ .

(٢) المصدر السابق / ١٥٠ .

(٣) المصدر نفسه / ١٥٧ .

وهكذا تترج الصورتان في صورة رائعة طريقة لونها التصعلك والإسلام .
والطريف أيضاً أن أبا خراش بعد أن أسلم وحسن إسلامه^(١) ، وبعد
أن عاش في الإسلام عمراً طويلاً امتد به حتى خلافة عمر بن الخطاب^(٢) ،
حين يقف على البرزخ الفاصل بين الحياة والموت ، لا يأسف على شيء كما
يأسف على ساقه التي نهشتها حية ، والتي طالما أعانته في حياته وكان لها عليه
فضل أي فضل :

لَعَمْرُكَ وَالْمَنَايَا غَالِبَاتُ عَلَى الْإِنْسَانِ تَطْلُعُ كُلُّ نَجْدٍ
لَقَدْ أَهْلَكْتَ حَيَّةَ بَطْنِ أَنْفٍ عَلَى الْأَصْحَابِ سَاقًا ذَاتَ فَقْدٍ^(٣)
لَقَدْ أَهْلَكْتَ حَيَّةَ بَطْنِ أَنْفٍ عَلَى الْأَصْحَابِ سَاقًا ذَاتَ فَضْلٍ
فَمَا تَرَكْتُ عَدُوًّا بَيْنَ بَصْرَى إِلَى صَنْعَاءَ يَطْلُبُهُ بِذَخْلٍ^(٤)

وهذه أيضاً من رواسب تلك الحياة المتصعلكة التي أخلص لها أبو خراش
في جاهليته إخلاصاً عميقاً ظلت آثاره تتسرب من حين إلى حين في شعره الإسلامي .

ولأبي خراش بعد ذلك قصيدة في سبعة أبيات يصور فيها حزنه على هجرة
ابنه خراش الذي كان قد حمد الله في بعض أيام تصعلكه البعيدة على أن أنجاه
له يوم قتل عروة أخوه^(٥) ، وكان خراش قد هاجر في خلافة عمر وغزا مع
المسلمين ، وكان أبوه بطبيعة الحال في ذلك الوقت شيخاً كبيراً ، فهو يتحدث
إلى ابنه في نهاية الأبيات حديثاً تبدو فيه روح الإسلام واضحة ، فليس البر
أن يهاجر خراش لينال أجر الشهادة مع المجاهدين مخلفاً أباه وراءه شيخاً كبيراً
ضعيفاً في أشد الحاجة إليه ، وإنما البر أن يرعى أباه الذي بلغ عنده
الكبر :

(١) ابن الأثير : أسد الغابة ١٧٨/٥ ، ١٧٩ .

(٢) المصدر السابق / ١٧٩ .

(٣) ديوان الهذليين ١٧١/٢ . والأغاني ١٩/٢١ .

(٤) الأغاني ٧٠/٢١ .

(٥) ديوان الهذليين ١٥٧/٢ - ١٥٩ .

أَلَا فَاعْلَمْ خِرَاشُ بِأَنْ خَيْرَ الـ مهاجر بَعْدَ هجرته زهيدُ
 فَإِنَّكَ وَابْتِغَاءَ الْخَيْرِ بَعْدَى كَمَخْضُوبِ اللَّبَانِ وَلَا يَصِيدُ^(١)
 وَكَأَنَّمَا نَسْتَشْفِ مِنْ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ « وَقَضَى رَبُّكَ
 أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا
 أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَانْحَفِضْ
 لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا »^(٢) .
 وَبِحَقِّ أَمْرِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَ أَنْ اسْتَمَعَ إِلَى هَذِهِ الْآيَاتِ بِأَنْ يَعُودَ
 خِرَاشُ إِلَى أَبِيهِ ، وَأَلَّا يَغْزُو مِنْ كَانَ لَهُ أَبٌ شَيْخٌ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ^(٣) .

(١) المصدر السابق / ١٧١ . والأغاني ٦٩/٢١ .

(٢) سورة الإسراء / ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) الأغاني ٦٩/٢١ .

الفصل الثالث

الظواهر الفنية في شعر الصعاليك

١

شعر مقطوعات :

حين ننظر في شعر الصعاليك الذي بين أيدينا من الزاوية التي تظهرنا على بنائه الخارجي ، فأول ما يلفت نظرنا فيه أنه شعر مقطوعات . ولنا نعي بهذا انعدام القصيدة فيه ، وإنما نعي ذبوع المقطوعة أكثر من ذبوع القصيدة . وإذا استثنينا تائية الشنفرى المفضلية ذات الأبيات الأربعة والثلاثين في بعض المصادر^(١) ، والخمسة والثلاثين في بعض المصادر الأخرى^(٢) ، ولامية عمرو ذي الكلب الهذلي ذات الثلاثين بيتاً^(٣) ، ورائية عروة بن الورد المشهورة^(٤) ، وفائفة صخر الغي الهذلي^(٥) ، وكل منهما في سبعة وعشرين بيتاً ، ثم تلك الأبيات المفرقة لتأبط شرّاً في رثاء الشنفرى التي جمعها ناشر ديوان الشنفرى وتألفت منها قصيدة في سبعة وعشرين بيتاً^(٦) ، وقافية تأبط شرّاً المفضلية ذات الأبيات الستة والعشرين^(٧) ، وبائية الأعمى^(٨) ، وميمية أبي خراش^(٩) ، وكلتاها في

(١) المفضليات ١٩٤ - ٢٠٧ .

(٢) انظر في المصدر السابق / ٢٠٧ تعليق Lyall على البيت الأخير من التائية .

(٣) شرح أشعار الهذليين ١ / ٢٣٢ - ٢٣٧ .

(٤) ديوانه / ٦٣ - ٨٥ .

(٥) شرح أشعار الهذليين ١ / ٤٢ - ٤٩ .

(٦) ديوان الشنفرى في الطرائف الأدبية / ٢٨ - ٢٩ .

(٧) المفضليات / ١ - ١٩ .

(٨) شرح أشعار الهذليين ١ / ٥٥ - ٦٠ .

(٩) ديوان الهذليين القسم الثاني / ١٢٥ - ١٣٢ .

أربعة وعشرين بيتاً ، ودالية صخر الفى ذات الأبيات الثلاثة والعشرين^(١) ، إذا استثنينا هذه القصائد التسع ، واستثنينا معها تلك المجموعة القليلة من القصائد الطويلة التي قبلت في أغراض عامة ، والتي أخرجناها في الفصل السابق من دائرة شعر التصعلك ، فإننا نجد أنفسنا أمام مجموعة كبيرة من المقطوعات التي يتراوح عدد أبيات الواحدة منها بين البيتين والسبعة ، وأمام مجموعة أخرى من القصائد القصيرة التي توشك أن تكون مقطوعات لا تتجاوز أطولها ، وهي قائمة للشنفرى ، عشرين بيتاً في بعض المصادر^(٢) ، وتسعة عشر بيتاً في بعض المصادر الأخرى^(٣) ، هذا إلى جانب مجموعة كبيرة من الأبيات المفردة التي يرجح جداً أنها أبيات من قصائد أو مقطوعات لم تصل إلينا .

وقد يكون من الطريف أن نلاحظ أن كل ما وصل إلينا من شعر أبي الطمحان مقطوعات قصيرة ، أطولها في أربعة أبيات^(٤) ، وأقصرها في بيتين^(٥) ، وأن كل ما وصل إلينا من شعر حاجز ، ما عدا قصيدة ميمية في تسعة أبيات^(٦) ، مقطوعات قصيرة أقصرها في بيتين^(٧) ، وأطولها في سبعة^(٨) ، وأن كل ما وصل إلينا من شعر السليك مقطوعات أقصرها في بيتين^(٩) وأطولها في ستة أبيات^(١٠) ، وإن تكن إحداها قد بلغت أربعة عشر بيتاً^(١١) ، وكذلك قيس بن الحداذية ،

(١) شرح أشعار الهذليين ١٢/١ - ١٣ .

(٢) ديوانه في الطرائف الأدبية ٣٧ - ٣٩ .

(٣) الأغاني ٢١/١٤٠ ، ١٤١ .

(٤) اللامية في الحيوان للجاحظ ٣٨٠/١ ، والبيان والتبيين ٣/١٥٠ ، ١٥١ ، والأغاني

١١/١٣٢ (بولاقي) ، ورواية الجاحظ أصح ، والبائية في الأغاني ١١/١٣٢ ، ١٣٣ (بولاقي) ،

والقافية في المصدر نفسه ١٣٣/١٣٣ ، والرائية في الحيوان للجاحظ ٦/١١٣ .

(٥) التوزية في الأغاني ١١/١٣٤ (بولاقي) والقافية في البيان والتبيين ٣/٢٠٢ .

(٦) الأغاني ١٢/٥٠ (بولاقي) .

(٧) المصدر السابق ٥٢ ، ٥٣ .

(٨) المصدر نفسه ٥١ .

(٩) الأغاني ١٨/١٣٤ ، ١٣٧ . والشعر والشعراء ٢١٥ .

(١٠) الأغاني ١٨/١٣٥ . والميداني : مجمع الأمثال ١/٣٩٩ .

(١١) الأغاني ١٨/١٣٦ .

إذا استثنينا قصيدتين له في الغزل^(١) لأنهما خارج دائرة التصعلك ، فإن كل ما لدينا من شعره بين الأبيات الثلاثة والتسعة ، بل إن تأبط شرا ، ومجموعته الشعرية أوفر عدداً من هؤلاء ، إذا استثنينا قصيدتيه اللتين ذكرناهما بين القصائد العشر المطولات ، واستثنينا خمساً أخرى بين تسعة أبيات وستة عشر بيتاً^(٢) ، فكل ما يتبقى أمامنا مجموعة بين بيت واحد وستة أبيات .

وهنا نقف لتساءل : ما السر في هذا ؟

نحن بين أمرين : إما أن نفترض أن مجموعة شعر الصعاليك التي بين أيدينا ناقصة لا من حيث عدد قصائدها ومقطوعاتها فحسب ، ولكن من حيث عدد أبياتها أيضاً . وهو فرض له إغرائه لأنه مريح من ناحية ، ولأنه يتفق مع ما يذكره مؤرخو الأدب العربي من ضياع أكثر الشعر الجاهلي من ناحية ثانية ، ولأنه — من ناحية ثالثة — مقبول في مثل حالة الشعراء الصعاليك الذين رأينا أن قبائلهم لم تكن تحرص على شعرهم ، وحتى لو حرصت عليه فليست السبيل إليه ميسرة لهم .

ولما أن نقبل الحقيقة الماثلة أمامنا وهي أن مجموعة شعر الصعاليك — في مجموعها — مقطوعات قصيرة ، ثم نتلمس العلة في ذلك . والعلة عندي هي طبيعة حياتهم نفسها ، تلك الحياة القلقة المشغولة بالكفاح في سبيل العيش التي لا تكاد تفرغ للفن من حيث هو فن يفرغ صاحبه لتطويله وتجويده ، وإعادة النظر فيه ، كما كان يفعل الشعراء القبليون ، تلك الطائفة « الأرستقراطية » التي فرغت للفن فراغاً هيأته لها قبائلها لا من أجل الفن ولكن من أجل أنفسها . وإلا فما معنى تلك الفرحة التي كانت تعم أفراد القبيلة جميعاً حين ينبغ فيها شاعر إن لم تعمل القبيلة على الاستفادة من شاعرها ونهي له أو — بتعبير أدق — لها سبيل هذه الاستفادة ؟

وهل نتصور مثلاً أن يفرغ الشاعر الصعلوك لفنه كما كان يفرغ زهير

(١) الأغاني ١٣/٦ ، ٧ ، ٨ (بولاق) .

(٢) حاشية أبي تمام ١/٤٦ ، ٢/٢٦ ، والأغاني ١٨/٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ .

لحوليّاته ، أو امرؤ القيس في حياته اللاهية الفارغة المطمئنة التي ضمن له رغدها ملك أبيه ، أو النابغة في حياته المستقرة في بلاط المناذرة والغساسنة ؟ الأمر الذي لا شك فيه هو أن حياة الصعاليك كانت حياة قلق مضطربة ، وأنهم جميعاً كانوا يشعرون شعوراً عميقاً بأنها حياة قصيرة ، وبأنهم دائماً على موعد مع الموت الذي يترصد لهم ترصد الموتور ، حتى كثر ذكر الموت عندهم ، وتردد الحديث عنه في شعرهم ، صدى لما كان يجيش في نفوسهم من إحساس عميق بقصر حياتهم . وهل نظن شاعراً هذه طبيعة حياته يستطيع أن يفرغ لفته بطله ويجوده ويعيد النظر فيه المرة بعد المرة ؟ أظن أن الطبيعي أن مثل هذه الحياة التي لا يكاد الشاعر يفرغ فيها لنفسه لا تنتج إلا لوناً من الفن السريع الذي يسجل فيه الشاعر ما يضطرب في نفسه في مقطوعات قصيرة موجزة ، يسرع بعدها إلى كفاحه الذي لا ينظره ولا يحمله . أما تلك القصائد الطويلة القليلة فهي أصداء لفترات قليلة كانت تمر بحياة الشعراء الصعاليك يستريحون فيها من الكفاح في سبيل العيش ، فيفرغون لأنفسهم يستخرجون من رواسيها العميقة فناً متأنياً مطمئناً مطوّلاً مجوداً رائعاً ممتازاً .

أما أنا فأميل كل الميل إلى هذا الرأي الثاني الذي يفسر الحقيقة الماثلة أمامنا تفسيراً واقعياً دون أن يتكلف في سبيل إنكارها الفروض النظرية التي إن جاز قبولها جاز رفضها .

ومع ذلك أليس من المحتمل أن يكون السبب في كثرة المقطوعات في شعر الصعاليك أنه وصل إلينا مفرقاً في مصادر مختلفة اقتصر كل منها على ما ما يشهد به منه ، وأنه لو كان قد وصل إلينا مجموعاً في ديوان مفرد أو دواوين مفردة لكان من الجائز أن يكون قصائد طويلة ؟ وهو احتمال له وجاهته . وهنا لا يسعنا مرة أخرى إلا إبداء الأسف على عدم حصولنا على تلك المجموعة من أشعار اللصوص التي جمعها السكوي ، وعلى مخطوطة ديوان تأبطشراً الذي جمعه ابن جني . ولكن بين أيدينا مجموعة من الدواوين المفردة لطائفة من الشعراء الصعاليك : صخر الغي ، والأعلم ، وعمرو ذي الكلب ، وأبي خراش في

مجموعة أشعار الهذليين ، وعروة بن الورد ، والشنفرى فى ديوانين مستقلين .
 وحين ننظر فى هذه الدواوين نجد أن ظاهرة انتشار المقطوعات فيها واضحة كل
 الوضوح ، فليس فى ديوان صخر الغى سوى ثلاث قصائد طويلة^(١) من مجموعة
 شعره التى تبلغ ثلاث عشرة قطعة ، ومن هذه القصائد الثلاث واحدة خارج
 دائرة التصعلك^(٢) ، وليس فى ديوان الأعم سوى قصيدتين طويلتين^(٣) من
 مجموعة شعره التى تبلغ ست قطع ، وليس لأبى خراش سوى سبع قصائد
 طويلة^(٤) ، منها اثنتان خارج دائرة التصعلك^(٥) ، من مجموعة شعره
 الكبيرة التى تبلغ اثنتين وعشرين قطعة ، وكل ما سوى هذه القصائد السبع
 مقطوعات وقصائد قصيرة لا تتجاوز أطولها تسعة أبيات ، وأما ذو الكلب فله
 قطعتان : إحداهما قصيدة طويلة^(٦) ، والأخرى أرجوزة قصيرة^(٧) ، وأما
 عروة بن الورد فإذا أخرجنا من إحصائيتنا تلك المجموعة التى أضافها ناشر
 ديوانه مما عثر عليه فى مصادر الأدب العربى المختلفة ، لأننا نبني حكمنا على
 ما جمعه القدماء من شعر هؤلاء الصعاليك فى دواوين مفردة ، واقتصرنا على
 المجموعة التى رواها ابن السكيت وهى تبلغ إحدى وثلاثين قطعة ، فإننا لا نجد
 فيها سوى سبع قصائد طويلة^(٨) ، أقصرها فى أحد عشر بيتاً^(٩) ، وأطولها
 فى سبعة وعشرين^(١٠) ، وكل ما عدا ذلك مقطوعات لا تتجاوز أطولها ثمانية
 أبيات ، وتنخفض مجموعة منها إلى بيتين ، وأما الشنفرى ، فإذا استثنينا اللامية التى

(١) شرح أشعار الهذليين ١/ ١٢ - ١٣ ، ٣٦ - ٣٧ ، ٤٢ - ٤٩ .

(٢) المصدر السابق / ٣٦ - ٣٧ .

(٣) المصدر نفسه / ٥٤ - ٦٠ ، ٦٠ - ٦١ .

(٤) ديوان الهذليين القسم الثانى / ١١٦ - ١٢٣ و ١٢٥ - ١٣٢ و ١٣٢ - ١٣٦ و ١٤٤ -

١٤٨ و ١٤٨ - ١٥٠ و ١٥١ - ١٥٣ و ١٦١ - ١٦٤ .

(٥) المصدر السابق / ١١٦ - ١٢٣ و ١٥١ - ١٥٣ .

(٦) شرح أشعار الهذليين ١/ ٢٣٢ - ٢٣٧ .

(٧) المصدر السابق / ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٨) ديوانه : القصائد ١ ، ٢ ، ٣ ، ٦ ، ٧ ، ٩ ، ٢٣ .

(٩) المصدر السابق : قصيدة رقم ٦ .

(١٠) المصدر نفسه : قصيدة رقم ٣ .

تُنسب إليه أحياناً، ويشك في نسبتها إليه أحياناً أخرى ، والتي بيننا رأينا فيها في الفصل الأول من هذا الباب الثاني ، فإننا لا نجد في ديوانه المخطوط - لأننا لا نريد أن نعتمد على ديوانه المطبوع الذي أضاف إليه ناشره طائفة من شعره من مصادر متفرقة - سوى قصيدتين طويلتين هما تائيته^(١) وفائيته^(٢) ، وما عداهما مقطوعات لا تتجاوز أطولها ستة أبيات^(٣) .

أليس في هذا ما يجعلنا نقف من هذا الاحتمال موقف التشكك في قبوله ، ونظل عند ميلنا إلى قبول الحقيقة الماثلة أمامنا ، وهي ظاهرة « انتشار المقطوعة في شعر الصعاليك » دون حاجة إلى تكلف فروض واحتمالات ؟

٢

الوحدة الموضوعية :

وإذ انتهينا إلى تسجيل هذه الظاهرة ننتقل إلى تسجيل ظاهرة أخرى تتصل بها ، وهي ظاهرة « الوحدة الموضوعية في شعر الصعاليك » . فالناظر في شعر الصعاليك تلفت نظره تلك الوحدة الموضوعية في مقطوعاته وأكثر قصائده ، بحيث يستطيع أن يضع لكل مقطوعة عنواناً خاصاً بها ، دالاً على موضوعها . وهي ظاهرة لم تعرفها قصائد الشعر الجاهلي القبلي في مجموعته ، تلك القصائد التي تبدأ عادةً بمقدمة طلبية ، ثم تظل تنتقل من موضوع إلى موضوع حتى تصل إلى نهايتها ، حتى لتصبح براعة الانتقال من المقاييس الفنية المعترف بها عند نقاد الشعر العربي القدماء .

ونستطيع أن نمضي مع مجموعة شعر الصعاليك فلا نكاد نخطئ الوحدة الموضوعية في كل مقطوعاتها وأكثر قصائدها ، سواء ما كان منها في وصف

(١) من لوحة رقم ٤٦ - لوحة رقم ٥٠ .

(٢) من لوحة رقم ٥٠ - لوحة رقم ٥٢ .

(٣) لوحة رقم ١٠ .

المغامرات أو الحديث عن سرعة العدو أو الفرار أو تقرير فكرة اجتماعية أو اقتصادية أو غير ذلك من موضوعات شعر الصعاليك التي عرضنا لها في الفصل السابق . ولا نكاد نجد صعوبة في وضع العناوين المختلفة لها ، المعبرة عنها ، الدالة على موضوعاتها ، فمثلاً بائية الشنفرى ^(١) « غارة على العوص » ، ورائية تأبط شرًا ^(٢) « احتيال » ، وفائية السليك ^(٣) « العاشية المذعورة » ، وبائية حاجز ^(٤) « نجاة » ، ورائيته ^(٥) « فرار » ، ورائية أبي الطمحان ^(٦) « حنين » ، وكافية تأبط شرًا ^(٧) « الصديق الصعلوك » ، ورائية الشنفرى التي أنشدها قبيل مقتله ^(٨) « نهاية الصعلوك » أو « وصية الصعلوك » أو « ولية الضيع » ، ورائيته التي أنشدها فيما كان يطالب به بنى سلامان ^(٩) « تهديد » ، وفائية الأعلام ^(١٠) « الأرستقراطي الهلوع » ، وضادية أبي خراش ^(١١) « فرحة وأحزان » ، وبائيته ^(١٢) « رقيق المرقبة » ، وفائية عروة ^(١٣) « طواف الاستقرار » ورائيته ^(١٤) « الفقير والغنى » ، ولاميته ^(١٥) « تراث الصعلوك » ، وهكذا نستطيع أن نفعل بسائر مقطوعات

(١) الأغاني ٢١٦/١٨ ، وديوانه في الطرائف الأدبية / ٣٢ .

(٢) حماسة أبي تمام ٣٨/١ وما بعدها .

(٣) الأغاني ١٣٥/١٨ .

(٤) الأغاني ٥٢/١٢ (بولاقي) ، وحماسة البحري / ٦٥ .

(٥) الأغاني ٥٢/١٢ (بولاقي) .

(٦) الأغاني ١٣٤/١١ و ٦٩/١٦ (بولاقي) .

(٧) حماسة أبي تمام ٤٦/١ .

(٨) ديوانه المطبوع / ٣٦ . وديوانه المصور : لوحة رقم ٦ .

(٩) المصدران السابقان : المطبوع / ٣٥ ، ٣٦ ، والمصور / ١٠ ، ١١ . والأغاني

١٣٥/٢١ .

(١٠) شرح أشعار الهذليين ٦٨/١ ، ٦٩ .

(١١) ديوان الهذليين ١٥٧/٢ . والمجرد : الكامل / ٣٣٧ ، ٣٣٨ . وحماسة الخالدين

(مخطوطة) : ورقة رقم ١١٥ ، ١١٦ .

(١٢) ديوان الهذليين ١٥٩/٢ - ١٦١ .

(١٣) ديوانه / ٩١ - ٩٥ .

(١٤) ديوانه / ١٩٨ ، ١٩٩ .

(١٥) ديوانه / ٢٠٧ .

شعر الصعاليك وقصائده القصيرة دون أن نشعر بأى تفاوت بينها وبين عناوينها. ونتساءل : ما موقف القصائد الطويلة في مجموعة شعر الصعاليك من هذه الظاهرة ؟ وهل استجابت لها كما استجابت المقطوعات والقصائد القصيرة ؟ الأمر الذى لا شك فيه والذى يلاحظه كل ناظر فى هذه القصائد الطويلة أول ما يلاحظ ، أنها لم تقف عند غرض واحد ، بل تناولت طائفة متعددة من الأغراض ، ولكن أخرج بها هذا عن الوحدة الموضوعية أم لا يخرج ؟ هذه هى المسألة .

حين ندقق النظر فى هذه الأغراض المتعددة نلاحظ أنها فى القصيدة الواحدة ترجع عادة إلى أصل موضوعى واحد تتفرع منه كما تتفرع أغصان الشجرة من جذعها ، فليس التعدد هنا تعدداً فى الموضوع ، وإنما هو تفرع فى أغراض الموضوع ، فلامية ذى الكلب الهذلى^(١) على كثرة ما تناوله فيها من أغراض فرعية من حديث إلى صاحبته عن غزواته ، ومن حديث عن تربص أعدائه به ، وتربص بهم وتهديده إياهم ، ومن حديث عن رفاقه وعن أسلحته وعن المراقبة التى يربص فوقها ، ترجع فى حقيقة الأمر إلى موضوع واحد هو ذلك الصراع بينه وبين أعدائه ، حتى ليصح أن نسميها « صراع الصعلوك » . ورائية عروة^(٢) التى يتحدث فيها عن مذهبه فى الغزو ودوافعه ، وعن الصعلوك الحامل والصعلوك العامل ، وعن كرمه وفقره ، ترجع فى حقيقة الأمر إلى موضوع واحد هو فكرة التصعلك ، حتى ليصح أن نجعل « فلسفة الصعلكة » عنواناً لها .

وميمية ابن خراش^(٣) التى يتحدث فيها إلى امرأته عن فقره وكرم نفسه ، وشجاعته ، وصبره على الجوع ، ومغامراته ، وشدة عدوه ، ومقدرته على الاهتداء فى الليالى المظلمة ، وبراعته فى الرمي ، والتى يوازن فيها بينه وبين

(١) شرح أشعار الهذليين ١/ ٢٢٢ - ٢٢٧ .

(٢) ديوانه / ٦٣ - ٨٥ .

(٣) ديوان الهذليين ٢/ ١٢٥ - ١٢٢ .

ذلك الرجل الغنى الذى تطمح امرأته إليه ، أليس من اليسير أن نردها إلى أصل موضوعى واحد نجعله عنواناً لها وهو « مفاخر الصعلوك » ؟
وهكذا نستطيع أن نمضى مع كل قصيدة من تلك القصائد التسع المطولات فرد أغراضها الفرعية إلى أصل موضوعى واحد يصلح أن يكون عنواناً لها .
ولكن يبدو أن فى هذا الحكم بعض الإطلاق ، وأنه يجدر بنا أن نخفف قليلاً من إطلاقه ، فبين أيدينا بعض القصائد ، وإن تكن قليلة جداً ، لا تخضع لهذا الحكم : تائية الشنفرى وقافية تأبط شرا المفضليتان ، وفائية صخر الغى وداليتة ، فهذه القصائد الأربع لا تخضع للوحدة الموضوعية ، وإنما تتعدد موضوعاتها ، وهو ، وإن يكن تعدداً يسيراً لا يغير من الحقيقة التى نقررها كثيراً إذ أنه فى كل منها لم يتجاوز الموضوعين ، فإنه على كل حال يجب أن يدعونا إلى وقفة قصيرة نحاول فيها أن نتبين السر فيه .

الذى يبدو لى تفسيراً لهذا أنه تقليد للشعر القبلى الذى كان مسيطراً على الحياة الفنية فى المجتمع الجاهلى ، وهذا التقليد ليس من الصعب أن نتصوره فأظن أنه ليس من اليسير أن نتصور أن الشعراء الصعاليك — برغم ما كان بينهم وبين مجتمعهم من نفور — قد بعدوا كل البعد عن الحياة الفنية فى مجتمعهم أو نفروا كل النفور منها ، وإنما المعقول أن نتصور أنهم كانوا أحياناً يحاولون تقليد تلك النماذج الفنية التى كان مجتمعهم يقدرها كل التقدير ، لعالمهم يظفرون بنوع من تقدير المجتمع لهم ، ولو تقديرأً فنياً ، بعد أن يشوا من تقديره لهم تقديرأً اجتماعياً . ولن يضيرهم أن يقلدوا أحياناً تلك النماذج الفنية من الشعر القبلى فى صورتها الشكلية ، فلن يغير هذا شيئاً من طبيعة حياتهم الاجتماعية المتمردة على القبيلة ، ولن يغير كثيراً من تقاليدهم الفنية الأساسية .

وعلى كل حال فهذه الظاهرة ، ظاهرة تقليد الشعراء الصعاليك للشعر القبلى فى صورته الشكلية ، ظاهرة قليلة الدروع فى مطولات شعر الصعاليك ، ومنعدمة تماماً فى مقطوعاته ، فليست من الخطر فى شيء على فكرتنا التى نقررها ، فكرة « الوحدة الموضوعية فى شعر الصعاليك » .

التخلص من المقدمات الطللية :

إذا استثنينا هذه المجموعة التقليدية من شعر الصعاليك فإننا نصل إلى تسجيل ظاهرة ثالثة، وهي ظاهرة « التخلص من المقدمات الطللية » . وهذا طبيعي ما دام الشعراء الصعاليك يحرصون على الوحدة الموضوعية في شعرهم ، إذ أن المقدمات الطللية تخل - بطبيعة الحال - بهذه الوحدة الموضوعية . وفيما عدا تلك المجموعة التقليدية التي أشرنا إليها لا نعرّ فيها بين أيدينا من شعر الصعاليك على مقطوعة أو قصيدة تبدأ بمقدمة غزلية ، وإنما اتخذ الشعراء الصعاليك لهم مذهباً آخر استعاضوا به عن هذه المقدمات ، وهو مذهب جعلوا محوره « حواء الخالدة » أيضاً ، ولكنها ليست المرأة المحبوبة التي عرفناها عند الشعراء القبليين ، تلك التي يتبدل الشاعر في حبها ويبكي أيامه معها ، ويقف على أطلال ديارها ، ويدعو أصحابه إلى الوقوف معه ، ولكنها المرأة المحبة الحريصة على فارسها ، التي تدعوه دائماً إلى المحافظة على حياته ، إن لم يكن من أجل نفسه فمن أجلها هي . وليس من شك في أنها براعة ممتازة أن يضع الشعراء الصعاليك في مستهل قصائدهم صورة للأني الضعيفة التي يظهر صاحبها إلى جوارها بطلاً قوياً مستهيناً بحياته من أجل فكرته ، يرفض نصيحته في رفق وأدب ، ويقابل جزعها بابتسامة الائق بنفسه ، المعتد بشخصيته ، ويحاول أن يقنعها في قوة وإيمان بسداد رأيه ، وسلامة مذهبه في الحياة . والبراعة هنا ترجع إلى وضع صورتين متقابلتين في معرض واحد مما يترتب عليه وضوح الألوان الفنية في كليتهما ، وهو وضع يذكرنا بما نعرفه من آداب فرسان أوروبا في العصور الوسطى ، حيث كانت لكل فارس سيدة يضع كل مفاخر حياته بين يديها . ومن هنا نستطيع أن نطلق على هذه المقدمات النسائية عند الشعراء الصعاليك « مقدمات الفروسية في شعر الصعاليك » في مقابل « المقدمات الطللية في الشعر القبلي » .

وقد رأينا الشنفرى فى قصيدته البائية التى جعلنا عنوانها « غارة على العوص » يستهلها بحديث إلى صاحبه بأن تركه وشأنه الذى هو ماض إليه ، ولا تثبط عزيمته ، ولتقل بعد مضيه ما تشاء ، فكل ما يعرفه هو أنه لن يموت إلا مرة واحدة .

ويستهل عمرو بن براقة قصيدته الميمية^(١) بحديث بينه وبين صاحبه ، تنصحه فيه ألا يعرض نفسه للمخاطر ، وأن يجعل ليله سباتاً يستريح فيه ، ولكنه يعجب من هذه النصيحة فكيف ينام الليل من وهب حياته للبطولة والمغامرة ؟ ألم تعلم بأنه أحد أفراد طائفة الصعاليك الذين لا ينامون من الليل إلا قليلاً ؟ وهل تريد منه أن يكون كأولئك الخليلين المسالمين الذين ينامون الليل كله ؟

تقولُ سليمى لا تعرضْ لتلفَةٍ وليك عن ليل الصعاليك نائمٌ
وكيف ينامُ الليلَ من أجل ماله حسامٌ كلون الملح أبيض صارم
غموضٌ إذا عض الكربة لم يدع له طمعاً ، طوعُ اليمين مُلّازم
ألم تعلمي أن الصعاليك نومهم قليلٌ إذا نام الخلق المسالم
ويستهل السليك مقطوعة له لم يصل إلينا منها - فيما بين أيدينا من مصادر -
سوى بيتين يتحدث فى أولهما عن تحذير صاحبه له ، ويطمئنها على نفسه
لأنه واثق من شجاعته وقوة نفسه :

تحذرنى أن أحذرَ العام خثعماً وقد علمتُ أنى امرؤ غيرُ مسلمٍ^(٢)
وأكثر ما نرى هذه الظاهرة عند عروة بن الورد ، فكثير من قصائده ومقطوعاته تبدأ بحوار بينه وبين صاحبه ، أو لعلها امرأته كما يقول رواة شعره ، وهى تلومه على كرمه وإسرافه ، وتعاتبه على مخاطرته بحياته ، وتغريه على

(١) القالى : الأمالى ٢/١٢٢ ، والأغانى ٢١/١٧٥ ، ١٧٦ . والعينى : شرح الشواهد الكبرى (على هامش خزانة الأدب) ٣/٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٢) ابن حبيب : كتاب المتتالين (مصورة) لوحة رقم ٩٠ ، والتبريزى : شرح حماسة أبى تمام ٢/١٩٢ . وفيه « القوم » مكان « المام » .

البقاء إلى جانبها ، تارة بمعسول القول :

تقول سُليمى لو أَقمتَ لَسرنا ولم تَذرْ أُنّى للمقام أَطوْفُ^(١)
وتارة أخرى بخارَ الدمع الذى ينهل من عينيها الجميلتين :

تقولُ ألا أَقْصِرُ عن الغزو، واشتكى لها القولَ طرفَ أحور العين دامع^(٢)
وتارة غيرهما بتخويفه الأعداء الذين يتربصون به :

أرى أم حسانَ الغداةَ تلومنى تُخوفنى الأعداء، والنفْسُ أخوف^(٣)
أما هو فيجيبها فى رفق قوى ، أو فى قوة رفيقة ، بأنه لا يفعل هذا إلا من
أجلها، ومن أجل من يغشاهما من الأهل ، ومن ينزل بهما من الفقراء . يقول لها مرة :
ذرينى أَطوْفُ فى البلاد لعلى أخليكِ أو أغنيكِ عن سوء مَحْضَرِ^(٤)
ويقول أخرى :

أبى الخفضَ مَنْ يغشاك من ذى قرابة ومن كل سوداء المعاصم تَعْتَرى^(٥)
وكل ما يطلبه أن تتركه ونفسه ليشتري بها المجد الخالد ، والأحاديث
الباقية ، قبل أن تفلت منه الفرصة فإذا هو عاجز عن البيع والشراء ، بيع
النفس وشراء الأحاديث :

ذرينى ونفسى أم حسانَ إننى بها قبلَ أنْ لا أملك البيعَ مشتري
أحاديثَ تَبَقى والفتى غيرُ خالد إذا هو أَمسى هامة فوق صَيْرٍ
تُجاوبُ أحجار الكِناس ، وتشتكى إلى كل معروف تراه ومنكر^(٦)
وهو لا يجزع من الموت ، وهل يملك الإنسان تأخير ساعته إذا دنت ؟
إن لكل إنسان ساعة إذا حلت فلا متأخر عنها :

(١) ديوانه / ٩٣ .

(٢) ديوانه / ١٧٦ .

(٣) ديوانه / ٩١ .

(٤) ديوانه / ٦٦ .

(٥) ديوانه / ٧١ .

(٦) ديوانه / ٦٣-٦٥ .

فإن فاز سَهْمٌ للمنية لم أكن جزوعاً ، وهل عن ذاك من متأخر^(١)
 وهل يضمن الإنسان إذا تخلف عن المغامرة والمخاطرة ألا يدركه الموت
 وهو في عقر داره ؟

لعل الذي خَوَّفَتْنَا مِنْ أماننا يُصَادِفُه في أهله المتخلف^(٢)
 إنها مسألة مفروغ منها ، لا ينبغي لأحد أن تقعد به عن هدفه وغايته :
 أَلَمْ تَعْلَمْ يَا أُم حَسَانَ أَنَّنَا خَلِيطَا زِيَالٍ لَيْسَ عَنْ ذَاكَ مَقْصَرُ
 وَأَنْ الْمَنَايَا تُغَرُّ كُلُّ مَنِيَّةٍ فَهَلْ ذَاكَ عَمَايِبَتْنِي الْقَوْمُ مُخَصِّرُ^(٣)
 والواقع أن عروة يُعدّ خير من يمثل هذه الظاهرة من بين الشعراء
 الصعاليك ، وفي كثير من قصائده ومقطوعاته نرى هذا اللون من أحاديث
 « الفروسية »^(٤) . وربما كان السبب في هذا راجعاً إلى طبيعة مركز عروة في
 حركة الصعلكة الجاهلية زعيماً لها ، ومشرعاً لفلسفتها ، وواضعاً لتقاليدها
 الاجتماعية والفنية .

وقد تنحرف هذه المقدمات أحياناً بعض الانحراف ، فلا تكون حديثاً بين
 الشاعر الصعلوك وصاحبه ، وإنما تصبح حديثاً من الشاعر الصعلوك إلى
 صاحبه ، يتحدثها عن شيء سوف يفعله ، أو شيء قد فعله ، في اعتداد
 وثقة بنفسه ، أو في إعجاب وفخر بها :

كَأَنَّ قَدْ فَلَا يَغْرُرُكِ مَنِي تَمَكَّنِي سَلَكْتُ طَرِيقاً بَيْنَ يَرْبَعِ فَالسَّرْدِ
 وَإِنِّي زَعِيمٌ أَنْ أَلْفَ عَجَاجَتِي عَلَى ذِي كَسَاءٍ مِنْ سَلَامَانَ أَوْ بُرْدِ^(٥)

(١) ديوانه / ٦٧ .

(٢) ديوانه / ٩١ .

(٣) ديوانه / ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٤) انظر على سبيل المثال في ديوانه : القصيدة الثالثة / ٦٣ ، والرابعة / ٩١ ، والتاسعة / ١٢٧ ،

والثالثة والعشرين / ١٦٤ ، والسادسة والعشرين / ١٧٦ ، والثانية عشرة من الزيادات / ٢٠٦ .

(٥) الشنفرى في ديوانه في الطرائف الأدبية / ٣٤ ، والبيت الأول غير مروي في النسخة

المصورة من ديوانه ، وإنما تبدأ المقطوعة هناك بالبيت الثاني (لوحة رقم ١٠) ، وروايته « إني لأهوى

أن ألف عجاجتي » .

ألا هل أتى ذات القلائد فرئت عشية بين الجرفس والبحر من بحر
وقد تنحرف هذه المقدمات انحرافاً آخر ، فلا تكون حديثاً من الش
الصعلوك إلى صاحبه ، وإنما تصبح حديثاً من صاحبه عنه ، حديثاً ما
تمكم فيه ، فيرد عليها مفتخراً بنفسه :

تقول سُليمى لجاراتها أرى ثابتاً يقيناً حوقلاً
لها الويل ما وجدت ثابتاً ألفَ اليدين ولا زُملاً^(١)
ألا عتبت على فصارمتنى وأعجبها ذوو اللمم الطوال
فإني يا ابنة الأقوام أربي على فعل الوضىء من الرجال^(٢)
ومن اليسير أن نفهم هذين الانحرافين : أما الأول فمن الطبيعي جداً أن
يتحدث الشاعر الصعلوك إلى صاحبه بمفاخره لعله يثير في نفسه إعجاب
به وتقديرها له ، وأما الآخر فإن النساء مفتونات أبداً بالمال والجمال .
وهنا نقف أمام ملاحظتين متناقضتين كل التناقض : أما أولاهما فتؤيدنا
فيما لاحظناه من تخلص الشعراء الصعاليك من المقدمات الطويلة ، وأما الأخرى
فإنها تثير إشكالا على هذه الملاحظة .

ذلك أن السكرى في شرحه لأشعار الهذليين يروى قصيدة لامية لعمر
ذى الكلب عن أبي عمرو وأبي عبد الله والأصمعي ، تبدأ ببيتين من الغزل
في رواية أبي عمرو وأبي عبد الله ، أما الأصمعي فلم يرو هذين البيتين .
وإنما تبدأ القصيدة عنده بحوار بين الشاعر الصعلوك وصاحبه أو امرأته بعد أن
رجع سالماً من بعض غزواته^(٣) . والملاحظة التي نريد تسجيلها هنا هي عدم
اتفاق رواية القصيدة على رواية هذه المقدمة الغزلية ، كأنما كان يرى بعض

(١) حاجر في الأغاني ١٢/ ٥٢ (بلاق) ، وفي حاسة البحرى ٦٥/ ٤ ذات الحوام .

(٢) تأبط شراً في الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٧٦/ ١٧٦ ، وحاسة ابن الشجرى ٤٧/ ٤٧ - اليقن :
الشيخ الكبير . والحقول : الضعيف . والألف : الثقل البطل العي بالأمور . والزمل : الجبان
الضعيف .

(٣) السليك في الكامل للمبرد ٢٩٨/ ٢٩٨ .

(٤) شرح أشعار الهذليين ١/ ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

الرواة أن المقدمة الطبيعية في شعر الصعاليك هي ذلك الحوار بين الشاعر وصاحبه حول مغامراته ، لا تلك المقدمة الغزلية التقليدية التي رأوا أنها غير مألوفة في شعرهم .

ولكن المشكلة تأخذ في الظهور إذ نعثر ببيتين مفردين أحدهما للسليك في لسان العرب ^(١) والآخر لتأبط شرا في معجم البكري ^(٢) . والبيتان يظهر عليهما طابع المقدمات الطللية التي نعرفها في الشعر التقليدي القديم ، فهما - أولاً - مُصرعان مما يشعر بأنهما مطلعاً قصيدتين ، ثم هما - ثانياً - صورة من أسلوب المطالع الجاهلية ، ذلك الأسلوب الذي يحرص الشاعر فيه على ذكر أسماء المواضع ، ثم هما - ثالثاً - لون من ألوان المطالع الجاهلية في حديثها عن الخيال الذي يُلم بالركب المسافر ، وعن عناء الديار بعد رحيل الأحباب . وهنا تظهر المشكلة فكيف يتفق هذا مع ما لاحظناه من تخلص الشعراء الصعاليك من المقدمات الطللية ؟ لقد كانت المشكلة تكون أيسر حلاً لو أن هذين المطلعين قد وصلت إلينا قصيدتهما ، إذن لاستطعنا أن نتبين أهما داخلتان في دائرة شعر الصعلكة أم خارجتان عنها . ونحن لم ننكر أن شعر الصعاليك الخارج عن دائرة الصعلكة قد قلد الشعر الجاهل القبلي في كثير من خصائصه ، ولكن المشكلة قد تعقدت بضياح هاتين القصيدتين من مجموعة شعر الصعاليك الذي بين أيدينا ، ثم بإمعان هذين المطلعين في تقليد الشعر الجاهلي القبلي .

وعلى كل حال فإذا صحت نسبة هذين المطلعين إلى السليك وتأبط شراً ، ولم يكونا من صنع اللغويين والجغرافيين العرب ، فلأننا نضيفهما إلى تلك المجموعة التقليدية من شعر الصعاليك التي قلنا إنها تعد شذوذاً على خصائص

(١) مادة (نيل) :

ألم خيال من أميمة بالركب وعن عجال عن نيال وعن قعب

(٢) معجم ما استعجم ١/ ٢٣١ :

عفا من سليمي ذو عنان فنشد فأجراع مأثول غلاء فبسدبد

شعر الصعلكة وهما على كل حال لن يغيرا شيئاً من الحقيقة التي قررناها ،
والتي نراها في أكثر نماذج شعر الصعلكة ، وهي تخلصه من المقدمات الطولية .

٤

عدم الحرص على التصريح :

وتتصل بهذه الظاهرة ظاهرة رابعة من حيث البناء الخارجى لشعر الصعليك ،
وهي عدم الحرص على التصريح في مطالع نماذجه الفنية . وقد كان
يخيل إلى في أول الأمر أن هذه الظاهرة قد تكون خاصة بمجموعة الشعر
داخل دائرة الصعلكة دون سائر شعر الصعليك ، أو بالمقطوعات منه بالذات ،
أو بالقصائد ذات الوحدة الموضوعية ، ولكنى حين استعرضت مجموعة شعر
الصعليك كلها رأيت أن هذه الظاهرة توشك أن تكون مطردة في كل شعر
الصعليك سواء ما كان منه داخل دائرة الصعلكة وما كان خارجها ، وسواء
ما كان مقطوعات أو قصائد ، وسواء ما كان خاضعاً للوحدة الموضوعية أو خارجاً
عليها ، وأقول « توشك » لوجود مجموعة من نماذجه الفنية يظهر التصريح في
مطالعها ، وهي مجموعة — وإن تكن قليلة — تتحول دون إطلاق الحكم على
كل شعر الصعليك . ولكن الشيء الذى نحرص على تسجيله هو أن هذه
الظاهرة لا تختص بمجموعة خاصة من شعر الصعليك دون مجموعة ، ولو
أنها كانت مختصة بمجموعة دون مجموعة لالتسنا تعليلها في خصائص المجموعة
التي تختص بها ، ولكن انتشارها بهذه الصورة « اللاقاعدية » تجعلنا نلتمس
لها تعليلاً آخر . وتعليلها عندى يرجع إلى تلك الثورة التي كانت تجيش بها
نفوس الصعليك على أوضاع مجتمعهم ، وإلى تلك الحرية التي كانوا يعيشون
فيها والتي كانت ترفض الخضوع لتقاليد مجتمعهم ، تلك الثورة وتلك الحرية
ظهرت آثارها عن طريق العقل الباطن في حياتهم الفنية ، فكان شعرهم ناثراً
على الأوضاع الفنية في الشعر الجاهلى القبلى ، حرّاً في أوضاعه الفنية . ولكننا

قلنا إن الشعراء الصعاليك لم ينجوا في بعض الأحيان من التقليد الفني للشعر الجاهلي القبلي ، ومن هنا نجد تلك المطالع المصرة في بعض نماذجهم الفنية . واستعراضنا لمجموعة شعر الصعاليك يظهرنا على طائفة من الملاحظات الطريفة :

فكل شعر أبي خراش بدون استثناء قد تخلص من التصريح تخلصاً تاماً . وكل شعر الأعلم بدون استثناء أيضاً قد تخلص من التصريح تخلصاً تاماً ؛ وكل شعر عمرو ذي الكلب ، إذا أخذنا برواية الأصمعي في لاميته التي عرضنا لها منذ قليل ، قد تخلص أيضاً من التصريح تخلصاً تاماً . وكل شعر الشنفرى ما عدا تائيته المفضلية ، وكل شعر تأبط شراً ما عدا قافيته المفضلية ، وكل شعر عروة بن الورد ما عدا رائيتين له ^(١) ، وكل شعر صخر الغي ما عدا داليته ^(٢) ، وميميته التي قالها في رثاء ابنه ^(٣) قد تخلص من التصريح .

وكل شعر السليك ، ما عدا مقطوعة واحدة في بيتين اثنين ^(٤) قد تخلص أيضاً من التصريح .

وكل شعر أبي الطمحان ، ما عدا مقطوعتين ^(٥) إحداها في المدح فن الطبيعي أن يلبس الشاعر فيها « الثياب الرسمية » التي يلبسها الشعراء المادحون حين يدخلون على من يمدحون ، كل شعره ما عدا هاتين المقطوعتين قد خلا من التصريح .

وكل شعر حاجز ، ما عدا ثلاث قطع ^(٦) إحداها يفتخر فيها بقومه ، قد خلا من التصريح .

(١) ديوانه / ٦٣ ، ١٢٧ .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١ / ١٢ .

(٣) المصدر السابق / ٣٦ .

(٤) الأغاني ١٨ / ١٣٤ ، والشعر والشعراء / ٢١٥ .

(٥) الأغاني ١١ / ١٣٣ (بولاق) (القافية والحائية) .

(٦) الأغاني ١٢ / ٤٩ (بولاق) (البائية في رثاء نفسه) ، ص ٥٠ (الميمية في الافتخار

بقومه) ، ص ٥٢ (البائية في وصف فراره) .

وحين ننظر في هذه الملاحظات فإننا نقف متسائلين أمام ظاهرة غريبة وهي انتشار التصريح - انتشاراً نسبياً طبعاً - في مقطوعات شعر الصعاليك وبخاصة عند حاجز . وقد يكون من المفهوم أن ينتشر التصريح في القصائد الطويلة التي يحتفل لها الشاعر احتفالاً فنياً خاصاً ، أما أن ينتشر في المقطوعات القصيرة السريعة كما رأينا في مقطوعة السليك ذات البيتين ، فهذا وجه الغرابة .

لست أرى تعليلاً قوياً لهذه الظاهرة الغريبة إلا أحد احتمالين : إما أن يكون هذا التصريح قد جاء عفواً دون أن يقصد إليه الشعراء الصعاليك قصداً ، وهو احتمال مقبول ، وإما أن تكون هذه المقطوعات ، وبخاصة التي قيلت في موضوعات خارج دائرة الصعلكة ، أجزاء من قصائد طويلة لم تصل إلينا كاملة احتفل لها أصحابها احتفالاً فنياً خاصاً فصرعوا في مطالعها ، وهو احتمال مقبول أيضاً .

٥

التحليل من الشخصية القبلية :

ونترك هذه الظاهرة الفرعية لنسجل ظاهرة أساسية في « الشعر داخل دائرة الصعلكة » وهي ظاهرة « التحلل من الشخصية القبلية » . وهي ظاهرة ليست غريبة على شعر الصعاليك لأنها تتفق وما سجنناه من قبل في دراستنا الاجتماعية لظاهرة الصعلكة من فقد التوافق الاجتماعي بين الصعاليك وقبائلهم مما ترتب عليه فقد الإحساس بالعصية القبلية في نفوسهم . ومن الطبيعي ألا تظهر شخصية القبيلة عند شاعر فقد إحساسه بالعصية القبلية ، وما دامت الصلة بين الشعراء الصعاليك وبين قبائلهم قد انقطعت اجتماعياً فمن الطبيعي أن تنقطع فنياً ، ونعني بانقطاعها فنياً تحلل الشاعر الصعلوك من ذلك « العقد الفني » الذي نراه بين الشاعر القبلي وقبيلته ، فلا يكون الشاعر الصعلوك « لسان عشيرته » لأن ما بينه وبين عشيرته قد انقطع ، ولا يكون شعره « صحيفة

قبيلته» لأنه لم تعد له قبيلة ، وإنما يصبح شعره صورة صادقة كل الصديق من حياته هو ، يسجل فيه كل ما يدور فيها ، ويصبح ضمير الفرد « أنا » أداة التعبير فيه بدلا من ضمير الجماعة « نحن » الذى هو أداة التعبير فى الشعر القبلى ، وتصبح المادة الفنية لشعره مشتقة من شخصيته هو لا من شخصية قبيلته . ومعنى هذا أن ظاهرة الفناء الفنى لشخصية الشاعر القبلى فى شخصية قبيلته التى نلاحظها بوضوح عند أصحاب المذهب القبلى فى الشعر الجاهلى قد اختفت من مجموعة الشعر داخل دائرة الصعلكة ، وحلت محلها ظاهرة أخرى يصح أن نطلق عليها « ظاهرة الوضوح الفنى لشخصية الشاعر الصعلوك » .

ولكن شخصية الشاعر الصعلوك شخصية يشاركه فيها أفراد جماعته ، لأنهم جميعاً يؤمنون بمذهب واحد ، ويدينون بعصبية مذهبية واحدة . ومن هنا كانت شخصية الشاعر الصعلوك شخصية «جماعية» ، ولنا نقصد بالجماعية فناء الشاعر الصعلوك فى جماعته فناء يشبه فناء الشاعر القبلى فى قبيلته ، وإنما نقصد بها ذلك التشابه فى الشخصيات بين أفراد جماعة الصعاليك . ومع ذلك فليس من اليسير أن نتصور جماعة الصعاليك قد تشابهت شخصياتها حتى أصبحت شخصية واحدة ، فإن أساس حركة الصعلكة اعتداد بالشخصية الفردية ، واعتزاز بمقدرة الفرد على الوقوف فى وجه المجتمع . ومن هنا كانت لكل شاعر صعلوك - إلى جانب شخصيته الجماعية - شخصية فردية خاصة يتفرد بها بين جماعته . ولكنهم - مع اعتدادهم بشخصياتهم الفردية - كانوا حريصين على شخصيتهم الجماعية ، لأنهم - من غير شك - أقدر جماعة^(١) على تحقيق مذهبهم فى الحياة منهم أفراداً . ولعل أصدق الأمثلة على هذا عروة وجماعته ، فقد كان عروة - مع اعتداده بشخصيته الفردية - يعبر عن جماعته ويتكلم بلسانها ، وكذلك جماعة تأبط شراً التى كانت تدعوه « أمهم »^(٢) لقيامه على شئونهم ، وتنظيمه زادهم ، مما يشعر بقوة روح الجماعة بينهم .

(١) تائية الشنفرى فى المفضليات شرح ابن الأنبارى ، البيت ١٩ وشرحه / ١٠٣ ،

وابن دريد : جمهرة اللغة ٢١ / ١ ، والسيوطى : المزهرة ٣٠٢ / ١ ، وتاج العروس (مادة أم) .

والذى نريد أن نصل إليه من هذا هو تفسير ما نراه فى الشعر داخل دائرة الصعلكة من آثار الجماعة ، فضمير الجماعة « نحن » الذى يتردد أحيانا فيه ليس هو الضمير نفسه الذى نراه فى الشعر القبلى ، فنحن هنا تعبر عن الشخصية الجماعية ، ولكنها هناك تعبر عن الشخصية القبلية .

ومهما يكن من أمر ، فالشيء الذى لا ريب فيه هو أن الشعراء الصعاليك قد تخلصوا من الشخصية القبلية فى شعرهم داخل دائرة الصعلكة كما تخلصوا منها فى حياتهم ، وأنهم أصبحوا شخصية فنية « شاذة » فى الشعر الجاهلى كما كانوا شخصية اجتماعية « شاذة » فى حياتهم ، وهذا « الشذوذ » هو العامل المشترك بين شخصيتهم الفردية وشخصيتهم الجماعية ، حتى ليصح أن نطلق عليهم « أصحاب المذهب الشاذ فى الشعر الجاهلى » .

وما أظن أننا فى حاجة إلى القول بأن الشخصية القبلية ظاهرة فى تلك المجموعة من شعر الصعاليك التى اصطللحنا على تسميتها « الشعر خارج دائرة الصعلكة » . ومن هنا نستطيع أن نقول إن هذه المجموعة — وإن تكن صورة من الفن الجاهلى — تمثل « شذوذا » فى مجموعة شعر الصعاليك « أصحاب المذهب الشاذ فى الشعر الجاهلى » .

٦

القصصية :

وإذ قررنا أن شعر الصعاليك صورة صادقة كل الصدق من حياة أصحابه ، يسجلون فيه كل ما يدور فيها ، فإننا نصل إلى تقرير ظاهرة مترتبة على هذه الفكرة وهى ظاهرة « القصصية فى شعر الصعاليك » ، فشعر الصعاليك — فى مجموعه — شعر قصصى يسجل فيه الشاعر الصعلوك كل ما يدور فى حياته الخافلة بالحوادث المثيرة التى تصلح مادة طيبة للفن القصصى ، فحوادث مغامراتهم

الجريرة التي كانوا يقومون بها فرادى وجماعات وما كان يدور فيها من صراع دام مرير ، وأخبار فرارهم وعدوهم ، وتشردهم في أرجاء الصحراء بين وحشها وأشباحها ، وتربصهم فوق المراقب في انتظار ضحاياهم ، كل هذا وغيره من مظاهر حياتهم مادة صالحة للفن القصصي . وقد استغل الشعراء الصعاليك هذه المادة في شعرهم استغلالاً قصصياً رائعاً جمع في صورة بسيطة عناصر الفن القصصي الأساسية من الإثارة والتشويق وتسلسل لأحداث حتى تصل إلى غايتها الطبيعية المحتومة .

وقد رأينا عند حديثنا عن « ظاهرة الوحدة الموضوعية في شعر الصعاليك » أن أكثر مقطوعاته وقصائده تقبل العناوين . ونظرة أخرى إلى هذه العناوين على ضوء هذه الظاهرة الجديدة ، ظاهرة القصصية ، ترينا أنها في مجموعها عناوين قصصية . وهل « غارة على العوص » ، أو « العاشية المذعورة » ، أو « احتيال » ، أو « نجاة » ، أو « فرار » إلا عناوين قصصية ؟ وهل بائية السليك^(١) إلا قصة بطلاها الشاعر وصاحبه ، ومسرحها تلك المهامه الرملية التي تصل بين ديارهما وديار أعدائهما في الفصل الأول منها ، ثم ديار الأعداء في الفصل الثاني ، وزمانها تلك الليلة التي خرجا فيها وذلك الصباح الذي بدأ فيه الصراع بينهما وبين أعدائهما ، وحوادثها خروجهما من ديارهما وجزع صاحبه في الطريق ، وتشجيع السليك له وبعث الطمأنينة والأمل في نفسه ، ثم ذلك الصراع بينهما وبين أعدائهما ، ثم تأتي الخاتمة أو الفصل الأخير من القصة بانتصار الصعلوكين واستيلائهما على الإبل ثم عودتهما بها؟ وهل لامية تأبط شراً^(٢) إلا قصة تبدأ بحوار بين صاحبة الشاعر وجاراتها ، ثم تتابع أحداث القصة التي تدور بين بطلها وهو الشاعر الصعلوك في ليلة مظلمة حالكة وبين غول قابلهما ، حتى تصل القصة إلى نهايتها حين يقتل الشاعر الصعلوك هذه الغول ويخلفها

(١) بكى صرد لما رأى الحى أعرضت مهامه رمل دونهم وسهوب
(الأغاني ١٨/ ١٣٦) .

(٢) تقول سليمى لجارتها أرى ثابتاً يفتاً حوقلاً
(الشعر والشعراء ١٧٦/ ١٧٦ ، وحامدة ابن الشجرى ٤٧) .

صريعة ؟ وهل تائبة الشنفرى المفضلية - إذا أخرجنا منها مقدمتها الغولية - إلا قصة غزوة من غزواته مع جماعة من رفاقه يقص فيها استعدادهم للغزوة ، ثم خروجهم لها ، ومُضِيهم في طريقهم إليها ، ثم تربصهم بأعدائهم ، وانتظارهم الفرصة المواتية ، وما كانوا يفعلونه في هذه الفترة من الانتظار والتربص ، ثم تحقيق أهدافهم التي كانوا يسعون إليها ، ثم تعليق من الشاعر على هذه القصة ؟ وهل بائية الأعلام^(١) إلا قصة نفسية دقيقة تبدأ مباشرة بمنظر الشاعر الصعلوك مع صاحب له وهما يفران من أعدائهما الذين يطاردونهما مطاردة عنيفة تستمر حتى ينتصف النهار حين يصل الصعلوكان إلى منطقة الأمان ؟ وهي قصة وإن تكن أحداثها قليلة فإن أروع ما فيها ذلك التحليل النفسى الدقيق لنفسية الهارب المدعور والمطارد الطامع في إدراكه ، وذلك التصوير النفسى الرائع لخوف الهارب المدعور من الموت وحرصه على الحياة حين يشتد من خلفه الخطر ، ثم طمأنينة نفسه بعد نجاته وتذكره تلك «العقد النفسية» التي تدفع به إلى مثل هذه المآزق الخطرة : فقره ، وهوان أسرته ، وترف الأغنياء من حوله . والقصيدة ، أو القصة ، من هذه الناحية من الممكن أن تسلك في عداد القصص النفسية التي يعرفها العصر الحديث .

وهكذا نستطيع أن نمضى مع مجموعة الشعر داخل دائرة الصعلكة فإذا نحن أمام مجموعة من الأقاصيص يصح أن نطلق عليها كما يفعل القصاص المحدثون «أقاصيص صعلكة» أو «مغامرات الصعاليك» أو «غزوات وقصص أخرى» . بل إن الأمر ليتجاوز هذه المجموعة إلى الشعر خارج دائرة الصعلكة ، وبخاصة عند الهذليين في رثائهم ، فقد اتخذ الهذليون فيه مذهباً قصصياً ، عماده حيوان الصحراء الشارد في أرجائها ، الممتنع فوق جبالها العالية ، يضربون به المثل على أن الموت يدرك كل كائن حي مهما يكن بعده عن مواطن الخطر وامتناعه عليه . والصورة القصصية عندهم دائماً حيوان آمن في سربه أو في معقله

(١) لما رأيت القوم بالعليا . دون قدى المناصب

(شرح أشعار الهذليين ١/ ٥٥ - ٦٠) .

ثم يتبع له القدر صائداً ، تارة يكون إنساناً ، وتارة يكون جارحاً من الطير ، يربص به حتى إذا أمكنته الفرصة انقض عليه فأورده موارد الهلاك . ولكن من الحق أن نسجل أن هذه الظاهرة ليست مقصورة على صعاليك هذيل ، ولكنها ظاهرة عامة عند الشعراء الهذليين ، وعند بعض الشعراء الجاهليين أيضاً .

وهنا نقف عند نص للأصمعي يرويه ابن دريد عن أبي حاتم عنه ، يقول فيه : « ويقال إن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه »^(١) لعلنا نصل عن طريقه إلى فكرة قد تكون جديدة في تاريخ الشعر العربي ، وقد تخالف ما قد تعارفنا عليه من أن امرأ القيس هو أول من اصطنع القصيدة في شعره ، وأن تاريخ القصيدة في الشعر العربي يبدأ بامرئ القيس .

ولن نقول مع الأصمعي إن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه ، فتلك دعوى جريئة يعوزها الدليل ، ولا تستطيع الوقوف أمام الدراسة الفنية لمجموعة شعره ذات الطابع الفني الواحد ، والشخصية الفنية الواحدة ، ولكننا نستطيع أن نقول إن هذا النص يشير إلى مسألة فنية مهمة أحسها القدماء وإن ضلوا الطريق إليها ، وهي أثر الصعاليك في شعر امرئ القيس . فمن المعروف أن امرأ القيس في بعض فترات شبابه كان يتبع صعاليك العرب^(٢) ، ومن الطبيعي أن النفس الفنية في هذه السن المبكرة تكون قابلة للتأثر لأن نضجها الفني لم يكن قد اكتمل بعد ، وإذن فليس من البعيد أن يكون امرؤ القيس قد تأثر من الناحية الفنية بفن هؤلاء الصعاليك وهو يستمع إليهم يقصون أقاصيص مغامراتهم وحياتهم في قصائدهم ومقطوعاتهم ، وليس من البعيد أيضاً أن يكون امرؤ القيس قد فتنه ذلك الأسلوب القصصي في شعر هؤلاء الصعاليك ، فحاول تقليده في شعره ، ثم اتخذ مذهباً فنياً له . وإذن فليس امرؤ القيس أول من اصطنع القصيدة في الشعر العربي بل هم الشعراء الصعاليك ، وليس شعر امرئ القيس نقطة البدء في تاريخ القصيدة الشعرية بل تسبق هذه مرحلة أولى

(١) فحولة الشعراء (مخطوطة) ورقة رقم ٤ .

(٢) الأغاني ٨١/٩ .

هى مرحلة الشعراء الصعاليك « رواد القصة الشعرية فى الأدب العربى » .
ومن يدري ؟ فلعل تلك الألوان القصصية فى شعر امرئ القيس هى التى أشكلت
على صاحب هذا رأى الذى يرويه الأصمعى فخيلت إليه أن جزءاً من شعر
امرئ القيس من صنع صعاليك كانوا معه .

٧

الواقعية :

والظاهرة السابعة التى نلاحظها على شعر الصعاليك هى « الواقعية » .
وأول مظاهر هذه الواقعية اتخاذهم الحياة بما فيها من خير وشر مادة لموضوعاتهم ،
وبعدهم عن الإمعان فى الخيال إمعاناً ينقلهم من عالم الواقع إلى عالم الأوهام
بسحبه العالية وأبراجه العاجية . ونظرة إلى موضوعات شعرهم التى عرضنا لها فى
الفصل السابق ترينا هذا المظهر واضحاً جلياً ، فقد صور الشعراء الصعاليك
فى فهم البيئة البدوية التى يعيشون فيها بكل مظاهرها : الصحراء القاسية بشعابها
وجبالها وأغوارها ، وصحورها ومياهها ، وحرها وبردها ، ولياليها المظلمة الرهيبة ، وحيوانها
الشارد فى آفاقها ، ووحشها الرابض فى أرجائها ، وحشرات المتوارية فى جحورها
والسارية فوق رمالها ، وصوروا مظاهر الطبيعة المختلفة كما شاهدوها : طلوع
الفجر ، وغروب الشمس ، والندى المتساقط فى أول الليل وفى آخره ، والبرق
والرعد ، والسحاب والمطر ، وصوروا الحياة الواقعية التى يحيطون بها بكل ما فيها من
واقع خير وواقع شرير : الكرم والمروءة ، والعطف على الفقراء والمرضى والضعفاء ،
والسلب والنهب وسفك الدماء ، وبكل ما فيها من محاسن وعيوب : الشجاعة
والبطولة ، والقوة والمغامرة ، والهرب والفرار ، والفقر والجوع والهزال والهوان ،
وصوروا الشخصيات الإنسانية التى يتصلون بها كما يرونها فى الواقع المحسوس
بكل ما بينها من تباين واختلاف : الأعداء والأصدقاء ، والصعاليك العاملين
والصعاليك الحاملين ، والنساء المشجعات والنساء المثبطات ، والنساء المعجبات

والنساء المهكمات ، والأغنياء المترفين والصعاليك المعوزين ، كل هذه الجوانب من الحياة الواقعية هي الأسس التي أقام عليها الشعراء الصعاليك بناءهم الفني .

والمظهر الثاني لهذه الواقعية صدق النقل عن الحياة ، ومطابقة الصورة للأصل ، بحيث لا يشعر الناظر في شعر الصعاليك باختلاف بين الصورة الشعرية وأصلها في الحياة ، أو بين ما يراه في شعرهم وما يشاهده في الحياة ، حتى ليخيل إليه أنه أمام مجموعة من الصور « الفوتوغرافية » . وهل صورة الضباع وجرائها عند الأعمى^(١) ، وحمار الوحش وأتته عند أبي خراش^(٢) إلا صور « فوتوغرافية » سجلتها « عدسات » الصعاليك لهذه النماذج من الطبيعة الحية ؟ وهل صورة المرقبة عند الشنفرى^(٣) ، وصورتها عند أبي خراش^(٤) ، وصورة الشعب عند تأبط شرأ^(٥) ، وصورة البرق والرعد والسحاب والمطر عند صخر الغي^(٦) ، إلا صور « فوتوغرافية » سجلتها « عدسات » الصعاليك لهذه الجوانب من الطبيعة الصامتة ؟

ومن مظاهر هذه الواقعية أيضاً استكمال الصورة العامة ، فحين ننظر مثلاً في صورة حمار الوحش وأتته عند أبي خراش نلاحظ أنها صورة واقعية كاملة استكملت كل عناصرها ، بحيث نشعر بأننا أمام صورة طبيعية منقولة عن الواقع نقلاً دقيقاً كاملاً . فحمار الوحش أقب خميص البطن ، عنيف نشيط ، وأتته قد استبان حَمَلُها فهي متأبئة عليه ، والمكان فوق مرتفع من الأرض يشرف منه حمار الوحش على الآفاق خائفاً يترقب ، والزمان يوم شديد الحر من أيام الصيف الطويلة ، ولكن المنظر يتغير حين تؤذن الشمس

(١) شرح أشعار الهذليين ١/ ٥٧ ، ٥٨ .

(٢) ديوان الهذليين القسم الثاني / ١١٧ - ١٢١ .

(٣) ديوانه في الطرائف الأدبية / ٣٧ ، ٣٨ ، وديوانه المصور لوحة رقم ٥٠ ، ٥١ .

(٤) ديوان الهذليين القسم الثاني / ١٥٩ - ١٦١ .

(٥) الأصمعيات / ٣٥ .

(٦) شرح أشعار الهذليين ١/ ٤٢ - ٤٥ .

بالمغيب ، ويحين موعد أوبة هذه الحمر إلى منازلها ، فترى حمار الوحش يترك مرقبته ، ويهيج أثنه التي تسرع أمامه مثيرة خلفها حبلا طويلا من الغبار الممتد ، فيسرع خلفها وسط هذا الغبار ، ولكن الأثن تحس خطراً يتربص بها ، ذلك أن صياداً فقيراً رث الحال يحمل سهامه الزرق في انتظارها ، فترهف الأثن السمع ، حتى إذا ما تأكدت من هذا الخطر أسرعت في قوة وشدة ، ويعترض طريقها ماءٌ آجنٌ يكسوه نبات طويل ، فتلقى بنفسها فيه ، وتفتح ما بين أيديها ، وتنطلق سابحة ، ولكن الصياد يرسل سهامه ، فأما الأثن فتنجو لأنها متقدمة ، وأما حمار الوحش فقد كان أقرب إلى الصياد منها ، فيخترق فؤاده سهمٌ ضخم عريض النصل .

وأظن أننا قد لاحظنا في هذه الصورة — إلى جانب استكمالها لكل عناصرها من الهيئة والمكان والزمان والحالة والفعل والنتيجة — حرصاً على التفاصيل واهتماماً بالجزئيات ، وهو المظهر الرابع من مظاهر هذه الواقعية . فأبو خراش حريص على تسجيل حمل هذه الأثن وحذر حمار الوحش ، ثم هذا الحبل من الغبار الذي يخرقه حمار الوحش خلف أثنه ، ثم رثالة حال الصياد ، وشدة عدو الأثن بعد إحساسها بالخطر ، وحركة أيديها وهي سابحة في الماء ، وهذا النبات الطويل الذي يكسو صفحة الماء الآجن ، ومركز حمار الوحش بين الأثن والصياد مما يسر إصابته ونجاتها .

وحين ننظر في تصوير الأعلام للضباع وجرائها نجد مثلاً آخر لهذا المظهر ، فالأعلام حريص على التفاصيل حرصاً شديداً ، معنى بالجزئيات عناية قوية ، لا ينسى حين يذكر الجراء انتفاخ بطونها ، وقصر قوائمها ، وسواد جلدها ، وقصر آذانها العريضة التي تنبسط حين تقبل على فريستها في نهم فتتزع جلدها نزع القيون لبطائن الجفون ، ولا ينسى حين يذكر الضباع المسنة غلظها ، وجوعها الثماني ، بل إنه لا ينسى تلك الشعرات المجتمعة خلف أظلافها ، ولا تلك الدوائر التي تشبه الخلاخيل التي تقع فوق هذه الشعرات ، والتي يخالف لونها سائر لون الأرجل .

وهنا نصل إلى مظهر آخر من مظاهر حرص الشعراء الصعاليك على التفاصيل ، وهو اهتمامهم « بظاهرة اللون » . وقد رأينا الأعلام حريصاً على تسجيل سواد الضياع ، وتلك الدوائر التي يخالف لونها سائر لون الأرجل ، كما رأينا في الفصل السابق اهتمام الشعراء الصعاليك بلون القوس . والحق أن الشعراء الصعاليك قد اهتموا بالوان كل أسلحتهم تقريباً ، وفرقوا بينها في دقة رائعة تستحق الإعجاب ، فالسيف أبيض^(١) ، والقيح أحمر^(٢) ، والسهم والنصل أزرقان^(٣) ، والرمح والترس أسمران^(٤) ، والقوس إما صفراء وإما حمراء . وإلى جانب هذا نجد الأطباء البيض عند حاجز^(٥) ، والإبل الدهم عند أبي خراش^(٦) ، والحصان الأشقر عند تأبط شرأ^(٧) ، والخيول الحو والكمث عند قيس بن الخدادية^(٨) ، ونجد الدم الحالك عند أبي خراش^(٩) والعصابة الحمر

(١) الحديث عن بياض السيف كثير جداً في شعر الصعاليك ، وفي الشعر العربي عامة ، وحسبنا أن نشير هنا إلى بعض المواضع التي ورد فيها في شعر الصعاليك « حسام كلون الملح أبيض صارم » (عمرو بن براقة : أمالي القفاي ١٢٢/٢) . « طارت بأبيض صارم » ، « حسام كلون الملح صاف حديده » (الشنفرى : المفضليات / ٢٠٥) . « يكنى من المأثور كالملاح لونه » (عروة : ديوانه / ١٧٨) . « بيض خفاف ذات لون مشمر » (عروة : المصدر السابق / ٨٤) .

(٢) « أركبها في كل أحمر غائر » (الشنفرى : ديوانه في الطرائف الأدبية / ٣٨) .

(٣) « بأزرق لا نكس ولا متعوج » (الشنفرى : المصدر السابق / ٣٤) ، وديوانه المصور لوحة رقم ٥٢ . « رماح من الخطى زرق فصالحا » (أبو خراش : ديوان الهذليين ١٢٤/٢) .

(٤) « وأسمر خطى » (حاجز : الأغاني ٥٠/١٢ بولاق) . « سمر القنا » (تأبط : الأغاني ٢١٤/١٨) - « وأسمر خطى القنا » (عروة : ديوانه / ٢٠٧) . « وأسمر مجناً من جلد ثور » (ذو الكلب : شرح أشعار الهذليين ١/٢٣٥) .

(٥) « ترى البيض يركضن المجاسد بالضحي » (الأغاني ٥١/١٢ بولاق) .

(٦) « كأجواز المقرنة الدم » (ديوان الهذليين القسم الثاني / ١٣٠) .

(٧) « وأشقر غيداق الجراء » (ديوان الشنفرى في الطرائف الأدبية / ٢٨) .

(٨) « رعيناهم بالحو والكمث » (الأغاني ٥/١٣ بولاق) .

(٩) « ولا بطلا إذا الكساء تزينوا لدى غمرات الموت بالهلاك القدم »

(ديوان الهذليين القسم الثاني / ١٢٦) .

الجلود عند حاجز^(١) ، والوجوه المشرقة كلون الماء المذهب عند الشنفرى^(٢) ،
والنبت الأخضر فى الربيع^(٣) ، واسوداد أنامل الفقراء فى الشتاء^(٤) ، وسواد
معاصم الفقيرات^(٥) ، والقدر السوداء التى يجتمع حولها الفقراء الجياع^(٦) ،
عند عروة .

والمظهر الخامس من مظاهر هذه الواقعية الصريحة فى التصوير ، وتسجيل
الواقع كما هو دون محاولة لإخفائه ، أو تغيير حقيقته ، وقد رأينا فى الفصل السابق
أمثلة لهذه الصراحة التى تسجل الواقع كما هو فى أحاديث الشعراء الصعاليك
عن فرارهم وهربهم ، وعن فقرهم وجوعهم وهزالهم ، وهوان وضعهم الاجتماعى .
ولا يجد الشاعر الصعلوك حرجاً من أن يتحدث عن فرحته بنعلين أهديتا
له كما يفعل أبو خراش^(٧) ، أو يتحدث عن نعليه الباليين الممزقين كما يفعل
تأبط شراً والشنفرى وأبو خراش أيضاً^(٨) ، أو عن ثيابه الأخلاق التى « إذا
أنجمت من جانب لا تكفّف » كما يقول الشنفرى^(٩) ، أو عن حملة قرية
الماء كما يذكر تأبط شراً^(١٠) .

والمظهر السادس لهذه الواقعية الدقة فى التعبير ، تلك الدقة التى تحدد
العبارة تحديداً واضحاً لا غموض فيه .

فحين يعتذر تأبط شراً عن فراره من أعدائه مخلفاً صاحبه لم يراه يضع

(١) ويوم شروم قد تركنا عصابة لدى جانب الطرفاء حمرا جلودها
(الأغاني ٥١/١٢ بولاق) .

(٢) سراحين فتيان كأن وجوههم مصابيح أو لون من الماء منعب
(ديوانه فى الطرائف / ٢٢) .

(٣) « حتى يؤكل النبت أخضرا » (ديوانه / ٦١) .

(٤) « كريميما إذا اسود الأنامل أزهر » (المصدر السابق / ٦٩) .

(٥) « ومن كل سوداء المعاصم تبرى » (المصدر نفسه / ٧١) .

(٦) « وإذا ما يربح الحى صرماء جوفة » (المصدر نفسه / ١١٤) .

(٧) ديوان الهذليين ٢/ ١٤٠ ، ١٤١ .

(٨) المفضليات / ١٧ ، وديوان الشنفرى (المطبوع) / ٣٥ ، وديوان الهذليين ٢/ ١٣١ .

(٩) ديوانه (المطبوع) / ٣٧ ، والأغاني ٢١/ ١٤١ .

(١٠) البغدادي : خزائن الأدب ١/ ٦٥ ، ولسان العرب : مادة (عصم) . وقد رجحنا فى

الفصل الأول من هذا الباب أن هذه الأبيات لتأبط شراً .

المسألة وضعاً « حسابياً » ، فماذا يفعل وقد نظر فإذا هؤلاء الأعداء أكثر من ثلاثة ؟ ولو أنهم كانوا اثنين مثليهما أو حتى ثلاثة ما فر مخلصاً صاحبه لهم : تقولُ تركتُ صاحباً لك ضائعاً وجئتُ إلينا فارقاً مُتباطئاً إذا ما تركتُ صاحبي لثلاثة أو اثنين مثلينا فلا أبتُ آمناً^(١) وحين يتحدث الشنفرى عن غارته على العوص مع أصحابه نراه يحدد عددهم تحديداً « حسابياً » أيضاً ، فيذكر أنهم كانوا ثمانية ، ويحدد الزمن الذى استغرقه طريقهم حتى وصلوا إلى العوص ، ثم يحدد أخيراً عدد من صرعوهم من أعدائهم^(٢) .

وحين يتحدث عن صديقه تأبط شراً أو « أم العيال » كما يسميه ، ويصف جعبة سهامه ، يحرص على أن يقدم لنا إحصائية دقيقة عن عدد هذه السهام فهى ثلاثون سهماً عراض النصال^(٣) .

وإلى جانب هذا « التحديد الحسابى » الذى يستمد دقته من لغة الأرقام نجد صورة أخرى تأتى من « التحديد الجغرافى » الذى يستمد دقته من ذكر المواضع وتحديدها على نحو ما يفعل كتاب الوثائق والعقود !

فحين يصف الشنفرى خروجه مع أصحابه فى بعض غزواتهم يحدد مكان خروجهم تحديداً جغرافياً دقيقاً ، فيذكر أنهم خرجوا من الوادى الذى يقع بين مشعل وبين الجبا^(٤) . وحين يهدد بنى سلامان ، أعداءه الألداء ، يحدد المواضع التى سيلاقهم بها تحديداً جغرافياً دقيقاً ، ويعدددها موضعاً موضعاً ، وهو تحديد يضئ على تهديده لوناً من التحدى لهم والاستخفاف بهم ، لأنه به « يكشف أوراقه » ، كما يقال فى لغة « اللاعبين »^(٥) . وحين يهدد عروة أعداءه من الأوس « يكشف لهم أوراقه » أيضاً ، فيحدد لهم

(١) الأغاني ١٨/٢١٣ .

(٢) ديوانه (المطبوع) ٣٢/ .

(٣) المفضليات ٢٠٤/ - وديوانه المصور : لوحة رقم ٤٨ - والأغاني ٢١/١٤٠ .

(٤) المصادر السابقة : المفضليات ٢٠٣/ ، والديوان ٤٨/ ، والأغاني ١٣٩/ .

(٥) انظر رأيته فى ديوانه المطبوع ٣٥/ ، ٣٦/ ، وديوانه المصور : لوحة رقم ١٠٠ .

الموضع الذى سيلاقهم به تحديداً دقيقاً ، فيذكر أنه سيلاقهم « بمنبطح الأوعال من ذى السلائل »^(١) . وكذلك يفعل الأعلام الهذلي :

فلست لحاصن إن لم ترَوْنى ببطن صريحة ذات النجال
وأى قينة إن لم ترَوْنى بعورث وسط. عَرَّعَها الطوال^(٢)
وإلى جانب هذا « التحديد الجغرافى » نجد صورة أخرى من صور الدقة فى التعبير يصح أن نطلق عليها « التحديد التعبيرى » ، ونقصد به ذلك التحديد اللفظى الدقيق لمدلول العبارة الذى يأتى من طبيعة اللفظ أو النظم أو من طبيعتهما معاً . فحين يصف تأبط شراً الحية يذكر أن خروجها يكون « بعيد غروب الشمس » :

أصم قطارى يكون خروجه بعيد غروب الشمس مختلف الرَّمْسِ^(٣)
والدقة هنا تأتى من ذلك التصغير لظرف الزمان ، وهو تصغير يحدد الوقت تحديداً دقيقاً .

وحين يصف غلاماً قابله فى بعض مغامراته ، وكادت الأعجوبة أن تحدث ويسقط تأبط شراً صريع سهم من سهامه ، لا يكتفى بأن يذكر أنه غلام ، ولكنه يحدد طوله وسنه تحديداً طريفاً ولكنه دقيق ، فهو غلام يزيد طوله على خمسة أشبار ، ولكنه لم يبلغ السن التى تشبه فيها النساء :

غُلامٌ نما فوق الخماسى قدره ودون الذى قد ترتجيه النواكح^(٤)
وحين يصف تلك القلة البارزة التى تشبه سنان الرمح ، والتى يسرع إليها مع أصحابه ، يحرص على أن يسجل لنفسه سبقه إياهم فى الوصول إليها ، ولكنه

(١) انظر لاميته فى ديوانه / ٢١٠ . وذو السلائل فيه تصحيف صوابه ما أثبتناه هنا كما هو وارد فى الأغاني ٣/ ٧٥ ، ومعجم البلدان لياقوت ٥/ ١٠٥ .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١/ ٢٢٧ .

(٣) لسان العرب : مادة (قطر) ~ القطارى : الحية تأرى إلى قطر الجبل ، أو مأخوذ من القطار وهو سمها الذى يقطر من كثرته .

(٤) الأغاني ١٨/ ٢١٦ . وغلام خماسى : طوله خمسة أشبار (انظر القاموس المحيط مادة

« خمس ») .

في الوقت نفسه حريص على ألا يسيء إليهم ، أو أن يكون حديثه عن نفسه طعناً فيهم ، فتراه يعتمد على هذا « التحديد التعبيري » فيذكر أنه سبقهم إليها لا لأنهم كسالي ، فهم جميعاً صعاليك نشطون ، ولكن لأنه أسرع منهم :
 وَقَلَّةٌ كَسَنَانِ الرِّيحِ بَارِزَةٌ ضَخِيَانَةٌ فِي شُهُورِ الصَّيْفِ مِخْرَاقٌ
 بَادَرَتْ قُنْتَهَا صَحْبِي وَمَا كَسَلُوا حَتَّى نَمَيْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ إِشْرَاقٍ^(١)
 وهي دقة في التعبير يشبهها قوله في القصيدة نفسها حين أراد أن يتحدث عن قوة نفسه وأنه حريص على رفاقه أكثر من حرصه على رفيقاته :

وَلَا أَقُولُ إِذَا مَا خُلَّةٌ صَرَمْتُ يَا وَيْحَ نَفْسِي مِنْ شَوْقٍ وَإِشْفَاقٍ
 لَكِنَّا عِيَالِي ، إِنْ كُنْتُ ذَا عِيَالٍ عَلَى بَصِيرٍ بِكَسْبِ الْحَمْدِ سَبَاقٍ^(٢)
 فهو لا يريد أن يسجل على نفسه ضعفاً سواء في موقفه من رفيقته أو في موقفه من رفيقه ، فحين أحس أنه قد ضعف في مطلع البيت الثاني استدرك وحدد عبارته تحديداً دقيقاً أثبت به حرصه على رفيقه ، ونفى ما بدا من ضعف في مطلع عبارته ، فالدقة هنا تأتي من هذه المقدرة البارة على النفي والإثبات في موضع واحد .

والمظهر السابع من مظاهر هذه الواقعية ظهور الخبرة العملية في فهم . وهو مظهر يجعلنا نشعر بأننا أمام إنسان يعيش في الواقع العملي لا أمام شاعر يعيش في الخيال والأوهام . وقد رأينا أبا خراش في حديثه عن حصر الوحش يذكر تمنع الأتني الحوامل على الذكر ، وهي ظاهرة مقررة عند علماء الحيوان . وحين يصف الأعمى الظلم يذكر من بين أوصافه أنه « زَمَحَرِيَّ السَّوَاعِدِ »^(٣) أي أن عظامه جوف لا مخ فيها ، ويذكر شراح شعره أن « النعام جوف »

(١) المفضليات / ١٦ ، ١٧ ، ولسان العرب مادة (ضحا) ١٩ / ١١٤ ، ومادة (نم) ١٦ / ٦٢ وفيها قلبها ، وقبل إشراق .

(٢) المفضليات / ١١ ، ١٣ .

(٣) شرح أشعار المهذلين ١ / ٦٢ ، وشرح المفضليات لابن الأنباري / ٢٢٩ ، ولسان العرب مادة (حتت) ٢ / ٣٢٧ ومادة (زحجر) ٥ / ٤١٨ ، ومادة (برى) ١٨ / ٧٥ .

الشعراء الصعاليك

العظام لا منح فيها^(١) ، ويقول الجاحظ في حديثه عن النعام « ومن أعاجيبها أنها مع عظم عظامها وشدة عدوها لا منح لها^(٢) » ، والطريف أن الجاحظ يستشهد على هذا بيت الأعمى الذي نحن بصددده . وهكذا نرى شعر الصعاليك مصدراً من مصادر دراسة حيوان الصحراء يعتمد عليه الدارسون في تأييد آرائهم . وقد رأينا تأبط شراً حين يصف الحية يذكر أن خروجها يكون « بعيد غروب الشمس » ، وهو تحديد دقيق لوقت خروج الأفاعى من جحورها ، تؤيده الخبرة العملية ، وليس غريباً على تأبط شراً أن يذكر ذلك ، لأنه بحكم طبيعة حياته مضطر إلى ملاحظة هذه الظواهر ، وقد قيل له : « هذه الرجال غلبتها ، فكيف لا تنهشك الحيات في سراك ؟ فقال : إني لا أسرى البرددين ، يعنى أول الليل لأنها تَمُورُ خارجة من جحرها ، وآخر الليل تمور مقبلة إليها^(٣) » وهكذا يكون هذا البيت صدى لتجربته العملية التى تصورها هذه العبارة .

ومن أدل الأمثلة على هذه الخبرة العملية التى تظهر فى شعر الصعاليك أنهم لا يكادون يذكرون الضباع إلا فى مجال الحديث عن الموت ، وقد رأينا ذلك الفزع الذى كان يسيطر على نفوس بعض الشعراء الصعاليك من أن تُلقى أجسادهم بعد مقاتلتهم إلى الضباع ، والذى ظهرت آثاره فى شعر الأعمى وتأبط شراً ، كما رأينا حديث تلك الوليمة التى يُعدها الشنفرى للضبع من جسده بعد مقتله .

ومن المقرر عند علماء الحيوان أن الضبع « مولعة » بنبش القبور لكثرة شهوتها للحوم بنى آدم^(٤) ، وهذه الحقيقة العلمية المقررة هى التى عرفها تأبط شراً الجاهلى ، وظهرت آثارها فى شعره ، حين وصف الضبع فى دقة رائعة بأنها « تنفرى الدفائنا »^(٥) . ومن الطريف أن الجاحظ عند حديثه عن الضباع وولعها بنبش القبور و « فرط طلبها للحوم الناس » يستشهد بأبيات

(١) شرح أشعار الهذليين ١/٦٢ ص ١١ ، ١٢ .

(٢) الحيوان ٤/٣٢٦ .

(٣) الأغاني ١٨/٢١٠ .

(٤) السيرى : حياة الحيوان ٢/٦٧ .

(٥) الأغاني ١٨/٢١٣ .

الشنفرى التى يبشر فيها الضمير بجسده بعد مقتله ولكنه ينسبها لتأبط شراً^(١) ، وهو اختلاف لا يضير قضيتنا شيئاً فكلما الشاعرين صعلوك .

ولعل أكثر الأمثلة على خبرة الشعراء الصعاليك العملية دوراناً فى شعرهم تلك الموازنات التى يعقدها العداءون منهم بينهم وبين مجموعة حيوان الصحراء المشهور بشدة العدو ، فإن اختيار هذه المجموعة دليل على خبرتهم العملية بها . وكذلك تلك الأمثال التى يضربها الهذليون بطائفة من حيوان الصحراء الشارد الممتنع عند حديثهم عن الموت ، فإن الإلحاح على ذكر أحوال هذا الحيوان وطباعه وخصاله دليل على خبرتهم العملية به .

ومهما يكن من أمر هذه الحقائق التى يذكرها الشعراء الصعاليك فليس مما يعنيننا هنا مطابقتها أو عدم مطابقتها لما يقرره العلم الحديث الآن ، إذ ليس من الإنصاف أن نتخذ ما وصل إليه العلم التجريبي الحديث من حقائق علمية مقياساً لما يذكره هؤلاء الشعراء القدماء ، وإنما حسبنا أن ما يذكرونه كان صدقاً صادقاً لمشاهدتهم العملية فى حياتهم الواقعية ، أولاً كان يدور فى مجتمعهم من معلومات .

٨

السرعة الفنية :

وإذ كانت حياة الشعراء الصعاليك قلقة مضطربة لا تكاد تعرف للاستقرار أو الطمأنينة طعماً ، فهم دائماً مشغولون بكفاحهم من أجل العيش ، ذلك الكفاح الدامى المرير الذى فرغوا له فراغاً تاماً ، والذى وهبوا له حياتهم ، وجعلوه مذهباً لهم يعيشون له ويموتون فى سبيله ، وإذا كان شعر الصعاليك صورة صادقة لحياتهم ، كانت النتيجة الفنية لهذا أن اتسم شعرهم بالسرعة الفنية ، فالعمل الفنى عند الشعراء الصعاليك أشبه الأشياء بشروط من أشواط عدوهم ، يندفعون فيه ولا يتوقفون حتى يصلوا إلى غايتهم . وليس من البعيد أن تكون هذه السرعة الفنية التى وسمت شعرهم صدقاً نفسياً لتلك

(١) الحيوان ٦/ ٤٥٠ .

السرعة التي اعتمدت عليها حياتهم ، منبعثاً من أعماق « اللاشعور » . ولست أدري فقد يؤيد هذا ما نلاحظه من أن الصنعة الفنية في شعر عروة أبطأ وأشد أناة وإحكاماً منها في شعر صعلاليك السراة ، ومن المعروف أن عروة لم يكن من العدائين وإنما الصعلاليك العداءون — كما رأينا من قبل — هم أولئك الذين كانوا ينزلون منطقة السراة بين مكة واليمن^(١).

وقد رأينا من مظاهر هذه السرعة الفنية انتشار المقطوعات والقصائد القصيرة في شعرهم ، وتخلصهم من المقدمات الطويلة ، ومن التصريح ، وهي مظاهر ترجع إلى الشكل العام أو البناء الخارجي للعمل الفني .

وحين نمضي إلى داخل البناء الفني لشعر الصعلاليك نجد أن أقوى مظاهر هذه السرعة « خفوت الصنعة الفنية » في شعرهم بحيث لا يكاد الناظر فيه يلمح أثراً من آثار التجويد الفني المتمهل الواضح الأناة ، وإنما هو حديث سريع يتدفق من نفس الشاعر دون أن يحرص على أن يتمهل هنا أو هناك لينسقه أو يوشيه بتلك الألوان الفنية المختلفة التي يحرص عليها الشعراء المحترفون . والواقع أن حياة الشاعر الصعلوك لم تكن بالتى تتيح له من الفراغ والاطمئنان ما يجعله يتمهل في عمله الفني أو يتأنى فيه . وهل نستطيع مثلاً أن نتصور أن السلياك وقد مضى للغارة مع صعلوكين التقى بهما في طريقه ، ثم مضى وحده ليستكشف لهما خبر نار لاحت لهم ، حتى إذا ما بلغها ووجد أن ليس عندها سوى عبيد وإماء يسهل التغلب عليهم ، رفع عقيرته متغنياً بهذين البيتين ليعلم صاحبيه أن الفرصة سانحة :

يا صاحبي ألا لا حى بالوادي إلا عبيدٌ وآمٌ بين أذواد
أتنظران قليلاً ريثَ غفلتهم أم تغدوان فإن الريح للعادي^(٢)
هل نستطيع أن نتصور أن السلياك في هذا الجو يستطيع أن يفرغ

(١) الباب الأول : الفصل الثاني (التفسير الجغرافي) ص ٨٦ .

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٥ . والأغاني / ١٨ / ١٣٤ . وانظر البيت الثاني في

لسان العرب : مادة (روح) .

لفنه مجوداً منمقاً موشياً ؟ أظن أن الشاعر لم يكن يبغى من وراء هذين البيتين سوى أن يسمعهما صاحباه فيفهما عنه ما يريد ، فالصنعة الفنية لم تكن هدفاً يحرص عليه ، وإنما كل حرصه على أن يبلغ صاحبيه هذه الرسالة ، أو بتعبير أدق هذه « البرقية » في أسرع وقت حتى لا تفلت منهم الفرصة .

ومثل السليك كان أكثر الصعاليك ، وخاصة العدائين منهم ، لم تُتَّعْ لهم حياة الكفاح وما تلقيه على كواهلهم من تبعات جسام فراغاً لفهم بجودونه وينمقونه ويخرجونه إخراجاً متأنياً متمهلاً .

ومن هنا نستطيع أن نقول إن الشعر عند الصعاليك لم يكن « حرفة » تُقصد لذاتها ، ويفرغ صاحبها لتجويدها ، والوصول بها إلى المثل الأعلى الذي يستطيع معه أن يدخل حلبة المباراة الفنية ليقول لغيره من الشعراء : هأنذا ، وإنما كان الشعر عندهم وسيلة يسجلون بها مفاخرهم ، أو ينفسون بها عما تضيق به صدورهم من تلك « العقد النفسية » التي تمتلئ بها أعماق نفوسهم ، أو يدعون بها إلى مذهبهم في الحياة لعلمهم يجدون من يؤمن به وينضم إليهم ، أما أن يرضى عنهم المجتمع الفني الذي يعيشون فيه فهذا أمر لم يكن في حسابهم ، فهم يعرفون أنهم يعيشون في مجتمعهم شذاذاً متمردين ليس بينهم وبينه إلا صلة الصراع ، وهم لهذا يدركون أن مجتمعهم لن يرضى عن فهم كما لم يرض عنهم ، ولن يحرص عليه كما لم يحرص عليهم ، ويعرفون أن القبائل لا تحرص إلا على شعرائها ، ولا تشغل إلا بهم ، ولا تقيم وزناً إلا لهم ، ولا تخلص بالتقدير والإعجاب إلا شعرهم . وهكذا انصرف الشعراء الصعاليك عن احتراف الشعر ، ولو أنهم فكروا في احترافه لاتخذوا منه وسيلة يتكسبون بها كما يتكسب بها غيرهم من الشعراء ، ولضمنوا بهذا لأنفسهم حياة هادئة مستقرة مطمئنة كالتى كان يحياها غيرهم من الشعراء المحترفين .

ولعل « التشبيه » أقوى الألوان الفنية التي اعتمد عليها الشعراء الصعاليك في شعرهم ، وهو لون يتفق تماماً مع هذه السرعة الفنية التي لاحظناها ، إذ أن الصنعة الفنية في التشبيه صنعة سريعة لاتتجاوز عقد موازنة بين أمرين يشتركان في معنى ، وهو — من هذه الناحية — غير الاستعارة مثلاً التي تعتمد على لون

من الصنعة الفنية العميقة المتأنية . وفي صنيع القدماء من علماء البلاغة ما يشهد بهذا ، فقد جعلوا التشبيه المرحلة الأولى التي نبني عليها الاستعارة ، وبنائها على التشبيه — كما يقولون — أن استعارة اللفظ إنما تكون بعد المبالغة في التشبيه ، وإدخال المشبه في جنس المشبه به ادعاء . ومن هنا دار بينهم كلا طويلاً حول جعله باباً مستقلاً من أبواب البيان مع أنه مقدمة لها تتوقف عليه ، وهل توقف بعض الأبواب على بعض يوجب كون المتوقف عليه مقدماً للفتن أولاً يوجب (١) . ومعنى هذا بتعبير أيسر أن العملية الفنية في التشبيه عملية بسيطة من درجة واحدة ، ولكنها في الاستعارة عملية مركبة من درجتين .

وعلى كل حال ، وبدون الوقوف عند هذه التعليقات العقلية ، فالأمر الذي لا شك فيه أن الصنعة الفنية في التشبيه صنعة سريعة لا تحتاج إلى أكثر من وضع الأمرين المراد عقد الموازنة التشبيهية بينهما في معرض واحد حتى يتضح وجه الشبه بينهما .

وحين ننظر في شعر الصعاليك لتبين كيف استخدموا هذا اللون الفني في صناعة تماذجهم فإن أول ما نقف عنده تلك العناصر التي استخدموها في تأليف هذا اللون ، أو بعبارة أخرى نستأذن أصحاب الرسم في استعارتها منهم « صندوق الأصباغ عند الشعراء الصعاليك » .

وصندوق الأصباغ عند الشعراء الصعاليك صندوق متعدد العناصر ، ولكنها في مجموعها عناصر قائمة قليلة الإشراق والتألق ، مستمدة من تلك البيئة البدوية القاحلة التي يعيشون فيها ، ومتأثرة بتلك الحياة الحسنة القاسية التي يحياونها ، ومتسمة بتلك الواقعية التي تسيطر على تفكيرهم ومزاجهم .

والحق أن هذه العناصر أكثر من أن تُحصى ، لأنها — من ناحية — مستمدة من واقع الحياة بكل ما فيه من مظاهر متعددة ، ولأنها — من ناحية أخرى — منتشرة في شعرهم انتشاراً واسعاً . ولكننا مع ذلك سنحاول أن نردها إلى

(١) انظر شروح التلخيص عند قول صاحب التلخيص في مقسمة علم البيان « ثم منه ما يبنى على التشبيه فتعين التعرض له » ٢٨٩ / ٢ وما بعدها (الطبعة الثانية بمطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٤٣ هـ) .

ثلاثة منابع أساسية : عالم الحيوان أولاً ، والحياة الإنسانية ثانياً ، ثم البيئة الطبيعية ثالثاً ، وهو ترتيب قائم على أساس « الكم » ، كما يقول المنطقة .
أما المنبع الأول فقلعه أغزر منابع التي اعتمد عليها الشعراء الصعاليك في تشبيهاتهم ، فقد استغلوا حيوان الصحراء ووحشها وطيورها وحشراتهما استغلالاً واسعاً . ومرد ذلك من غير شك إلى حياتهم القريبة منها نتيجة لتشردهم في مواطنها الأصلية وبيئاتها الأولى . وقد رأينا في الفصل السابق أنهم تعرضوا بالذكر لسبعة وعشرين نوعاً منها ، وطبيعي أننا لم ندخل في ذلك الإحصاء تلك الأنواع الأليفة التي تعرضوا لها بالذكر كالإبل والحيل والغنم والبقر ، لأننا كنا بصدد الحديث عن تشردهم .

وقد رأينا في الفصل السابق كيف استغل الشعراء الصعاليك الطير وحيوان الصحراء المشهور بالعدو في حديثهم عن شدة عدوهم . وحين ننظر مرة أخرى في هذه الظاهرة الموضوعة في شعر الصعاليك من الزاوية الفنية التي ندرسها الآن نجد أن التشبيه هو أكثر الأساليب شيوعاً في هذا الحديث .

أما ضواري الصحراء ، وجوارح طيرها ، وأفاعيها ، فأكثر ما يستغلها الشعراء الصعاليك في تشبيه أنفسهم أو رفاقهم أو أعدائهم بها .
فالشنفرى سمع أزل لا يبالي بشيء مهما يكن صعباً :

أنا السَّمْعُ الْأَزْلُ فلا أبالي ولو صَعُبْتُ شَنَاخِيبُ الْعِقَابِ^(١)
وبنو سلامان أعداؤه الألداء يعرفون بشائر عرامته منذ صغره يوم أن
كان يمشي بينهم كالأسد الوَرْد :

هُمُ عَرَفُونِي نَاشِئاً ذَا مَخِيلَةٍ أَمْشَى خِلَالَ الدَّارِ كَالْأَسَدِ الْوَرْدِ^(٢)
ويصف تربصه فوق المراقبة العالية المنبئة ، وكيف بات على حد ذراعيه
« كما يَتَطَوَّى الْأَرْقَشُ الْمُتَقَصِّفُ »^(٣) ، أو « الْأَرْقَمُ الْمُتَعَطِّفُ » في رواية

(١) ديوانه المطبوع / ٢٣ - والسمع فيما يرى العرب ولد الذئب من الضبع .

(٢) المصدر السابق / ٣٤ .

(٣) الأغاني ٢١ / ١٤٠ .

أخرى^(١) . ويشبه قيس بن الخلدادية قومه — في بعض شعره القبلي — بالضراغم فيقول معبراً أعداءهم بالهزيمة :

غداةً توليتم وأدبر جمعكم وأبنا بأسراكم كأننا ضراغم^(٢)
ويشبه صخر الغي وروده ماء مخوفاً على حذر بمشي الفرحين يستقبل رية
باردة كندية :

وماء وردت على زورة كمشي السبئي يراح الشفيفا^(٣)
ورفاق الشنفرى « سراحين فتيان^(٤) » ، وصاحب أبي خراش « كالسرحان
سرحوب^(٥) » وعدو أبي خراش يسقط صريعاً كما يسقط نسر أكل لحماً
مسموماً :

به ندع الكمي على يديه يخر تخاله نسرًا قشيباً^(٦)
وهي صورة قوية تستمد قوتها من عنصر « الحركة » الذي نتمثله في سقوط
النسر صريعاً ، ذلك السقوط العنيف المفاجئ الذي يمثل لنا سقوط العدو تمثيلاً
قوياً بعد أن عبر عنه الشاعر بتلك اللفظة الموحية المعبرة « يخر » .
ولكن تأبط شراً يخرج على هذه القاعدة ، فيشبه حصان الشنفرى في
رثائه له بالعقاب التي تنقض بين ذروتين شامختين :

وأشقر غيداق الجراء كأنه عقاب تدلى بين فيقين كاسر^(٧)
ويستغل الشعراء الصعاليك النحل في صورتين : صورة تعتمد على الصوت ،
وصورة تعتمد على الهيئة . أما الأولى فهي صورة القوس حين تنطلق منها سهامها

(١) ديوانه المطبوع / ٣٧ .

(٢) الأغاني ١٣ / ٤ (بولاق) .

(٣) شرح أشعار الهذليين ١ / ٤٧ ، وشرح المفضليات لابن الأنباري / ٨٧٢ ، ولسان
العرب مادة (روح) ٢٨٢ / ٣ ، ومادة (زور) ٤٢٣ / ٥ ، وورد الشطر الثاني فقط في مادة
(شفت) ٨٣ / ١١ .

(٤) ديوانه في الطرائف الأدبية / ٣٢ ، والأغاني ١٨ / ٢١٦ .

(٥) ديوان الهذليين ، القسم الثاني / ١٦١ .

(٦) المصدر السابق / ١٣٥ — القشيب هنا : المسموم .

(٧) ديوان الشنفرى في الطرائف الأدبية / ٢٨ ، وحجاسة الخالدين (مخطوطة) ورقة رقم ٤١٧ .

فتحدث حفيفاً مبهماً غير واضح هو في سماع بعض الشعراء الصعاليك كصوت النحل ، وأما الأخرى فهي صورة الجماعات الكثيرة المتزاحمة سواء أكانوا أعداء يطاردونهم ، أم وفود المعوزين المحتاجين على أبواب الكرماء .

فحفيف النبل في سماع الشنفرى حين ينطلق من قوسه كصوت النحل العائد إلى غاره وقد أخطأه فهو 'يَحُومُ' حوله :

كَأَنَّ حَفِيفَ النَّبْلِ مِنْ فَوْقِ عَجَسِهَا عَوَازِبُ نَحْلِ أَخْطَأَ الْغَارَ مُطْنِفٌ^(١)
وأعداء تأبط شراً من خلفه وهم يطاردونه كالنحل الكثير الذى يتجمع في خليته :

وَلَمْ أُنْتَظَرْ أَنْ يَدْهَمُونِي كَأَنَّهُمْ وَرَأَيْتُ نَحْلُ فِي الْخَلِيَةِ وَاكْنَا^(٢)
وطالبو الحاجات الذين يغشون باب بعض الكرماء الذين يمدحهم أبو خراش يشبهون النحل الذى يهوى إلى غاره :

تَرَى طَالِبِي الْحَاجَاتِ يَغْشَوْنَ بَابَهُ سَرَاعاً كَمَا تَهْوِي إِلَى أَدَمَى النَحْلِ^(٣)
وكما استغل الشنفرى النحل في تصوير حفيف سهامه استغل القطاة في تصوير أفاقها ، ففُوقُ سهمه مدور كعقوب القطاة :

عَلَيْهِ نُسَارِيٌّ عَلَى خُوطٍ نَبْعَةٌ وَفُوقِ كَعْقُوبِ الْقَطَاةِ مُدْخَرَجٌ^(٤)
وإذا كان المطاردون عند تأبط شراً كالنحل فإن العدائين عند أبي خراش كأرجال الجراد الذى يقصد إلى الأماكن الغليظة المرتفعة :

وَعَادِيَّةٌ تُلْقَى الثِّيَابَ وَزَعَتْهَا كَرَجْلِ الْجَرَادِ يَنْتَحِي شَرْفَ الْحَزْمِ^(٥)
ويستغل الشعراء الصعاليك من الغربان جانبين متناقضين : سوادها الخالك ، وصفاء عيونها الشديد . فقطعان السوام عند صخر الغي كجماعات الأغربة في سوادها :

(١) الأغاني ٢١/١٤١ .

(٢) الأغاني ١٨/٢١٣ .

(٣) ديوان الهذليين ٢/١٦٦ - آدمي : موضع .

(٤) ديوانه المطبوع ٣٤/ . والمصور : لوحة ٥٢ . والأغاني ٢١/١٤١ .

(٥) ديوان الهذليين ٢/١٣٢ .

فأرسلوهنَّ يَهْتَلِكْنَ بهنَّ شَطْرَ سَوَامٍ كَأَنَّهَا الْعَجْدُ^(١)
أما عيون الماء في ديار أبي الطمحان التي يحن إليها وهو خليع مجاور في
مكة فهي في صفاتها كعين الغراب :

إذا شاء راعيتها استقى من وقية كعين الغراب صفوها لم يُكْدِر^(٢)
ويستغل الشعراء الصعاليك السمانى استغلالاً طريفاً ، فهم يشبهون بأشلائها
نعالم الممزقة ، وهي طرافة تأتي من تلك المفارقة الغريبة بين طرفي التشبيه :
وتعل كأشلاء السمانى تركتها على جنب مؤر كالنحيزة أغبراً^(٣)
وتعل كأشلاء السمانى نبذتها خلاف ندى من آخر الليل أورهم^(٤)
ويستغل الشعراء الصعاليك الإبل في تشبياتهم على صورة واسعة ، ولكنها
لا تصل إلى الدرجة التي نراها في استغلالهم لحيوان الصحراء السريع أوضارياً .
ومرد ذلك — فيما يبدو — إلى قلة اتصالهم بتلك الفصيلة من الحيوان التي هي
أول سمات « الرأسمالية » العربية . وقد يؤيد هذا ما نلاحظه من أن أكثر الأوضاع
التي يتخيرونها للإبل في تشبياتهم تعد من الناحية النفسية أصداء لذلك الحقد
الذي كان يملأ نفوسهم عليها ، فالصعلوك الحامل المذموم عند عروة :
يُعينُ نساءً الحي ما يَسْتَعِينُهُ فيسمى طليحاً كالبعير المَحْسَر^(٥)
والجبل بعد أن غسله المطر وصقله عند صخر الغي كالبعير الأجرب الذي
طلى وتنف :

فذاك السُّطَاعُ خلاف النَّجَا * تحسبه ذا طلاء نثيفاً^(٦)
وحين يسخر أبو خراش من امرأته التي لا تستطيع صبراً على الجوع يذكر

(١) شرح أشعار الهذليين ١٣/١ — والحديث في البيت عن الفرسان والحيل . الاهتلاك : دى
النفس في تهلكة . والمعجب : التبريان .

(٢) الأغاني ١١/١٣٤ (بولاقي) . والحيوان الجاحظ ٢/٤٢١ — الوقية : المكان الصلب
يمسك الماء . وفي الأمثال « أصق عيناً من الغراب » (المصدر الأخير ٤٢١/٤) .

(٣) الشنفرى في ديوانه المطبوع ٣٥/٣٥ . وانظر : ص ٢٢٦ من هذا البحث .

(٤) أبو خراش في ديوان الهذليين ٢/١٣١ . وانظر : ص ٢٢٦ من هذا البحث .

(٥) ديوانه ٧٧/٧٧ .

(٦) شرح أشعار الهذليين ١/٤٤ — السطاع : جبل . خلاف النجاء أى بعد المطر .

أن جوفها كجوف البعير :

إذا هي حنت للهوى حنَّ جوفها كجوف البعير، قلبها غير ذى عزم^(١)
والقبر عنده فى احديدا به ومنظره العام كالبعير :

إذا راحوا سوى وأسلموني لخشناء الحجارة كالبعير^(٢)
ومع ذلك فلا يخلو الأمر من بعض الصور الطريفة التى أحسن الشعراء
الصعاليك اختيار أوضاعها وألوانها، فحين يصف أبونخراش عدوه هو ورفاقه
فى ليلة ممطرة من ليالى جمادى الباردة ، يشبه الغناء الكثيف الملتف تحت
أقدامهم بأوساط الإبل الدهم التى قرن بعضها ببعض :

إذا ابتلت الأقدام والتفت تحتها غناء كأجواز المقرنة الدهم^(٣)
وصوت القوس عند عمرو ذى الكلب كحنين الناقة المسنة المتخلقة عن
الإبل الفتية لأنها لا تستطيع مسايرتها :

تعجُّ فى الكف إذا الرامى اعتزم ترنم الشارف فى أخرى النعم^(٤)
أما الخيلُ فهى قليلة الدوران فى تشبيهات الشعراء الصعاليك لدرجة كبيرة .
ويبدو أن السبب فى هذا قلة اعتمادهم عليها فى حياتهم . ولكن الصور التى
وردت - على قلنا - مشرقة زاهية . ولعل أطرف هذه الصور على الإطلاق
صورتان : صورة الفجر عند تأبط شرا حين لاح ضوءه كأنه تلك الخطوط
البيضاء فى جواد أدهم :

وقد لاح ضوء الفجر عرْضاً كأنه بلمحتسه أقراب أبلق أدهم^(٥)
وصورة البرق الذى يلمع بين السحاب الأسود عند عروة كأنه فرس بقاء
حديثه النتاج تنعى برجليها ذكور الخيل عن ولدها فيبدو بياض بطنها :

إذا قلت استهل على قديد يحور ربابه حور الكسير

(١) ديوان الهذليين القسم الثانى / ١٢٦ .

(٢) المصدر السابق / ١٣٦ .

(٣) المصدر نفسه / ١٣٠ .

(٤) شرح أشعار الهذليين ١ / ٢٤٠ .

(٥) الأغاني ١٨ / ٢١٥ .

تَكْشُفَ عَائِدَ بِلِقَاءِ تَنْفَى ذُكُورَ الْخَيْلِ عَنْ وَلَدٍ ، شَغُورٌ^(١)
وَيَسْتَغْلُ تَأْبِطَ شَرًّا جَبْنَ الْغَمِّ وَخَوْفَهَا فِي رِثَائِهِ لِلشَّنْفَرَى ، فَيَشْبَهُ أَعْدَاءَهُ
وَهُوَ يَجِيلُ فِيهِمْ سِلَاحَ الْمَوْتِ بِالْغَمِّ الْمَذْعُورَةِ :

تَجِيلُ سِلَاحَ الْمَوْتِ فِيهِمْ كَأَنَّهُمْ لَشَوْكَتِكَ الْخُدَى ضَمِينٌ نَوَافِرُ^(٢)
أَمَّا الشَّنْفَرَى فَيَسْتَغْلُ أَوْلَادَ الْبَقَرِ فِي رَسْمِ صُورَةٍ غَرِيبَةٍ ، فَهُوَ يَشْبَهُ سَيْوْفَ
رِفَاقِهِ الصَّعَالِيكَ مُشْرَعَةً فِي أَيْدِيهِمْ وَهِيَ تَهْلُ مِنْ دِمَاءِ أَعْدَائِهِمْ وَتَعْلُ بِأَوْلَادِ
الْبَقَرِ الصَّغَارِ إِذَا رَأَتْ أُمَهَا تَهَا فَجَعَلَتْ تَحْرُكَ أَذْنَابِهَا :

تَرَاهَا كَأَذْنَابِ الْحَسِيلِ صَوَادِرًا وَقَدْ نَهَلَتْ مِنْ الدِّمَاءِ وَعَلَّتِ^(٣)
وَهِيَ صُورَةٌ تَسْتَمِدُّ غَرَابَتَهَا مِنْ هَذِهِ الْمَفَارِقَةِ بَيْنَ طَرَفِي التَّشْبِيهِ : أَوْلَادُ الْبَقَرِ
الصَّغِيرَةِ الْمَسَالِمَةِ ، وَسَيْوْفُ الصَّعَالِيكَ الْمَخْضَبَةِ بِالدِّمَاءِ .

أَمَّا الْمَنْبِعُ الثَّانِي لِأَصْبَاغِ لَوْنِ التَّشْبِيهِ عِنْدَ الشُّعْرَاءِ الصَّعَالِيكَ ، وَهُوَ الْحَيَاةُ
الْإِنْسَانِيَّةُ ، فَهِيَ الْمُمْكِنُ أَنْ نَرُدَّ إِلَى أَرْبَعَةِ مَظَاهِرٍ مِنْ مَظَاهِرِ هَذِهِ الْحَيَاةِ :
الْحَيَاةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ ، وَالْحَيَاةُ الْاِقْتِسَادِيَّةُ ، وَالْحَيَاةُ النَّفْسِيَّةُ ، وَالْحَيَاةُ الْجَسَدِيَّةُ .
وَقَدْ اسْتَعْدَمَ الشُّعْرَاءُ الصَّعَالِيكَ عُنَاوِرَ هَذَا الْمَنْبِعِ الْإِنْسَانِيِّ اسْتِخْدَامًا
طَرِيفًا ، وَلَعَلَّ أَطْرَفَ مَا فِيهِ أَنَّهُ يَصُورُ كَيْفَ كَانَ تَأْثَرُ هَؤُلَاءِ الصَّعَالِيكَ
بِالْحَيَاةِ الَّتِي كَانَتْ تَدُورُ حَوْلَهُمْ أَوْ الَّتِي كَانُوا يَدُورُونَ فِيهَا .

فَحِينَ يَرَى صَخْرَ الْغَى السَّحَابِ الثَّقِيلِ وَهُوَ مُقْبِلٌ فِي بَطْءٍ لَا تَرَاهُ أَمَامَهُ
إِلَّا صُورَةَ الْأَسِيرِ الَّذِي يُسَاقُ فِي قِيوده فَهُوَ يَطِيءُ الْخَطَرَ مُتَثَاقلًا :

وَأَقْبَلَ مَرًّا إِلَى مَجْدَلٍ سِيَاقَ الْمُقْبِدِ يَمْشِي رَسِيفًا^(٤)
وَهِيَ صُورَةٌ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ تَرَاهُ لِهَذَا الصَّعْلُوكِ الْهَذَلِيِّ الَّذِي كَانَ

(١) ديوانه / ٤٢ - العائد : الحديثة النجاج . وشغور صفة لعائد ، وهي التي ترفع رجلها .

(٢) ديوان الشنفرى المطبوع / ٢٨ . وشرح المفضليات / ١٩٩ . مع اختلاف في ألفاظ

الشطر الأول - الخدى : الحادة ، مؤنث أفضل التفضيل .

(٣) المفضليات / ٢٠٥ .

(٤) شرح أشعار الهذليين / ١ / ٤٣ .

يعيش قريباً من مكة حيث سوق الرقيق يساق إليها الأسرى الذين لا يفتديهم أهلهم حيث يباعون .

وحين يُفرغ هذا السحاب مطره بعد ما تكاثفت أواخره ، ويهدأ ذلك الدوى الذى كانت تثيره رعوده ، يرى الشاعر أن أقرب صورة لهذا المنظر صورة جماعة من النصارى مجتمعين فى عيد من أعيادهم يسقى بعضهم بعضاً ، وهم من مرحهم وطوهم فى ضجة وصخب ، ولكنهم ينظرون فإذا أمامهم رجل من غير دينهم ، فإذا ضجعتهم تهدأ ، وصخبهم ينقطع ، حتى يتبينوا أمر هذا الغريب :
كَأَنَّ تَوَالِيَسَهُ بِالْمَلَا نَصَارَى يُسَاقُونَ لَاقُوا حَنِيفاً^(١)

وهى صورة ترسم فى براعة ممتازة جانباً دقيقاً من الحياة الدينية فى العصر الجاهلى . ومن الطبيعى أن يعرف صخر الغى هذا الجانب معرفة دقيقة ، فقد كانت هذيل تنزل فى تلك المنطقة التى تقع فيها مكة المركز الدينى الأول فى جزيرة العرب ، والتى تقام فيها أشهر الأسواق التى كان القسس والرهبان يردونها فيعظون ويبشرون ، ويذكرون البعث والحساب والجنة والنار .

ومن هنا أيضاً نستطيع أن نكشف الستار عن تشبيه الأعمى الهذلى لجلود جراء الضباع السود بشباب الرهبان :

مُودٌ سَحَالِيلُ كَأَنَّ جُلُودَهُنْ ثِيَابُ رَاهِبٍ^(٢)

ولكننا مع ذلك نحس شيئاً من السخرية الماكرة من هذه التقاليد الكهنوتية فى عقد الصلة بين جراء الضباع وبين الرهبان ، وهى سخرية ليست غريبة على هؤلاء الصعاليك المتمردين على كثير من تقاليد مجتمعهم .

وحين يلمع البرق فإن الصورة التى تراءى لصخر الغى هى صورة ذلك البشير الذى أقبل بعد غزوة ناجحة وهو يحرك ترسه فى كفة ليعلم أصحابه أنه قد عاد غانماً :

(١) شرح أشعار الهذليين ٤٥/١ . وديوان الهذليين القسم الثانى / ٧١ - وقد اختلف المفسرون فى معنى هذا البيت اختلافاً عريضاً ، ولكنى أظن أن هذه الصورة التى رسمتها لبيت هذا هى أقرب الصور إلى معناه .

(٢) شرح أشعار الهذليين ٥٧/١ .

أرقتُ له مثلَ لمع البشير يُقلِّبُ بالكفِ فَرَضاً خفيفاً^(١)
وهي صورة - كما نرى - تستمد أصباغها من ذلك اللون المشرق من حياة
المغامرة التي يحياها هؤلاء الصعاليك ، ومن هنا جاءت طرافتها .

وحين يرسم أبو الطمحان صورة لشيخوخته ، يستخدم لونين من ألوان
الحياة الاجتماعية التي عاشها وتركت رواسبها في تفكيره ، فالدهر قد حناه
حتى صار كالصياد الماكر الذي يحني قامته ليخفي شخصه عن صيد يدنو
منه ، وهو قد أصبح قريب الخطو مثاقلاً كالأسير المقيّد :

حَنَنْتُ حَانِيَاتُ الدَّهْرِ حَتَّى كَأَنِّي خَائِلٌ يَدْنُو لَصِيدِ

قريبُ الخطو يحسب من رآني ولستُ مقيداً أَنِي بِقَيْدِ^(٢)
وهذان اللونان اللذان استخدمهما أبو الطمحان عاش في جوهما زمناً طويلاً ،
فليس من شك في أن حياته صعلوكاً اتصلت بالصيد اتصالاً قريباً ، وليس
من شك أيضاً في أن حياته مستجيراً في مكة بعد خلعها جعلته قريباً من تلك
الأسواق التي تستقبل الأسرى لتنقلهم من قيود الأسر إلى قيود العبودية .

ويستخدم الشعراء الصعاليك ألوان المقامرة كثيراً في رسم صورهم التشبيهية .
فالظبي المنزَّع عند أبي خراش ينطلق مسرعاً كما ينطلق القِدْحُ المعلمُ يرسله
الضارب بالقداح :

يَطِيحُ إِذَا الشُّعْرَاءُ صَاغَتِ بِجَنْبِهِ كَمَا طَاحَ قِدْحُ الْمُسْتَفِيضِ الْمُوشَّمِ^(٣)
وصاحبه في المراقبة يظل متربصاً فوقها كأنه قدحٌ كثير الفوز قد جعل صاحبه
فيه علامة لشدة اعتزازه به وحرصه عليه :

يَظَلُّ فِي رَأْسِهَا كَأَنَّهُ زُلْمٌ مِنْ الْقَدَاحِ بِهِ ضَرْسٌ وَتَعْقِيبٌ^(٤)
والصعلوك العامل الذي يمدحه عروة يظل مصدر تهديد لأعدائه مُطلاً

(١) ديوان الهذليين القسم الثاني / ٦٩ ، وشرح أشعار الهذليين ١/ ٤٣ وقد أثرت معنى البيت كما ورد في المصدر الأول - والفرض هنا الترس .

(٢) الأغاني ١١/ ١٣٠ (يولاق) ، والسجستاني : كتاب المعمرين / ٦٣ .

(٣) ديوان الهذليين القسم الثاني / ١٤٦ .

(٤) المصدر السابق / ١٦١ .

عليهم وهم يزجرونه كما يزجر المقامرون بعض قدامحهم الخاسرة إذا ضربوا بها :
مُطْلَا على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنبجح المشهر^(١)
ومن أطرف الصور التي نراها عند الشعراء الصعاليك تلك الصور التي
استخدموا في رسمها ألواناً من الحياة الاقتصادية . ووجه الطراقة في هذه الصور
هو أنها مرسومة بريشة أولئك الصعاليك الفقراء الذين ارتبطت حياتهم بهذه
الحياة ارتباطاً وثيقاً .

ولعل أطرف هذه الصور على الإطلاق ثلاث صور يرسمها صخر الغي ،
بشبه في إحداها أواخر السحب المتراكمة الثقيلة التي يتوالى بعضها في إثر
بعض بسفائن أعجمى رست إلى بعض السواحل فأوقرت من صادراته :

كَأَنَّ تَوَالِيَهُ بِالْمَتَلَا سَفَائِنُ أَعْجَمَ مَا يَحْنُ رِيْفَا^(٢)
ويتصور في الثانية هذه السحب أيضاً وقد حملت من الماء ما أثقلها كأنها
مقبلة من تجارة وقد حملت بضائع كثيرة اشترت بغير حساب :

فَأَقْبِلْ مِنْهُ طَوَالَ الذُرَى كَأَنَّ عَلَيْهِنْ بَيْعاً جَزِيفَا^(٣)
ويدعو في الثالثة أصحابه إلى أن يثبتوا في القتال، ويمشوا إلى أعدائهم كما
تمشي جمال الحيرة المثقلة بالبضائع التي تحملها من تلك المنطقة التجارية
الغنية :

يَا قَوْمَ لَيْسَتْ فِيهِمْ غَفِيرَةٌ فَاَمْشُوا كَمَا تَمْشِي جَمَالُ الْحِيرَةِ^(٤)
ويستغل الشعراء الصعاليك أيضاً بعض مظاهر الحياة النفسية في تشبيهاتهم،
على نحو ما رأينا عند الشنفرى الذي يشبه صوت قومه بصوت الشجى
الذي أثقلته همومه وأحزانه :

(١) ديوانه ٧٨/ - المنبجح هنا هو القلج الذي لا نصيب له .
(٢) شرح أشعار الهذليين ٤٣/١ ، وديوان الهذليين القسم الثاني ٦٩/ - ما يحن أى
خالطن .

(٣) المصدران السابقان : المواضع نفسها .

(٤) شرح أشعار الهذليين ٣٣/١ .

وصفراء من نبع أبي ظهيرة^(١) تُرن كإرنان الشجى وتهتف^(٢)
وهي صورة نفسية معبرة برغم إيجازها وتركيز ألوانها .

ولعل أطرف هذه الصور النفسية في شعر الصعاليك تلك الصورة التي
يرسمها عروة لموقف صعلاليكه منه بعد أن تعهدهم حتى « أخصبوا وتمولوا »
فإذا هم يلتوون عليه ويتنكرون له . وهو يستخدم في رسم هذه الصورة لوناً
من ألوان الحياة النفسية التي تعرفها الحياة الإنسانية في مختلف عصورها :
تلك الأم التي تعهدت وليدها الصغير متحملة في سبيله كل تعب وجهد ،
حتى إذا تم شبابه ، وراحت تنتظر خيره ، وترتجى نفعه ، تزوج فغلبت
الزوجة الأم على ابنها ، وأخذته منها تاركاً أمه العجوز مكبة على حد مرفقها
تشكو وتولول مما نزل بها ، وهي حائرة ماذا تفعل ، ولكنها لا تملك في النهاية
إلا أن ترجع صابرة متجملة . يقول عروة مخاطباً صعلاليكه :

فإني وإياكم كذى الأم أرهنت^(٣) له ماء عينيها تفدى وتحمل
فلما ترجت نفعه وشبابه أنت دونها أخرى جديد تكحل
فبانت لحد المرفقين كليهما توحوح ممسا نابها وتولول
تخير من أمرين ليسا بخبطة هو الثكل ، إلا أنها قد تجمل^(٤)

والصورة هنا صورة نفسية متكاملة الخطوط والألوان ، دقيقة التاوين
والتظليل إلى حد كبير ، ألح الشاعر فيها على المشبه به فجاءت تشبهاً تمثلياً
رائعاً - على حد الاصطلاح البلاغي . وقد يكون طبعياً أن تراعى هذه
الصورة من الحياة الإنسانية لعروة ، وهو الإنسان الذي وهب حياته للعمل
من أجل تلك العناصر الضعيفة في مجتمعه ، وجعل من نفسه أباً للصعاليك .

ويستخدم الشعراء الصعاليك بعض المظاهر الجسدية في رسم صورهم
التشبيهية . فالمازق الحرج الذي تُسد أمام المرء جميع منافذه حتى لا يعرف له
مخرجاً منه يشبه تأبط شراً بسد المنخرين . يقول في رثاء الشفري :

(١) ديوانه المطبوع / ٢٨ .

(٢) ديوانه / ١١٧ ، ١١٨ .

وأمر كسد المنخرين اعتليته فنفسست منه والمنايا حواضر^(١)
وهي صورة — على بساطتها — قوية تستمد قوتها من معرفة كل إنسان
بها معرفة عملية، وتسليمه بها تسليماً تجريبيّاً لا إجمالاً للتفكير النظري فيه، وهل
يختلف اثنان في أن أشد ما يقع فيه إنسان أن تكتم أنفاسه حتى يشعر كأن
صدره يوشك أن يتمزق؟

ويشبه أبو خراش اهتزاز ثوبه البالي في أثناء عدوه بانتفاضة الحمى :
فَعَدِيْتُ شَيْئاً والدريس كأنما يُزَعزعه وَرْدٌ من الموم مُرْدِمٌ^(٢)
وهي صورة تستمد قوتها من تلك الدقة في اختيار المشبه به، ومن ذلك
القرب بينه وبين المشبه، وهل هناك أقرب إلى اهتزاز الثوب وقد أخذت بصاحبه
حمى العدو من انتفاضته وقد أخذت بصاحبه حمى المرض؟
ولا يجد الشنفرى ما يشبه به رهبة الماء المخوف الذي يفتخر بوروده في مغامراته
الرهيبة مثل داء البطن الذي يخافه كل الخوف، ويخشاه كل الخشية. يقول
مخاطباً صاحبه :

وإنك لو تدرين أن رُبَّ مَشْرَبٍ مَخُوفٍ كداء البطن أو هو أَخُوفٌ
وردتُ بِمَأْثُورٍ يَمَانٍ وَضَالَةٍ تَخِيرُهَا مِمَّا أَرِيْشُ وَأَرْصُفُ^(٣)
وهي صورة نستطيع أن نشعر بما فيها من قوة وصدق في الإحساس إذا
تذكرنا أن حياة الصعاليك كانت تعتمد أكثر ما تعتمد على سلامة الجسد وقوته
وأنهم كانوا يفخرون بأنهم ضامرو البطون مهازيل قد نشرت أضلاعهم،
والتصقت أمعاؤهم، لإيثارهم غيرهم على أنفسهم بالزاد، ومن هنا كان أخوف
ما يخافه أحدهم أي يصاب بمرض يضعفه، ويقعد به عن تحقيق رسالته
في الحياة، وبخاصة أمراض البطن التي يصاب بها المتخمون الهمون، والتي
تعد بالنسبة لهم اتهاماً صارخاً بالتفكر لهذه الرسالة وخيانتها.

(١) ديوان الشنفرى في الطرائف الأدبية / ٢٨ .

(٢) ديوان الهذليين القسم الثاني / ١٤٤ .

(٣) ديوانه المطبوع / ٣٨ .

أما المنبع الثالث لأصباغ لون التشبيه عند الشعراء الصعاليك ، وهو البيئة الطبيعية ، فلعله أقل المنابع الثلاثة تدفقاً في شعر الصعاليك . ولست أرى سبباً لهذا سوى شغل الصعاليك بكفاحهم في الحياة من أجل العيش عن التأمل في الطبيعة ، واستغلال مظاهرها في فهم . وسنرى أن أصباغ هذا المنبع أقل طرافة من أصباغ المنبعين السابقين ، وأن الصور الطريفة فيه أقل منها فيهما . فظبات السهام عند عمرو ذي الكلب كشوك شجر السَّيَال^(١) ، والرَبِيء الذي يبعثه عروة ليرقب لهم الطريق يقوم فوق المربأة كأنه أصل شجرة لا يبرح موضعه :

إذا ما هبطنا منهلاً في مخوفة بعثنا ربيثاً في المرابي كالجدل^(٢)
وعيون رفاق تأبط شراً ، أولئك الرفاق الأبطال الشعث ، كأنها نار الغضا
التي تتأجج بما يُبلى عليها من أعشاب الجبال الخفاة :

مساعرة شعث كأن عيونهم حريق الغضا تلقى عليها الشقائق^(٣)
ويتحدث تأبط شراً عن رجل كثير شعر الرأس متلبده لعنم عنايته به ،
فيشبهه بحقف الرمل الذي كثر صعود الناس عليه حتى أصبح صلباً متماسكاً :
فذاك همى وغزوى أستغيث به إذا استغثت بضافي الرأس نفاق
كالحقف حداه النامون قلت له ذو ثلثين وذو بهم وأرباق^(٤)
وحين يصف عروة الأسد يشبه زئيره بصوت الرعد ، ولكنه يشعر أنه
تشبيه عادي مألوف ليست فيه براعة متميزة ، فيحتال بعض الاحتيال ليضفي

(١) شرح أشعار الهذليين ٢٣٥/١ بيت رقم ٢٠ وانظر / ١٩٩ من هذا البحث .

(٢) ديوانه / ١١١ .

(٣) الأغاني ٢١٤/١٨ .

(٤) المفضليات / ١٥ - النفاق : الذي يصيح في إثر الطرائد . والحقف : المجتمع من الرمل . النامون : الذين يرتفعون إليه ويدوسونه . وحداه النامون أي داسوه وصلبوه بدوسهم إياه وصعودهم عليه . الثلة : القطعة من الغنم . والبهم : أولاد الشاء . والأرباق : جمع ربق وهو حبل يجعل منه مثل الخلق تشد فيه البهم . ويقال في شرح البيت أيضاً إنه يصف بهما فرسه . وعلى كلا المعنيين فالفكرة التي تقرها هنا واحدة .

عليه شيئاً من الغرابة والبراعة فيقلبه ، فإذا صوّت الرعد كأنه زئير الأسد :
 كَانَ نَحَوَاتَ الرِّعْدِ رَزْ زَئِيرِهِ مِنْ اللَّاءِ يَسْكُنُ الْغَرِيفَ بَعْشَرًا^(١)
 ولعل أطرف الصور التي رسمها الشعراء الصعاليك مستخدمين أصباغ هذا
 المنبع تلك الصورة التي رسمها الشنفرى لصاحبه في قصيدته الثائية المشهورة ،
 وهي صورة أحشد لها الشنفرى مجموعة من الألوان المتناسقة الزاهية ، وأجاد
 مزجها وعرضها لإجادة رائعة ، فصاحبه طيبة الرائحة تملأ البيت عطراً ، كأن
 البيت أغلق على ريحانة مطلوقة ، سرت إليها تسيمات باردة في وقت العشاء ،
 فجاءت بأريجها المعطر ، وهذه الريحانة نبتت في روبة فهي لهذا قوية الرائحة ،
 ثم هي ريحانة ناضجة قد خرج ثورُها ، وانتشر عطرها في كل جانب ، ثم
 هي فوق ذلك كله في بقعة خصبة كل ما حولها خصب غير مجذب :

فَبِتْنَا كَأَنَّ الْبَيْتَ حُجْرٌ فَوْقَنَا بِرَيْحَانَةٍ رِيحَتْ عِشَاءً وَطُلَّتْ
 بِرَيْحَانَةٍ مِنْ بَطْنِ حَلْيَةٍ نَوَّرَتْ لَهَا أَرْجٌ ، مَا حَوْلَهَا غَيْرُ مُسْنِتٍ^(٢)
 على هذا النحو استغل الشعراء الصعاليك هذه المنابع الثلاثة في تأليف
 أصباغهم التي استخدموها في رسم لوحاتهم التشبيهية .

٩

آثار من الصنعة المتأنية :

إذا كان لون التشبيه هو أقوى الألوان التي اعتمد عليها الشعراء الصعاليك
 في صنعتهم الفنية ، وإذا كان هذا اللون يتفق والسرعة الفنية في شعرهم ، فإننا
 لا نعدم في شعر الصعاليك آثاراً من الصنعة الفنية المتمهلة المتأنية .
 ولننظر في هذه القطعة من شعر تأبط شراً التي سجل فيها نجاته من
 لحيان الذين حاصروه وهو في غار لم يشتار عسلاً ، وهي قطعة يبدو أن الشاعر

(١) ديوانه / ٥٦ .

(٢) المفضليات / ٢٠٢ - ريحت : أصابتها ريح فجاءت بنسيمها . وطلت : أصابها

الطل . والمسنت : المهذب .

قد فرغ فيها لصنعتة الفنية متمهلاً متأنياً ، والدليل الفنى على هذا أنه يبدوها ^(١) أو يختمها ^(٢) بأبيات من الحكمة يبدو عليها أثر التفكير العقلى الهادئ الذى وعى التجربة ثم فلسفتها ، أما الدليل الواقعى فواضح من أن الشاعر قد نظم هذه القطعة بعد أن نجا من أعدائه ، وعاد إلى قومه ، واطمأنت نفسه ، ثم فرغ لقلبه يسجل فيه قصته وفلسفته لها .

فحين ننظر فى هذه القطعة نلاحظ أن الشاعر يستخدم فى البيت الأول ^(٣) لوناً من ألوان المقابلة المعنوية الدقيقة الصنعة بين قوله « وقد آجد جده » وقوله « وهو مدبر » إذ أن التعبير الأول يساوى قوله « وهو مقبل » أو — كما يقول البلاغيون فى تعبيراتهم — إن الجدل فى الأمر مُسبَّب عن الإقبال عليه . ثم انظر إلى هذه الألوان الفنية الكثيرة التى أحشدها الشاعر فى هذه الأبيات الثلاثة المتتالية :

فذاك قريعُ الدهر ما عاش حوّلُ إذا سُدَّ منه منخرُ جاش منخرُ
أقولُ للحيان وقد صَفرتُ لهم وطابى ، ويوى ضيقُ الجحر مُعورُ
هما خُطنا إما إسارُ ومنةُ وإما دمُ ، والقتلُ بالحر أجدرُ
انظر كيف جسم الدهر فجعله جباراً لا يزال يقرع المرء بنوابه حتى يُصيره مجرباً بصبراً حازماً ، وكيف مثل براعة المرء فى الاحتيال إذا أخذ عليه طريقٌ تَفدَّ إلى آخر تلك الصورة الحسية ، صورة المرء « إذا سد منه منخر جاش منخر » وكيف مثل إشرافه على الهلاك بفراغ وطابه ، وكيف جعل يومه الحرجَ ضيقَ الجحر مُعورا ، ثم كيف ختم هذه الألوان الفنية المحتشدة بهذا التذييل الذى يجرى مجرى المثل ، كما يقول البلاغيون فى اصطلاحاتهم فى باب الإطناب . ثم يمضى الشاعر فى أبياته مستخدماً لون المطابقة مرة أخرى بين « مورد ومصدر » ، ولكنها مطابقة لفظية مألوفة فى الأساليب الجاهلية

(١) فى رواية الهامة ٢٨/١ .

(٢) فى رواية الأغاني ٢١٥/١٨ .

(٣) فضلنا ترتيب الهامة على ترتيب الأغاني لأنه أقرب إلى طبيعة فكرة القصيدة .

حتى لتوشك أن تكون رؤساً^(١) يطبعه الشاعر في كل مناسبة يحتاج فيها إليه. ولكنه يعود إلى صنعة الفنية الدقيقة فإذا هو يفرش صدره لخطته التي استقر عليها ، وإذا الموت ينظر إليه خزيان من عجزه عنه ، وإذا القبائل التي يفارقها تصفر أسفاً على إفلاته منها . وهكذا يفرغ الشاعر من رسم لوحته التي استخدم في تلوينها أكثر ما استخدم ذلك اللون العميق من ألوان الصنعة الفنية المتمهلة المتأنية ، وهو الاستعارة .

وهذه الآثار من الصنعة الفنية المتمهلة المتأنية تتردد من حين إلى حين في نماذج شعر الصعاليك . فالمنية في ذهن أبي الطمحان ناقة يسوقها إلى الإنسان دليل بارع لا يضل ، ولكن أبا الطمحان لا يرسم لوحته بهذه الألوان الواضحة ، وإنما يعتمد على «التظليل» في إخفاء بعض جوانبها إخفاءً فنياً رائعاً ، فإذا المشبه به قد أخفى وراء هذه الظلال الفنية الجميلة ، ولكن الشاعر يشير إليه ببعض خصائصه ، أو - كما يقول البلاغيون - « بشيء من لوازمه » وإذا اللوحة التي يرسمها لفكرته تعتمد على الظل أكثر مما تعتمد على النور - كما يقول أصحاب الرسم - أو تعتمد على الاستعارة المكنية - كما يقول أصحاب البلاغة :

لو كنتُ في ريمانَ تحرُّشُ بابِه أراجيلُ أحبوشُ وأغصِفُ آلفُ
إذنُ لأتني حيثُ كنتُ منيبي يخب بها هاد بأمرى قائف^(٢)
وصديق تأبط شراً إذا هز سيفه في عظام أعدائه ضحك الموت سروراً
بما حصل عليه من أرواح ، حتى لتبرق أسنانه من شدة ضحكته :
إذا هزه في عظمِ قرْن تهللت نواجذُ أقواه المنايا الضواحيك^(٣)
والعملية الفنية هنا عملية مركبة معقدة تقوم على استعارتين : استعارة في « تهللت » تقوم على تشبيه يريق الأسنان عند الضحك بلمعان البرق ، واستعارة

(١) الروم : الطابع يطبع به (انظر القاموس المحيط : مادة - رسم -) .

(٢) الأغاني ١١/ ١٣٢ (بولاق) .

(٣) حماسة أبي تمام ١/ ٤٩ .

في « المنايا » تقوم على تشبيهها بإنسان يضحك .
وأحكام الإسلام وقيوده عند أبي خراش سلاسل^(١) تطوق رقاب الصعاليك
الذين أسلموا ، ولكن أبا خراش يريد أن يكون مهذباً في تعبيره ، فيمخى لفظة
الإسلام وراء ظلاله الفنية ، ويركز الضوء على المشبه به وهي السلاسل على
طريقة الاستعارة التصريحية التي يرشح لها ببعض خصائص المشبه به وهي
الإحاطة بالرقاب :

فليس كعهد الدار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل^(٢)
ولكن هذه الصنعة الفنية المتعملة المتأنية - برغم قوة أنغامها ورنين أصداؤها -
قليلة لا تكفي لتكوين مذهب في خاص نبيح لأنفسنا أن نجعله من خصائص
شعر الصعاليك .

وإلى جانب هذه الصنعة الفنية العميقة الدقيقة نجد آثاراً ضئيلة لصنعة
فنية بسيطة زاهية ، هي بعض الألوان البديعية.

وقد رأينا أمثلة من الطباق في رائية تأبط شرا التي عرضنا لها منذ قليل ،
وحين ننظر في سائر شعره نجد أمثلة أخرى ، في قوله :

قليل التشكى للمهم يصيبه كثير الهوى شتى النوى والمسالك^(٣)
نجد طباقاً لفظياً ساذجاً بين « قليل » و « كثير » .
وفي قوله من القصيدة نفسها :

يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدى بحيث اهدت أم النجوم الشوابك^(٤)
نجد طباقاً لفظياً آخر بين « الوحشة » و « الأنس » .
وفي قول أبي الطمحان :

نمت بك من بنى شمع زياد لها ما شئت من فرع وأصل^(٥)

(١) ديوان الهذليين القسم الثاني / ١٥٠ .

(٢) حكمة أبي تمام ٤٧/١ .

(٣) المصدر السابق / ٤٩ .

(٤) الجاحظ : الحيوان ٣٨٠/١ .

نجد ذلك الطباق اللفظي الذي تبدو عليه الصبغة العقلية بين « فرع » و « أصل » .

وفي تائيد الشنفرى المشهورة نجد أمثلة أخرى من الطباق ، مثل « دقت » و « جلت »^(١) ، و « حلو » و « مر »^(٢) .

وليس الطباق هو اللون البديعى الوحيد فى شعر الصعاليك ، بل هناك ألوان أخرى كالجناس الذى نرى مثلاً منه فى بيت تأبط شرا السابق « قليل التشكى » بين « الهوى » و « النوى » وبين قافية هذا البيت وقافية البيت الذى يليه ، « المسالك » و « المهالك » ، وبين « نحيفا » و « نحيفا » فى قول الأعلم :

وقدح يخور خوار الغزا ل ركبته فيه نحيفا نحيفا^(٣)
كما نرى أمثلة أخرى فى قوافى لامية أبى خراش حيث تتابع أبيتها الأولى هكذا : قليل . جليل ، جميل ، عقيل ، مقيل ، ثقيل^(٤) ، مؤلفة أمثلة متتابعة من الجناس اللفظى الناقص ، بين قوافى البيتين الأول والثانى ، ثم الثانى والثالث ، ثم الرابع والخامس والسادس .

كما نرى أمثلة غيرها فى شعر أبى خراش أيضاً بين « العقم » و « الرقم » وبين « حاجة » و « عاجة » فى بيتين متتاليين من ميمية له^(٥) .

كما نلاحظ مثلاً من جناس الاشتقاق فى قول الأعلم يصف الرعد :
أجش ربخلاً له هيدب يكشفاً للخال ريطاً كشيفاً^(٦)
والشئ الذى لا شك فيه هو أن أكثر هذه الألوان البديعية لم يقصد إليها

(١) البيت ١٢ من القصيدة فى المفضليات / ٢٠٢ .

(٢) البيت ٣٣ من القصيدة فى المصدر نفسه / ٢٠٧ .

(٣) شرح أشعار الهذليين ١/ ٤٩ - النحيض هنا : السنان الرقيق ، من نحض السنان إذا رققه .

(٤) ديوان الهذليين القسم الثانى / ١١٦ ، ١١٧ .

(٥) ديوان الهذليين القسم الثانى / ١٢٩ .

(٦) شرح أشعار الهذليين ١/ ٤٢ - الرجل : الضخم الطويل . والخال هنا : السحاب لا يخلف مطره أو البرق . والريط : جمع ربطة وهى الملاءة من نسج واحد وقطعة واحدة ، أو كل ثوب لين رقيق .

الشعراء الصعاليك قصداً ، وإنما جاءت عفواً في أثناء تعبيراتهم ، إذ أن هذه الألوان التي تعتمد على نوع من التلاعب اللفظي لم تكن بالألوان الفنية التي يحرص عليها الشعراء الجاهليون ، أو التي يقصدون إليها قصداً متعمداً ، أو التي يتخلون منها أسساً لمذاهبهم الفنية .

١٠

الخصائص اللغوية :

حين نتنظر في مجموعة شعر الصعاليك لتبين خصائصها اللغوية فإن أول ما نلاحظه على لغتهم أنها هي اللغة الأدبية التي عرفها العصر الجاهلي بكل ما نعرفه عن هذه اللغة من خصائص ، وهذه ظاهرة طبيعية ليس من الصعب تحليلها ، فإن الشعراء الصعاليك ، مهما يبلغ بهم الأمر في الخروج على تقاليد مجتمعهم الأدبي من ناحية موضوعات شعرهم ، أو معانيه ، أو خصائصه الفنية ، فما هم بقادرين على الخروج عليه من ناحية لغتهم ، لأن هذا الجانب اللغوي هو العامل المشترك بينهم وبينه ، والوسيلة الأساسية للتفاهم بينهم وبين أفرادهم ، أو — بعبارة أخرى — هو « العملة » التي اتفق المجتمع الأدبي على أنها أساس التبادل الفكري بين أفرادهم جميعاً سواء منهم المتوافقون معه أو الخارجون عليه ، وبدون هذه « العملة » يصبح عمل الشعراء الصعاليك الفني عملاً « مزيفاً » لا يصلح للتداول ، أما تلك الجوانب الأخرى من العمل الفني : الموضوعات والمعاني والخصائص الفنية فإنها الجوانب الشخصية فيه التي يستطيع كل أن يتصرف فيها كما يشاء .

ولكن يبدو أننا يجب أن نقيد هذا الكلام قليلاً ، فإن للمسألة جانباً آخر يجب ألا ننغله ، فنحن نعرف أن الشعراء الصعاليك قد خرجوا على مجتمعهم القبلي ، وانطلقوا إلى أعماق الصحراء النائية مشردين . ومعنى هذا أن صلة الشعراء الصعاليك بالمجتمع الأدبي من حولهم لم تكن صلة دائمة مستمرة ، أو — بعبارة

أخرى - أن المجتمع الأدبي من حولهم لم يكن على صلة دائمة مستمرة بهم .

ونتيجة هذا من الناحية اللغوية أمران :

الأول أن لغة الشعراء الصعاليك أقرب إلى فطرة اللغة العربية ، وأصدق تمثيلاً لها ، إذ هي صادرة من منابعها الأولى قبل أن تؤثر فيها تلك التيارات الاجتماعية وغير الاجتماعية التي تؤثر في اللغات . ولستأ ندعى أن لغة سائر الشعراء الجاهليين لا تمثل فطرة اللغة العربية ، ولكن الذي نقرره هو أن لغة الشعراء الصعاليك أقرب إلى فطرة اللغة العربية ، وأصدق تمثيلاً لها من سائر الشعراء الجاهليين .

ولعل هذا هو السبب في كثرة ما يرد من شعر الصعاليك في المعاجم اللغوية ، واعتماد أصحاب هذه المعاجم عليه في تكوين مادتهم اللغوية ، وفي لسان العرب وتاج العروس مجموعة كبيرة من أبيات الشعراء الصعاليك ، وقد رأينا أن المجموعة اللغوية تعد من المصادر الأساسية لشعر الصعاليك ، أو - بعبارة أخرى - أن شعر الصعاليك من المصادر الأساسية للمجموعة اللغوية .
والأمر الثاني كثرة الغريب في شعرهم ، حتى ليشعر الناظر فيه أحياناً أنه أمام مجموعة من الطلاسم اللفظية ، يضطر أمام كل لفظ منها إلى الرجوع إلى المعاجم المطولة ، لأن المعاجم المختصرة لا تسعفه ، ويكفي أن نقرأ هذه الأبيات لتأبط شراً :

وَحَشَحَشْتُ مَشْعُوفَ النَّجَاءِ كَأَنِّي
مَنْ الْحُصِّ هَزْرُوفٌ كَأَنَّ عَفَاءَهُ
أَزَجٌ زَلُوجٌ هَذَرَفِي زَفَازَفٌ
أَوْ هَذِينَ الْبَيْتَيْنِ لَهُ أَيْضاً :

وَشَغَبٍ كَشَلٍّ الثَّوْبِ شَكْسٌ طَرِيقُهُ
بِهِ مِنْ سَيُولِ الصَّيْفِ بَيْضٌ أَقْرَاهُ
مَجَامِعُ صَوْحِيهِ نَطَاقٌ مُحَاصِرُ
جُبَارٍ لَصْمُ الصَّخْرِ فِيهِ قَرَاقِرُ^(٢)

(١) الأغاني ٢١٣/١٨ وانظر ص ٢٢١ من هذا البحث .

(٢) الأصمعيات ٣٥ . والبيت الثاني في لسان العرب مادة (جبر) وفيه « به من نجاء

الصيف » وانظر : ص ٢٤٢ من هذا البحث .

أو هذه الأبيات للأعلم :

فشايغ وسط ذودك مستقناً لتحسب سيداً ضبعاً تنول
عشزرة جواهرها ثمان فويق زماعها خدم حُجول
تراها الضبع أعظمهن رأساً جرأمة لها حرة وثيل^(١)
أو هذه الأبيات لأبي الطمحان :

فأصبحن قد أقهين عني كما أبت حياض الإمدان الهجان القوامح^(٢)
أو هذا البيت لحاجز :

خضاً خضة بخضيع السيول ل قد بلغ الماء حذفارها^(٣)
أو هذا البيت للأعلم :

والحنطي الحنطي يمة شج بال عظيمة والרגائب^(٤)
يكفي أن نقرأ هذه الأبيات ، وأمثالها كثير في شعر الصعاليك ، لتبدو
لنا هذه الغرابة اللفظية التي انبعثت من أعماق الصحراء حيث كان يعيش هؤلاء
الصعاليك مشردين .

والحق أن هذه الغرابة قد شعر بها رواة شعر الصعاليك وشراحه ، كما شعر
بها اللغويون أيضاً ، فصرحوا بأنهم لا يعرفون طائفة من ألفاظه ، أو بأنها لم ترد
إلا فيه ، أو بأنها ألفاظ نادرة . ويصرح الأصمعي بأنه لا يعرف « سحالييل » في
قول الأعلم يصف جراء الضباع :

مسود سحالييل كأن جلودهن ثياب راهب^(٥)
ويذكر السكري عند تفسيره لقول صخر الغي :

(١) شرح أشعار الهذليين ١/ ٦٣ ، ٦٤ . ولسان العرب : مادة (قن) ومادة (جر) ومادة (عشزرة) .

(٢) لسان العرب : مادة (قها) .

(٣) ابن دريد : جمهرة اللغة ١/ ١٤٠ .

(٤) شرح أشعار الهذليين ١/ ٥٩ . ولسان العرب : مادة (حنطاً) وفيه « يمنح » مكان

« يمنح » .

(٥) شرح أشعار الهذليين ١/ ٥٧ . وديوان الهذليين القسم الثاني / ٨٠ .

فلا. تفعدنَّ على زَنخة وتضمّر في القلب وَجداً وخيفاً
أنه لم يسمع « زَنخة » في شيء من كلام العرب ولا في أشعارها إلا في هذا
البيت ^(١) ، وكذلك يذكر الأصمعي عن هذه الكلمة ^(٢) .
ويروى صاحب لسان العرب أن « الخيعابة » بمعنى الرديء لم يسمع إلا في
قول تأبط شرا :

ولا خَرع خَيْعَابَة ذى غوائل هَيَام كَجَفَر الأبطح المتهيل ^(٣)
ويذكر الأزهري أن « المكدل » بمعنى المكدر قد أهمله الليث ، ثم يقول
« وجدت أنا فيه بيتاً لتأبط شرا » ^(٤) .

ويذكر ابن سيده أنه يقال رجل ترعية لمن صناعته وصناعة آباءه الرعاية ،
أما ترعى بغير هاء فإنه نادر ، وقد ورد في قول تأبط شرا :

ولستُ بترعى طويل عشاؤه يؤنفها مستأنف التبت مُبهل ^(٥)
ومن الأدلة على هذه الغرابة أيضاً اختلاف اللغويين حول معاني بعض
الألفاظ ، فقد اختلفوا مثلاً حول معنى « المسترعل » في قول تأبط شرا :

مى تبغنى ما دمتُ حياً مسلماً تجدنى مع المسترعل المتعبهل
فقالوا إنه الذى ينهض فى الرعيل الأول ، وقيل هو الخارج فى الرعيل ،
وقيل هو قائد الفرسان كأنه يستحثها ، وفسره ابن الإعرابي بأنه ذو الإبل ،
ولكن ابن سيده يذكر أن هذا التفسير ليس بجيد ^(٦) .

وقد اختلفوا أيضاً فى معنى لفظة « زَنخة » التى وردت فى بيت صخر الغي
السابق ، فالسكري والأصمعي يذكران أنها الغيظ ^(٧) ، واللحياني فيما يرويه

(١) شرح أشعار الهذليين ٤٦/١ .

(٢) ديوان الهذليين القسم الثاني ٧٤/ .

(٣) لسان العرب : مادة (خعب) .

(٤) لسان العرب : مادة (كدل) .

(٥) لسان العرب : مادة (رعى) .

(٦) لسان العرب : مادة (رعل) .

(٧) شرح أشعار الهذليين ٤٦/١ . وديوان الهذليين ٧٤/٢ .

صاحب الأملالي يذكر أنها الدفعة (١) .

ويذكر صاحب اللسان في قول تأبط شراً :

ولا حَوَقْلٍ خَطَّارَةٌ حول بيته إذا العرُوس آوى بينها كلَّ حَوَقْلٍ
« قيل في تفسيره : الحَوَقْلُ الظريف ، ويجوز عندي أن يكون من الحَتْلِ
الذي هو الخديعة بنى منه فَوْعَلاً » (٢) ، وعبارة صاحب اللسان الأخيرة تشعر
بأن هذه الكلمة قد تكون من اشتقاق تأبط شراً .

ولعل عروة بن الورد أقل الشعراء الصعاليك إغراباً من الناحية اللغوية ؛
ولعل مسبب هذا أن عروة كان يقوم في حركة الصعلكة بدور الزعيم الشعبي ،
أو صاحب المذهب الذي يدعو الجماهير إلى اعتناق مذهبه ، فكان طبيعياً
أن يتبسط في الحديث إلى جماهيره باللغة التي يألفونها ، هذا من ناحية ،
ومن ناحية أخرى لم يكن عروة بالصعلوك الذي اعتزل مجتمعه ، وعاش بين
حيوان الصحراء ووحشها ، كما كان يفعل غيره من الصعاليك ، وإنما كان
إنساناً بكل ما في الإنسانية من معان ، يحرص على الاتصال بمجتمعه الإنساني
والعمل من أجله ، ومن هنا خلصت لغته من تلك الحوشية البدوية التي نلاحظها
عند غيره من الشعراء الصعاليك ، وبخاصة تأبط شراً والشنفرى .

١١

ظواهر عروضية :

إذا نظرنا بعد ذلك في مجموعة شعر الصعاليك لتبين خصائصها العروضية
فإننا نلاحظ أن الأوزان التي صاغ فيها الشعراء الصعاليك شعرهم هي الأوزان
نفسها التي عرفها سائر الشعراء الجاهليين : الطويل ، والبسيط ، والوافر ،
والكامل ، والمتقارب ، وأمثال هذه البحور التي ترددت فيها أنغام الشعر
الجاهلي .

(١) القائل : الأملالي ٢١٢/١ ، ٢١٣ .

(٢) لسان العرب : مادة (حتل) .

كما نلاحظ في شعرهم الذي جاء من بحر الطويل ذلك الزحاف الشائع في الشعر الجاهلي في هذا البحر ، وهو حذف ياء « مفاعيلن » ونون « فعولن » وتحول التفعيلة إلى « مفاعلن » و « فعول » وهو ما يسميه العروضيون « القبض » ، وذلك مثل قول تأبط شرا :

تقولُ تركتُ صاحباً لك ضائعاً وجئتُ إلينا فارقاً متباطنا
إذا ما تركتُ صاحبي لثلاثة أو اثنين مثليتنا فلا أبتُ آمناً^(١)
ومثل قول الشنفرى :

فواكبداً على أميمة بعدما طمعتُ فهبها نعمة العيش زلتُ^(٢)
ومثل قول الأعلم :

أحببني إنا قد يمتعنا الفنى بأموالنا نريحها ونُسِيمها
ونحبسها على العظام نتقى بها دعوة الداعين ، إنا نقيمها
إذا النفساء لم تخرس ببيكرها غلاماً ولم يسكت بحتر فطيّمها^(٣)
ومثل قول أبي خراش :

كان النضى بعدما طاش مارقاً وراء يديه بالخلاء طميل^(٤)
والأمثلة على هذه الظاهرة العروضية أكثر من أن تعدّ ، فهي منتشرة في شعرهم انتشاراً واسعاً ، ويكفى أن ننظر مثلاً في تائيه الشنفرى المفضلية لتبين مدى هذا الانتشار ، فقياً عدا أبياتاً قليلة منها تنتشر هذه الظاهرة في كل بيت من أبياتها .

كما نلاحظ أيضاً انتشار تلك العلة البخارية مجرى الزحاف التي تنتشر أيضاً في سائر الشعر الجاهلي . وهي إسقاط أول الوند المجموع من « فعولن »

(١) الأغاني ١٨/٢١٣ .

(٢) المفضليات / ٢٠٠ .

(٣) شرح أشعار الهذليين ١/٦٧ . وانظر من ٢٤٠ من هذا البحث .

(٤) ديوان الهذليين ٢/١٢١ - النضى : الميم بلا فصل ولا ريش . والطميل : السهم

لطفه الدم .

في أول القصيدة أو المقطوعة فتتحول إلى « فعلن » ، وهو ما يسميه العروضيون « الحرم » . وذلك مثل قول حاجر :

إِنْ تَذْكُرُوا يَوْمَ الْقَرَىٰ فَإِنَّهُ بَوَاءُ بِأَيَّامٍ كَثِيرٍ عَدِيدُهَا^(١)
وقول أبي الطمحان :

لو كُنْتُ فِي رَيْمَانَ تَحْرُسُ بَابَهُ أَرَا جَيْلُ أَحْبُوشٍ وَأَغْضَفُ آلفُ^(٢)
وقول الشنفرى :

لَا تَقْبُرُونِي إِنْ قَبِرِي مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَبْشِرِي أُمَّ عَامِرٍ^(٣)
وهي ظاهرة منتشرة أيضاً في شعر الصعاليك انتشارها في سائر الشعر الجاهلي .

ولكن هناك ظاهرة عروضية تلفت النظر في شعر الصعاليك وتستحق التسجيل ، وهي انتشار الرجز قبيل مصارعهم ، ولعل السبب في هذا سهولة هذا الوزن ، واتفاقه مع حركات القتال . وقد لقي كثير من الصعاليك مصارعهم في أثناء قتالهم مع أعدائهم ، وسقطوا في أثناء هذا القتال شهداء الفكرة التي عاشوا من أجلها .

وحين ننظر في شعر الصعاليك الذي قالوه قبيل مصارعهم نجد أن كثيراً منه كان رجزاً . فقيس بن الحداية يقاتل أعداءه وهو يرتجز حتى يقتل^(٤) ، والشنفرى في ساعته الأخيرة حين يضرب أعداؤه يده فيقطعونها يرثيها رجزاً^(٥) ، وصخر الغي حين يحيط به أعداؤه في ساعته الأخيرة يرتجز حائثاً أصحابه على الثبات معه وعدم الفرار حتى لتبلغ أراجيزه في هذه الفترة الحرجة من حياته خمساً^(٦) .

(١) الأغاني ٥١/١٢ (بولاقي) - البواء : السواء والكفاء ، من باء دمه يلمسه إذا عدله .

(٢) الأغاني ١٣٢/١١ (بولاقي) .

(٣) الأغاني ١٣٦/٢١ .

(٤) الأغاني ٨/١٣ (بولاقي) .

(٥) الأغاني ١٤٣/٢١ . وشرح ابن الأنباري على المفضليات/ ١٩٩ .

(٦) شرح أشعار الهذليين ١/ ٣١ - ٣٣ .

ومع ذلك فلعمرو ذى الكلب^(١) أرجوزة طويلة يقص فيها قصة طريفة ،
 هي غارة ذئب فاتك على غنمه ، ورمى به سهم من سهامه يلقيه صريعاً وقد
 اختضب بعضه من بعض بدم ، كما يقول في نهايتها^(٢) . ولعلها رمز لذلك
 الصراع الدامى بين طبقة الصعاليك المظلومة وطبقة الرأسمالية الظالمة ، وانتصار
 الصعاليك فى النهاية فى هذا الصراع .

(١) وتروى لأبى خراش ، وتروى لرجل من هذيل غير مسمى (شرح أشعار الهذليين
 ٢٣٩/١) .

(٢) شرح أشعار الهذليين ٢٣٩/١ ، ٢٤٠ .

الفصل الرابع

شخصيتان متميزتان

١

تشابه وتميز :

رأينا أن صعاليك العرب سلكوا جميعاً أسلوباً واحداً في الحياة ، آمنوا بأنه الأسلوب الوحيد الذي يستطيعون به أن يرفعوا عن كواهلهم ما وضعت فوقها ظروف مجتمعهم الجغرافية ، وتقاليد الاجتماعية ، وأوضاعه الاقتصادية ، من ضيم وهوان ، وهو ذلك الأسلوب الذي جعلنا شعاره « الغزو والإغارة للسلب والنهب » .

ورأينا أن صعاليك العرب جميعاً ، سواء منهم الخلعاء أو الأغربة أو الفقراء المتمردون ، قد تخلصوا من فكرة « العصبية القبلية » وشقوا طريقهم في الحياة دون تقيد بقبائلهم ، أو رجوع إليها ، أو حرص على رضاها ، حتى أولئك الذين ظلوا على صلة بقبائلهم ، أو — بتعبير أدق — بمنازل قبائلهم ، لم تكن حركاتهم مرتبطة بالحياة الاجتماعية العامة في قبائلهم .

ورأينا أن مرد هذا إلى إحساس هؤلاء الصعاليك بأنهم مهضومو الحق ، مستضعفون في الأرض ، وما نشأ عن هذا الإحساس بالضعفة ، وعن هذه الرغبة في التسامى ، من « مركب نفسي » ، اتجه بهم إلى التمرد .

وليس من الطبيعي أن تكون كل شخصيات صعاليك العرب قد فئت في هذه « العصبية المذهبية » التي استعاضوا بها عن « العصبية القبلية » ، وإنما الطبيعي أنه برغم هذا التشابه في جماعة الصعاليك ، يوجد تميز بين شخصياتهم ، فقد رأينا أن أساس حركة الصعلكة قوة النفس ، وأن قوامها مقدرة الفرد على الوقوف في وجه المجموع .

ومن الطبيعي تبعاً لهذا أن يختلف موقف الصعاليك من هذه الحركة التي وهبوا لها حياتهم . ونستطيع في سهولة أن نلاحظ شخصيتين متميزتين نرد إليهما جماعة الصعاليك : فهناك تلك الشخصية المتمردة التي رأت في هذه الحركة فرصة سانحة تظهر فيها بطولها الفردية ، وتستغلها إلى أبعد حد في إرضاء ما في نفسها من نزعة شريرة ، تصبح حياتها كلها بلون من الدم الأحمر القاني محبب إليها ، لا يرضيها إلا أن ترى تلك الرعوس اليبانة ، رعوس الأغنياء المترفين ، تتطاير تحت ضربات سيوفها ، وذلك المال الذي يملكونه ينهب ، بل هي لا تبالي في سبيل ذلك بأن توجه حركاتها المتمردة الشريرة ضد أية جماعة من الناس لا ترضى عنها . وإلى جانب هذه الشخصية التي رأت أن يكون تمرداها الوسيلة والغاية معاً ، نرى شخصية أخرى رأت أن يكون تمرداها وسيلة لغاية إنسانية معينة ، هي رفع الظلم عن المظلومين ، وحماية المستضعفين من ضيم السادة الأقوياء ، وتهيئة الفرصة للفقراء المهضومة حقوقهم ليشاركوا سائر أفراد مجتمعهم في حياة اجتماعية كريمة عن طريق إحداث نوع من العدالة الاجتماعية والتوازن الاقتصادي الفطري بين طبقتي هذا المجتمع الاقتصادييتين : طبقة المالة وطبقة الصعاليك ، بما تنهيه من الطبقة الأولى لتوزعه على الطبقة الأخرى .

وحين ننظر في مجموعة صعاليك العرب نجد أن أشهر من يمثل هذه الشخصية الأخرى عروة بن الورد ، أبو الصعاليك ، الذي أخذ على عاتقه من الناحية الاجتماعية أن يحقق هذه العدالة الاجتماعية وهذا التوازن الاقتصادي ، ومن الناحية الفنية أن يقف موقف الداعية صاحب المذهب الذي يتخذ من شعره وسيلة للدعاية إلى مذهبه .

أما الشخصية الأولى فإن أفرادها أكثر من أن يحصوا ، لأنها تمثل طائفة التمرد من فتيان المجتمع الجاهلي ، وما أكثرهم ! ولعل الشنفرى من أصلح ممثلي هذه الشخصية للدراسة الاجتماعية ، نظراً لإمعانه في التمرد والشر ، حتى ليذكر الرواة أنه آلى على نفسه ليقتلن مائة من بني سلامان بسبب لطفة لطمها له إحدى فتياتهم ، ولعله أصاح ممثلي هذه الشخصية للدراسة الفنية لأن له بين الشعراء الصعاليك

أيدينا ديواناً مستقلاً نستطيع أن نضعه في الكفة الأخرى من الميزان أمام
ديوان عروة :

٢

عروة بن الورد :

ينتهي نسب عروة إلى قبيلة عبس ، فهو عروة بن الورد بن زيد^(١) بن
عبد الله بن ناشب بن هُرَيم بن لُديم بن عوذ بن غالب بن قطيعة بن عبس^(٢) ،
فهو من هذه الناحية في شرف من قبيلته ، ولكن أباه كانت عبس تتشائم به ،
لأنه هو الذي أوقع الحرب بينها وبين فزارة بمراهنته حذيفة^(٣) .

أما أمه فليس فيما بين أيدينا من أخباره ما يشير إليها ، ولكن عروة نفسه
قد كفانا مشقة البحث عنها ، فهو يذكر في شعره أنها من نهد^(٤) من قضاة^(٥) ،
ولكن الشيء الذي يلفت النظر في حديث عروة عن أمه أنه دائم السخط
على هذه الصلة التي ربطت بين أبيه وأمه^(٦) ، بل إنه يهجو أحواله هجاء مرّاً^(٧) ،
ولعل من أسباب هذا أن قبيلة نهد كانت أقل شرفاً من عبس^(٨) ، أو ربما
كانت هناك أسباب أخرى لم تصل إلينا أخبارها .

(١) وقيل ابن عمرو بن زيد (الأغاني ٧٣/٣) .

(٢) المصدر السابق : الصفحة نفسها . وفي شرح التبريزي على حاشية أبي تمام « عروة
ابن الورد بن حابس بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن سفيان بن هرم بن عوف بن غالب بن قطيعة
ابن عبس » (٨/٢) وفي تاريخ اليعقوبي « عروة بن الورد بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن سفيان
ابن هرم بن عوف بن غالب بن قطيعة بن عبس » (٣٠٩/١) .

(٣) الأغاني ٨٨/٣ .

(٤) ديوانه ١٥٧/ البيت الأول .

(٥) المبرد : رسالة عدنان وقحطان / ٢٤ .

(٦) ديوانه ١٥٧/ ١٥٨ .

(٧) المصدر السابق / ١٥٧ .

(٨) The Ency of Islam; art. Urwa b. al-Ward. (٨)

ولعل هذا الإحساس الذي سيطر على نفس عروة بأن أمه أقل شرفاً من أبيه هو الذي جعله ينسب كل ما يحسه من عار إلى تلك الصلة التي تربطه بأخواله النهابين^(١) .

ومعنى هذا أن عروة قد وضع منذ نشأته الأولى بين شقى الرحى ، فأبوه تتشام منه قبيلته ، وأمه من قبيلة أقل شرفاً .

وليس لدينا عن نشأة عروة الأولى سوى خبر واحد ، ولكنه قوى الدلالة على تلك الظروف الأولى التي جعلته يشعر بالظلم شعوراً قوياً سيطر عليه في كل مراحل حياته بعد ذلك ، كما أنه قوى الدلالة على قوة نفسه التي بدأت براعمها في الظهور منذ وقت مبكر . ففي الأخبار أنه كان له أخ أكبر منه وكان أبوه يؤثره عليه فيما يعطيه ويقربه ، « فقليل له : أتؤثر الأكبر مع غناه عنك على الأصغر مع ضعفه ؟ قال : أترون هذا الأصغر ؟ لئن بقى مع ما أرى من شدة نفسه ليصيرن الأكبر عيالا عليه »^(٢) .

ومعنى هذا أن عروة تفتحت عيناه في الحياة على صورة مختلة التوازن من صورها : صورة الأخ الأكبر الذي يؤثره أبوه مع غناه عنه ، وإلى جانبها صورة الأخ الأصغر الذي يهمله أبوه مع ضعفه وحاجته إليه . أليست هذه الصورة هي التي شاهدها عروة بعد ذلك في المجتمع الذي يعيش فيه في مجال أوسع : الأغنياء الذين تؤثرهم الحياة بكل شيء مع غناهم ، وإلى جانبهم الفقراء الذين تحرمهم الحياة من كل شيء مع شدة حاجتهم وضعفهم ؟

وهكذا بدأت براعم فلسفة عروة الاجتماعية والاقتصادية في الظهور في هذه السن المبكرة .

وما إن تتقدم الأيام بعروة حتى تفتتح هذه البراعم عن فلسفة ناضجة ، يؤمن بها كل الإيمان ، ثم يأخذ في تنفيذها والدعوة إليها بكل قوة وحماسة .

(١) وما بي من عار إخال علمته سوى أن أخوال إذا نسبوا نهد (ديوانه / ١٥٧) .

(٢) الأغاني ٣ / ٨٨ .

ومن الطبيعي أن تجد دعوته آذاناً صاغية ، وقلوباً مؤمنة ، وأنصاراً مخلصين بين أولئك الفقراء المستضعفين الذين أجهدهم الفقر وأهزلهم الجوع ، وأذلتهم الأوضاع الاجتماعية ، وسدت الحياة في وجوههم سبل العيش الحر الكريم ، فالتفت حوله طوائف من الصعاليك ، يخرج بأقويائهم فيغير ، ثم يوزع الغنائم على من أغار بهم ، وعلى من تخلف عنه من المرضى والضعفاء أيضاً ، فربما عاد كل منهم إلى أهله وقد استغنى ^(١) .

وقد عرف الصعاليك في عروة هذه النفس الإنسانية القوية فكانوا إذا أصابهم السوء أتوه « فجلسوا أمام بيته حتى إذا بصروا به صرخوا وقالوا : يا أبا الصعاليك ، أغشنا » فيخرج ليغزو بهم ^(٢) .

وقد عرف عروة لهذه « الأبوة » — على حد تعبير هؤلاء الصعاليك الذين كان يسميهم « عياله » ^(٣) — أو لهذه « الزعامة » — كما يصح أن نطلق عليها — حقوقها . فلم يكن يؤثر نفسه بشيء على صعاليكه ، وإنما « كان صعلوكاً فقيراً مثلهم » ^(٤) ، وفي بعض غاراته ، وهو مع قوم من هؤلاء عشيرته في شتاء شديد ، قبض الله له رجلاً « صاحب مائة من الإبل قد فر بها من حقوق قومه » فقتله وأخذ إبله ثم أقبل بالإبل يقسمها بين صعاليكه ، وأخذ مثل نصيب أحدهم ^(٥) .

وعرف هذا « الزعيم الشعبي » « نفسية جماهيره » فكان يقبل منهم أحياناً التواضع عليه إذا ما تحسنت حالتهم ، لأنه يعرف أنهم « كما الناس » على حد تعبيره ^(٦) ، ولأنه يترك أنهم « صنيعته » ، ولو أنه عاملهم كما يعاملونه لأفسد

(١) انظر الأغاني ٧٨/٣ ، ٧٩ ، والتبريزي : شرح حماسة أبي تمام ٩/٢ .

(٢) الأغاني ٨١/٣ .

(٣) ديوانه ٩٩ ، وحماسة أبي تمام ٧/٢ البيت الأخير .

(٤) التبريزي : شرح حماسة أبي تمام ٩/٢ .

(٥) الأغاني ٧٩/٣ ، وانظر التبريزي : شرح حماسة أبي تمام ٩/٢ وابن السكيت :

شرح ديوان عروة ١١٢ .

(٦) ديوانه ١١٣ البيت الأول ، وشرح التبريزي على حماسة أبي تمام ٩/٢ .

ما يصنع ، ولانقضت الجواهر من حوله ، وهو حريص عليهم لأنه حريص على تنفيذ مذهبه في الحياة . ففي أخباره أنه غم في بعض غزواته إبلا وامرأة ، فلما أخذ في قسمة الإبل بين صعااليكه أخذ مثل نصيب أحدهم واستخلص المرأة لنفسه ، « فقالوا : لا والللات والعزى لا نرضى حتى تجعل المرأة نصيباً ، فمن شاء أخذها ، فجعل بهم بأن يحمل عليهم فيقتلهم وينتزع الإبل منهم ، ثم يذكر أنهم صنيعة ، وأنه إن فعل ذلك أفسد ما كان يصنع ، فأفكر طويلاً ، ثم أجابهم إلى أن يرد عليهم الإبل إلا راحلة يحمل عليها المرأة حتى يلحق بأهله ، فأبوا ذلك عليه ، حتى انتدب رجل منهم فجعل له راحلة من نصيبه »^(١).

وهو إلى جانب هذه « الزعامة » الحكيمة « قائد » موفق يخرج « بجنوده » ويرسم لهم الخطط الدقيقة التي تضمن لهم الفوز . ففي أخباره أنه خرج بصعااليكه إلى أرض بني القين ، فهبط أرضاً ذات حجارة كبيرة فيها ماء ، فرأى عليه آثاراً « فقال : هذه آثار من يرد هذا الماء فآكلوا ، فأحس أن يكون قد جاءكم رزق » ، فأقاموا يوماً « ثم ورد عليهم فصيل » ، فقالوا : دعنا فلنأخذه فلناكل منه يوماً أو يومين ، فقال : إنكم إذن تنفرون أهله ، وإن بعده إبلا ، فتركوه فندموا وجعلوا يلومون عروة من الجوع الذي جهدهم ، ووردت إبل بعده بخمس فيها ظعينة ورجل معه السيف والرمح ، والإبل مائة مثال ، فخرج إليه عروة ، فرماه في ظهره بسهم أخرجه من صدره فخرميتاً ، واستاق عروة الإبل والظعينة حتى أتى قومه^(٢) . أرأيت إلى هذه القيادة الموفقة كيف تتخير المكان والزمان ، وكيف تحكم الخطوة ولا تتعجل تنفيذها حتى تحين الفرصة المناسبة ؟

ومن مظاهر هذه القيادة الموفقة الحذر ، فقد كان عروة إذا نزل بصعااليكه

(١) الأغاني ٣/ ٧٩ ، ٨٠ . وانظر أيضاً شرح ابن السكيت على ديوانه ١١٢ / . وشرح التبريزي على حماسة أبي تمام ٩/ ٢ .

(٢) شرح ابن السكيت على ديوانه ١٠٣ / ، ١٠٤ . وشرح التبريزي على حماسة أبي تمام

في موطن من موطن الخوف أخذ للأمر عدته فبحث أحد صعايلكه فوق مرقبة عالية يرقب لهم الطريق ، بينما يشتغل الباقون في تهيئة طعام الجماعة أو في غير ذلك من الأعمال^(١) .

وقد رأينا في تفسيرنا الجغرافي لظاهرة الصعلكة أن حركات عروة وصعايلكه قد تركزت في شمالي الجزيرة العربية حول منطقة يثرب ، وأنها كانت تمتد إلى منطقة نجد أحياناً ، ومن هنا نشأت طائفة من الصلات الاقتصادية بينه وبين بني النضير الذين كانوا يتزلون في تلك المنطقة فكانوا « يقرضونه إن احتاج ويبايعهم إذا غم »^(٢) .

هكذا سلك عروة سبيله في الحياة ، يسلب الأغنياء أموالهم ليوزعها على الفقراء ، وفقاً لفلسفة معينة عبر عنها في شعره أصدق تعبير ، حتى أصبح شعره فبراساً يهتدى به قومه ، أو يأتون به — على حد تعبير الخطيئة في حديثه مع عمر بن الخطاب^(٣) .

وأساس فلسفة عروة أن « الغزو والإغارة للسلب والنهب » السبيل الوحيد للغنى لمن هو في مثل حالته :

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح^(٤)
وما صاحب الحاجات من كل وجهة من الناس إلا من أجدّ وشمراً^(٥)
وليس وراء ذلك سوى إحدى نتائج ثلاث : نجاح الغزوة أو إخفاقها أو الموت في سبيلها ، أما إن كانت الأولى فقد حقق أهدافه وجاء الغنى معها ، وأما إن كانت الثانية فقد أبلغ نفسه عذرها ، « ومبلغ نفس عذرها مثل منجى » ، وأما إن كانت الثالثة فالموت خير من حياة الفقر والجوع والذل والهوان :

(١) انظر أبياته التي يرمم فيها هذه الصورة في ديوانه / ١١١ ، ١١٢ .

(٢) الأغاني ٧٦/٣ .

(٣) المصدر السابق / ٧٤ .

(٤) ديوانه / ٩٩ . وحجامة أبي تمام ٧/٢ .

(٥) ديوانه / ١٩١ .

ذريني أطوف في البلاد لعلني
 فإن فاز سهم للمنية لم أكن
 وإن فاز سهمي كفكم عن مقاعد
 أقيموا بني لبني صدور ركابكم
 فقلت له ألا احى وأنت حر
 فسر في بلاد الله والتمس الغنى
 وهو يتمنى أن يصادف في أثناء انطلاقه هو وصعاليكه في البلاد غازين
 مغيرين بعض أولئك الأغنياء أصحاب الإبل الكثيرة الذين يحرسون على مالهم
 بالبخل والعقوق ، عقوق أفراد مجتمعهم الفقراء ، حتى يستردوا منهم بعض
 حقوقهم عليهم :

لعل انطلاقي في البلاد ورحلتي
 وسددي حيازيم المطية بالرحل
 سيدفعني يوماً إلى رب هجمة
 يدافع عنها بالعقوق وبالبخل^(٥)
 ويعلل عروة لمغامراته بكثرة أضيافه وقلة ماله ، فإذا يفعل سوى أن يغامر
 في سبيل الغنى حتى يهيئ لنفسه شيئاً يقدمه لهم ، فيحقق حسن ظنهم فيه ،
 ويرضى نفسه الطموح إلى حسن الأحداث وطيب الذكر ؟
 يريح على الليل أضياف ماجد
 كريم ، ومالي سارحاً مال مقتر^(٦)
 ويتساءل : أيهلك أفراد من المجتمع لفقرهم وجوعهم في حين يعيش إخوان
 لهم مترفين متخمين ، وهو قاعد لا يفعل شيئاً ، وهو الذي باع روحه للموت
 في مخاطراته ومغامراته ؟

أيهلك معتم وزيد ولم أقم
 على ندب يوماً ولي نفس مخطر^(٧)

(١) ديوانه / ٦٦ ، ٦٧ . وجمهرة أشعار العرب / ١١٤ . والأصمعيات / ٢٩ .

(٢) ديوانه / ١٠٦ .

(٣) ديوانه / ١٦٦ .

(٤) ديوانه / ١٩١ .

(٥) ديوانه / ١٠٨ ، ١٠٩ . وجماعة أبي تمام / ٩٢ .

(٦) ديوانه / ٨٥ . والأصمعيات / ٣٠ .

(٧) ديوانه / ٨٢ . والأصمعيات / ٣٠ .

والغاية التي يريد أن يصل إليها - بطبيعة الحال - الغنى ، ولكنه لا يريد الغنى من حيث هو غاية يقف عندها ، وإنما يريد له ليكون وسيلة للارتفاع بمرتبة الاجتماعية بين أفراد مجتمعه ، من حيث إنه يهيئ له الفرصة التي يشارك فيها السادة الأغنياء في البذل والكرم واكتساب المحامد والمفاخر :

دعيني أطوف في البلاد لعني أفيد غنى فيه لدى الحق محمل
أليس عظيماً أن تلم ملمة وليس علينا في الحقوق معول
فإن نحن لم نملك دفاعاً بحادث تلم به الأيام فالموت أجمل^(١)
والفقير في رأيه شر الناس ، وأحقهم عندهم ، وأهونهم عليهم مهما يكن
له من فضل ، يخافه أهله ، وتزدريه امرأته ، حتى الصغير يستطيع أن يذله ،
أما الغنى فمهما يفعل يقبل منه ، ومهما يخطئ يغفر له ، فللغنى رب يغفر
الذنوب جميعاً :

ذريني للغنى أسعى ، فإن رأيت الناس شرهم الفقير
وأذنأهم ، وأهونهم عليهم وإن أمسى له حسب وخير
يباعده القريب ، وتزدريه حليته ، ويقهره الصغير
ويُلقي ذو الغنى ، وله جلال يكاد فؤاد لاقيه يطير
قليل ذنبه ، والذنب جمل ولكن للغنى رب غفور^(٢)
هكذا يسجل أبو الصعاليك فلسفته في هذه المشكلة الاجتماعية الخطرة ،
مشكلة الفقر والغنى ، في هذا الأسلوب الممتاز الذي يستمد امتيازه من عنصرين
أساسيين هما السخرية والبساطة : السخرية من ذلك المجتمع العجيب الذي
يحترق الفقير لا شيء إلا لأنه فقير ، ويقدّر الغنى لا شيء إلا لأنه غنى ،
والذي لا يهتم بغير المظاهر المادية ، أما جوهر النفس الكامن خلف هذه المظاهر
فأمر وراء اهتمامه ، ثم البساطة التي نلمسها في عرض الشاعر لمعانيه ذلك العرض

(١) ديوانه / ٢٠٦ .

(٢) ديوانه / ١٩٨ ، ١٩٩ . وابن قتيبة : عيون الأخبار ١ / ٢٤١ ، ٢٤٢ . وابن

عبد ربه : العقد الفريد ٣ / ٢٩ .

السهل الذي لا يقبل معارضة ، أو يشير جدلاً ، والذي ينفذ إلى النفس من أقرب السبل ، ذلك العرض الذي يصح أن نطلق عليه « عرضاً شعبياً » ، حتى لنسمع أن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب يطلب إلى معلم أولاده ألا يروّتهم هذه القصيدة ، ويقول له : « إن هذا يدعوهم إلى الاغتراب عن أوطانهم » (١) .

وأسوأ طوائف الصعاليك عند عروة هم أولئك الصعاليك الذين يقضون حياتهم في خول وهوان وتخاذل ، وعود عن طلب الغنى ، وخطمة لنساء الحى المترفات :

لحاً الله صُعلوكاً إذا جَنُّ ليله مصافى المشاش آفاكل مجزّر
يعدُّ الغنى من دهره كل ليلة أصابَ قراها من صديق ميسر
ينام عشاء ثم يصبح طاوياً يحُث الحصى عن جنبه المتغفر
قليلُ التماس الزاد إلا لنفسه إذا هو أمسى كالعريش المجور
يعين نساء الحى ما يَسْتَعْنَهُ فيمسي طليحاً كالبعير المحسّر (٢)
أما أولئك الصعاليك العاملون الذين يقضون حياتهم في العمل والكفاح والمغامرة فإن عروة معجب بهم إعجاباً شديداً ، لأنهم الذين آمنوا بمذهبه في الحياة ، وسلكوا سبيله فيها ، فهو لهذا يكيل لهم مدحه ويضنى عليهم ثناءه :

ولكن صُعلوكاً صَحيفة وجهه كضوء شهاب القابض المتنور
مطلا على أعدائه يزجرونه بساحتهم زَجَرَ المنيع المشهر
فإن بعدوا لا يأمنون اقترابه تشوَّفَ أهل الغائب المتنظر
فذلك إن يلقى المنية يلقها حميداً وإن يستغن يوماً فأجدير (٣)
مكذا كان أبو الصعاليك ينادى بمذهبه في أرجاء المجتمع الجاهلى . وليس

(١) الأغاني ٧٥/٣ .

(٢) ديوانه ٧٣ - ٧٧ .

(٣) ديوانه ٧٨ - ٨٢ .

من شك في أن دعوة عروة هذه قد لقيت إعجاباً من هذا المجتمع ظلت أصداؤه ملوثة حتى بعد ظهور الإسلام في البلاط الأموي نفسه، حتى لنسمع معاوية يقول « لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم »^(١)، وحتى ليستأذن بعض الناس عليه ويقول لآذنه : استأذن لي على أمير المؤمنين وقل ابن مانع الضيم ، فيقول معاوية : ويحك لا يكون هذا إلا ابن عروة بن الورد العبسي أو الحصيني بن الحمام المري^(٢) ، وحتى ليقول عبد الملك : من زعم أن حاتمًا أسبح الناس فقد ظلم عروة بن الورد^(٣) .

وأخص ما يتميز به أسلوب عروة في شعره أنه « أسلوب شعبي » ، فهو سهل اللفظ بالقياس إلى شعر سائر الصعاليك ، واضح المعنى ، قريب التعبير ، لا تكلف فيه ولا تصنع . وقد يكون هذا طبعياً بعد أن قررنا أن عروة كان يقوم في حركة الصعلكة بالداعية المذهبي أو الزعيم الشعبي الذي يحرص على استمالة الجماهير إليه .

ولعل عروة أكثر الشعراء الصعاليك استخداماً لتلك المقدمات النسائية التي اصطللحنا على تسميتها « مقدمات القروسية » في شعر الصعاليك . وهذا أيضاً طبعياً فإن أخبار عروة مع نساءه السبايا تدل على احترام متغلغل في نفسه للمرأة ، ورواة الأدب العربي يصفونه بأنه كان لا يمس النساء^(٤) .

٣

الشنفري :

إذا كان عروة يمثل الجانب الإنساني في حركة صعاليك العرب ، فإن الشنفري — ولا شك — يمثل الجانب الشيطاني فيها .

واسم الشنفري ، ونسبه ، ونشأته الأولى ، غامضة كل الغموض ، فكل

(١) الأغاني ٣/ ٧٣ .

(٢) الأغاني ١٢/ ١٢٣ (بولاقي) .

(٣) الأغاني ٣/ ٧٤ .

(٤) الأغاني ٣/ ٧٥ .

ما يعرف عن الجانيين الأولين أنه الشنفرى ، وأنه كان من الإواس بن الحيجر ابن الهنوبن الأزدي^(١) ، وأن أباه كان في موضع من أهله ولكنه كان في قلة^(٢) ، وأن أمه كانت سبية^(٣) .

والشنفرى أحد أولئك الأغربة الذين رأينا أنهم كانوا يمدون حركة الصعلكة بجماعات كبيرة من الصعاليك ، ويضعه صاحب لسان العرب نقلاً عن ابن سيده عن ابن الأعرابي بين « أغربة العرب »^(٤) ، وكذلك يفعل صاحب تاج العروس نقلاً عن التهذيب والمحكم ولسان العرب^(٥) ، ويضعه ابن الأعرابي في نوادره بين أغربة الجاهلية^(٦) ، والشنفرى نفسه يصرح في بعض شعره بأنه « هجين »^(٧) .

ولكن يبدو أن الشنفرى يأتى إلا أن يوقعنا في إشكال غامض ، فإنه بعد بيت واحد من تصريحه هذا يعود فيصرح بأن أمه « ابنة الأحرار »^(٨) ، وهنا نقف لتساءل : كيف يتفق التصريحان وبينهما هذا التناقض الظاهر ؟ ونعود إلى أخبار الشنفرى في مصادرها المختلفة نسألها الإجابة عن هذا التساؤل ، ولكننا لا نظفر مع الأسف بشيء ، فإن رواية أخباره لم يقفوا عند هذا التناقض ، ولم يقدموا لنا الوسائل التى تعيننا على هذه الإجابة ، لأنهم لم يذكروا شيئاً له قيمة عن أسرة الشنفرى ، لا عن أبيه ولا عن أمه ، حتى لنباحظ الأستاذ

(١) كذا في الأغاني ٢١/١٣٤ ، والذي في خزنة الأدب للبغدادى (١٦/٢) الإواس بفتح الهمزة ، والمحرف بفتح الحاء المهملة وسكون الجيم ، والهمزة بثلاث الهاء وسكون النون وبمعناها همزة ، وهو الذى في ديوانه المطبوع ٢٧/ .

(٢) ابن الأنبارى : شرح المفضليات ١٩٨/ .

(٣) المصدر السابق ١٩٥/ .

(٤) انظر مادة (غرب) .

(٥) مادة « غرب » . ولكن الغريب أن يذكره هذان المصدران بين الأغربة الإسلاميين وهو خطأ فاحش ، فكل مصدر حياة الشنفرى صريحة في أنه جاهل ، والأغرب من هذا أن ينقل قاشرو « الأغاني » بدار الكتب المصرية قص التاج في أحد هوامشهم (٨/٢٤٠) دون أية إشارة إلى ما فيه من خطأ .

(٦) السيوطى : المزهر ٢/٢٦٩ .

(٧) الأغاني ج ٢١ ص ١٣٤ من ٢٠ .

(٨) المصدر السابق ص ١٣٤ من ٢٢ .

Lyall أن « أصل الشنفرى ونسبه مسألتان شديدتا الغموض »^(١) . والواقع أن أخبار الشنفرى كلها قليلة ومضطربة حتى ليعارض رُواتها بعضهم بعضاً ، ومن هنا ترددت كلمة « لا » النافية في أول كل خبر منها^(٢) . ومن الحق ما يذكره Lyall من أن القصص التي تروى حول الشنفرى لا تتفق دائماً مع قصائده ، وإنما هي أقرب إلى أن تكون صورة من الأساطير الشعبية التي كثرت حول أبطال العصر الجاهلي من أن تكون أخباراً حقيقية^(٣) . ومع ذلك فلا بد من محاولة للإجابة عن هذا التساؤل .

يرى Fresnel أنه من المحتمل أن تكون أم الشنفرى مولودة من أب حر وأم أمة ، وبهذا يكون الشنفرى من أولئك الذين يطلقون عليهم في الولايات الأمريكية اسم Quarteron^(٤) . ولكن هذا الرأي لا يعلو أن يكون فرضاً ، وصاحبه يصرح بأنه شيء من الممكن أن يفترض^(٥) ، وهكذا تظل المشكلة قائمة ، ويظل السؤال وارداً .

أما أنا فيبدو لي أن المسألة أيسر من هذا ، وأنها لا تحتاج إلى تكلف مثل هذا الفرض الاحتمالي ، وأن وصف الشنفرى لأمه بأنها « ابنة الأحرار » لا يعلو أن يكون تعبيراً عاطفياً يتلاءم مع ذلك الجو العاطفي الشديد الحساسية الذي قيلت فيه الأبيات^(٦) ، فهو صرخة من نفس الشنفرى الحساسة في وجه ابنة سيده المتعجوفة ، يعلن لها فيها أن العبودية وضع اجتماعي خاطئ لا يعترف به ، لأن الله لم يخلق الناس عبيداً ، وأنه إذا كانت الأوضاع الظالمة قد جعلت

(١) The Mufaddaliyat, Vol. II (Translation and Notes), p. 73 (n. 28), Oxford, 1918.

(٢) الأغاني ١٣٧/٢١ - ١٤٢ .

(٣) The Mufaddaliyat, Vol. II (Translation and Notes), p. 68.

(٤) Fulgence Fresnel; Lettres sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme, (1re lettre) ; p. 93.

والكلمة معناها من أبوه أبيض وأمّه من أبوين أحدهما أبيض والآخر أسود أي أن فيه الربع من دم زنجي .

(٥) Ibid. ; p. 93.

(٦) الأغاني ١٣٤/٢١ ، ١٤٢ .

من أمه أمةً فإن هذا لا يغير من الوَضْع الإلهي الذي خلقها الله عليه ، فهي ابنة أحرار قبل أن تكون أمةً ، ولو أن هذه الفتاة المتعجرفة عرفت أصلها لعرفت أنها ابنة أحرار مثلها ، ولهذا يعقب على قوله « وأمي ابنةُ الأحرار » بقوله « لو تعرفينها » ، فكأنه يقول لها ذلك القول الذي قاله عمر بن الخطاب لعمر بن العاص فيما بعد : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ وكأن المسألة عنده مسألة نسبية ، فإذا كانت هذه الفتاة ترى أمه أمةً فإنه يراها ابنة أحرار .

ومع ذلك فما زال في المشكلة جانب يحتاج إلى تفسير ، وهو قول الشنفرى بعد ذلك :

إذا ما أرومُ الودَّ بيني وبينها يومَ بياضِ الوجه مني يمينُها^(١)
والذي يبدو لي أن وصف الشنفرى لوجهه بالبياض إما أن يكون على طريقة العرب في التعبير عن اللديغ بالسليم ، وإما أن يكون لوناً من السخرية من اهتمام هؤلاء السادة بمسألة اللون . ومع ذلك فهذا البيت لم يرد إلا في رواية واحدة من روايات الأغاني المتعددة عن هذه القصة ، وهي رواية مجهولة الراوية ، فيها بعض تفصيلات غير معقولة^(٢) .

ومهما يكن من أمر فإن لفظة « الشنفرى » تحمل في طياتها دليلاً على أصل هذا الشاعر ، فمن معاني هذه اللفظة الرجل الغليظ الشفتين^(٣) ، وغلظ الشفتين — كما هو معروف ، وكما يقرر علماء الأجناس — من سمات الجنس الأسود . ويجعل Fresnel هذه الظاهرة من أدلته على أنه « من المؤكد أن أم الشنفرى كانت أمةً سوداء أو من دم مختلط »^(٤) ، كما يجعلها Lyall دليلاً

(١) الأغاني ٢١/١٤٢ .

(٢) انظر المصدر نفسه الصفحة نفسها .

(٣) الزنجشوى : أعجب العجب في شرح لامية العرب / ١١ ، والبغدادى : خزانة الأدب

١٦/٢ .

(٤) Lettres sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme, (1re. lettre), p. 93. (٤)

على أنه « من المرجح أن دماً إفريقيّاً زنجيّاً أو حبشيّاً كان يجري في عروقه »^(١).
أما عن بدء تصعلكه فإنه غامض ككل الغموض ، وتروى عنه ثلاث روايات : إحداهما عن محمد بن هشام الثمري بسنده وتذكر أن الشنفرى أسرته بنو شبابة بن فهم فلم يزل فيهم حتى أسرت بنو سلامان بن مفرج^(٢) من الأزد رجلاً من بني شبابة ، فقدته بنو شبابة بالشنفرى ، فكان الشنفرى في بني سلامان لا تحسبه إلا أحدهم حتى نازعته بنت الرجل الذى كان في حجره ، وكان السامى اتخذه ولداً ، فقال لها الشنفرى : اغسلى رأسى يا أختى ، فأنكرت أن يكون أخاها ولطمته ، فذهب مغاضباً حتى أتى الذى اشتراه من فهم ، فقال له : اصدقنى ممن أنا ؟ قال : أنت من الإواس بن الحجر ، فقال : أما إني لن أدعكم حتى أقتل منكم مائة بما استعبدتمونى^(٣) .

وأما الثانية فمن رواية مجهول يكذب فيها هذه الرواية ويقول إن الأزد قتلت الحارث بن السائب الفهمى ، فأبوا أن يبيعوا بقتله ، فباء بقتله رجل منهم يقال له حركام بن جابر ، فلما ترعرع الشنفرى جعل يغير على الأزد مع فهم^(٤) .
وأما الثالثة فمن رواية مجهول أيضاً يكذب فيها هاتين الروایتين ، ويقول : بل كان من سبب أمر الشنفرى أن بنى سلامان بن مفرج سبت الشنفرى وهو غلام ، فجعله الذى سباه في بهيمة يرعاها مع ابنة له ، فلما خلاها ذهب ليقبلها ، فصكت وجهه ، ثم سعت إلى أبيها فأخبرته ، فخرج إليه ليقته ، فوجده ينشد ألياًناً يأسف فيها على أن هذه الفتاة لا تعرف نسبه ، فلما سمع الرجل قوله سأله : ممن هو ؟ فقال : أنا الشنفرى أخو بنى الحارث بن ربيعة ، فقال له : : لولا أنى أخاف أن يقتلنى بنو سلامان لأنكحتك ابنتى ، فقال :

(١) The Mufaddaliyat, Vol. II, p. 68.

(٢) ضبطت في هذا الموضع بتشديد الراء ، ولكن الذى في شعره « مفرج » بتخفيفها وكسرهما (انظر بيته رقم ٢٨ من تائيته في المفضليات / ٢٠٥ وفي الأغاني ٢١ / ١٤٠) وهو الصواب (انظر القاموس المحيط : مادة فرج) .

(٣) الأغاني ٢١ / ١٣٤ .

(٤) المصدر السابق / ١٣٧ - وباء بقتله أى أقر واعترف به .

على أن قتلوك أن أقتل منهم مائة رجل بك ، فأنكحه ابنته ، ونحلي سبيله ، فسار بها إلى قومه ، فشددت بنو سلامان خلافاً على الرجل فقتلوه ، ثم أخذ يوفى بوعده للرجل فيغزو بني سلامان ويقتلهم^(١) .

ويروى ابن الأنباري عن نشأته الأولى ثلاث روايات : اثنتين عن مؤرخ ، إحداهما تلك التي يرويها صاحب الأغاني عن النخعي ، والأخرى يقول فيها : ويقال إن السبب في غزو الشنفرى الأزدي وقتلهم أن رجلاً منهم وثب على أبيه فقتله ، والشنفرى صغير ، وكان أبوه في موضع من أهله ولكنه كان في قلة ، فلما رأت أم الشنفرى أن ليس يطلب بدمه أحدٌ ارتحلت به وبأخ له أصغر منه حتى جاورت في فهم ، فلم تزل فيهم حتى كبر الشنفرى ، فجعلت تبدو منه عرامة ، وجعل يكره جانبه ، فوقع في نفس تأبطشرا ، فكان يكرمه ويدنيه ، وكان يغير مع تأبطشرا حتى صار لا يقام لسبيله^(٢) .

والرواية الثالثة عن رواية مجهول ، يقول فيها إن الأزدي قتل رجلاً من فهم في حفرة رجل يقال له الحارث بن السائب الفهمي ، فرهنوهم الشنفرى وأمه وأخاه ، وأسلموهم ولم يفلوهم ، فنشأ فيهم الشنفرى ، فكان شديد البأس والنفس وكان أشد فهم على الأزدي قتلاً وسلباً^(٣) .

ومهما يكن من أمر هذه الروايات المتناقضة المضطربة فإن المسألة في أبسط صورها ترجع إلى أن الشنفرى لسبب من الأسباب فقد توافقه الاجتماع مع قبيلته الأزدي ، ثم انتقل إلى قبيلة فهم ، تلك القبيلة المتمردة المشهورة بلصوصها^(٤) ، وهناك اتصل به تأبطشرا ، ووجد فيه تلميذاً ممتازاً ، فلقنه دروس الصعلكة الأولى حتى صار لا يقام لسبيله ، ورأى الشنفرى أن فرصة الانتقام من قبيلته الأزدي قد سنحت له فصب عليها كل غزواته .

(١) المصدر نفسه / ١٤٢ .

(٢) ابن الأنباري : شرح المفضليات / ١٩٦ ، وأيضاً / ١٩٨ .

(٣) المصدر السابق / ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٤) The Ency. of Islam; art. al-Shanfara. (٤)

ولعل أقرب هذه الروايات إلى الحقيقة، وأبعدها عن أوهام الرواة، الرواية الثانية التي يرويها ابن الأنباري عن مؤرج، والتي تتحدث عن قتل الأزد أباه. والشنفري نفسه في بعض شعره يصرح بأن قومه قد أضاعوا أباه^(١)، وفي أخباره أنه «قدم منى وبها حرّام بن جابر فقبل له: هذا قاتل أبيك، فشد عليه فقتله»^(٢)، وهو يصرح بهذا في تائيته المفضلية^(٣).

وأياً ما كانت الأسباب لهذا الحقد الذي ملأ نفس الشنفري على بني سلامان فإنه قد وهب حياته للانتقام منهم، «فكان يغير على الأزد على رجله فيمن معه من فهم، وكان يغير عليهم وحده أكثر ذلك»^(٤).

وبلغت الرغبة في الانتقام في نفس الشنفري حدّاً جعله يحرص على التفتن فيه، فكان يصنع النبل ويجعل أفواقها من القرون والعظام، فإذا غزاهم عرفوا نبله بأفواقها في قتلاهم^(٥)، وكان إذا رى رجلاً منهم قال له تحدياً: أأطرك؟ ثم يرمى عينه^(٦).

ويقتل الشنفري منهم - فيما تزعم الروايات - تسعة وتسعين، ثم يتربص به أعداؤه، ثم يقتلونه بعد أن يتفتنوا في تعذيبه تفتناً قاسياً، ثم يمر رجل منهم بمجمعته فيضربها فتعقره فيموت، وتم به المائة الذين كانت حلفه الشنفري عليهم^(٧).

(١) أضتم أبي إذ مال شق وساده على جنف، قد مال من لم يوصد (ابن الأنباري: شرح المفضليات / ١٩٨ - وديوانه المطبوع / ٢٥).

(٢) الأغاني ١٣٧/٢١.

(٣) قتلنا حرّاماً مهدياً بلبس ببطن من وسط الحجيج المصوت (المصدر السابق: الصفحة نفسها، وانظر المفضليات / ٢٠٥).

(٤) الأغاني ١٣٥/٢١.

(٥) المصدر السابق / ١٤٢.

(٦) المصدر نفسه / ١٢٦. وابن الأنباري: شرح المفضليات / ١٩٦.

(٧) انظر المصدرين السابقين: الأغاني / ١٣٥ - ١٣٦، ١٣٧ - ١٣٨، ١٤٢ -

١٤٣، وابن الأباري / ١٩٦ - ١٩٩. وانظر أيضاً ابن حبيب: المغتالين (مصورة) لوحة

رقم ٩٣ - ٩٤.

ويدور الجزء الأكبر من شعر الشنفرى حول هذا الصراع بينه وبين
بنى سلامان ، والجزء الباقي منه حول أحاديث تصدعها كنه وقمره وتشرده وغاراته
على غير بنى سلامان .

ويساير هذا الشعر حياة الشنفرى منذ طفولته ، فهم يروون له بيتين
يخاطب بهما أمه بعد مقتل أبيه وموت أخيه^(١) ، تظهر فيهما قوة نفسه وبراعم
تمرده الأولى .

فإذا ما لطمته الفتاة السلامية سجل هذه الحادثة البعيدة الأثر في حياته ،
وسجل أسفه لأن هذه الفتاة المغرورة لا تعرف شيئاً عن نسب أبيه وأمّه ، ثم
يتحدث إليها عن كرم نسبه^(٢) .

ثم إذا ما بدأ الصراع المرير بينه وبين بنى سلامان حرص على أن يسجل
كل شيء في شعره : تهديده لهم ، وتربصه بهم ، وأحاديث غاراته عليهم ،
ويصف أسلحته التي يستخدمها ، ويتحدث عن رفاق غاراته ، وعن أعدائه
وضحاياهم ، حتى إذا ما أمسك به أعداؤه وقطعوا يده رثاها بأرجوزة^(٣) ، هي
مزيج من الحزن والفخر حتى لا يشمت أعداؤه به ، فإذا ما أخذوا يسخرون
منه ويسألونه أين يدفنونهم رد عليهم بمقطوعة رائعة^(٤) ، تظهر فيها قوة نفسه ،
فهو لا يحرص على أن يدفن ، وإنما كل ما يوصى به أن يلقوا بجسده إلى
الضبع ، رفيقة تشرده .

والى جانب هذا التسجيل لأحاديث الصراع بينه وبين بنى سلامان سجل

(١) ديوانه المطبوع / ٢٧ . والأغاني ١٣٧/٢١ . وابن الأنبارى / ١٩٦ . مع اختلاف في
الروايات .

(٢) ديوانه المطبوع / ٤٠ ، ٤١ . وديوانه المصور : لوحة رقم ٢ . والأغاني ١٣٤/٢١ ،
١٤٢ .

(٣) ابن حبيب : كتاب المغتالين (مصورة) لوحة رقم ٩٣ ، وديوانه المصور لوحة رقم
٤ ، ٥ والأغاني ١٣٨/٢١ . وديوانه في الطرائف الأدبية / ٤٠ .

(٤) ابن حبيب : كتاب المغتالين (مصورة) لوحة رقم ٩٣ ، ٩٤ وابن الأنبارى : شرح
المفضليات / ١٩٧ ، وديوانه المصور لوحة رقم ٦ ، ٧ ، والأغاني ١٣٦/٢١ ، وديوانه في الطرائف
الأدبية / ٣٦ ، والشعر والشعراء / ١٨ ، ١٩ ، والعقد الفريد ١/١١٨ - ١١٩ .

في شعره جوانب أخرى من حياته : فقره ، وهزاله ، ونعليه الممزقتين ، وثيابه البالية ، وحمله قربة الماء ، وتشرده في الصحراء بين الوديان المخيفة حيث الجن والآساد ، وغاراته على غير بني سلامان .

ويوشك ما وصل إلينا من شعر الشنفرى أن يدور كله داخل دائرة التصعلك ، ونقول يوشك لأن تائته المفضلية تبدأ بمقدمة طويلة من النسب التقليدى^(١) ، يرسم فيها صورة رائعة ممتازة لصاحبه الحية الوفية الجميلة .

ومما يؤسف له أن مجموعة شعر الشنفرى التى بين أيدينا — برغم أنها مجموعة فى ديوان — قليلة ، فإذا أخرجنا منها « لامية العرب » التى رجحنا أنها ليست له ، والتائية المفضلية ، فإن ما يتبقى منها طائفة من المقطوعات والقصائد القصيرة . وأنخص ما يميز أسلوب الشنفرى الفنى تلك الحشونة اللفظية التى تمثل اللغة البدوية الجاهلية أصدق تمثيل ، ثم تلك القوة التعبيرية التى تجعل أسلوبه أسلوباً محكماً لا رخاوة فيه ، هذا إلى جانب ما يمتاز به من صلق التصوير ، والصراحة فى النقل عن الحياة :

(١) المفضليات / ١٩٤ - ٢٠٢ ، والأغاني ٢١ / ١٣٨ - ١٣٩ ، وديوانه المصور لوحة

الخاتمة

١

الصعاليك :

رأينا أن مادة « صعلك » تدور في دائرتين اصطلاحنا على تسميتهما بالدائرة اللغوية والدائرة الاجتماعية ، وتبدأ الدائرتان من نقطة واحدة هي الفقر ، فأما الدائرة اللغوية فتنتهى حيث بدأت عند الفقر ، يبدأ الصعلوك فيها فقيراً ، ثم يظل في نطاقها فقيراً ، لأنه لا يستطيع أن يغير الوضع الاجتماعى الذى فرض عليه لضعف فى نفسه ، أو لضعف فى جسده ، ثم يموت فقيراً ، وأما الدائرة الاجتماعية فتبعد عن نقطة البدء محاولة ألا تنتهى عندها ، يبدأ الصعلوك فيها فقيراً ، ثم يحاول أن يتغلب على هذا الفقر ولكن بطريقة خاصة هي تلك التى جعلنا شعارها « الغزو والإغارة للسلب والنهب » ، تدفعه إلى ذلك قوة فى نفسه وقوة فى جسده ، أى أن المادة فى هذه الدائرة الاجتماعية قد اكتسبت صفات اجتماعية جديدة .

ووقفنا بعد ذلك نلتمس السرى فى نشأة هذه الظاهرة ، فنظرنا فى المجتمع الجاهلى من ناحية بيئته الجغرافية ، ورأينا أن الظاهرة الجغرافية التى تسيطر على هذا المجتمع هي ما اصطلاحنا على تسميتها « بظاهرة التضاد الجغرافى » ، ورأينا أن هذه الظاهرة كانت العامل الأول فى نشأة حركة الصعاليك ، لأنها كانت السبب فى وجود الفقر وفى إحساس الفقراء به . ورأينا أن هذه الظاهرة تدخلت مرة أخرى فى توجيه حركات الصعاليك التى كانت تخرج دائماً من المناطق الحدودية إلى المناطق الحصينة ، ورأينا أن كل مناطق الحصب فى الجزيرة العربية قد تعرضت لغزوات الصعاليك ، ثم رأينا أنه من الممكن أن نحدد مناطق

حركات الصعاليك، فرأينا أن عروة وصعاليكه قد توزع نشاطهم بين منطقتين أساسيتين : منطقة نجد ، ومنطقة يثرب وما يجاورها شمالى جزيرة العرب ، وإن لم يمنع هذا من أن يغير أحياناً على غير مناطق اختصاصه ، ورأينا أن منطقة جبال السراة فيما بين مكة والطائف وأول الطريق الصاعد إلى اليمن هي المنطقة التى شهدت أكبر عدد من صعاليك العرب ، وأن أشهر الصعاليك الذين انتشروا فى هذه المنطقة صعاليك فهم وهذيل ومن انضم إليهم من خلعاء القبائل وشذاذها ، ورأينا أن منطقة اليمن عرفت أجزاءها القريبة من الحجاز صعاليك من فهم ومن الأزد ، وأما أجزاءها البعيدة فقد تخصص فى الإغارة عليها السليك ، وإن يكن تأبط شراً يتعدى أحياناً على منطقة اختصاص السليك . ولفت نظرنا فى صعاليك هاتين المنطقتين أن أكثرهم - إن لم يكونوا جميعاً - من العدائين ، وقد رددنا هذا إلى ثلاثة عوامل ؛ طبيعة المنطقة الجبلية ، وبعد الأهداف ، وقلة الخيل . ثم وقفنا عند هذه الظاهرة ، ظاهرة شدة العدو ، وقلنا إنها ليست بالظاهرة المستحيلة ، وإنما هى صورة من صور التكيف العضوى بين الإنسان وبيئته .

ثم مضينا إلى المجتمع الجاهلى نلتبس فيه تفسيراً لظاهرة التصعلك ، فرأينا أنه مجتمع قبلى ، آمنت كل قبيلة فيه بوحدةها الاجتماعية وبكرم جنسها ، ورأينا أن إيمان القبيلة بوحدةها أوجد طائفة الخلعاء والشذاذ فى هذا المجتمع ، وأن إيمانها بجنسها أوجد طائفة المهجناء والأغربة ، وأن المتمردين من هاتين الطائفتين من شتى القبائل قد اجتمعوا فى عصابات من صعاليك العرب ، كافرين بالعصبية القبلية ، مؤمنين بعصبية مذهبية ، معتمدين على قوتهم فى سبيل العيش ، شأنهم فى ذلك شأن المجتمع الذى يعيشون فيه ، غاية ما فى الأمر أن عملهم فردى يجرى بدون رضا القبيلة ، وعمل القبائل جماعى معترف به .

ثم مضينا إلى الناحية الاقتصادية فى هذا المجتمع فرأينا أن الجزيرة العربية كانت منذ أقدم العصور ممراً تجارياً نشطاً لطرق القوافل ، وأنه على طول هذه الطرق قامت مجموعة من الأسواق . ورأينا أن مراكز نشاط الصعاليك كانت

عادة على طول هذه الطرق ، وبالقرب من هذه الأسواق . ورأينا أن الصعاليك قد استغلوا هذه الأسواق استغلالاً آخر فكانت لهم فرصة يستقون فيها ضحاياهم . وقد عللنا كثرة الصعاليك في منطقة السراة حول مكة بوقوع هذه المنطقة على الطريق التجارى ، وبوجود ثلاث أسواق مشهورة فيها . ورأينا أن هذه الأسواق قد شهدت السطور الأولى من قصة طائفتين من طوائف الصعاليك هما طائفة الأغربة وطائفة الخلعاء ، ففي هذه الأسواق -أو في بعضها على الأقل- كانت تجرى تجارة الرقيق التى كانت مبياً في نشأة طبقة الأغربة ، وفيها -أو في الأسواق الأساسية منها- كان الإعلان الرسمى الذى تذيبه القبائل عن خلعتها بعض أفرادها الخارجين عليها .

ورأينا أن المدن العربية قد عرفت لونا من النشاط التجارى الذى ترتب عليه تضخم الثروة وتركزها في أيدي نفر قليل من أهلها ، الأمر الذى أحدث لونا من الاختلال الاقتصادى ، نشأت عنه كثرة عدد الصعاليك الذين كانوا في حالة سيئة حملت أكثرهم على الهرب إلى الصحراء والحقاء بعصابات الصعاليك المنتشرة بها .

فإذا مضينا إلى داخل البادية العربية وجدنا ثمة صراعاً بين طبقة أصحاب الإبل وطبقة الصعاليك ، وقد رددنا هذا إلى التفاعل بين ظاهرتين متناقضتين : ظاهرة البعد الاقتصادى ، وظاهرة القرب النفسى ، ورأينا أن مادة هذا الصراع التى دار حولها كانت عادة الإبل ، لأنها الثروة الأساسية في المجتمع البدوى ، وإن لم يمنع هذا من أن تمتد أيدي الصعاليك إلى أية غنيمة تعرض لهم .

٢

شعر الصعاليك :

رأينا أن شعر الصعاليك لم يصل إلينا منه مجموعاً سوى ديوانين هما ديوان عروة وديوان الشنفرى ، ورأينا أن هذا الشعر قد توزع بين مصادر الثقافة

العربية المختلفة ، وأن من يريد أن يجمع « ديوان الصعاليك » عليه أن ينقب بين كل هذه المصادر . وقد لاحظنا على المادة التي جمعناها والتي تكون ديوان الصعاليك ثلاثة أشياء : قلتها ، وكثرة الاضطراب في رواية نصوصها ، ثم الشك الذي يحيط ببعض نصوصها . ورأينا أن مجموعة شعر الصعاليك التي دار حولها الشك نوعان : فمجموعة كان الشك فيها « داخلياً » ، والخطب في هذه المجموعة هين ، ومجموعة كان الشك فيها « خارجياً » ، وأشهر شعر هذه المجموعة لاميتان تنسيان لتأبط شرا والشنفرى ويتم خلف الأحمر بصنعهما ، وقد وقفنا عند هاتين اللاميتين طويلاً ، وانتهينا إلى ترجيح نسبتهما إلى خلف .

ثم مضينا إلى مجموعة شعر الصعاليك فدرسنا موضوعاتها ، ورددنا هذه الموضوعات إلى مجموعتين أساسيتين : مجموعة الشعر داخل دائرة الصعلكة ، ومجموعة الشعر خارج دائرة الصعلكة .

ورأينا أن الشعراء الصعاليك قد تعرضوا في المجموعة الأولى لكل ما كان يلور في حياتهم الفردية أو حياتهم الجماعية ، فتحدثوا عن مغامراتهم ، وعن تربصهم فوق المراقب في انتظار ضحاياهم ، وعن توعدهم أعداءهم وتهديدهم لهم ، وعن أسلحتهم سواء منها أسلحة الهجوم أو أسلحة الدفاع ، وتحدثوا عن رفاقهم الذين رافقوهم في هذه المغامرات ، وتحدثوا عن فرارهم وهربهم ، وعن سرعة عدوهم ، وعن غزواتهم على الخيل ، وعللوا لمغامراتهم ، وفسروا الدوافع التي دفعتهم إليها ، وذكروا العقد النفسية التي كانت سبباً لها ، كما تحدثوا عن آرائهم الاجتماعية والاقتصادية ، وعن تشردهم في أرجاء الصحراء المقفرة ، واتصلهم بحيوان الصحراء ووحشها وأشباحها .

أما المجموعة الأخرى ، مجموعة الشعر خارج دائرة الصعلكة ، فإننا تلمسنا أولاً آثار القبلية فيها ، ولاحظنا أن هذه المجموعة من الشعر القبلي التي تقابلنا في شعر الصعاليك قليلة . كما أن عدد شعرائها قليل أيضاً .

ثم مضينا بعد ذلك إلى المخضرمين من الشعراء الصعاليك فتلمس الآثار

الإسلامية في شعرهم بعد الإسلام . ومن الطبيعي أن موضوعات هذه المجموعة الإسلامية قد خلت من تلك الموضوعات التي عرفناها في شعرهم داخل دائرة الصعلكة ، ومع ذلك فقد رأينا رواسب ضئيلة من الصعلكة تتسرب من حين إلى حين في أثناء هذا الشعر .

ثم مضينا ندرس الظواهر الفنية في شعر الصعاليك ، فلاحظنا أول ملاحظتنا أنه شعر مقطوعات ، وقد ملنا في تحليلنا لهذا إلى طبيعة حياة الصعاليك نفسها ، تلك الحياة القلقة التي لا تكاد تفرغ للفن من حيث هو فن يفرغ صاحبه لتطويله وتجويده . ثم لاحظنا ظاهرة أخرى وهي ظاهرة الوحدة الموضوعية ، ورأينا أن أكثر مقطوعات شعر الصعاليك وقصائده تقبل العناوين ، بل إن مطولاته - برغم تعدد أغراضها - نستطيع أن نردها إلى أصل موضوعي واحد ، فليس التعدد هنا تعدداً في الموضوع ، وإنما هو تفرع في أغراض الموضوع الواحد ، ورأينا مع ذلك أن هناك طائفة قليلة جداً من قصائد شعر الصعاليك لا تخضع لهذه الظاهرة ، وقد رددنا هذا إلى ما سميناه «ظاهرة تقليد الشعراء الصعاليك للشعر القبلي في صورته الشكلية» ، وقلنا إن هذه الظاهرة ليست من الخطر في شيء على الفكرة التي نقرها . ثم لاحظنا أن شعر الصعاليك قد تخلص من المقدمات الطللية التي عرفها الشعر القبلي ، ما عدا تلك المجموعة التقليدية ، ورأينا أن الشعراء الصعاليك استعاضوا عنها بمذهب آخر أطلقنا عليه «مقدمات الفروسية في شعر الصعاليك» . ثم لاحظنا بعد ذلك أن شعر الصعاليك قد تخلص أيضاً من التصريح في مطالع نماذجهم الفنية ، ورأينا أن هذه الظاهرة توشك أن تكون مطردة في كل شعر الصعاليك . ثم لاحظنا بعد ذلك أن مجموعة شعر الصعاليك التي اصطللناها على تسميتها «الشعر داخل دائرة الصعلكة» قد تحلل أصحابها من الشخصية القبلية، وحلت محلها ظاهرة أخرى أطلقنا عليها «ظاهرة الوضوح الفني لشخصية الشاعر الصعلوك» ، وأن هذه الظاهرة كانت ظاهرة شاذة في المجتمع الأدبي الجاهلي فأطلقنا على الشعراء الصعاليك «أصحاب المذهب الشاذ في الشعر الجاهلي» . ثم درسنا

ظاهرة القصصية في شعر الصعاليك ، ورأينا أن الشعراء الصعاليك قد استغلوا في شعرهم كل ما يدور في حياتهم الخافلة بالحوادث المثيرة استغلالاً قصصياً رائعاً ، وانتهينا إلى أن شعر امرئ القيس ليس نقطة البدء في تاريخ القصة الشعرية ، وإنما تسبق هذا مرحلة أولى هي مرحلة الشعراء الصعاليك الذين تميل إلى أن امرأ القيس قد تأثر بهم في فنه ، ومن هنا أطلقنا على الشعراء الصعاليك « رواد القصة الشعرية في الأدب العربي » . ثم وقفنا طويلاً عند الواقعية في شعر الصعاليك ، وبيننا مظاهرها المتعددة . ثم لاحظنا أن شعر الصعاليك يمتاز بالسرعة الفنية ، وأن ميزته الكبرى « خفوت الصنعة الفنية » ، ورأينا أن التشبيه أقوى الألوان الفنية التي اعتمد عليها الشعراء الصعاليك ، ووقفنا طويلاً عند هذه الظاهرة ، فدرسنا المنابع المختلفة التي تكون « صنلوق الأصباغ عند الشعراء الصعاليك » ، وكيف استغلوها ، ورأينا إلى جانب التشبيه ألواناً فنية أخرى من ألوان الصنعة الفنية المتمهلة ، فدرسنا النماذج الفنية التي رأيناها فيها . ثم وقفنا بعد هذا عند الخصائص اللغوية في شعر الصعاليك ، ورأينا أولاً أن لغتهم هي اللغة الأدبية التي عرفها العصر الجاهلي ، غير أننا لاحظنا أنها أقرب إلى فطرة اللغة العربية وأصلق تمثيلاً لها ، ولاحظنا كثرة الغريب في شعرهم . ثم وقفنا أخيراً عند الظواهر العروضية في شعرهم ، ورأينا أن أوزان شعرهم وزحافات هي الأوزان والزحافات التي عرفها سائر الشعر الجاهلي ، غير أننا لاحظنا انتشار الرجز في شعرهم الذي قالوه قبيل مصادرهم .

ثم وقفنا بعد ذلك عند شخصيتين متميزتين من الشعراء الصعاليك تميزاً اجتماعياً وفنياً: عروة بن الورد الذي يمثل شخصية الصعلوك صاحب المذهب الإنساني ، أو شخصية الزعيم الذي يدعو الجماهير إلى الإيمان بمذهبه ، والشنفرى الذي يمثل شخصية الصعلوك المتمرد الذي رأى أن يكون تمرد الوصيلة والغاية معاً .

وبعد ، فهذه هي ظاهرة الصعلكة في المجتمع الجاهلي كما رأيناها في شخصيات صعاليكه ، وهذه هي دراستنا الفنية لما بين أيدينا من شعرهم .

والله ولي التوفيق .

المصادر والمراجع

آثرت الاكتفاء بذكر المصادر والمراجع الأساسية ، أما الفرعية فقد رأيت من التزيد تسجيلها في هذا الثبت بعد أن وردت في هوامش البحث ، كما آثرت عدم ذكر المعجمات اللغوية - على كثرة ما رجعت إليها - لأنها عامل مشترك في كل الأبحاث الأدبية ، وإن كنت أحب أن أشير إلى أن « لسان العرب » لم يكن بالنسبة لي معجماً لغوياً فحسب ، وإنما كان أيضاً - لكثرة ما يضمه من أبيات للشعراء الصعاليك - مصدراً أدبياً كبير الأهمية لشعرهم .

• • •

١ - المصادر القديمة

- ١ - الآمدى : المؤلف والمختلف (القدس بالقاهرة ١٣٥٤ هـ) .
- ٢ - ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر (العثمانية بالقاهرة ١٣١١ هـ) .
- ٣ - ابن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة (الوهية بالقاهرة ١٢٨٠ هـ) .
- ٤ - أسامة بن منقذ : لباب الآداب (الرحمانية بالقاهرة ١٩٣٥) .
- ٥ - الأصفهاني (أبو الفرج) : الأغاني :
من الجزء الأول إلى الجزء التاسع (طبعة دار الكتب المصرية) .
ومن الجزء الرابع عشر إلى الجزء العشرين (طبعة بولاق) .
والجزء الحادى والعشرون (طبعة لندن) .
أما الأجزاء من العاشر إلى الثالث عشر فنظراً لتداخل مواضع التراجع بها بين طبعة دار الكتب وطبعة بولاق رأيت أن أشير إلى الطبعة في هوامش البحث .
- ٦ - الأصمعى : فحولة الشعراء (مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٤٥
تيمورية أدب) .

- ٧ - ابن الأنبارى : شرح المفضليات (بيروت ١٩٢٠) .
- ٨ - ابن الأنبارى : نزهة الألبا فى طبقات الأدبا (حجر بالقاهرة ١٢٩٤ هـ) .
- ٩ - البحتري : كتاب الحماسة (القاهرة ١٩٢٩) .
- ١٠ - البصرى (على بن الفرّج) : الحماسة البصرية (نسختان بدار الكتب المصرية : مخطوطة تحت رقم ٥٢٠ - أدب ، ومصورة تحت رقم ٦٣٠٠ - أدب) .
- ١١ - البغدادي : خزانة الأدب (بولاق) .
- ١٢ - البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥)
- ١٣ - البيهقي : المحاسن والمساوى (الطبعة الأوربية ١٩٠٢)
- ١٤ - التبريزي : شرح حماسة أبي تمام (بولاق ١٢٩٦ هـ) .
- ١٥ - التبريزي : شرح القصائد العشر (المنيرية بالقاهرة ١٣٥٢ هـ)
- ١٦ - أبو تمام : الحماسة الصغرى « الوحشيات » (نسخة مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٢٩٧ - أدب) .
- ١٧ - الثعالبي : كتاب الشعراء (مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٢٨١ - تاريخ) .
- ١٨ - الجاحظ : الحيوان (الحلبي بالقاهرة - الطبعة الأولى) .
- ١٩ - الجاحظ : البيان والتبيين (الطبعة الثانية بالقاهرة ١٩٣٢) .
- ٢٠ - الجاحظ : رسائله (القاهرة ١٩٣٣) .
- ٢١ - حاتم الطائي : ديوانه (لندن ١٨٧٢)
- ٢٢ - ابن حبيب : من نسب إلى أمه من الشعراء (مجلة المقتطف عدد مايو ١٩٤٥)
- ٢٣ - ابن حبيب : كتاب المغتالين (نسختان بدار الكتب المصرية : خطية تحت رقم ٥٧ ش أدب ، ومصورة تحت رقم ٢٦٥٦ تاريخ) .
- ٢٤ - ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة (السعادة بالقاهرة ١٣٢٣ هـ) .
- ٢٥ - حسان بن ثابت : ديوانه (السعادة بالقاهرة ١٣٣١ هـ) .

- ٢٦- الخالديان : الأشباه والنظائر « حماستهما » (مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٦٢ تيمورية شعر) .
- ٢٧- ابن خلدون : المقدمة (التجارية بالقاهرة بدون تاريخ)
- ٢٨- ابن خلدون : تاريخه (القاهرة ١٩٣٦) .
- ٢٩- ابن دريد : جمهرة اللغة (حيدر آباد الدكن ١٣٤٤ هـ)
- ٣٠- ابن دريد : الاشتقاق (جوتنجن ١٨٥٤)
- ٣١- الدبلي : الفلاكة والمفلوكون (الشعب بالقاهرة ١٣٢٢ هـ)
- ٣٢- الدميرى : حياة الحيوان الكبرى (الشرفية بالقاهرة ١٣١٣ هـ)
- ٣٣- الزمخشري : أعجب العجب في شرح لامية العرب (الطبعة الأولى بالجواثب ١٣٠٠ هـ)
- ٣٤- الزمخشري : الفائق في غريب الحديث (حيدر آباد الدكن ١٣٢٤ هـ)
- ٣٥- الزمخشري : الكشف (الطبعة الثانية ببلاق ١٣١٨ هـ)
- ٣٦- السجستاني : كتاب المعمرين (لندن)
- ٣٧- السكري : شرح أشعار الهذليين (لندن ١٨٥٤)
- ٣٨- السكري : ديوان الهذليين (دار الكتب المصرية ١٩٤٨)
- ٣٩- ابن السكيت : شرح ديوان عروة بن الورد (الجزائر ١٩٢٦)
- ٤٠- السهيلي : الروض الأنف (الجمالية بالقاهرة ١٩١٤)
- ٤١- السيوطي : المزهر (القاهرة ١٣٢٥ هـ) .
- ٤٢- ابن الشجري : كتاب الحماسة (حيدر آباد الدكن ١٣٤٥ هـ)
- ٤٣- الشنفرى : ديوانه (نسختان : مطبوعة في مجموعة الطرائف الأدبية بلجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧ - ومصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٦٧٦ - أدب) .
- ٤٤- الطبرى : تاريخه (الحسينية بالقاهرة) .
- ٤٥- ابن عبد ربه : العقد الفريد (لجنة التأليف والترجمة والنشر)
- ٤٦- أبو عبيدة : شرح نقائص جرير والفرزدق (لندن ١٩٠٥) .

- ٤٧ - العيني : شرح الشواهد الكبرى (على هامش خزانة الأدب للبغدادى بولاق) .
- ٤٨ - ابن فارس : مقاييس اللغة (الطبعة الأولى بالقاهرة)
- ٤٩ - الثعالى : الأمالى والنوادر (دار الكتب المصرية ١٩٢٦) .
- ٥٠ - ابن قتيبة : الشعر والشعراء (لندن ١٩٠٢) .
- ٥١ - ابن قتيبة : المعارف (الإسلامية بالقاهرة ١٩٣٤) .
- ٥٢ - ابن قتيبة : عيون الأخبار (دار الكتب المصرية ١٩٢٥) .
- ٥٣ - القرشى (أبو زيد) : جمهرة أشعار العرب (بولاق ١٣٠٨ هـ) .
- ٥٤ - ابن الكلبي : كتاب الأصنام (دار الكتب المصرية ١٩٢٤) .
- ٥٥ - ابن المبارك : منتهى الطلب من أشعار العرب (مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٣ ش) .
- ٥٦ - المبرد : الكامل (ليزج ١٨٧٤) .
- ٥٧ - المرزبانى : معجم الشعراء (القدس بالقاهرة ١٣٥٤ هـ) .
- ٥٨ - المسعودى : مروج الذهب (البنية بالقاهرة ١٣٤٦ هـ) .
- ٥٩ - المعرى : شرح حماسة أبي تمام (مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٠٨ - أدب) .
- ٦٠ - الميدانى : مجمع الأمثال (بولاق ١٢٨٤ هـ) .
- ٦١ - النيسابورى : لطائف المعارف (مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٢٩٢ - أدب) .
- ٦٢ - الهمداني : صفة جزيرة العرب (لندن ١٨٨٤) .
- ٦٣ - الواقدي : كتاب المغازى (كلكتة ١٨٥٥) .
- ٦٤ - ياقوت : معجم البلدان (القاهرة ١٩٠٦)
- ٦٥ - ياقوت : معجم الأدباء (دار المأمون بالقاهرة) .
- ٦٦ - اليعقوبى : تاريخه (لندن ١٨٨٣) .

٢ - المراجع الحديثة

(أ) العربية :

- ٦٧ - أحمد أمين : فجر الإسلام (الطبعة الثالثة بلجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٥) .
- ٦٨ - أحمد الشايب : تاريخ الشعر السياسي (الطبعة الأولى بالقاهرة ١٩٤٥) .
- ٦٩ - بندلي جوزي : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام (بيت المقدس) .
- ٧٠ - جرجي زيدان : العرب قبل الإسلام (القاهرة ١٩٠٨) .
- ٧١ - جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية (القاهرة) .
- ٧٢ - جرجي زيدان : تاريخ تمدن الإسلام (القاهرة ١٩٠٥) .
- ٧٣ - سليمان حزين : تقريره عن بعثة الجامعة المصرية إلى اليمن وحضرموت ١٩٣٦ (مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الرابع ، الجزء الثاني ، ديسمبر ١٩٣٦) .
- ٧٤ - عبد الوهاب حمودة : نظرية الأنساب في الميزان (مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الرابع عشر ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٢) .

(ب) المترجمة إلى العربية :

- ٧٥ - لوبون (جوستاف) : حضارة العرب (ترجمة محمد عادل زعير ، القاهرة ١٩٤٥) .
- ٧٦ - ميرز (ج . ل .) : المناخ والجغرافيا وأثرهما في التاريخ (في موسوعة تاريخ العالم لجون هامرتن ، ترجمة إدارة الترجمة بوزارة التربية والتعليم ، القاهرة ١٩٤٩) .
- ٧٧ - ولكن (ج . ا .) : الأمم عند العرب (ترجمة بندلي صليبا الجوزي - كازان ١٩٠٢) .

(٢) في اللغات الأجنبية :

78. Dermenghem (Emile); *The Life of Mahomet*, (London, 1930)
79. Doughty; *Travels in Arabia Deserta*, (London, 1930.)
80. Fresnel; *Lettres sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme*, (Paris, 1836).
81. Groves (Ernest R.); *Personality and Social Adjustment*, (U.S.A., 1931.)
82. Huzayyin (S.); *Changement historique du climat et du paysage de l'Arabie du Sud*, (Bulletin of the Faculty of Arts, Vol. III, Part I, May 1935.)
83. Lammens (Henri); *Le Berceau de l'Islam*, (Rome, 1914).
84. Lammens (Henri); *La Mecque à la veille de l'Hégire*, (Beyrouth, 1927).
85. Mac Iver; *Society*, (New York, 1944).
86. Muir (Sir William); *The Life of Mohammad*, (Edinburg, 1912).
87. Nicholson (Reynold A.); *A Literary History of the Arabs*, (London, 1923).
88. O'Leary (De Lacy); *Arabia before Muhammad*, (London, 1927).
89. Sédillot; *Histoire Générale des Arabes* (Paris, 1877).
90. Semple (Ellen Churchill); *Influences of Geographic Environment*, (London, 1937).
91. Smith (W. Robertson); *Kinship and Marriage in Early Arabia*, (London, 1903).
92. Zwemer; *Arabia, the Cradle of Islam*, (U.S.A., 1912).

هذا إلى جانب انتفاعي بدائرة المعارف الإسلامية :

The Encyclopaedia of Islam

وبكتاب بركلمان :

Brockelmann; Geschichte der Arabischer Literatur.

الفهرس

صفحة	
٩ - ٧	مقدمة الطبعة الثانية
١٧ - ١١	مقدمة الطبعة الأولى
	الباب الأول : الصعاليك
٦١ - ٢١	الفصل الأول : التعريف بالصعلكة
٢١	١ - في اللغة
٢٤	٢ - في الاستعمال الأدبي
٢٨	٣ - في المجتمع الجاهلي
٨٨ - ٦٣	الفصل الثاني : التفسير الجغرافي لظاهرة الصعلكة
٦٣	١ - أهمية العامل الجغرافي
٦٣	٢ - جزيرة العرب
٧٢	٣ - التضاد الجغرافي وأثره في نشأة حركة الصعاليك
٧٧	٤ - التضاد الجغرافي وأثره في توجيه حركات الصعاليك
١٢١ - ٨٩	الفصل الثالث : التفسير الاجتماعي لظاهرة الصعلكة
٨٩	١ - القبيلة
٩١	٢ - إيمان القبيلة بوحدةها
١٠٣	٣ - إيمان القبيلة بجمعتها
١١٦	٤ - الصعاليك والمجتمع القبلي
١٥٠ - ١٢٣	الفصل الرابع : التفسير الاقتصادي لظاهرة الصعلكة
١٢٣	١ - العرب والتجارة
١٢٥	٢ - الطرق التجارية
١٢٨	٣ - الأسواق
١٣٤	٤ - الصراع الاقتصادي في المدن التجارية
١٣٨	٥ - الصراع الاقتصادي في البادية
	الباب الثاني : شعر الصعاليك
١٨١ - ١٥٣	الفصل الأول : ديوان الصعاليك
١٥٣	١ - مصادره
١٦٩	٢ - مادته
٢٥٨ - ١٨٢	الفصل الثاني : موضوعات شعر الصعاليك

١ - الشعر داخل دائرة الصلابة	١
أحاديث المغامرات	١
شعر المراقب	١
التوعد والتهديد	١
وصف الأسلحة	١
الحديث عن الرقاق	١
أحاديث الفرار	١
سرعة العدو	١
الغزوات على الخيل	١٧
الآراء الاجتماعية والاقتصادية	٢٩
أحاديث التشرد	٤٠
٢ - الشعر خارج دائرة الصلابة	٤٨
آثار القبلىة فى شعرهم	٤٨
المجموعة الإسلامية فى شعرهم	١٥٢
الفصل الثالث : الظواهر الفنية فى شعر الصعاليك	٢٥٩ - ٢٦٩
١ - شعر مقطوعات	٢٥٩
٢ - الوحدة الموضوعية	٢٦٤
٣ - التخلص من المقدمات الطللية	٢٦٨
٤ - عدم الحرص على التصريح	٢٧٤
٥ - التحلل من الشخصية القبلىة	٢٧٦
٦ - القصصية	٢٧٨
٧ - الواقعية	٢٨٢
٨ - السرعة الفنية	٢٩١
٩ - آثار من الصنعة المتأنية	٣٠٧
١٠ - الخصائص الفنية	٣١٢
١١ - ظواهر عروضية	٣١٦
الفصل الرابع : شخصيتان متميزتان	٣٢٠ - ٣٣٨
١ - تشابه وتميز	٣٢٠
٢ - صروة بن الورد	٣٢٢
٣ - الشنفرى	٣٣٠
الخاتمة	٣٣٩ - ٣٤٤
المصادر والمراجع	٣٤٥ - ٣٥٠

رقم الإيداع	١٩٧٨/٣٤٤٠
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٢٤٧-٣١٤-٣

الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي

فوق رمال البادية الحرة الأبية، وفي أعماقها الغامضة الرهيبة، عاش صعاليك العرب في العصر الجاهلي، عصابات من خلعاء القبائل وشذاذها، وأغربتها السود، وفقرائها المتمردين، يجمع بينها الفقر، والتشرد، والتمرد على النظام القبلي، والإيمان بأن الحق للقوة، في محاولة عنيفة نائرة لتحقيق صورة من العدالة الاجتماعية، والتوازن الاقتصادي.

من هؤلاء الصعاليك نبغ جماعة من الشعراء، اتخذوا من شعرهم وسيلة لإعلان فلسفتهم الاجتماعية والاقتصادية، وتصوير حياتهم بكل ما يدور فيها من بطولة ومغامرة وتمرد، وطلعوا على مجتمعهم بلون من الشعر تحللوا فيه من الشخصية القبلية، وأحلوا محلها شخصياتهم الفردية، فجاء شعرهم جديداً في أفكاره ومعانيه وطرائقه في التعبير والتصوير.